الفتوحات الإلهية

المجلد الثاني

شرح الأسماء الحسنى للذات العلية

المنان - العزيز - الشاكر والشكور - السميع العفو - القابض الباسط



فضيلة الشيخ

د / محمد الدبيسي

حفظه الله وغفر له

الفُتُوحَاتُ الإِلَهِيَّةُ

شرح الأسماء الحسنى للذات العلية

(المجلد الثاني)

المنان - العزيز - الشاكر والشكور- السميع

العفو- القابض الباسط

فضيلة الشيخ/ د. محمد الدبيسي

حفظه الله وغفر له ولوالديه

الطبعة الأولى

شعبان ١٤٣٦ هـ / يونيو ٢٠١٥ م

رقم الإيداع : ١٣٤٩ / ٢٠١٥

الناشر
زمزم للطباعة والنشر
إدارة : محمد زمزم ت : ٠١٠٠٥١٦٠٧٩٣

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ [النساء:١]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي، هدي محمد ﷺ، وشر الأمور مُحدثاتها، وكل مُحدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

اللهم صل على سيدنا محمد النبي، وأزواجه أمهات المؤمنين، وذريته وأهل بيته، كما صليت على آل إبراهيم إنك حميدٌ مجيد.

لما كانت قضية التعبد لله تبارك وتعالى هي أهم القضايا في حياة المرء، كما قال:﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، كان من الأهمية بمكان أن يجتهد المجتهدون ويعمل العاملون ويتنافس المتنافسون في مضمار الوصول إلى الله تعالى؛ ليتحققوا بتلك العبودية، وليوحدوا ربهم، ويدعوه ويتعلقوا به ويتنعموا بالقرب منه ﷻ في الدنيا والآخرة.

ولقد امتن الله ﷻ على خلقه بأن أرشدهم إلى طريق الوصول إليه والتعبد له، وكان من أفضل أنواع التعبد إلى الله تعالى، ومن أيسر الطرق الموصلة إليه ﷻ وأحسنها، بل هو أحسنها

على الإطلاق: أن يتعبد المرء ربه ﷻ بأسمائه الحسنى وصفاته العليا كما قال:﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف : ١٨٠]، فهو أفضل الطرق وأقصرها إلى الله تعالى، ومن لم يسر في هذا الطريق لم يسر في العبودية المطلوبة لله تعالى.

فمدار فلاح المرء وسعادته موقوف على معرفته بأسماء الله تعالى وصفاته، وعلى سيره في طريق التعبد لله تعالى بهذه الأسماء الحسنى، وذلك لأن العبد إذا لم يعرف ربه بأسمائه الحسنى فكيف يدعوه؟ وكيف يوحده ويفرده بالعبادة، ويرفع إليه ﷻ حوائجه؟

لذلك نتكلم في هذه الرسالة برحمة الله تعالى وفضله على شرح الأسماء الحسنى لله تعالى، وما ينبغي أن يتعلم المرء منها من توحيد الله تعالى ودعائه بها، والثناء عليه بهذه الأسماء، وذلك لأن المرء إذا علم عظمة هذه الأسماء وخطرها ورفعة شأنها، تعلم كيف يحب ربه سبحانه وتعالى، وتعلم كيف يأخذ حظه من أسماء الله تعالى، فيتصف المرء بما يليق بالإنسان من صفات الله تعالى.

إن الله تعالى يحب أن تظهر آثار أسمائه في خلقه، فيحب أن يظهر آثار اسمه الغفور؛ فجعل الناس يذنبون، فيستغفرون فيغفر لهم، حينئذ تظهر آثار أسماء الله تعالى الغفور والغفار، ومثل ذلك في التوبة؛ فتظهر آثار اسمه التواب بأن يتوب على عباده، وكذلك آثار الرزاق؛ بأن يرزق عباده، وآثار الجود والكرم؛ بأن يتكرم عليهم، وهكذا في كل الأسماء الحسنى، فإذا تعلم العبد هذه الأسماء وأخذ حظه منها ودعا بها ربه كان ذلك سببًا في محبة الرب -جل وعلا- لعبده وتقريبه له، وأن تظهر على المرء آثار هذه الأسماء الحسنى.

وأهمية هذه الآثار تكمن في أمرين:

الأول: أن آثار أسماء الله الحسنى لها مواضع تظهر فيها، وإنما أول ما تظهر، تظهر على قلب العبد، فكلما أخذ العبد بحظ وافر منها فإنه يضع دواء الرب ﷻ على داء قلبه، وظهر عليه أثر الاسم بأكثر مما يتخيل أو ينتظر.

الثاني: أن آثار أسماء الله الحسنى، هي ثمرة كل علوم الإسلام، وهي التي يستغني بها المرء، فإذا ما اطلع على معانيها وفكّر فيها، وجاهد نفسه على أخذ حظه منها: تنزلت عليه بركاتها، وكان في أعلى الدرجات من ولاية الله تعالى.

ولا يخبرنا عن الأسماء الحسنى تلك الأخبار التي تزيد المرء علما وتوحيدا ومحبة ومعرفة بالله، وعملا وسلوكا، إلا الله سبحانه وتعالى، ورسوله صلى الله عليه وآله سلم ومن ثم كان اتجاهنا إلى القرآن الكريم؛ لنستجلي منه ما تحدث به عن كل اسم من هذه الأسماء الحسنى المباركة لله تعالى، بحيث نتضرع إلى الله تعالى أن يفهمنا كيف ذكر هذا الاسم المبارك، وبينه لنا، وبيّن المقصود والمراد، ووضح خلال ذلك كله ما ينبغي على المؤمن أن يأخذ منه اتصالا بالله، وحظا من معرفة ربه، وإقبالا على الاتصاف بهذه الصفات التي وصف الله تعالى بها نفسه، وكذلك هذه الصفات التي يحب الله تعالى لعباده أن يأخذوا بحظهم منها، سواء في أنفسهم أو فيما يتعلق بالمسلمين أو بغيرهم، على حسب ما ترشدنا إليه هذه الآيات.

وهذه مهمة من المهمات العظيمة، التي تبين لنا جلال القرآن، الذي ينبني عليه الإعجاز، وينبني عليه تلك الأهداف التي بينتها هذه الآيات، من معرفة الله ومحبته وغير ذلك؛ إذ ذلك يشمل الدين كله، وهي من أعظم المسائل التي ينبغي أن ينصرف إليها همُّ المؤمنين ، ويعودون بسببها إلى القرآن، إلى الوحي المشرف الذي ينير الطريق، وينير القلب، ويشرح الصدر، ويرفع الهمة، ويأخذ المرء إلى الله تعالى، قويا إليه، عزيزا به، راكنا إلى الله، مستغنيا بالله، مفتقرا إلى الله تعالى لا إلى غيره، وأن يصحح بها العمل وأن يزيد بها من التعبد والمعرفة بالله سبحانه وتعالى ، وأن ترتفع بها حياة القلب وإيمانه وروحه، التي تكون سببًا إلى أن ينقلب المرء خلقًا جديدًا مع الله تعالى، إذا به يمشي على هذه الأرض بهذه الأسماء متصفًا بها، عاملا بها، آخذًا منها بحظه الذي قدره الله له، وكذلك بحظه الذي يتعامل فيه مع الخلق، تنتشر بذلك دعوة النور، وترتفع راية الإسلام، ويسير الناس كما يحب الله لهم، ويكونون حينئذ جندًا للإسلام، ينصرهم الله جل وعلا ويؤيدهم ويحفظهم، على حسب هذه الأسماء الحسنى، فهو النصير والناصر والحفيظ سبحانه وتعالى، وهو المجيب الكريم، الوهاب، وكلما أخذ المرء بحظه من معاني أسماء الله تعالى انتقل إليه هذه المعاني التي تصلح من نفسه، وقلبه، وعمله، وتثبت قدمه إلى الله تعالى، وتنير طريقه، وتقوي قلبه، فلا يتردد ولا يتأخر، ولا يتقهقر في السير إلى الله، ولا يسير شيئا ويرجع شيئا، بل تأخذه هذه الأسماء بقوة إلى الله تعالى.

والوصول إلى هذا الحال إنما يتحقق بأمرين:

الأول: التضرع إلى الله والافتقار إليه أن يفهمه في كلامه، وأن يرزقه العلم عن الله تعالى، وهذا لا يكون إلا بسلامة القلب، وسلامة القلب متفاوتة، كلما زادت السلامة حلت على هذا القلب تلك الأنوار من معاني أسمائه.

الثاني: هو السعي والكسب، يعني: مطالعة القرآن وإدمانه، والنظر فيه، والتدبر، والتفكر؛ حتى يفتح الله تعالى على المرء، والله تعالى عندما يفتح على من يشاء ولكن الداخل في المشيئة لا شك قد بذل ما يستحق به بفضل الله تعالى، لا ببذله، لأنه مهما بذل فإنه لم يبذل شيئا لمعرفة الله تعالى.

ومنهجنا الذي نسير عليه في شرح الأسماء الحسنى، هو أن نبدأ بشرح المعنى اللغوي للاسم، ثم معنى الاسم في حق الله تعالى ثم نقصد إلى كتاب الله تعالى، وننظر فيه المواضع التي ذكر فيها الاسم المشرف، ثم نجمع هذه الآيات ونرتبها - بفضل الله تعالى - الترتيب الذي يبين تكامل عن هذا الاسم في كلام الله؛ إذ لا يعطيك ولا ينبئك عن اسم الله تعالى إلا الله، فكان الكلام في القرآن الكريم في أي اسم من أسماء الله تعالى إنما هو من المتصف به جل جلاله، الذي ينبئك أعظم الإنباء، ويخبرك أتم الخبر عن هذا الاسم، بما يكون سببا لنجاتك، على قدر ما تفوز به من ذلك في الدنيا والآخرة، كما قال صلى الله عليه وسلم: **"من أحصاها دخل الجنة "** [1].

ثم نعطي تفسيرًا إجماليًا لهذه المواضع من هذا الاسم في كلام الله تعالى، وبعد ذلك نفصل شيئًا من هذه الآيات ليعطينا صورة واضحة بقدر الإمكان. لا نتوسع فيها التوسع الذي ينقل من الأسماء الحسنى إلى التفسير، بل نتكلم فيما يتعلق بهذه الآيات في كلام الله بما يفيد معاني الأسماء الحسنى.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٣٥٤/٥ ، رقم ٦٠٤٧) ، ومسلم (٢٠٦٢/٤ ، رقم ٢٦٧٧) ، ولفظه (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ).

وغرضنا من ذلك أن يتعلم المرء جمال القرآن وكماله وإعجازه، وأن يقبل عليه بالمحبة؛ لأن القرآن إنما نزل لهداية البشر إلى الله تعالى؛ لذلك لم يترك شيئًا يقربهم إليه ﷻ ويحببهم فيه إلا ووضعه في هذا القرآن الكريم. كما قال عنه سبحانه: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٢]. فيعلم المداخل لهذه المعاني المحترمة في كلام الله تعالى، المعظمة في ما قرر الله تعالى على المؤمنين من معرفته ومحبته، واليقين عليه وحسن التوكل عليه سبحانه وتعالى.

وبعد:

فما كان من صواب فمن الله، وما كان من خطأ فمنا ومن الشيطان، والله ورسوله منه بريئان، ورحم الله امرأ أهدى إلينا عيوبنا.

نسأل الله تعالى أن ينفع به قائله وكاتبه وناشره والناظر فيه؛ إنه سميع الدعاء.

مسجد

الهدي المحمدي

شعبان ١٤٣٦ هـ

الفصل الأول:

المنان سبحانه وتعالى

أولًا: المعنى اللغوي للمنان

والسبب في الإشارة للمعني اللغوية هو ربط المعاني الموجودة في اللغة بتلك المعاني في حق الله تعالى، فإذا ما حفظت هذه المعاني التي وردت في معنى المن: وجدت أحسن الحسن فيها هو المنسوب إلى الله تعالى.

المعنى اللغوي[1] الأول: منَّ عليه، يَمُنُّ منًّا، يعني: أحسن وأنعم. فيكون معنى أحسن وأنعم في حق الله ﷻ: أن الله –تعالى- أحسن للمرء أعظم الإحسان، وأنعم عليه أجمل الإنعام. ويكون حظك من ناحية أن تأخذ من هذا الإنعام والإحسان، ومن ناحية ثانية أن تتشبه بصفات الرب؛ فتكون من المنعمين المحسنين كما هي عادة الرب مع عباده ﷻ.

والاسم من المن: المِنَّة وهي العطية، والمَنُّ أي: العطاء، فيكون المعنى في أحسن وأنعم: أحسن وأنعم بأحسن العطاء.

والمعنى الثاني: مَنَّ عليه، يعني: قَرَّعَهُ بمنّته، وهذا هو المعنى المذموم، يعني: أخذ يعدد له العطاء الذي أعطى، والنعم التي أنعم عليه بها، ويَمُن عليه إذا أعطاه الصدقة، أو قضى له مصلحة، أو ذهب له في حاجة، أو وقف إلى جواره في سراء أو في ضراء، فيقول: قد وقفت، وقد أعطيت، وقد فعلت لك كذا وكذا، نسيت كل هذا ؟

والمِنَّة تهدم الصنيعة فتقريع المرء بالعطية يهدمها ، والصنيعة: أن تصنع له فعلاً يكون لك يد عنده به، وإذا ما مننت عليه بهذه الصنيعة (العطاء، النعمة) فإنك تهدم ذلك. والمَنُّ: القطع أو النقص كما في قوله تعالى: ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [فصلت : ٨] يعني: لا منقوص، ولا مقطوع.

أما الاسم المَنُّ، وهو الوارد في قوله ﷻ: ﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴾ [البقرة : ٥٧]، وهو شيء حلو كالترنجبين، يعني: ثمرة الكمأة التي تنبت في الصحراء، والتي منها شفاء العين

---

(١) بتصرف من كتاب "الأسنى في شرح الأسماء الحسنى" للقرطبي.

كما ذكر النبي ﷺ في الحديث:«**الكمأة من المنّ**»[1] وهو حديث يستخدم في الطب النبوي، فخلاصة هذه الكمأة تستعمل كقطرة للعين وتكون سببًا لشفائها.

وهناك لفظة جديدة وهي المُنّة بالضم ومعناها: القوة، فمعنى: لا مُنة له ولا منعة يعني: لا قوة له ولا اعتصام بأحد يمنعه.

ثانيًا: المنان في حق الله تعالى

لم يرد اسم المنان في كتاب الله تعالى، وإن كان ورد بصيغة الفعل في آيات كثيرة، وإنما دليل هذا الاسم المعظم إنما هو من سنة النبي ﷺ، وكلاهما- القرآن والسنة - وحيٌ واحد إلى النبي ﷺ.

ففي الحديث الصحيح الذي رواه أنس -رضي الله عنه- قال:« **كنت جالسًا مع النبي ﷺ في المسجد ورجل يصلي: ثم دعا: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت الحنان المنان، بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم. فقال النبي ﷺ: لقد دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى**»[2].

وورد في التنزيل فعلاً، وهو: « منَّ » ومشتقاته المتعلقة بالله تعالى، ولم يرد اسمًا. فقال تعالى:﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، والثانية: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [الحجرات: ١٧].

---

[1] – الحديث رواه البخاري في صحيحه (٤٤٧٨) ومسلم (٢٠٤٩) كلاهما يرويه من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه، ولفظه: (عَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ، عَنْ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَ: «الْكَمْأَةُ مِنْ الْمَنِّ، وَمَاؤُهَا شِفَاءُ الْعَيْنِ»).

[2] – الحديث رواه أبو داود (١٤٩٥) والترمذي (٣٥٤٤) والنسائي (١٣٠٠) والحاكم في المستدرك (٦٨٣/١) حديث (١٨٥٦) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وابن حبان في صحيحه (١٧٥/٣) حديث (٨٩٣) وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده قوي.

والثالثة قوله ﷻ: ﴿ فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴾ [النساء: ٩٤]. وورد في آيات أخرى كثيرة سنشير إليها بإذنه تعالى.

ويرجع المنان إذا كان مأخوذًا من المنّ الذي هو العطاء إلى أوصاف فعله، ويرجع المنان إذا أخذته من المِنة التي هي تعداد النعم والافتخار بها بفعلها إلى صفة كلامه ﷻ.

قال الزجاجي: المنان: فَعّال من قولك: مننت على فلان إذا اصطنعت عنده صنيعًا وأحسنت إليه. والله ﷻ منان على عباده بالإحسان والإنعام والرزق لهم، وفلان يمنّ على فلان إذا كان يعطيه ويحسن إليه. قال الخطابي: وأما المنان فهو كثير العطاء، وقال الحَليمي: ومنها المنان، وهو عظيم المواهب ﷻ: فإنه أعطى الحياة والعقل والنطق، وصور فأحسن الصور، وأنعم فأجزل، وأثنى النعم، وأكثر العطايا والمنح، قال تعالى -وقوله الحق-: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وهذا المعنى الأخير به قضية مهمة، وهي تعديد منن الله على المرء وإنعامه عليه وعطاياه الواصلة إليه، وعظمة ذلك كله عليه: ليعلم أنه محاط من قبل أن يولد وبعد أن ولد إلى أن ينتقل إلى الله، ويرزق الحياة مع النبيين والصديقين، كل ذلك قد أحيط فيه بنعمة الله ومنته ﷻ، وبعطاياه ومواهبه العظيمة وإحسانه ورزقه ﷻ، وانظر إليك بغير عقل ماذا تكون؟ بغير حياة ماذا تكون؟ بغير نطق ماذا تكون؟ أليس قادرًا على أن يحرمك النطق؟ أليس قادرًا على أن يحرمك الحياة؟ أليس قادرًا على أن يحرمك العقل؟

قال الأنباري: وفي أسماء الله –تعالى- الحنان المنان، يعني: الذي ينعم غير فاخر بالإنعام، وقال في موضع آخر في شرح المنان معناه: المعطي ابتداءً، ولله المنة على عباده، ولا منة لأحد منهم عليه، تعالى الله علوًّا كبيرًا، ولما كان الباري ﷻ يدرّ العطاء على عباده منًّا عليهم بذلك وتفضلاً كانت له المنة في ذلك. وكثيرًا ما يرد المن في كلام العلماء بمعنى الإحسان إلى من لا

يستثيبه ولا يطلب الجزاء عليه، ومعنى لا يستثيبه: لا يطلب منه ثوابًا [1]، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [ص: ٣٩].

ومن أمثلة المن المحمود بأن يكون عطاء المرء لوجه الله تعالى، لا لنيل عوض من الدنيا، قوله ﷺ: «إن من أمنّ الناس علي في صحبته وماله أبو بكر» [2] حتى أن أبا بكر -رضي الله عنه- بكى وقال: أبو بكر وماله وأهله وولده فداء للنبي ﷺ.

---

[1] – وقد ذكر القرطبي قصة توضح هذا المعنى، يقول: روي عن بعض العقلاء من الكرماء أنه أتى الجُنيد – رحمه الله تعالى– (وهو: الجنيد بن محمد بن الجنيد النهاوندي ثم البغدادي، إمام في الزهد والورع والعبادة، وكان صاحب علم وعمل، من المتكلمين الفصحاء، توفي سنة (٢٩٧) هـ) بمائة دينار –وهذه أيامها كانت كثيرة– فقال: أنفقها على نفسك، فقال: إن في بعضها كفاية، يعني: لو أخذت ثلاثة أو أربعة دنانير يكفي، وظني أن يمتحنه ليرى أنه ممن يؤخذ منه ولا يمُن أو لا؟ فقال: يا شيخ ما أعطيتكها لتنفقها على الخل والبَقْل– هذه الأمور التي يأكلها الزاهدون في الدنيا – وإنما لتأكل بها الطيبات من الأطعمة، وإني لأرجو أن يكون أخذها أفضل من ردها، لما توصل إلى قلبي من الراحة، وتقلدني –تضع في رقبتي– بذلك المنة أن قبلتها مني، فقبلها – الجنيد ولم يكن يأخذ من أحد شيئًا البتة — وقال له: من مثلك يؤخذ، وأنشده:

إذا تكرمت لا تمنن به أبدًا   لا خير في كرم من عند منان

فلما كان أخذها عند المعطي أفضل من أن ترد، لما يكون له بها عند الله من الدرجة والثواب مهما كانت قيمتها، قبلها منه الجنيد.

[2] – الحديث رواه البخاري في صحيحه (٤٦٦) ومسلم (٢٣٨٢) كلاهما يرويه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ولفظه: (عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: خَطَبَ النَّبِيُّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ خَيَّرَ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فَاخْتَارَ ما عِنْدَ اللَّهِ، فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: مَا يُبْكِي هَذَا الشَّيْخَ إِنْ يَكُنْ اللَّهُ خَيَّرَ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ اللَّهِ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– هُوَ الْعَبْدَ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ أَعْلَمَنَا. قَالَ: «يَا أَبَا بَكْرٍ لَا تَبْكِ إِنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبُو بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلاً مِنْ أُمَّتِي لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الْإِسْلَامِ ومودّتُهُ، لا يبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِد بابٌ إِلَّا سُدَّ إِلَّا بَابُ أَبِي بَكْرٍ»).

والمعنى الثاني للمِنّة في حق الله تعالى: التفاخر بالعطية على المعطى، وتعديد ما عليه، والمعنيان حق صحيحان في الله تعالى، سواء أعطى، أو مَنَّ على عباده، فله المنة عليهم.

أما العبد فليس له إلا أن يعطي بغير ثواب يُنتظر إلا من الله؛ لأن هذه النعم إنما هي من الله، وثوابها من الله. ويجب أن يكون فعلها لوجهه ﷻ. فإن كان لغير وجهه ضاعت النعم، وخسر المرء نفسه في الأولى والآخرة؛ لأن هذه المنة تبطل العمل، كما قال: ﴿ لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

لذلك يقول في النهاية: ويتصف أيضًا بهما – أي: نوعي المنة- الإنسان لكن يتصف بالمعنى الأول عن طريق المدح، وبالمعنى الثاني - وهو التقريع بالعطية، وتعديد النعمة - عن طريق الذم.

فإذا علمنا أن الله تعالى هو كثير العطايا، وكثير المنن والأفضال والإنعام عليك، كيف لا لا نقف على باب الله؛ لنحصل من هذه العطايا؟ ألسنا فقراء إلى الله تعالى؟ فمنا الفقير في فهمه، أو الفقير في علمه، أو الفقير في جسمه وبدنه، أو الفقير في صحته، أو الفقير في أخلاقه، أو الفقير في عباداته وقيامه وذكره وصيامه وقرآنه، من الذي يقويه؟ ومن الذي يعطيه؟ ومن الذي يتفضل عليه؟ ومن الذي يغدق عليه النعم لا ينتظر فيها ثوابًا، ولا ينتظر فيها جزاءً، ولا ينتظر فيها شكورًا؟ ومن الذي يعطيه عطاء لا يخشى الفقر؟ من الذي يعطيه عطاء لا يعطيه أحد، كما قال: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ [إبراهيم: ٣٤] كيف إذن لا نتعرض لهذا العطاء من الله تعالى؟ إننا لو وقفنا على بابه، وأخذنا شيئًا من العطاء الذي يعطيه، ومن الهبات التي يهبها ﷻ؛ رأيتنا وقد تغيَّرت أحوالنا، وتغيرت أخلاقنا، وتغيرت أعمالنا وعباداتنا، وتغير إخلاصنا وإقبالنا، وتغير توحيدنا، وكل هذه المعاني التي نحن فقراء إليها، كما قال الله: ﴿ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [فاطر: ١٥].

النقطة التالية المهمة من هذه المعاني أن يعترف المرء لله تعالى ولرسوله بالنعم، ويرى لإخوانه الفضل عليه، فإذا أعطيت أحدًا من خلقه مما أنعم الله به عليك، فلا تمن به، بل تستصغره وتتناساه، وترى الفضل له في قبوله منك؛ لأن الله تعالى قد هيأه لأن يقبل ذلك منك

فجعل الله تعالى له المنة عليك في أن أخذت الثواب من ورائه، وفي أن رفع لك الدرجة به، وفي أن أجزل لك العطاء ﷻ في مقابل عطائك.

ثالثًا: الشرح الإجمالي لآيات المنة في القرآن

ننظر الآن في الآيات التي وردت تحمل معاني هذا الاسم المشرف؛ لنتبين كيف أن القرآن الكريم أعطى هذه الصورة المتكاملة الجميلة لهذا الاسم من أسماء الله تعالى، كعادة القرآن في ذكر أسماء الله الحسنى. ثم ننظر في تلك المعاني؛ لنرى بما امتن الله -تعالى- على أهل الإيمان من نعمه وعطاياه التي إذا تفكرت فيها، فإذا بك تجدها أعظم النعم وأتم العطايا التي إن قضيت عمرك وأعمارًا متطاولة في شكر شيء قليل منها لم تبلغ شيء من ذلك!

ونبدأ بالتفسير الإجمالي للآيات؛ لنتفقه شيئًا في أسماء الله الحسنى؛ فالتفسير ليس هو المقصود، وإنما التفسير لبيان كيف ذكر الله -تعالى- أسماءه الحسنى في القرآن الكريم، فيتعلم المرء من ذلك كيف يوحد ربه بهذه الأسماء الحسنى.

والمطالع لآيات القرآن الكريم التي تكلمت عن قضية المنة يجد أنها تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

- **الأول: الآيات التي تبين من هؤلاء الذين يمن الله عليهم**
- **الثاني: الآيات التي تبين ما هي أنواع المنن التي يمن الله -تعالى- بها على خلقه**
- **الثالث: الآيات التي تبين جزاء المنان ﷻ لعباده**

وقد أجمل ذلك في قوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿ **وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ** ﴾ [إبراهيم : ١١]. فالله ﷻ هو صاحب المنن والأيادي والإنعام على خلقه، وهو سبحانه يمُن بما يشاء على من يشاء.

أولًا: الآيات التي تبين على مَنْ يَمُن الله تبارك وتعالى

ونشير سريعًا لهذه الآيات؛ ليتعلم المرء كيف يتعرض لمنِّ الله عليه ليكون من عباده الذين يمن عليهم ﷻ.

المنة على الأنبياء والرسل

أول الممنون عليهم هم أنبياؤه ورسله؛ لذلك قال تعالى: ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [إبراهيم: ١١] ؛ إذ أعظم المنن من الله على عباده منة النبوة ومنة الرسالة، فلا منة بعدها، ولا منة قبلها. فإذا امتن عليهم بهذه المنة فتلك الدرجة العليا.

والآية الأولى في ذلك: قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ﴾ [يوسف: ٩٠] وانظر عندما تخرج هذه اللفظة الكريمة من رسول ونبي كريم على الله تعالى! وقد جاءت بعدما قصت الآيات ما حدث من الحوادث العظيمة في قصة يوسف عليه السلام. فبعدما قابل يوسف -عليه السلام- محن الله -تعالى- بالصبر والثبات وعدم معصيته والخروج عن طاعته، أورثه الله -تبارك وتعالى- منن كثيرة، بالاجتماع بعد الفرقة، والائتلاف بعد البُعد الطويل، العلو والتمكين، بما صبر واتقى ربه ﷻ، وبما أحسن في حق الله ﷻ، كما قال تعالى:﴿ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٩٠] فكانت العاقبة للتقوى؛ لذلك قال إخوته: ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ [يوسف: ٩١].

وفي هذه القصة عبرة لنا الآن، فبسبب التقوى والصبر، آثره الله عليهم، والمؤمنون اليوم مطالبون بأن يتعرضوا لهذه المنة من منن الله تعالى بتحقيق التقوى والصبر والإحسان لله ﷻ؛ ليكون لهم -كذلك- حسن العاقبة في الآخرة، كما قال: ﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ [يوسف: ٥٧].

الآية الثانية: قوله ﷻ لموسى عليه السلام: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴾ [طه: ٣٧-٣٨] المنان قد مَنَّ على سيدنا موسى عليه السلام، وذكره

بالمنة الأخرى، واسمع الفارق في الآيات القرآنية الجميلة في الآيتين. يقول: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴾ [طه: ٣٧] ومعناها أن هناك منة قبل ذلك، ما هي المنة التي قبل ذلك؟

يتبين ذلك من العطف في قوله ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ ﴾ [طه: ٣٧] فهي معطوفة على قوله: ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه: ٣٦] وهذا السؤل ما هو؟ هو قول موسى عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴾ [طه: ٢٥-٣٠] عندما قال له الرب جل وعلا:﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ [طه: ٢٤]. وهذه المنن من شرح الصدر وتيسير الأمر وغيرها من أعظم المنن. ومن أعظم الصفات في سيدنا موسى عليه السلام أن يتمنى لأخيه أن يكون نبيًا! ترى هل هناك شيء أعظم من ذلك يتمناه المرء لأخيه؟ وعندما يعطي له المولى هذا العطاء، هل هناك منة أعظم من هذه المنة؟ لو تمنى له شيئا آخر تراه يُحصل هذه المنة العظيمة؟ ولنتأمل هذه النفوس العالية عندما تطلب لإخوانها ماذا تطلب.

لذلك قال: ﴿ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾ [طه: ٣٠-٣٥] والله تعالى يسمع له هذه الأدعية كلها، الله وبعد ذلك، يقول: ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه: ٣٦] ثم ماذا؟ ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴾ [طه: ٣٧] ما هذه المرة الأخرى؟ ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ [طه: ٣٨-٣٩].

فإذا سألنا: أيهما أعظم، المنة الأولى أم الثانية؟ نقول: المنة الثانية، وهي: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴾ [طه: ٣٧-٣٨] وذلك لأنها منَّة بغير طلب من موسى، على العكس من المنة الأولى التي كانت بسؤال من موسى ودعاء منه. فالمنة

التي بسؤال أحرى أن تجاب؛ لأنه من غير سؤال أعطاه، فإن سأل وتضرع، ألا يجيبه ﷻ؟ يكون أحرى بالإجابة من الله تعالى بعد أن سأله.

ومثله قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۝ وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ۝ وَنَصَرْنَـٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ۝ وَءَاتَيْنَـٰهُمَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ۝ وَهَدَيْنَـٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الصافات: ١١٤-١١٨]، وهذه الآية تذكير بمنة الله تعالى على موسى وهارون عليهما السلام، وهما أئمة الدنيا في ذلك الزمان، وفيها كذلك بشارة لأهل الإيمان، فإن كان ذلك قد وقع لأئمة الدنيا حالها، فإن ذلك الواقع يمكن أن يحدث للمؤمنين في كل زمان ومكان، إذا ما تحققوا بالأسباب الموصلة لذلك.

المنُّ من عطاء الله تعالى لا حد له

وهي الآية الثالثة في المنة على أنبياء الله تعالى ورسله، وهي قول الله تعالى في المن والعطاء لسليمان عليه السلام: ﴿ هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [ص : ٣٩]. وانظر إلى هذه العطية العظيمة لسليمان عليه السلام، فالمولى ﷻ أعطى عبدًا من عبيده هذا العطاء الذي لا يصل إليه أحد، ولم يصل إليه أحد ولا يقول هذا القول إلا من له الملك، وله المنة، وله العطايا العظيمة، وله كل شيء ﷻ، هل تستطيع أنت -أيها الفقير أو غيرك من ملوك الدنيا- أن يقول لأحد: ﴿ فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [ص: ٣٩]؟ من الذي يملك من الدنيا ما يعطي بغير حساب، أو يمنع بغير حساب، أو يهب بغير حساب؟ من؟ لذلك قال النبي ﷺ لما هم أن يربط ذلك الجن: « ثم تذكرت قول أخي سليمان: ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [ص: ٣٥] »[1].

---

[1] – الحديث رواه البخاري (٤٦١) ومسلم (٥٤١) كلاهما يرويه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ: رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ عِفْرِيتًا مِنْ الْجِنِّ جَعَلَ يَفْتِكُ عَلَيَّ الْبَارِحَةَ لِيَقْطَعَ عَلَيَّ الصَّلَاةَ، وَإِنَّ اللهَ أَمْكَنَنِي مِنْهُ فَذَعَتُّهُ، فَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ إِلَى جَنْبِ سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ، حَتَّى تُصْبِحُوا

فإن كان عندك ريب، أو شك في عطاء الله تعالى، وأن عطاء الله -تعالى- يمكن ألا يصلك، أو لا يتسع لأغراضك أو تمنياتك في الدنيا، فإن عطاء الله -تعالى- واسع، عظيم، لا حد له، فانظر ماذا أعطى لسليمان عليه السلام: ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [ص: ٣٦-٣٩]، فعطاء الله واسع عظيم لا حد له.

ولنا في ذلك العبرة، فإذا كان هذا هو عطاء الله، أن يعطي عبده عطاء واسعًا لا يحدّه الحصر ولا الحساب ولا شيء، ويأمره بأن يعطي وأن يمسك كل ذلك بغير حساب.

فهؤلاء المساكين الذين قد شغلهم حاضرهم، ومستقبلهم، وشُغْلهم وما هم فيه مما يريدون تحصيله في الدنيا والآخرة؛ يأتيهم عطاء الله الواسع: ليطمئن قلوبهم ويقوي أفئدتهم، وليأخذهم إلى ربهم، وليثقوا في موعود الله تعالى، وليعلموا أن ما كتب الله تعالى لهم آت لا ريب فيه، وأنه لن تموت نفس حتى تستوفي أقصى رزقها وأجلها [1]. وأنه لن تخرج نفس من الدنيا ولها عند الله تعالى شيء، لا في قليل ولا في كثير؛ حينئذ تطمئن هذه النفس إلى ما هي فيه، وتعلم أن رزقها لن يتعداها، وأن رزقها لن يأخذه غيرها؛ فطابت وسكنت، وسارت إلى الله تعالى مطمئنة، وعلمت حينئذ أنها بصبرها واطمئنانها ويقينها فيما عند الله يأتيها رزقها،

تَنْظُرُونَ إِلَيْهِ أَجْمَعُونَ، أَوْ كُلُّكُمْ، ثُمَّ ذَكَرْتُ قَوْلَ أَخِي سُلَيْمَانَ {رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي} فَرَدَّهُ اللَّهُ خَاسِئًا).

[1] – الحديث أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠/٢٧)، والقضاعي في مسند الشهاب (٢/١٨٥ ، رقم ١١٥١)، والبزار (٢/ ٨٢) ، والبيهقي في الآداب (٤٦٠)، وقال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (٤/٧٧): (رواه بن أبي الدنيا في القناعة، والحاكم من حديث ابن مسعود، وذكره شاهدا لحديث أبي حميد وجابر وصححهما على شرط الشيخين، وهما مختصران، ورواه البيهقي في شعب الإيمان وقال: إنه منقطع) وصححه الألباني في تخريج أحاديث مشكلة الفقر (١٥). ولفظه: (إن روح القدس نفث في روعي أن نفسًا لن تموت حتى تستكمل أجلها، وتستوعب رزقها، فأجملوا في الطلب، ولا يحملن أحدكم استبطاء الرزق أن يطلبه بمعصية الله؛ فإن الله لا ينال ما عنده إلا بطاعته).

وعلمت أنه يمكن أن يفتح الله تعالى عليها فتحًا كما قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

المنة العظمى: وهي منة النبي ﷺ، ولنوضح معنى هذه المنة نسأل: هل ورد في القرآن الكريم أن الله –تعالى- يمتن على النبي بشيء؟ ونتطرق لهذا السؤال للمقارنة بين ما تكلم عليه القرآن الكريم في الله على النبي، وما تكلم عليه القرآن الكريم في منة الله على بقية الأنبياء، كما بينا في الآيات السابقة.

آية النبي ﷺ في المنة، هي قوله –تعالى- في سورة المدثر: ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر: ٦] وهي من السور الأولى في القرآن، فلم يأت قولٌ من الله ﷻ يقول للنبي ﷺ: ولقد مننا عليك في كذا وكذا !

ولكن قال: ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ ومعناها: ألا يستكثر ما يعطيه وينفقه ويمن به من منن ونعم وأفضال؛ حتى لا يكون ذلك سببًا في قلة عطائه. فلا تستكثر المنن التي تعطيها، ولا المواهب التي تسديها، ولا ما تقدم من جليل الأعمال وجميل الإنفاق والصفات؛ حتى يكون استكثارك منه منعًا لازديادك فيه؛ فلا تقف عند حد من الاستكثار.

فكانت هذه الآية من الآيات الكريمة التي تحمل معنى المبالغة في الثناء على النبي ﷺ على عكس ما ذكر في كلام على غيره ﷺ من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، الذين يذكرهم الله –تعالى- بما منَّ به عليهم. وذلك ليس تقليلًا من شأن غيره من الأنبياء- حاشا لله أن نقول ذلك- ولكن تبيينًا لعلو درجته وعظيم منزلته ﷺ عند ربه جل وعلا.

والمعنى الذي نريد الوصول إليه، هو أن الله –تعالى- لما أمر الرسول ﷺ بكثرة العطاء، فإن من أسباب ذلك أن يكون ﷺ هو أول المتخلقين والمتشبهين والمتصفين بصفات الله المنان؛ لأنه لا يمكن لأحد في الدنيا ولا في الآخرة أن يكون أعلى من النبي ﷺ في صفة من صفاته. فهو ﷺ أعلى الخلق في الاتصاف بالمعنى الحسن في المنان، ولما كان في علو هذه الصفة قال له المولى: إن ازديادك من هذا المن لا يجعلك تنظر إليه باستكثار يمنعك من مواصلة هذه الزيادة أبدًا.

والخطاب في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ متوجه لأهل الإيمان، فالنبي ﷺ ليس من خُلقه المن على أحد، وإنما جاء هذا التوجيه؛ ليكون زادًا للمؤمنين في توجيههم على مقتضى الرسالة، وليكونوا على خُلُق الرسول ﷺ، فلا يمن أحد بعمله للخير بحيث يكون هذا المن سببًا في عدم استكثاره من هذا الخير، ولكن افعل الخير الكثير، وبعد ذلك لا تظن أن الخير الذي عملته كثيرًا فتمن به.

ومثلها قوله تعالى: ﴿ لَا تُبْطِلُوا صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٤] و فيها أمر أهل الإيمان ألا يعددوا النعم تفاخرًا على مَن يعطون، وألا يعطوا النعم ثم ينتظرون ثوابًا من أحد عليها، ولكن كما قال: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾ [الإنسان: ٩].

المنة على المؤمنين

بعد الإشارة إلى منة الله تعالى على الأنبياء والرسل، فإن الدرجة التالية من هؤلاء الذين امتن الله –تعالى- عليهم من عباده هي درجة المؤمنين. فالله –تعالى- امتن على المؤمنين بالإيمان في قوله: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ ﴾ [الحجرات: ١٧]، وامتن عليهم بالطريق الموصل لهذا الإيمان وهو النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وامتن عليهم بالقرآن، كما بينت نفس الآية: ﴿ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وامتن عليهم كذلك بما أعطاهم في الدنيا، وامتن عليهم بمنة الآخرة في النجاة والفضل، وبمنن أخَر سنشير إليها في الآيات التي تبين بماذا امتن الله –تعالى- على خلقه.

والمتفكر في هذه الآية الكريمة: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٤] يستفد منها في أشياء كثيرة :

أولها: أن الله -تبارك وتعالى- أنقذك -أيها المسكين- بهذا الرسول من الكفر والشرك والإلحاد، وهذا أعظم النجاة في الدنيا والآخرة، فانظر كيف سبقت لك عناية الله ﷻ ورعايته وحفظه لك، وكلأته إياك بأن أدخلك في هؤلاء الذين مَنّ الله عليهم بهذا الرسول ﷺ.

الثاني: أن المعنى المتوجه لك في الآية كأنه يقول: لقد امتن عليكم بشيء عظيم، امتن عليكم بأن أخرجكم من الظلمات إلى النور، امتن عليكم بهداية الدنيا والآخرة، امتن عليكم بأسباب السعادة، امتن عليكم ﷻ بمعرفة طريق الرب ﷻ.

ويستكمل قوله: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ﴾ [الحجرات : ١٧] منة الله تعالى على المؤمنين، بأن وضع الإيمان في قلوبهم حتى آمنوا بهذا الرسول وأحبوه وأطاعوه وهاجروا معه وقاتلوا تحت لوائه، وبذلوا النفس وتركوا الأهل والمال والوطن والولد: هجرة إلى النبي ﷺ، فالله ﷻ له المنة، وله الفضل، وله الثناء الحسن في أن وضع هذا الإيمان الذي جعلهم يضحون هذه التضحيات في سبيله ﷻ؛ وهذه تستوجب شكر الله تعالى أن هداه للإيمان، وترك غيره، وأن هداه للوقوف بين يديه وطرد غيره، وأن أقبل بقلبه وحرم قلوب غيره، وأن وفقه للطاعة ومنع غيره وتركه في المعصية.

لذلك يقول –تعالى- تأكيدًا لهذه المنة: ﴿ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ [النساء : ٩٤] يعني كذلك كنتم مثلهم، مثل هؤلاء الكفرة المشركين الذين هداهم الله –تعالى- فمن الله عليكم، أليس كذلك؟

وهذه المنة مما ينبغي أن يتفكر فيه المرء؛ ليعبد الله –تعالى- ويوحده ويدعوه باسمه المنان، وليأخذ حظه منه: فإن كان الله –تعالى- يمن عليك بالإيمان ﷻ ترى أنك أن تكون مقصرًا في هذا الإيمان؟ ألم يمن عليك بالإيمان ﷻ وأنت لا تدري ما الكتاب ولا الإيمان؟ ألم يمن عليك بالإيمان ﷻ من حيث لا تدري ولا تحتسب ولا تفكر ولا تسعى إليه؟ علمت حينئذ أنه هو الذي وهبك هذا الإيمان، ويأتي السؤال: ألا يستطيع أن يهبك إيمانا أعلى، وقربًا أعلى، وتعلقًا أعلى، وطمأنينة وسكينة وإخباتًا وإنابة ومحبة وخشوعًا وخضوعًا وخوفًا ورجاءً وإقبالاً وتوكلاً؟ يمكن؟ ما الذي يمنع هذا؟ هو ﷻ المنان: إن سرت إليه شبرًا سار إليك ذراعًا، أو إن قمت إليه

مشى إليك ﷻ [1]، هو سبحانه قد تفضل عليك بغير سبب؛ فإذا ما قدمت السبب لا يتفضل عليك؟!

قبل أن تخلق، هل قدمت شيئًا لله؛ فخلقك مؤمنًا بسببه؟ لم يكن ذلك ولن يكون، وإنما هو تفضل عليك بالإيمان بغير سابق سبب، فهل يمكن أن يزيدك منه أو لا؟ إذن من المقصر في أن يحصل هذه الدرجات ويبقى فيما هو فيه من التأخر والتقهقر، وضعف الإيمان وعدم استشعار حلاوة الإيمان والقرب من الله؟

هو فتح لك أبوابه بالمن والعطاء، وأنت أغلقتها في وجهك بالإدبار عنها، والتقصير فيها، والتكاسل، والتواني، وطول الأمل، وتسويف التوبة، ونسيان الآخرة، والغفلة عن لقاء الله تعالى! كيف يستجلب المرء إذن تلك المنن التي أضاعها على نفسه؟ نقول: أن تشكر الله تعالى، وبقدر ما تحصل من الشكر في هذه النعمة التي من الله عليك بها، بقدر ما تأخذ من منة الله عليك فيها.

أنواع منن الله على خلقه

ونذكر المنن والآيات التي تدل عليها بإيجاز إن شاء الله تعالى.

المنة بالإسلام

وهي أول المنن التي منَّ الله ﷻ بها على المؤمنين؛ وهي أعظم المنن، يقول المولى ﷻ: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الحجرات: ١٧].

[1] – الحديث رواه البخاري (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥) ولفظه (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»).

وقوله: ﴿ لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ﴾ نهيٌ من الله -تعالى- للمرء ينبغي أن يسارع إلى تنفيذه، وفيه معانٍ كثيرة، أولها: أن المن بالإسلام شيء غير مطلوب؛ فلا ينبغي لك أن تمن بإسلامك؛ كيف تمن بإسلامك؟ أن تقول: أنا أسلمت "كفاية عليكم" ! أو أن تمن بأعمال الدين، وقضايا الإسلام، وموضوعات الإيمان، كيف؟ بأن تقول: الحمد لله أنا أصلي وأصوم وأقوم الليل وأقول أذكار الصباح والمساء، وكذا وكذا.

وهذا يوقع صاحبه في مصيبة كبيرة! هي أنه حينئذ يمن على الله تعالى بعقله وعلمه، وقدرته وقوته، ظاناً أنه هو الذي فعل، وذهب، وقام، وصلي وذكر وجاهد، وأمر ودعا وكذا؛ حتى ولو لم يصرح بذلك؛ فإن قلبه يميل إلى إظهار رؤية هذه الأعمال، وأنه الفاعل لها!

كان يمكن أن يكون كغيره غافلاً ضالاً، فمن الذي وهبه القيام والصيام والذكر؟ ومن الذي وفقه لذلك وأعانه؟ لذا ينبغي أن يكون لسان حال كل منا: الله تعالى الذى وفَّق، ووهب وأعان، ثم هو ﷻ الذى يقبلها بفضله وكرمه ومنِّه.

لذلك فقوله: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ ﴾ يفهم منه: أنه لا يوجد شيء اسمه المنّ بالإسلام، وليتعلم المرء منه أن المن بذلك العمل هو أمر قد استنكرته الآية واستهجنته؛ لأن الله -تعالى- هو الواهب أولاً، وهو المعين ثانيًا، وهو المتفضل بالقبول ثالثًا، ولا حظٌّ لك في ذلك ولا تلك، ولكن كما قال ﷻ: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣].

وقوله: ﴿ لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ﴾ هل هو نهي عن المنّ بالإسلام فقط؟ هل المعنى: لا تمن على الله تعالى بالإسلام فقط ومُنّ بما شئت عليه ﷻ؟ لا، إنه نهي عن أن يمُنّ بأي شيء، لماذا؟ لأنه عندما نهاك عن أن تمن عليه بإسلامك الذي هو أعلى ما أعطاك الله تعالى، وأعظم ما وهبك الله تعالى واستنقذك به من النار في الآخرة، وعرَّفك به طريق الله في الدنيا، وعصمك به ﷻ من أن تعبد غيره، أو أن تسجد لسواه ﷻ، فحينئذ لا يجوز أبدًا أن تمن على الله بأي شيء، ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ ﴾ فالمنة لله ﷻ ولرسوله ﷺ .

والمطلوب عندما نسمع: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ ﴾ أن تقابلوا هذه المنة بشكرها، ودعاء الله تعالى بالثبات عليها، والازدياد منها؛ فعندما يقول ربنا لك: أنا أمن عليك أنني هديتك للإيمان، تقول له: نعم المنة لله ولرسوله، وسأفعل ما في وسعي، أقوم بجهدي حتى أشكر هذه النعمة، وحتى أكون أهلاً لأن يرحمني الله تعالى بها، وأن يثبتني عليها، وأن يزيدني منها.

المنة بالنبي ﷺ

وهي المنة الثانية التي امتن الله بها على عباده، فَمَنّ عليهم بالنبي ﷺ؛ لأن النبي ﷺ هو الطريق الذي وصلت به منة الإسلام إلينا، فبعد أن امتن الله -تعالى- عليهم بالإسلام ووفّقهم إليه، يقول الله تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

والمتفحص المتأمل لكلام الله تعالى يجد هذه الآية مليئة بالمعاني الجميلة، وانظر إلى هذه المعاني في قوله: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً ﴾ ماذا تكون مقابلتك لهذا الرسول؟ لا بد أن يشكر المرء ربه ﷻ على إرسال الرسول؟ كيف يكون شكر هذه النعمة؟ كيف تقابل هذه النعمة التي وهبك الله إياها؟ أول ما تقابل به هذه النعمة هو: التعظيم والتوقير والاحترام لهذا الرسول الذي أرسله الله إليك، كما ذكر الله ﷻ في حقوق النبي ﷺ: ﴿ لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ [الفتح: ٩]. والثاني: اتباع هذا الرسول، واتباع سنته والقيام بها، ومحبته والجهاد من دونه ونصرته، والتزام هديه، ونشر دعوته ﷺ والمعرفة بحقوقه، والقيام بها.

إذن فالمقصر في حقوق النبي -صلوات الله وسلامه عليه- فهو مقصر في أداء شكر هذه النعمة لله تعالى، المقصر في اتباع السنة، المقصر في دعوته إلى هذه السنة، المقصر في أداء حقوق النبي ﷺ المقصر في القيام بنصرته وإعلاء دينه، المقصر في تعلم دينه والدعوة إليه، المقصر في التزام هديه ﷺ في عباداته ومعاملاته إلى آخر ذلك، كلما قصر في شيء من ذلك فقد قصر في شكر هذه النعمة العظيمة التي أنعم الله -تعالى- عليه بها.

المنة بالقرآن

وقد بينتها نفس الآية، وفي نفس الوقت بينت شكرها فقالت: ﴿ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ وبعد ذلك ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ ثم ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ وهذا المعنى ذكره الله تعالى في هذه الآية بالذات حتى يكون سبيلاً من سبل شكر نعمة الله تعالى بإرسال هذا النبي ﷺ، وهو تزكية النفس وتعليمها الكتاب والحكمة، وأن نعلم أن الكتاب والحكمة هما طريق التزكية، وأنه قَدَّمَ التزكية؛ لأنها السبب، فمن لم يتزكَّ بالقرآن والسنة لم يؤد شكر هذه النعمة، ولم يعرف أن الهدف والمقصود الأول من إرسال الرسول هو تزكية النفس، وتطهير القلب، وتطهير البدن حتى يكون أهلاً لمجاورة الله –تعالى- في جنته كما قال: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ [الزمر: ٧٣]، وكما قال ﷺ: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٣٢] فلا يدخلون هذه الجنة إلا أن يكونوا طيبين في أقوالهم وأفعالهم وتصرفاتهم، وظاهرهم وباطنهم.

المنة بالتمكين في الأرض

وهي في قول المولى ﷻ: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۞ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص : ٥-٦]، فمنن المولى ﷻ لم تنقطع عن المؤمنين من غير أمة النبي ﷺ وإن كان الله –تعالى- قد اختص بهذه المنن بعض المؤمنين في الأمم السالفة؛ فإن هذه الآيات كذلك لا تمتنع على أمة النبي ﷺ أيضًا، وإنما هي من بقايا نعم الله على هذه الأمة؛ لذلك ينبغي أن يهيئ المؤمنون أنفسهم ليحصلوه. وفي هذه الآية أربع منن كما يقول العلماء: ﴿ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۞ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص : ٥-٦].

وقد جاء قوله تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ ﴾ بصيغة المضارع وليس الماضي، وذلك بالرغم من أنه سبحانه قد أراد وانتهت الإرادة، ولكن استعمال المضارع لإظهار الحال الحاضر، فكأنه يمن عليهم في تلك الحال ﷻ، وحتى يلاحظها هؤلاء المتوجه إليهم الخطاب، وكذلك حتى يثبت قلوبهم، ويبين لهم الحالة كأنها مشاهدة لهم، المضارع، فكأنك تشاهد منن الله –تعالى- وهي تُظهر لك كيف يُمكن لهم، وكيف يُخرج هؤلاء المستضعفين، وكيف يجعلهم أئمة، وكيف جعلهم يرثون الأرض، وكيف ينصرهم، ويقتل عدوهم.

وسوف نتعرض للشرح التفصيلي لهذه الآية، ولكن نشير إلى معنى مهم وهو: ترى هؤلاء المستضعفين يجعلهم الله –تعالى- أئمة ويجعلهم الوارثين، ويمكِّن لهم وينصرهم، ويهلك عدوهم؛ لأنهم فقط مستضعفون في الأرض؟ أو لأنهم وصلوا إلى حالة الاستضعاف مع الإيمان الذي يكون سببًا لأن يقويهم الله تعالى، وأن ينصرهم؟ هؤلاء المستضعفون في الأرض، لو كانوا عصاة مذنبين، وعليهم غبرة المخالفة لله تعالى، ترى الله –تعالى- يمكن لهم ويجعلهم أئمة؟

الله –تعالى- يمكن لهؤلاء المستضعفين: لأنهم قد وصلوا إلى حالة من الافتقار إلى الله والدعوة إليه، وبذل الجهد لله –تعالى- والوسع حتى لم يبق لهم شيء؛ حينئذ تنزل عليهم رحمة الله تعالى، ونصر الله تعالى، وتمكين الله تعالى؛ لأنهم قد صاروا أهلاً لأن يكونوا أئمة، وأن يكونوا الوارثين، وأن يكونوا أهل التمكين؛ لأن الله –تعالى- لا ينصر المستضعفين بما هم فيه من المعصية، وإنما ينصر المستضعفين بما هم فيه من الطاعة، ومن التقرب إلى الله تعالى، وبما هم فيه من بذل الجهد والوسع لأن يرفعوا عن دين الله تعالى، وأن يبذلوا له ما يمكن أن يكون سببًا لأن يجعلهم أئمة، وأن يجعلهم الوارثين.

وقد ورثوا الأرض، كما قال موسى لقومه: ﴿ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف : ١٢٨]، وذلك بعد أن وصلوا إلى حالة التقوى والاستعانة بالله والصبر، إلى أن وصلوا إلى درجة الإمامة والتمكين، والنصر ووراثة الأرض، وأن يهزم الله عدوهم كما ذكرت الآيات.

والمعنى المهم أيضًا في هذه الآية، أن المولى ﷻ يُصبِّر المستضعفين من المؤمنين في الأرض في كل زمان، هؤلاء المؤمنون الذين قاموا بحقوق الدين وبما وسعهم مما أمرهم الله –تعالى- به،

كما كان حال المؤمنين في مكة المكرمة أيام بعثة النبي ﷺ، الذين كانوا مستضعفين، فإذا بالله يمن عليهم كما ذكر: ﴿ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ وفعلاً قد حدث لهم وورثوا الأرض ومن عليها، وانتصروا على كسرى وقيصر، وفتحوا الأرض اليابسة كلها في أيامهم، وصلت جنود الإسلام إلى كل مكان يمكن الوصول إليه.

وهذه آية عامة للمؤمنين في كل زمان وفي كل مكان، وبشارة لهم إلى أنهم إن تحققوا بهذه الأسباب من أسباب منة الله عليهم فإن الله ﷻ يحققها لهم، وإن الله ﷻ يكرمهم بها، وإن الله لا يمن عليهم أعظم المنة بهذا السبيل؛ ليكونوا كما ذكر: ﴿ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾.

لذلك كان المؤمنون اليوم مطالبين بتحقيق هذه المعاني، لقد وصلوا إلى الذلة والقلة والمهانة والحقارة في دنيا الناس: حتى تخطفهم الكبير والصغير والكبير والحقير، وحتى استُبيحت أرضهم وأعراضهم، وانتُهكت هذه الأراضي والأعراض، وأُخذت ثرواتهم ونهبت أموالهم، كل ذلك لبعدهم عن أن يكونوا في حال استضعافهم على الإيمان، وعلى تحمل المشقة، وعلى القيام بحق الدين ونصرة الإسلام التي ينصر الله تعالى بها المستضعفين، وليعلموا أن الاستضعاف الذي هم فيه له آخر، وأن الله تعالى هو الذي ينصر عباده، فإن نصروا الله تعالى نصرهم، وثبت أقدامهم، ورفع رايتهم، وهزم أعداءهم وأزلهم، وليس النصر حينئذ موكولاً إليهم، إنما هو موكول إلى الله تعالى: لأنه بحسابات المادة التي هم فيها لا يمكن أن ينتصروا، وإنما النصر حينئذ بحسابات الإيمان، وحسابات الإيمان لم يحققوا منها ما يكون سببا لتنزل النصر.

<u>المن بالنجاة عند إهلاك المتكبرين والكفرة</u>

وهي في قوله: ﴿ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ﴾ [القصص : ٨٢] في قصة قارون، وهي من القضايا المهمة لأصحاب الدنيا الذين يريدون أن يكون لهم مثل ما لقارون، ويريدون أن يحصلوا مثلما حصل، وأن يجمعوا مثلما جمع، وأن يكونوا في مثل هذه الأبهة وهذا الجاه الذي وصل إليه قارون، فكانت العاقبة: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ

يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ۝ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [القصص : ٨٢-٨٣]، فعندما خسف الله بقارون وأهله وماله وداره الأرض نجى هؤلاء المؤمنين حتى قالوا: ﴿ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ﴾.

وقد جاءت المسوغات التي ينجّي بها الله –تعالى- المؤمنين في الآيات في قوله: ﴿ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ [القصص : ٨٠]، وأيضًا قوله: ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ وقوله: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ ﴾ فكانت النجاة من العذاب، والبقاء لليقين والعمل الصالح والتقوى، وتقديم ثواب الله –تعالى- على مناظر الدنيا الزائلة، وكذلك في حسن التوكل على الله تبارك وتعالى، والثقة في ما عند الله تعالى، وأن ما عند الله خير وأبقى، كما قال: ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [القصص : ٦٠].

فهذه تبين لك -أيها المتعبد لله تعالى باسمه المنان- كيف تحصل هذه الصفات؛ حتى تحوز هذه المعاني التي رتب الله –تعالى- عليها النجاة لأهل الإيمان في الدنيا والآخرة، ورتب عليها ﷻ ذلك الثواب، وأن ذلك كله لا يلقاه إلا الصابرون؛ لأن الصبر هو ملاك تحقيق هذا الثواب الجزيل من الله -تبارك وتعالى- لأهل الإيمان، الذين يصبرون على أمر الله تبارك وتعالى، ولا يتزحزحون عن بابه، ولا تميل أعينهم وقلوبهم إلى زهرة الدنيا وزينتها، الذين لا يريدون العلو ولا الأبهة ولا الجاه ولا السلطان ولا الرفعة ولا غير ذلك؛ لأن العاقبة إنما تكون للتقوى؛ ليست للمال ولا للجاه ولا للسلطان ولا لقارون، وإنما الحظ العظيم إنما هو تقوى الله ﷻ التي إن حصّلها حصّل كل هذه المعاني، وكل هذه الصالحات من الله تعالى، وأنك إن تمنيت ما عند الله حصلت هذه الدنيا وحصلت الآخرة: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [النساء : ١٣٤].

المنة بوقاية العذاب في الآخرة

وإذا كانت هذه منن الله تعالى على المؤمنين في الدنيا فإن الله ﷻ قد امتن عليهم المنّ الأعظم في الآخرة، وذلك في الآية الجميلة التي يذكرها المتقون عندما يذكرون نعمة الله عليهم في الجنان ونجاتهم من سموم النيران؛ يقول: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۝ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ [الطور: ٢٥-٢٧].

فهذه الدنيا طالت أو قصرت، فإنها زائلة ومنتهية، ويهمك أن تكون في الآخرة كريمًا على الله تعالى، تأتي آمنًا يوم القيامة، لا تخاف حين يخاف الناس، ولا تحزن حين يحزنون، وإنما تأتي وقد أظلك في ظله يوم لا ظل إلا ظله ﷻ؛ يكون سبب تعرضك لهذا المن: الإشفاق من الله –تعالى- والخوف منه في الدنيا، فهو الذي دفعك إلى العمل الصالح، ونهاك عن مخالفة الله تعالى، والوقوع في المعصية؛ ﴿ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ وهذا هو الخوف الممدوح، فالمرء الخائف من الله –تعالى- كلما سمع أمرًا من أوامر الله –تعالى- قام بالمسارعة إليه، وكلما سمع نهيًا انتهى عنه، فكان جزاؤهم في الآخرة: ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾.

فكان من منة الله من منته وفضله وجميل عطاياه ﷻ أن أعطاهم من أفضاله وإنعامه ﷻ ما يتنعمون به في الآخرة، وكذلك وقاهم تلك الفتحات التي في جلودهم وتكون سببًا لشدة العذاب عليهم.

وفي الآية معنى مهم، وهو ما سبب تلك المنة وتلك الوقاية من عذاب الله تعالى؟ قال: ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾، فهل كانوا مشفقين فقط؟ إنهم كانوا مشفقين مع الدعاء لله –تعالى- أن يوفقهم للعمل الصالح، وأن يعينهم عليه، وأن يتقبله منهم، وأن يميتهم على الإيمان، وأن يبعثهم ﷻ آمنين يوم الفزع الأكبر.

جزاء المنان لعباده

وفي نهاية المطاف جاءت في القرآن ثلاث آيات تبين جزاء المنان ﷻ لعباده؛ وانظر في هذه الآيات، وتدبر معانيها؛ لتستفيد هذه الفوائد التي أودعها الله -تعالى- كلامه؛ حتى تكون هي البلسم الشافي، وتكون هي الهادي للعبد المؤمن إلى طريق الله تعالى.

الآية الأولى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [فصلت : ٨] والثانية: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ﴾ [الانشقاق : ٢٥] والثالثة: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [التين : ٦] وقد وصف الجزاء في كل هذه الآيات بأنه غير ممنون؛ لأنه لما وصل هؤلاء المؤمنون إلى هذا الحال من تقبل منن الله تعالى، والشكر على هذه المنن، والقيام بحقها؛ إذا بالله تعالى يكافئهم بأجر غير ممنون ﷻ، وهو الأجر الذي لا منة فيه، أو على القول الثاني: أجر غير منقوص يشاركون فيه النبي ﷺ ؛ لأنه قال له ﷺ: ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ [القلم : ٣] فكان جزاؤهم من جزاء النبي ﷺ؛ حيث كان اتباعهم للنبي -صلوات الله وسلامه عليه- وقيامهم بالكتاب والسنة، والتزامهم الهدي، وسيرهم على نهج النبي المعظم ﷺ، كان ذلك سببًا في أن شاركوه في هذا الأجر، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا.

رابعًا: الشرح التفصيلي لبعض آيات المنة في القرآن

نتخير في الآن بعض الآيات لنشرحها شرحًا تفصيليًا: فنحاول أن نأخذ هذه الآيات على المنهج الذي أشرنا إليه ليستقر في نفوس المؤمنين؛ ولتتحول أحوالهم بعد ذلك إلى هذه المعاني المشرفة من كلام الله، ولتظهر عليهم آثار هذه الأسماء الحسنى، لأنه ما أن يظهر على العباد آثار هذه الأسماء الحسنى حتى يكونوا بحق خير أمة أخرجت للناس.

والمقصود ليس التفسير إنما المقصود هو شرح الأسماء الحسنى في الآيات التي وردت فيها، رجوعًا بهذا المعنى إلى كلام الله وكلام الرسول صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأنه هو القدير جل وعلا على أن يعلم المؤمنين ما ينفعهم في هذه الأسماء، وما يكون سببا لمعرفتهم بربهم ومحبتهم له وتوحيدهم إياه، كما أمرهم بذلك هو سبحانه وتعالى.

الآية الأولى: لقد من الله على المؤمنين

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. من أعظم منن الله على عباده إرسال الرسل مبشرين ومنذرين؛ ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور. وقد كانت المنة برسول الله -صلى الله عليه وسلم- أعظم المنن، وقد تجلى ذلك في الآيات العديدة التي بيّنت علو درجته وارتفاع منزلته ﷺ، وعظيم قدره عند الله تعالى، فقد شرح الله -تعالى- له صدره، ووضع عنه وزره، ورفع له ذكره، وأعطاه الخلق الحسن الجميل، وأنه ﷺ يصلي عليه وملائكته ﷺ، وأنه قد آتاه من لدنه فضلا عظيمًا، وعلمه ما لم يكن يعلم، ورفعه إلى سدرة المنتهى، حيث رأى من آيات ربه الكبرى، وهي منزلة لم يصل إليها ملك مقرب، ولا نبي مرسل، إلى آخر ما ذكرت الآيات، مما يدل على محبته ﷺ إياه وعنايته به،

وعلى رعايته له ﷺ، وعلى أنه أعظم درجة عند الله تعالى من أي أحد آخر، فهو ﷺ سيد ولد آدم ولا فخر[1].

وقد جاءت هذه الآية الكريمة في ثنايا الكلام على غزوة أحد، والآيات السابقة عليها كانت لتسلية المؤمنين ومواساتهم بعدما وقع في الغزوة من انكسار لهم، وكذلك الآيات بعدها، فقال سبحانه: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٦٦].

وهذه المواساة من الله -تبارك وتعالى- للمؤمنين من كرمه ﷻ، وإحسانه إليهم، وكذلك من عنايته بهم، وتحننه إليهم ﷻ؛ وذلك ليثبت إيمانهم، وليقويهم مرة أخرى على السير في طريقه، وليري المؤمنين كيف أن الله –تعالى- لا يترك عباده، فقد وقع الذي وقع في أُحد بعلم الله وإرادته، فهو -سبحانه- لا يقع شيء إلا بأمره، و إلا تحت سمعه وبصره، وأنه ما يقع إلا ما يريد في كونه ﷻ، وأن الحِكَم من وراء ما وقع لهم في أُحد كانت أكبر مما لو لم تقع، وأنه -سبحانه وتعالى- لا شك يريد بهم الخير، ومن إرادة الخير بهم فعل ذلك بهم؛ لصلاح أنفسهم، وليفهموا منها ما يكون سببًا لمسارعتهم إلى رضا ربهم ﷻ وليتخذ منهم شهداء، ومعاني أخرى كثيرة جاءت في الآيات كما قال: ﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤١-١٤٢].

والسؤال المهم: ما العلاقة بين الآية التي تُذكر المؤمنين بمنة الله عليهم بإرسال النبي ﷺ، وبين الكلام على غزوة أُحد ومواساة المؤمنين؟

وسياق ترابط الآيات، كما يظهر، أن المحزون يصبر ويتعزى عندما تذكره بما هو فيه من النعم، ومن أعظم النعم التي أعطاهم الله -سبحانه وتعالى- للمؤمنين إرسال هذا الرسول ﷺ، فكان التذكير بنعمة النبي ﷺ ؛ ليبين لهم أن كل ذلك الذي حدث لهم من قتل وجراحات،

[1] – أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري والحاكم من حديث جابر وقال صحيح الإسناد وله من حديث عبادة بن الصامت " أنا سيد الناس يوم القيامة ولا فخر " ولمسلم من حديث أبي هريرة " أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ".

ولو حدث لهم ما حدث، فإن ذلك لا يوازي أن الله ﷻ استنقذهم من النار بإرسال النبي ﷺ إليهم؛ ليكون سبب سعادتهم في الدنيا والآخرة.

يقول ابن عاشور[1]: "هذا استئناف لتذكير رجال يوم أُحد وغيرهم من المؤمنين بنعمة الله -تعالى- عليهم، ومناسبة ذكره هنا، أن فيه من التسلية على مصيبة الهزيمة حظًّا عظيمًا، فإن في هذا التذكير من التسلية على مصيبة أُحد حظًّا عظيمًا ؛ إذ قد شاع أن تعزية المحزون وتصبيره بتذكير ما هو فيه من النعم، وله مزيد ارتباط بقوله: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] "

ففي هذا التذكير حظٌّ عظيمٌ من التسلية على مصيبة ما حدث لهم من كسر يوم أُحد عندما يعلمون ذلك الفضل العظيم من الله يستصغرون ما حدث لهم في أُحد، ويهون عليهم ما حدث لهم أن ماتوا على الإيمان شهداء، وأن من بقي منهم بقي مؤمنًا يصاحب النبي ويجاهد معه ﷺ، ويرفع رايته، ويبذل نفسه دونه -صلوات الله وسلامه عليه- ينتظر بذلك إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة.

ومثل ذلك التذكير يحدث إذا ما كان لأحد عدة أولاد، ومات له ولد، يقال له: قد أعطيت أولادً غيره. كما قال عروة بن الزبير لما قطعوا رجله، وقُتل ولده، وعنده أربعة أولاد قال: إن قُتل واحد فقد أعطيت ثلاثة غيره، وإن قطعوا رِجلاً واحدة فقد بقيت الأخرى، ويكفيه قبل ذلك أنه يذكر الله تعالى ويوحده.

ففي التذكير أنه ﷺ رحمة: تسلية لهم بهذه النعمة، خلال تلك الأحزان: إذ قد وقع عليه ﷺ كما وقع على غيره وأكثر.

قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

فالمنّ هو إسداء المنة، وليس هو تعداد النعم على المنعم عليه، وذلك مثل الذي جاء في قوله: ﴿

[1] – التحرير والتنوير، تفسير الجزء الرابع– سورة آل عمران صفحة: ١٥٧ ، ١٥٨ .

﴿ لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، والكل محمود من الله تعالى، أن يعدّد نعمه على الناس؛ لأن هذه النعم ليست مجحودة، وليس يتفاخر بها الرب على عباده، وإنما يعدد لهم نعمه على سبيل أن يحملهم على الشكر وعلى سبيل أن يوحدوه لا يروا لغيره فضلاً، وعلى سبيل أن يكون هو مقصودهم في مطلوبهم ودعائهم.

ثم تقول الآية: ﴿ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ وهذه تبين مظاهر النعمة التي أسداها الله لهم. فقوله: ﴿ مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي: من أمتهم العربية، وذلك يفيد: المُمَاثلة لهم في الأشياء التي تكون سببًا لقوة التواصل وهي: النسب واللغة والوطن. فالعرب تقول: فلان من بني فلان من أنفسهم أي: من صميمهم وليس منتسبًا إليهم بولاء أو لصق، وكأن هذا وجه إطلاق النفس عليه: فكأنه يقول: كونه من أهل نسبهم، أي: كونه ﷺ عربيًّا هذه نعمة، لماذا؟ قال: فإن هذا يوجب أنسهم به ﷺ غير لو كان أعجميًّا، فيكون بينهم وبينه ﷺ أنس لكلامه، وعدم الاستيحاش منه لكونه غريبًا عليهم، أو لأنهم لا يعلمونه، ولا يعلمون نسبه ولا لغته ولا وطنه، فيكون بينه وبينهم وحشة لذلك. وكونه يتكلم بلسانهم أيضًا من المنة يجعلهم سريعين إلى فهم ما يجيء به. وكذلك "منهم" يعني: خرج منهم لا من غيرهم؛ إذ يكونون قد خبروا أمره، وعلموا فضله، وشاهدوا استقامته ومعجزاته. وهذه المنة خاصة بالعرب ومزية لهم، وهي زيادة على المنة ببعثة النبي ﷺ إلى جميع البشر.

وهذه المنة مرتبطة أيضًا بقوله تعالى: ﴿ مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾، فالعرب كانوا أول من تلقى هذه الدعوة، وتهيأ بها ثم كانوا أول من حملها إلى الناس؛ فكانت حكمة الله –تعالى- ظهور هذا الدين بينهم؛ ليتلقوه التلقي الكامل المناسب لصفاء أذهانهم وسرعة فهمهم لدقائق اللغة، ثم ليكونوا هم حملة هذا الدين وتلك الهداية، وذلك النور المتمثل في الإيمان بالله والنبي واليوم الآخر إلى البشر[1].

---

[1] – المصدر السابق بتصرف.

فمنة الله باصطفاء عباده لدعوة خلقه وإرشادهم منة عظيمة: أن يكونوا سبب هداية البشر، وأن يكونوا أعوانًا على عموم الدعوة، وأن يكون النبي سبب هدايتهم ﷺ فعندما يذكرون هذه المنة يكون ذلك سببًا لأن يشكروا هذه المنة، وأن تثبت قلوبهم، وأن يبتعد عنهم الحزن والكدر والألم الذي أصابهم.

وفي هذا الأمر أيضًا مِنَّة من ناحية ثالثة وهي: أن من تخلق بأخلاق العرب وأتقن لسانهم والتبس بعوائدهم وأذواقهم له هذه المزية التي امتاز بها هؤلاء العرب على غيرهم؛ وذلك لأنه صار أقرب لفهم الرسالة وصار أقرب إلى العرب؛ فكان في هذه المنة بركة أهل الإيمان من المؤمنين العرب، وكان فيها كذلك تلك البركة التي حلت على غيرهم بسبب هذه الدعوة التي نشروها. وبسبب لواء الإيمان الذي حملوا مشعله إلى الناس كافة.

وقوله تعالى: ﴿ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ فيه مِنَّة جديدة، وهي أعظم المنن: أن يتلو عليهم آيات الله تعالى؛ وذلك لأن الناس في هذه الدنيا لا معرفة لهم بالله تعالى، إلا من آياته، وآياته - سبحانه وتعالى- آيات متلوة، وآيات مشاهدة. فآياته المشاهدة من الخلق والإبداع في الكون تدل على أن هذا الكون لا يصدر إلا عن إله واحد ﷻ، ولا يكون هذا الإله إلا قويًّا قادرًا ؛ وهذا النوع من الآيات يستدعي التفكر والتدبر كما قال ﷻ: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١] وذلك لا ينظر فيه كثير من البشر، فمَن الذي جلس ليتفكر في خلق الله -تعالى- حتى يهديه هذا التفكير إلى معرفة الرب وإلى محبته والإقبال عليه؟

فكانت منة الله -تعالى- العظمى في قوله: ﴿ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ أن هذه الآيات المتلوة، هي الشاهد الوحيد الذي له علاقة بالله: إذ هو ﷻ المرسل لهذه الآيات إلى النبي ﷺ، والتي بها وفيها ومنها هداية البشر جميعًا إلى معرفة الله ﷻ.

ومعنى قوله: ﴿ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ أي: يقرأ عليهم القرآن، وسميت جمل القرآن (آيات)؛ لأن كل واحدة منها دليل على صدق الرسول ﷺ من حيث بلاغة اللفظ وكمال المعنى، فكان هؤلاء المؤمنين صالحين لفهم ما يُتلَى عليهم من آيات الله ﷻ من غير حاجة لترجمان.

وقوله:﴿ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ والتزكية هي التطهير. والذي ينظر في سياق هذه الآية وفي سياق آيات القرآن المشابهة لها يلاحظ أن السياق جاء بتقديم التلاوة والتزكية على التعلم، إلا آية واحدة في سورة البقرة على لسان إبراهيم عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ [البقرة: ١٢٩]، فلماذا جاءت كل الآيات -هذا السياق- بهذا الترتيب؟

إن السياق المتوقع أن يأتي ترتيب المسببات على أسبابها، فيقول: يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب ويزكيهم؛ لأن التزكية تنبني على التلاوة والتعليم، فيتزكون بذلك، ولكن الآية قالت: يتلو عليهم الآيات ويزكيهم ! ثم يتعلمون الكتاب ؟ لماذا قدمت الآية التزكية؟ الجواب: لأن المقصود من هذه التلاوة التي يتلوها عليهم ﷺ هو تزكية النفس وتطهيرها.

ولما كانت هذه الآية في سياق منة الله تعالى على المؤمنين قدمت التطهير والتزكية على العلم؛ ليبين أن المقصود من العلم هو التطهير والتزكية، فكانت المنة العظمى في تزكيتهم بهذا العلم، وتربيتهم به، وتطهيرهم بتلك التلاوة؛ حتى صاروا طاهرين مطهرين طيبين، كما قال المولى: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ [الزمر: ٧٣].

أما آية البقرة فجاءت على الترتيب المتوقع: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ [البقرة: ١٢٩] لأن هذا دعاء إبراهيم؛ فيدعو فيه بالواقع الذي يرجوه من الله تعالى، فطلب من الله تعالى أن يرسل رسولاً يتلو عليهم ويعلمهم ويزكيهم، وهو الترتيب الواقع في الدعاء والطلب من الله تعالى؛ لذلك دعا به إبراهيم بخروج النبي ﷺ.

وقوله: ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ والمقصود من تعليم الكتاب أمرهم بحفظ ألفاظه؛ لتكون معانيه حاضرة عندهم، مع تبيين مقاصد القرآن الكريم التي هي مقاصد الشريعة التي ينبغي على كل أحد أن يتعلمها بقدر استطاعته، أو بقدر ما يتفرغ لها إن كان متفرغا للعلم الشرعي؛ فإنه يتعلم كل ذلك فرضًا على الكفاية، وغيرهم يتعلمون ما يستطيعون.

أما تعليم الحكمة فمعناه الأول: تعليم السنة، وهو قول الإمام الشافعي -رحمه الله- وهذا رأيه في كلمة (الحكمة) عندما تأتي ملتصقة بالكتاب وهو مناسب لهذه الآيات، كما قال في سورة الأحزاب: ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾ [الأحزاب: ٣٤] فما الحكمة التي ستذكر في بيوت زوجات النبي ﷺ غير السنة؟ وهل أنزل الله تعالى عليهم شيئا آخر غير الكتاب وسنة النبي ﷺ على سبيل الذكر والتذكر، وعلى سبيل القيام بها ؟

المعنى الثاني أن المراد بالحكمة ما اشتملت عليه الشريعة من تهذيب الأخلاق وتقنين الأحكام، وهو معنى أعم؛ لأن ذلك كله مانع للأنفس من سوء الحال واختلال النظام، وذلك من معنى الحكمة كما في قوله تعالى: ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وقوله: ﴿ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ والمراد بهذا الضلال، الشرك والجهالة والتقاتل وأحكام الجاهلية التي كانوا فيها؛ لذلك كان في إخراجهم من هذا الضلال تمام المنة، ووصف الضلال بالمبين؛ لشدته فكأن الضلال الذي كانوا فيه لا يلتبس بشائبة أو شبهة هدى، بسبب شدة ذلك الضلال؛ فكان حاله مبينًا، كقوله: ﴿ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [النمل: ١٣]. لذلك كانت منة الله عليهم عظيمة بإرساله هذا الرسول ﷺ الذي أخرجهم من هذا الضلال على شدته.

ومنة الله تعالى بعود المؤمنين لدينهم في أي زمان بعد ما كانوا فيه من البعد عن طريقه تشملها هذه الآية الكريمة.

وكما علمنا، فإن القارئ للقرآن الكريم ينبغي أن يعلم أنه المخاطب بهذه الآية الكريمة، فعندما يقول سبحانه وتعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ

﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤] فقد علمت أن الله تعالى امتن عليك بهذا الرسول، وعلمت المنة التي كانت من أن الرسول من أنفسهم، وعلمت المنة بالتزكية، وبتعليم الكتاب والحكمة وبإخراجك من الضلال، استوجب ذلك منك أشياءً:

منها: شكر الله تعالى على هذا النبي الذي أرسله إليك، بتوقيره، وتعظيمه ومحبته وتقديره وتعزيره ﷺ، وكذلك ببذل النفس والمال دون هذا النبي -صلوات الله وسلامه عليه- ثم اتباع سنته، والتزام هديه، والقيام بتفاصيل ذلك ظاهرًا وباطنًا، ثم الدعوة إلى سنته، ونشر دينه، والمجاهدة تحت لوائه ﷺ، إلى آخر المعاني التي تدل على أنك قد شكرت هذه المنة.

ثم المنة التالية التي يجب شكرها: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ فهذه الآيات المتلوة فيها منة على المؤمنين، وشكرها في تلاوة هذه الآيات بآداب تلاوتها، وفهمها، تعظيمها، وتدبرها، ومعرفة الإقبال على الله تعالى، ومعرفة العلم والعمل بهذه الآيات والنصيحة لكتاب الله -تعالى- كما ذكر النبي ﷺ: «**النصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم**»[1].

والمرء يعلم من حاله أنه مقصر في معرفة مقاصد هذا القرآن، ومقصر في القيام بحسن التلاوة له، ومقصر في القيام به آناء الليل وآناء النهار، كما أمر الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩]، وقوله: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، إلى آخر الآيات التي بينت الأمر بالتلاوة، والإقبال على هذا الكلام والتدبر لهذه المعاني والتفكر فيها والقيام بحقها والدعوة لها، النصيحة لكتاب الله تعالى، وكل هذه الأشياء التي لا ينبغي للمرء أن يستمر في التقصير فيها، ولكن أن يجاهد في سبيل القيام بها ونشرها ورفع رايتها؛ حتى يكون قد شكر شيئًا من هذه المنة التي امتن الله بها عليه.

---

[1] – الحديث رواه مسلم (٥٥) من حديث تميم الداري رضي الله عنه، ولفظه: (عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ، أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ. قُلْنَا لِمَنْ؟ قَالَ: لِلَّهِ، ولِكتابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ»).

وكذلك التزكية: فالتزكية ينبغي أن تكون همك الذي لا ينقضي: كيف تتزكى وتتطهر بكتاب الله؟ كيف تصلح أحوال نفسك؟ فالكثير يشكون من سوء أحوالهم، وكثرة تفريطهم وكسلهم، وازدياد البُعد والجفاء عن الله تعالى، ما هو حل ذلك؟ الله -تعالى- وصف الحل، وبين كيفية التزكية والتطهير لمن أراد أن يطّهر، أو أراد أن يذكّر، أو أراد شكورًا. وأول ما يتزكى به المرء هو تلاوة آيات الله، وكذلك العلم النافع والعمل.

لذلك على من يشكو من سوء حاله أن يعلم أن بداية الإصلاح في كتاب الله: ابدأ بأخذ نورك ورحمتك وهدايتك من تلاوة كتاب الله تعالى، ابدأ بهذه التلاوة كما ذكر الله تعالى، اشكر نعمته ﷻ في تلاوة الآيات، هذه التلاوة كما ذكر تعالى هي التجارة التي لا تبور، خذ من هذه التلاوة الهداية، كما قال: ﴿ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ [فصلت: ٤٤]، وكما قال: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ ﴾ [الإسراء: ٨٢] فشفاؤك ورحمتك التي تنتظرها لهذه الأمراض والعلل، بدايتها في القيام بتلاوة كتاب الله حق تلاوته: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ [البقرة: ١٢١].

الآية الثانية: ثم لا يتبعون ما أنفقوا منًا ولا أذى

إن قضية إنفاق المال من القضايا التي عالجها القرآن الكريم في أكثر من موضع، والسبب في ذلك أن إنفاق ما دون المال أسهل، فإذا أنفق المرء ماله سهل عليه أن ينفق ما هو دون المال: لأن أعلى شيء يحصله المرء هو المال والولد؛ لذلك قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [المنافقون: ٩] فلما ذكر الأموال والأولاد، دل ذلك أنه ليس هناك فوق الأموال والأولاد شيء، فإذا لم يلهه المال والولد فما دونه من باب الأولى لا يلهه عن ذكر الله تعالى.

فهؤلاء الذين ينفقون الأموال، فإنهم ينفقون ما دون هذه الأموال من باب الأولى، فينفقون جهدهم وطاقتهم ووقتهم، وكل ما يستطيعون إنفاقه من علم وعقل وبذل وسعي وسلطان لمن كان له سلطان، يعين الناس به، أو يرفع عنهم، أو يخفف عنهم، أو يقف لهم.

وأول ما نشير إليه من الآيات الكريمات العظيمات التي تحض على النفقة قوله ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٢٦٢].

ونلاحظ أن أول ما بينته الآية في الإنفاق، أن يكون في سبيل الله؛ لأن المنفق في غير سبيل الله إنفاقه غير مقبول، كما سنذكر بإذن الله تعالى.

ونبدأ في الكلام في هذه القضية من كتاب طريق الهجرتين[1] للإمام ابن القيم؛ لأنه وضح جوانب هذه الآيات سواء فيها ما يتعلق بالمعاني، أو ما يتعلق باللغة.

يقول ابن القيم: فالمن نوعان، أحدهما: مَنٌّ بقلبه من غير أن يصرح به بلسانه، وهذا إن لم يبطل الصدقة فهو من نقصان شهود منة الله عليه في إعطائه المال وحرمانه غيره، وتوفيقه للبذل ومنع غيره منه؛ فلله المنة عليه من كل وجه، فكيف يشهد قلبه منة لغيره؟

والمقصود أن المن بالقلب هو ذلك الذي يجول في صدر المرء ويحدث نفسه به ولا يقوله بلسانه، ولكنه يرى في داخله فعلاً أنه قد أعطى فلانًا، ووهبه، ووقف إلى جواره، وفعل له كذا وكذا، وهي هذه مسألة خطرة: أن يمر بقلبك هذا المن، لماذا؟ قال: لأن لله –تعالى- المنة كلها عليك، فكيف تشهد قلبك منة أخرى لغيره؟ فهذا المن بالقلب إذا لم يبطل الصدقة، فإنه نقصان شهود منة الله عليك. تراك أنت صاحب المال الذي أعطيت لهذا الرجل؟ تراك أنت بنفسك الأمارة بالسوء البخيلة الذي أنفقت؟ كل ذلك من نقصان شهود منة الله عليك. لقد أعطاك الله –تعالى- المال ومنع غيرك، ثم أنت تمنّ بقلبك على غيرك، وتشهد المنة لنفسك ولا تشهد منة لله عليك؟!

وهذا ما علمه النبي ﷺ الصحابة؛ إذ كان يقول يوم الخندق:

والله لو الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا [1]

---

[1] – ابن القيم طريق الهجرتين ودار السعادتين – طبعة مجمع الفقه الإسلامي– دار عالم الفوائد– صفحة ٧٩٤–٧٩٨.

والصحابة في ذلك يطبقون كلام الله، كما قال: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ [النور: ٢١] فلا يستطيع أحد أبدًا أن يتزكى لولا أن الله تعالى هو الذي زكاه.

والعبد لو استغرق قلبه في شهود المنة، لم يبق لهذا القلب أن يشهد غير الله تعالى في أنه هو المعطي والموفق، وأنه كان لو شاء لحرمه، وكان لو شاء ﷻ ما أعطاه، وكان لو شاء ﷻ لجعله كهؤلاء الذين لا يعرفون إلى الله طريقًا ولا سبيلاً.

لذلك ينبغي أن نخرج من قلوبنا المصائب والآفات التي تشهد القلب هذه المعاني السيئة، من أن له مع الله[١] -تعالى- موقفًا، وأن له مع الله تصريفًا، وأن له مع الله -تعالى- بذلاً وعطاء وتصدقًا ومنعًا، وأن له مع الله -تبارك وتعالى- ترتيبًا في الكون، لا.. ليس لك مع الله -تعالى- في ذلك شيء، وأنت مسكين، وأنه لولاه ﷻ ما كان منك عمل.

والنوع الثاني من المنة-كما قال ابن القيم-: أن يمن بلسانه؛ فيعتدي على من أحسن إليه بإحسانه، ويريه أنه اصطنعه، وأنه أوجب عليه حقًّا، وطوقه منة في عنقه؛ فيقول: أما أعطيتك كذا وكذا !

وهذه القضية لا يخلو منها أحد إلا من رحم الله تعالى! لا يكاد يخلو أحد إلا وهو شاهد أنه قد امتن على فلان، وأنه أعطى فلانًا، وأنه وهب فلانًا، وأنه وقف لفلان، وأنه عمل لفلان، ويظهر ذلك عندما يحدث موقف عكسي، بمعنى: عندما تنتظر من ذلك الذي تظن أنك فعلت

---

[١] – رواه الإمام مسلم (٤١٠٤)، يرويه من حديث البراء رضي الله عنه، ولفظه: (عَنْ الْبَرَاءِ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يَنْقُلُ التُّرَابَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ حَتَّى أَغْمَرَ بَطْنَهُ أَوْ اغْبَرَّ بَطْنُهُ، يَقُولُ:

وَاللَّهِ لَوْلَا اللَّهُ مَا اهْتَدَيْنَا ... وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا

فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا ... وَثَبِّتْ الْأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا

إِنَّ الْأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا ... إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا ، وَرَفَعَ بِهَا صَوْتَهُ أَبَيْنَا أَبَيْنَا).

له شيء أن يرده لك، فيخذلك ولا يعطيك مثلاً، أو تصاب، فإذا به يتنكر لك ولا يزورك مثلاً، أو إذا كذا وكذا، هنا يكون الامتحان الذي يبين أنك فعلت لله، وأنك تنتظر العوض من الله ﷻ، أو أنك على غير ذلك.

يقول ابن القيم: ويعدد أياديه عنده، ومعناه: يعدد نعمه عليه: فيذكره بنعمه، كما يحدث هذه الأيام، فيقول: أنا فعلت وفعلت، انظر كيف أهملني الناس ولم يفعلوا وانظر إلى أخلاقهم وكذا وكذا !

قال عبد الرحمن بن زياد[1]: كان أبي يقول: إذا أعطيت رجلاً شيئًا، ورأيت سلامك يثقل عليه فكُف سلامك عنه، والمعنى: لا تفعل حتى السلام، إذا كان ذلك سيؤدي بك إلى أن يكون سببًا للمنّ عليه، أو سببًا لأن يتذكر هو موقفه الضعيف عندما كنت تمنّ عليه، أو عندما كنت تعطيه، أو تفعل له، فليس المقصود النهي عن السلام، ولكن المقصود هو تحقيق الإخلاص في العمل وعدم الأذى.

فانظر كيف راعى الإسلام وراعى الرسول، وكذلك الصحابة والتابعون هذه الأخلاق: وذلك ليتعلم أهل الإيمان كيف يكون عوضهم عند الله تعالى، فلا يعددون النعم على من أعطوه: لأنهم عند ذلك لا يكون عوضهم على الله تعالى، ولكن كأنهم يستبدلون العوض الذي ينتظرونه من الله بتعديد النعم على من صنعوا له صنيعًا أو أعطوه شيئًا.

وقد كان السلف يقولون: إذا صنعتم صنيعة فانسوها، ومعناه: الذي يعمل عملاً معروفًا لأحد... ينساه، لماذا؟ لأن الله تعالى يذكره، وقد كتبه لك في صحيفتك، وسيكافئك عليه أعظم المكافأة، فماذا تنتظر من العبد الفقير المسكين الذي لا يملك لنفسه شيئًا ؟

وفي ذلك قيل:

وإن امرءًا أهدى إليّ صنيعة وذكَّرَنيها مرة لبخيل

---

[1] – هو شيخ أفريقية وقاضيها وأول من ولد بها من المسلمين عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الشعباني الأفريقي الزاهد الواعظ، روي عن أبي عبد الرحمن الجبلي وطبقته، وقد وفد على المنصور فوعظه بكلام حسن، وليس بقوي في الحديث، توفي سنة ست وخمسين ومائة (انظر شذرات الذهب) .

وقيل:

صنوانٌ مَن مَنَح سائلَه ومَنَّ أو مَن منَع سائلَه وضَنَّ

يقول الإمام ابن القيم: وحظر الله -تعالى- على عباده المن بالصنيعة، واختص به صفة لنفسه؛ لأن المن من العباد تكدير وتعيير، ومن الله ﷻ إفضال وتذكير.

فإن الله -تعالى- إذا ذكَّرك بنعمه إنما يذكرك بفضله، وأنه اختصك من دون الناس بهذا الفضل، وهذا شرف لك ورفعٌ لمقامك، وتقديرٌ من الله ﷻ لك، وأخذٌ بيدك إلى الله تعالى، وتذكيرٌ لك بهذه النعم؛ لتشكره عليها، ولتصرفها في مرضاة الله تعالى، وكذلك تذكير لك بألا تصرفها في معاصيه؛ لئلا تمحق هذه النعم؛ لذلك لا ينبغي أن تنسب المنّ لنفسك.

يقول ابن القيم: وكذلك الامتنان استعباد وكسر وإذلال لمن يمنّ عليه، ولا تصلح العبودية والذل إلا لله.

فإن كنت تريد أن تذل من مننت عليه، وأن تكسره، وأن تستعبده بهذه المنن؛ فذلك كله لا يصلح إلا لله تعالى، كيف تتصور نفسك في هذا المقام من مقامات الألوهية؟

وأيضًا فالمنة أن يشهد المعطي أنه هو رب الفضل والإنعام، وأنه ولي النعمة ومسديها، وليس ذلك في الحقيقة إلا لله تعالى؛ فإن مننت فقد حُزت لنفسك الأمّارة بالسوء هذه صفة من صفات الرب جل وعلا.

وأيضًا فالمان بعطائه يشهد نفسه مترفعًا على الآخذ، مستعليًا عليه، غنيًّا عنه وعزيزًا، ويشهد ذل الآخذ وحاجته إليه وفاقته، ولا ينبغي ذلك كذلك للعبد.

أما إذا فعلت لك أنت الصنيعة فلا تنسها؛ لأن من حسن عهد المؤمنين أن يتذكروا الذي فعله لهم إخوانهم؛ ليشكروهم عليه؛ لأنه من لم يشكر الناس لم يشكر الله تعالى [1]، فهذا هو حسن الأدب وعنوان الأخلاق الحسنة.

---

[1]- الحديث رواه الترمذي (٣٥٢٤) ولفظه: (عنْ أبي سعيد قال: قال رسُولُ اللهِ -صلّى اللهُ عليْه وسلّم-: مَنْ لَمْ يَشْكُرْ النّاسَ لَمْ يشْكُرْ اللّهَ) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

انتظار ثواب العطاء يكون من الله تعالى

فالذي يعطي، قد أعطى ليتولى الله تعالىثوابه. أليس كذلك؟ فإن أعطيت امتثالاً لأمر الله، ومحبة لله تعالى، وإنفاقًا من مال الله الذي آتاك، وغير ذلك من هذه المعاني الحسنة ترجو بها ثواب الله تعالى: فأنت قد وليت الله تعالىأن يرد لك هذا الثواب، وأن يأجرك بهذا العوض، وأن يرد عليك أضعاف ما أعطيت؛ فبقي لك عوض ما أعطيت عند الله تعالى، فأيّ حق بقي عند الآخذ حتى تعيره؟ أو تجعله يثني عليك أو يمدحك؟ أو أن ترفع عن نفسك المذمة ؟

لذلك فإذا امتننت عليه فقد ظلمته ظلمًا بينًا، وادعيت أن لك حق عليه؛ لذلك يقول ابن القيم: ومن هنا -والله أعلم- بطلت صدقته بالمن، لماذا؟ لأن ثوابه وعوضه عند الله، فإذا منَّ على آخذ العطاء؛ فقد أخذ عوضه منه وآذاه، فذهب العوض الذي له عند الله تعالى. انتهى. ومن هنا بطلت هذه الصدقة كما قال الله تعالى: ﴿ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وليس الأمر موقوفًا على المن بالمال، وإنما ذكر المن بالمال؛ لأنه أعلى ما يمتن به المرء؛ لذلك ذكره القرآن الكريم تنبيهًا على غيره من المن. فالمن بغير المال مذموم كذلك، كما قال تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ ﴾ [الحجرات: ١٧].

فلو جاء من يمن بصلاته، أو عبادته، أو ببعض المجهود الذي يبذله، فيقول: قد صليت وتصدقت، وأنا أقوم الليل وأقرأ وردًا من القرآن، وأقول أذكار الصباح والمساء، ولكن أحوالي سيئة. لماذا؟ الجواب: من يقول ذلك فهو يمتن بهذه الأعمال على الله تعالى كما منَّ أولئك على الله تعالى بإسلامهم. فكأنه يقول: أنا صليت، أين جزاء الصلاة الوارد في الحديث؟ قد قلت الأذكار، ومن قال: سبحانه الله وبحمده مائة مرة، غفر له [1]، ومن قال: لا إله إلا الله، وحده لا

[1] – الحديث رواه البخاري (٦٤٠٥) ومسلم (٢٦٩١) ولفظ رواية البخاري: (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَ: مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ حُطَّتْ خَطَايَاهُ، وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ).

شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. كان في حرز من الشيطان حتى يمسي[1]، أين هذه النتائج؟ وأين هذه العواقب الحسنة؟ لماذا لم يحدث لي ذلك كله؟

فكأنه يرى لنفسه حقًّا في هذا الثواب، وكأنه هو الذي ذكر بنفسه، وهو الذي صلى بنفسه. وقد ذكرنا عكس ذلك! لذلك قال: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣] فكل هذه النعم من الله تعالى؛ لذلك فمن يرى نفسه قد فعل ويمن بهذا الذي فعله، دل ذلك أن ما فعله ليس نعمة من الله في حقه. بمعنى أدق: أنه على الحقيقة لم يُصَلِّ ولم يصم ولم يفعل، لأن ما فعله لم يكن ابتغاء وجه الله تعالى. وذلك مثل أول من تسعر بهم النار يوم القيامة الذين ذكرهم النبي في قوله[2]: « **إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ** »: فحالهم: رضيتم بأن تعوضوا من العبيد وتركتم عوض الله تعالى فبطل جزاؤكم عنده.

---

[1] – الحديث رواه البخاري (٣٢٩٣) ومسلم (٢٦٩١) ولفظ رواية مسلم: (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَ: مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، وَمَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ حُطَّتْ خَطَايَاهُ وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ).

[2] – الحديث رواه مسلم (١٩٠٥)

ونذكر هذه المسائل، لأنه لن يتقدم أحد في طريق معرفة الله تعالى إلا بأن ينمو ثوابه، وأن يرى بركة هذا الثواب من الله تعالى، وأن يرى حسن معاملته لله، حتى يكافئه الله تبارك وتعالى على هذه المعاملة الحسنة بأضعاف مضاعفة، ويجازيه أعظم الجزاء: فتنمو أعماله، وتزكو أحواله، ويخلص قلبه، ويتقدم في السير إلى الله، ويرى بركة ذلك في سيره وفهمه وعلمه وعقله وماله وولده وأهله، فيكون عمله وعطاؤه لله تعالى، خالصًا بينه وبين ربه، لا ينتظر من الخلق شيئًا كثيرًا ولا قليلاً، وإنما يهمه صلاح نفسه وتهذيب عمله، وإقبال قلبه على الله ﷻ، ومسارعته إلى ربه ﷻ، فيرى العاقبة الحسنة لذلك.

يقول ابن القيم: فتأمل هذه النصائح من الله لعباده، وتأمل كذلك دلالته ﷻ على ربوبيته وإلهيته وحده، وأنه ﷻ يبطل عمل من نازعه في شيء من ربوبيته وإلهيته ولا يبالي، فهو سبحانه لا إله غيره، ولا رب سواه.

المجاهدة وأثرها في حفظ العهد على ترك المن

وهو متعلق بقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى ﴾ [البقرة: ٢٦٢].

ف(ثم) تفيد التراخي، فلو أنفق اليوم ولم يؤذ المنفَق عليه، ثم جاء بعد سنة وذكَّره إنفاقه كان ذلك سببًا في حبوط عمله. يقول ابن القيم: وفيها فائدة أن المن والأذى -ولو تراخى عن الصدقة وطال زمنه- ضرٌّ بصاحبه، ولم يحصل له مقصود الإنفاق؛ وهي المسألة المهمة التي نفصل فيها شيئا ما.

وذلك لأنه مع طول العهد، ينسى المرء أنه كان يعامل ربه وينتظر منه الثواب، فإذا صادف ذلك صنيع سيئ من إخوانه؛ إذا بالمرء يتذكر لهم ما كان، ويمن عليهم بعد فترة طويلة من ترك المن، فيضيع ثوابه ويحبط عمله! فإن أنفقت اليوم وبعد سنة مننتَ، ضاع الإنفاق الذي أنفقته اليوم وأنت لا تدري !

فالكثير -إلا من رحم الله أيضًا- عندما يسمع هذه النصائح، ويحفظها زمنًا ما، إذا به عندما تأتيه نصائح أخرى، أو عندما تأخذه الدنيا وتنجرف به الأحوال، إذا به ينسى ما كان فيه من قبل من حسن المعاملة مع الله تعالى، ومن ترك المن، ومن ترك الأذى، ومن الإخلاص في

معاملته لله تعالى، ومن حسن المعاملة، وانتظار العوض من الله، ثم يعود مرة أخرى إلى الأخلاق المرذولة والمعاملة السيئة.

وقد يغلبه شيطانه ويسول له، خاصة إذا وقع من إخوانه موقفًا يحزنه أو يضايقه فيقول : "وأنا ماسك نفسي ومش عايز أتكلم، يعني نسوا اللي أنا عملته؟" فيوقعه الشيطان فيما جاهد نفسه على تركه طويلاً. أليس هذا صحيح؟

وهذه المسألة تحتاج إلى مجاهدة النفس ومحاسبتها، فكلما عرض له عارض المن والأذى وتذكر الصنيع الذي صنعه، إذا به يجاهد نفسه على تذكر نصائح الله له، وتذكر دلائل العبودية والإلهية، وتذكر حبوط العمل الذي يحبط بالمن والأذى. وكذلك ينبغي على المرء أن يستعين بربه ﷻ أن يصلح من نفسه هذه الأحوال السيئة والأخلاق الرديئة.

والقضية المهمة المرتبطة بذلك هي قضية أخذ العهد مع الله تعالى، فأخذ العهود والمواثيق بداية طريق المجاهدة. فمن لم يأخذ العهد على ترك المن مثلًا، فما الذي سيدفعه على مجاهدة نفسه بعد ذلك على ما أشرنا إليه من تذكر النصائح والدلائل؟

فأصحاب المجاهدة يأتي لهم الشيطان في هذه المسائل التي عاهدوا الله –تعالى- عليها فلا يزال بهم حتى ينقضوا عهد الله ﷻ، وذلك بخلاف مَن هم أقل منهم درجة من أهل الإيمان، الذين لا عهود لهم ولا مواثيق مع الله تعالى يجاهدون أنفسهم عليها، فهؤلاء يوقعهم في المعصية، أو ترك العمل الصالح، أو عدم السير إلى الله تعالى. أما أصحاب المجاهدة الذين في الدرجة الأعلى، فلا يزال بهم حتى يوقعهم في فصم العهود ونقض المواثيق التي أكدوها مع الله تعالى؛ بحيث يرجعون في عهدهم مع الله، ويقع بذلك النفاق في قلوبهم كما ذكر الله ﷻ: ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ ﴾ [التوبة: ٧٥-٧٦] حتى قال: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ [التوبة: ٧٧]، فهؤلاء لا يتركهم الشيطان حتى ينقضوا عهدهم مع الله تعالى.

وتأمل نفسك، فإذا لم يكن لك عهد مع الله تعالى، وكانت أمورك تسير كما اتفق، فلا تشعر بوسوسة الشيطان ولا بضغطه عليك، أما إذا عاهدت الله تعالى ولو على شيء بسيط، مثلًا أن تصلي كل يوم صلاة الضحى أربع ركعات، تجد الشيطان قد وقف لك، "ويبقى أسبوعك

مش فايت" فتأتي أول يوم فتصلي أربع ركعات بالكاد، وفي اليوم التالي يأتي الشيطان ولا يزال يقول لك: لا تصلِّ الآن، انتظر بعدما تخرج من الجامع! انتظر حتى تفطر! انتظر حتى تنام، ثم تقوم للشغل! انتظر حتى قبل الظهر فأنت في إجازة ! ولايزال بك حتى لا تصلي هذه الركعات! أليس كذلك؟!

الحل إذن في هذه المسألة بعد الاستعانة بالله تعالى، أن يقف المرء مع نفسه هذه الوقفة، فيجاهدها على ألا ينسى عهد الله، وأن يرى ثواب الله –تعالى- في هذا الثقل، وأن يعلم أن كيد الشيطان ضعيف، وأن يصبر ويصابر ويرابط حتى يعبر هذه المسافة الصعبة التي وقف له فيها الشيطان؛ فإذا بقلبه يسلم ويقوى، ويضعف كيد الشيطان عنده، ويستقيم سيره إلى الله تعالى.

فائدة: على المرء ألا يثقل على نفسه العهود. بمعني: ألا يقول مثلًا: لو فعلت كذا سأصوم شهرًا، ولو وقعت في كذا سأتصدق بمبلغ كبير؛ لأنه عند ذلك سيجد أنه سيصوم السنة كلها، ولن يجد معه نقود يدفعها في الوفاء بهذه العهود، فلا يستطيع أن يتابع سيره إلى الله تعالى: ويعينه على ضبط أحواله فيما يتعلق بذلك أمران:

الأول: **أن يسأل ويقتدي ويتعلم كيف يحاول ويجاهد ويقطع الطريق، ويقطع قواطع الشيطان ويقوى عليها.** الثانية: **أن يأخذ أموره في هذه القضايا** بما يستطع على الحقيقة.

فلا هو يُثقل عليها، وكذلك لا يتبع نفسه الأمارة بالسوء ! وذلك لأنه قد يقدر على صلاة عشر ركعات، بلا مشقة ولا ثقل على نفسه، فتأتي له نفسه الأمارة بالسوء فتقول له: يكفيك ركعتين! وتأتي له في الغد فتقول: إن شاء الله نم ساعة ثم تقوم لتصلي ركعتين ! لا مشكلة في ذلك! فينام ولا يصلي ركعتين ولا غيره، فتضيع عليه نفسه الخير وتخرجه عن العهد الذي أخذه.

فينبغي للمرء عندما يريد المجاهدة، أن يجاهد نفسه فعلا على هذا الحال الذي يستطيع، ويحذر من وسوسة الشيطان التي تحمله على التقلل من مواد خيره، ومن مادة حياته وقربه لله تعالى، ومحبته له. وكذلك تقلل الوسوسة من رزقك وقوتك ومددك إلى الله تعالى: لأن الشيطان يعلم أنك لو استمددت هذا المدد فلن يستطع أن يقوى عليك، ولا يستطع أن يكون له عليك سبيل من تلك السبل التي بها يخرجك ويعيدك مرة أخرى إلى عدم السير إلى الله تعالى.

عاقبة ترك المن والأذى

وتأمل هذه المسألة وكيف تبينها الآية. قال تعالى: ﴿ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ ﴾ [البقرة: ٢٦٢]، الآية الثانية: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ ﴾ [البقرة: ٢٧٤] والفرق بين الآيتين، فيما يخص الجزاء، أن الآية الأولى: ﴿ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ ﴾أما الثانية: ﴿ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ ﴾ فزاد فيها "فاء".

وابن القيم يقارن بين عدم الفاء هنا، وبين وجود الفاء هنا؛ ليتبين جمال القرآن، وأن الفاء لما حُذفت في الأولى كان لها معنى، ولما أضيفت في الثانية كان لها معنى آخر. يقول: إن الفاء الداخلة على خبر المبتدأ الموصول أو الموصوف تفهم معنى الشرط والجزاء، وأنه مستحق بما تضمنه المبتدأ من الصلة أو الصفة، فلما كان هاهنا يقتضي بيان الحصر المستحق الجزاء دون غيره جرد الخبر عن الفاء.

وملخص كلام ابن القيم أن قوله تعالى: ﴿ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ ﴾ لما جردها عن الفاء أفادت معنى أن المستحقين لثواب النفقة هم فقط الذين ينفقون بغير من ولا أذى، فهؤلاء هم الذين لهم الأجر وليس للذين ينفقون بغير ذلك. فالذي ينفق ماله لله ولا يمن ولا يؤذي هو الذي يستحق الأجر المذكور، لا الذي ينفق لغير الله تعالى، ويمن ويؤذي بنفقته، فليس المقام مقام شرط وجزاء، بل مقام بيان لمن يستحق دون غيره.

أما في الآية الأخرى فيقول تعالى: ﴿ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ ﴾ بمعنى أن الموصول هنا له شرط أو صفة، وهذا الشرط أو الصفة متعلق بها الجزاء، فلو تحقق فيه الشرط؛ تحقق الجزاء، أو لو تحققت الصفة تحقق الجزاء. وذكر فيها الإنفاق بالليل والنهار سرًّا وعلانية، وهو عموم الأوقات والأحوال، فأتى بالفاء في الخبر؛ ليدل على أن الإنفاق في أيّ وقت من ليل أو نهار أو على أي حال، فإنه سبب للجزاء على كل حال، فليبادر إليه العبد ولا ينتظر به غير وقته وحاله، ولا يؤخر نفقة الليل إذا حضر إلى النهار، ولا نفقة النهار إلى الليل، فإن نفقته في أي وقت إذا وجدت كانت سببًا لأجره وثوابه.

فلو أنفق بالليل أخذ جزاءه، ولو أنفق بالنهار أخذ جزاءه، سرًّا أخذ جزاءه، علانية أخذ جزاءه؛ فدخلت الفاء: لتبين أنه على أي الأوقات وفي أي الأحوال. فإن من أنفق فإنه يستحق أجر الإنفاق لوجود الحال التي يستحق عليها ذلك الأجر.

فالآية الأولى تبين المستحق للجزاء، والآية الثانية: تبين الوقت والحال الذي يأخذ عليه هذا الجزاء، ومحصلتهما سويًا، أن المرء لو أنفق ليلاً أو نهارًا سرًّا أو علانية، يأخذ ثوابه، ألا يكون مانًّا، أو أن يكون مؤذيًا.

وفي النهاية، فانظر إلى عاقبة ذكر العبد ربه باسمه المنان ليتنزل الدواء على الداء الدفين في القلب، وهو حب الظهور والشهرة وتعديد الأيادي على من أنفق عليهم؛ فإنه جزاءه كما يقول: ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ [البقرة: ٢٦٢]، مثلهم لا يُخاف عليه، فلم تقل الآية: "لا يخافوا" لكن ذهبت إلى أبعد من ذلك، وهو أنهم لا يُخاف عليهم، فكأنه يقال: دعهم بينهم وبين ربهم فإنهم: ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ انتهى أمرهم إلى الله تعالى، بألا خوف عليهم.

وإن قيل لهم ذلك حال فراق الدنيا كما جاء في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠] فلا يخافون مما هم مقبلون عليه، ولا يحزنون على ما فاتهم من الدنيا، فلا يحزنون هم على أولادهم أن يحصل لهم كذا وكذا، ولا يحزنون على ما فاتهم من الدنيا، ولا يخافون مما هم مقبلون عليه من أمر الآخرة.

الآية الثالثة: لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى

هذه الآية ليست تكرارًا للآية السابق شرحها؛ فذلك لا يتسق مع بلاغة القرآن وعلوه وشرفه وعظيم قدره، ولكن فيها فوائد جديدة ومعانٍ تكمل المعاني الواردة في الآية السابقة، قال سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ

وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦٤] وسوف نفصل بعض الشيء في تفسير الآية السابقة لهذه الآية في السياق القرآني وهي قوله تعالى: ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ۗ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٣]، ونواصل شرح الآيات من كتاب طريق الهجرتين للإمام ابن القيم.

فبعد أن بيَّن قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٢٦٢] كيف يضبط المرء أخلاقه في الإنفاق، جاء قوله تعالى: ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ﴾ ليوضح ذلك المعنى الجديد، وهو: أن الصدقة المقرونة بالأذى حسنة ولكنها مقرونة بما يبطلها، فالقول المعروف مع ترك الأذى أولى من الحسنة والأذى، ولا ريب أن حسنتين خير من حسنة باطلة.

فلو أعطيت سائلًا، ولكن أعطيته بطريقة جَعَلته يأخذ منك وهو متضايق: فيقول لك مثلًا: "ربنا يغنينا عنك، الذي أعطاك يعطينا ": فالآية تعلمك كيف يكون خلقك مع من أساء إليك في القول، مع أنه قد أخذ منك ما أعطيته إياه.

نبدأ بقوله: ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ فالمعروف يعني: الذي تعرفه القلوب ولا تنكره، ولا يشترط أن يكون القول المعروف من صغير أو كبير، ولا يشترط أن يكون هذا القول مما يؤخذ عليه حسنات أو يدفع عنه سيئات. فلو أتى الصبي بفعل تعرفه القلوب ولا تنكره فهو معروف، مع أن الصبي ليس مكلفًا بهذا الفعل؛ لذلك كان المعروف والمنكر أعم من السيئة والحسنة؛ لأن المعروف والمنكر ممكن أن يقع من غير المكلف، وممكن أن يكون المعروف والمنكر مما يعرفه الشرع ولم يحدد له ثوابًا أو عقابًا في إتيانه أو في تركه.

وقوله: ﴿ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ هي العفو عمن أساء إليك، ﴿ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ﴾، فلو أساء إليك السائل بعدما أخذ معروفك؛ فإن القول المعروف له والعفو عن هذه الإساءة خير

من الصدقة التي يتبعها أذى، فلو جفا عليك السائل فإن عفوك عن السائل خيرٌ لك من أن تعطيه وتؤذيه.

لذلك يقول ابن القيم: فالقول المعروف: إحسان وصدقة بالقول، والمغفرة: العفو عمن أساء إليك بترك المؤاخذة، فلا تقابله بإساءته؛ فهما نوعان من أنواع الإحسان.

من أراد أن يفتح الله ﷻ له باب عبادته وتوحيده باسمه المنان، وينزل عليه بركته، ويرى أثر هذا المنان في إيصال ما يوصله الرب ﷻ لعبده من أنواع الكرامات والبر والإحسان والصلة، نقول له: اضبط تصرفاتك؛ بأن تكون هذه التصرفات على هذه الأخلاق، بأن تحقق في نفسك القول المعروف والمغفرة والتجاوز والعفو، وأن تتعلم قول المعروف مطلقًا، كما قال الله تعالى: ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة: ٨٣].

وذلك ذكرناه في اسمه الرفيق ﷻ، كيف يكون المرء رفيقًا في كل شيء؟ كما قال ﷺ: **«إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ»**[1]، و**«مَهْلاً يَا عَائِشَةُ: فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ»**[2]، و**«يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ»**[3].

وضابط العطاء والمنع: ألا يكون لهوى؛ فالمعيار والمحك الذي يتميز به المرء عمل أن يكون لله تعالى، فلو أنه كان يعطي فلانًا لفقره وهو قريب له، فلما أذاه وتكلم عليه واغتابه أو وقع في عرضه أو شتمه إذا به يمنع عنه، يقول له: والله لن أعطيك طالما أنك قليل الأدب ولسانك سيئ، ومعاملتك سيئة، كنت أحسبك رجلاً طيبًا وتستحق، فإذا بك لا تستحق!

---

[1] – رواه مسلم (٢٥٩٤) عن عائشة رضى الله عنها.

[2] – رواه البخاري (٦٢٥٦) ومسلم (٢١٦٥) ولفظه: (عَنْ عَائِشَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا– قَالَتْ: دَخَلَ رَهْطٌ مِنْ الْيَهُودِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكَ. فَفَهِمْتُهَا، فَقُلْتُ: عَلَيْكُمْ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَهْلاً يَا عَائِشَةُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَقَدْ قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ).

[3] – رواه مسلم (٢٥٩٣) عن عائشة رضى الله عنها.

فعليك أن تتعلم مطلقًا أن تكون المغفرة التي غفرتها، والعفو الذي أسديته كذلك سببًا في أن يعفو الله عنك، وأن يغفر لك كما قال: ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ [النور: ٢٢] وذلك لما منع الصديق رضي الله عنه[1] رِفْده عن مسطح لما تكلم في السيدة عائشة رضي الله عنها[2].

فالفيصل في هذه المسألة: أن تكون لله بحيث تتنزل عليك بركة الله، وأن تعطي على الغضب والرضا، وأن تصل على الغضب والرضا، فإن كنت تصلُ أحدًا أو تزوره فإذا حدث منه حادث منعت زيارته، وقطعت رفدك عنه، وأوصدت الباب في وجهه، فهذا لا ينبغي أبدا. فالمعيار والمحك الذي يبين كيف يطلب المرء من ربه ﷻ باسمه المنان أن يتحقق بالصفات المطلوبة: أن يكون عطاؤك ومنعك لله تعالى، إن تحقق ذلك كان سببًا لأن يقبل الله من المرء دعاءه، وأن يفتح عليه، وأن ينزل عليه بركة هذا الاسم، وظهور آثاره علي المؤمن.

وختمت الآية بصفتين مناسبتين لما تضمنته المعاني الموجودة فيها وهي قوله: ﴿ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾، وذكر ابن القيم معنيان في ذلك:

المعنى الأول: أن الله غني عنكم، لن يناله شيء من صدقاتكم، فهو الذي أعطاكم هذه الصدقات، وأن المال هو مال الله ﴿ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ [الحديد: ٧] كما

---

[1] – قال تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوٓا ﴾ [النور: ٢٢]. ولا يأتل: يعني لا يحلف أبدا، لماذا؟ قال: ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ [النور: ٢٢] فقال سيدنا أبو بكر : بلى أحب أن يغفر الله لي، وأعاد لمسطح ما كان ينفقه عليه من قبل، وكأن شيئا لم يحدث، وحدث التجاوز وحدثت المغفرة وحدث العفو عن الإساءة، لأنه يحب ما عند الله ومعاملته لله، وإن كان قد غضب –رضي الله عنه– على مسطح لما تكلم في زوج النبي، وهي ابنة الصديق رضي الله عنه، ولكن الله –تعالى– لا يرضى لعلية المؤمنين وأوليائه الصالحين إلا أن يكونوا في أعلى الأخلاق وأفضلها وأكملها وأزكاها وأنماها وأشملها!

[2] – حديث الإفك المعروف الذى رواه الإمام البخاري معلقًا تعليقًا مجزومًا به مطولا في قصة حادثة الإفك (٢٦٦١) ورواه مسلم متصلاً (٢٧٧٠).

أمر. فليس لكم من ذلك شيء لا في الإنفاق ولا في قبول النفقة إذ أن قبولها محض فضل الله تعالى. وهو مشابه لما جاء في قوله: «أبوء لك بنعمتي عليّ، وأبوء بذنبي»[1] فيدخل العبد على الله تعالى من باب الإفلاس الصرف والفقر المحض يبوء له بالذنب، ويعترف له بالنعمة والإحسان، ويسير إلى الله بين هذين الجناحين، مشاهدة منة الله عليه وإحسانه ومطالعة عيب النفس، ويستوجب ذلك له الشكر، والمحبة من ناحية، والذل والتفتيش في عيوب النفس من ناحية أخرى.

لذلك قال هنا: الله غني عنكم، لن يناله شيء من صدقاتكم، وإنما الحظ الأوفر لكم في هذه الصدقة: فنفعها عائد إليكم، لا إليه سبحانه، فكيف يمن المرء بنفقة ويؤذي، مع غنى الله التام عنها وعن كل ما سواه؟

وقوله: (حليم) يفيد أنه مع الخلق السيئ الذي تبدونه من المن فهو سبحانه حليم: إذ لم يعاجل المنان بالعقوبة، فيحلم على عباده العصاة، لعلهم يرجعون، ويتذكرون، ويتوبون إليه.

وهذا الختام فيه أيضاً وعيد وتحذير، فاحذر إن كنت تمن بعملك أو بقولك أو بمالك أو بعلمك أو بغير ذلك فالله ﷻ غني عنك وعما قدمت، وأنه يحلم عنك ويحلم عنك ويحلم، ثم بعد ذلك يأخذك ﷻ أخذ عزيز مقتدر. فكأن هذه الآية تتضمن كذلك الوعيد والتحذير من الله تعالى، أن يتمادى المرء في هذا الخلق، أو أن يستمرئه ويسير عليه، بل لا بد أن يعاجل نفسه بالتوبة، وأن يوقف نفسه عند حدها: تراجع ربها ﷻ، وتقوم بما يكون سببًا في صلاحها.

المعنى الثاني: أنه ﷻ مع غناه التام من كل وجه فهو الموصوف بالحلم والتجاوز والصفح مع عطائه الواسع وصدقاته العميمة. وكأن المعنى في ذلك: أن العبد الجاهل مع غناه، ليس غنيًّا على الحقيقة، بل فقير ولا يتصف بالحلم والتجاوز، بل على العكس يؤذي السائل ويمن عليه،

---

[1] – رواه مسلم (٢٥٩٣) ولفظه: (عَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ الْحَصِيبِ عَنْ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَ: «مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ أَوْ حِينَ يُمْسِي: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ بِنِعْمَتِكَ وَأَبُوءُ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ فمات مِنْ يَوْمِهِ أَوْ مِنْ لَيْلَتِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ»).

ومن باب أولى أن يكون العبد الفقير المقصر المفرط، أكثر حلمًا في معاملة الفقراء، أليس كذلك؟ لماذا؟ لأن الله تعالى مع غناه التام، حليم ويصفح ويعفو مع أن الخلق يؤذونه ﷻ كما قال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ [الأحزاب: ٥٧] وهو سبحانه لو منع عنهم شيئًا مما أعطى لأهلكهم جميعًا.

أهمية الإخلاص لله تعالى في النفقة

ننتقل إلى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ وكأن الآيات أخذت مبدأ التدرج، ففي الآية الأولى قال: ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ ﴾ [البقرة: ٢٦٣] على معنى تشويق الناس وترغيبهم في الصدقة، وحملهم على القول الحسن والكلام الجميل بالأسلوب الذي تستقبله القلوب والعقول؛ فتتحرك به إلى الله تعالى.

ثم في هذه الآية ينتقل الكلام إلى الوعيد الشديد، بتشبيه الذي يفعل ذلك بالكفرة ومن لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، وكأن الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ليس عندهم إخلاص لله، وهو صحيح؛ لذلك قال: ﴿ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ ولم يقل: ولا يؤمن بالله ورسله مثلاً، أو ولا يؤمن بالله وكتبه؛ وذلك لأن هذا المعنى متعلق بالإخلاص. إذ إن الذي يمن ليس عنده يوم آخر سيأخذ فيه جزاء، هو يريد جزاءه عاجلاً على سبيل العوض من الذي يقف بجواره؛ ليعطيه مقابل ما أعطى، فكأنه لا يؤمن باليوم الآخر، الذي يُثيب الله –تعالى- فيه المخلصين، ويعاقب فيه العصاة المرائين والكفرة المفسدين؛ لذلك قال: ﴿ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾ فعوضه عند الناس، ولو كان يؤمن بالله كان يخافه، فيعمل على الخوف من الله، أو يعمل على الإحسان أن الله يراه؛ فإن لم يكن يراه فهو يراه، فإن لم يعمل على ذلك فليعمل على الإيمان باليوم الآخر، و معناه أنه متى ما قدم شيئًا في الدنيا وجده ووجد ذخره في الآخرة علاوة على ما يعطيه الله عليه في الدنيا.

أما من لا يؤمن باليوم الآخر، فلا ينتظر اليوم الآخر جزاء، ولا ينتظر عوضًا، ولا ينتظر ثوابًا، ولا ينتظر شيئًا، فيحاول أن يستوفي حقه في الدنيا؛ لذلك تجد الكفرة اليوم، كلهم

ماديون، مقابل أي خدمة تدفع المقابل، لا يوجد لديهم شيء اسمه إغاثة ملهوف مثلاً، فلو أن سيارة صدمتك فلن يقف أو يحملك أو يذهب بك إلى المستشفى، فهو لا ينتظر ثواباً ولا غيره ويقول: لماذا أفعل ذلك ما دمت لن أحصل على مقابل؟!

لذلك قال الله -تعالى- هذا القول: ﴿ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾ ورئاء الناس يعني: مراءاة لهم ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

وهذه آية عظيمة؛ فقد تضمنت الإخبار بأن المن والأذى يحبط الصدقة وهي: ﴿ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ وهذا دليل على أن الحسنة قد تحبط بالسيئة كما في قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات: ٢].

وقوله: ﴿ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾ يعني: لا تبطلوا صدقاتكم كإبطال الذي ينفق ماله رئاء الناس، أو لا تبطلوا صدقاتكم كالذي ينفق ماله رئاء الناس، وهذان المعنيان في الآية؛ فيكون الأول تشبيه الإبطال بالإبطال، ويكون الثاني لا تبطلوا صدقاتكم في إنفاقها كهذا الذي ينفق رئاء الناس.

وقوله: ﴿ فَمَثَلُهُۥ ﴾ أي: مَثَل هذا المنفق الذي بطل ثواب نفقته: ﴿ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ ﴾ والصفوان هو الحجر الصلب الأملس، وفيه قولان أحدهما أنه مفرد، والآخر أنه جمع.

وقوله: ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ ﴾ فيه ثلاث تشبيهات؛ لذلك يقول الإمام ابن القيم: هذا من أحسن التشبيهات وأمثلها، فالتشبيه الأول شبه فيه قلب المنفق الذي أبطل صدقته بالحجر الأملس؛ لعدم انتفاع صاحبه به؛ لأن قلب المؤمن قلب حي حساس متحرك، ينتفع به صاحبه، وتتحرك فيه إرادة الخير والتعلق بالله

والاطمئنان إلى ذكره، فهو ليس حجرًا صلبًا لا يؤثر فيه قول، ولا موعظة، ولا تذكرة، وهو لا يزال مصممًا على ما هو فيه من عدم إرادة اليوم الآخر، وإرادة الله تعالى!

وشبّه أثر الصدقة بهذا التراب الذي كان على الحجر. وشبه الإبطال والإحباط لهذه الصدقة بذلك الوابل الذي أزال أثر هذه الصدقة من على الحجر: فعاد الحجر أملس شديدًا صليًا كما كان، فلا يقدر المنفق حينئذ على شيء من ثوابه لبطلانه وزواله.

وهذه الآية فيها معنى آخر، وهو: أن المنفق لغير الله هو في الظاهر يعمل عملاً يترتب عليه الأجر، ويزكو له الثواب وينمو؛ لأن أي ثواب ينمو عند الله -تعالى- خاصة الصدقات، فالصدقة عند الله تعالى تصل إلى سبعمائة ضعف كما قال سبحانه: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ﴾ [البقرة: ٢٦١]، ولكن هل هذا الثواب الذي لا ينفق صاحبه لوجه الله -تعالى- ينمو وينبت السنابل كما قالت الآية؟ لا ينبت، لماذا؟ لأن تحت التراب الذي يبذر فيه هذا البذر حجر صلد أملس، هذا الحجر يمنع قبول هذا البذر، ويمنع زكاءه ويمنع ثمرته بعد ذلك، فيظل يضع بذرًا، ولكنه لما كان لغير الله -تعالى- في الباطن فإنه كهذا الذي يضع هذا البذر في ذلك الحجر الأملس الذي لا ينبت فيه نبات؛ لأن وراء هذا الإنفاق مانع يمنع من نموه وزكائه، كما أن تحت التراب حجرًا يمنع من نبات ما يبذر من الحب؛ فلا ينبت فيه ولا يخرج شيئًا، بل يضيع عليه أثر هذا الذي ينفقه من أوله إلى آخره، فينفق ويبذر، ولا يحصل شيئا؛ فأضاع كل ما بذره من مال في ظاهره لله تعالى؛ لأنه إنما يضع ذلك في هذا الحجر.

وكل ذلك نذكره حتى يتعلم المرء الإخلاص لله تعالى، وكيف يكون المرء على هذا الحال الحسن الذي تنزل عليه بركة حظه من اسم الله المنان ﷻ، وكيف يتعلم هذه القضايا؛ لتكون سببًا وحصنا حصينًا يتقبل الله -تعالى- به ذكره له بالمنان.

<u>انتظار جزاء الناس يبطل ثواب العطاء</u>

وكذلك ففي قوله ﷻ: ﴿ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ نهيٌ عن المنّ والأذى: فإذا كان المن وحده يبطل الصدقة فما بالك بالمن بالأذى؟ أو بالأذى وحده؟ وهذا الخلق لا يدل على تعلق القلب بالله، وامتلاء القلب من الرب، وانتظار رحمة الله تعالى وثوابه، ولا يدل كذلك

على أنه مخلوق لتحقق هذه العبودية لله تعالى، هو يتعبد ربه ﷻ بهذه الأسماء؛ ليحصل ما عند الله لا يحصل ما عند الناس: لذلك كان الرضا بما قسمه له ربه، أو المحبة لثواب ربه، أو الاهتمام بعناية الله به. وتقريب الله إياه ﷻ قد شغل عليه قلبه، حتى لم يبق في هذا القلب شيئًا ينتظر به الناس؛ لأن انتظاره للناس انتظار للزائل، انتظاره للناس خروج عن الإخلاص.

لذلك قال: ﴿ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٤] المنّ مبطل لهذه الصدقات، والأذى أشد إبطالاً، ولو اجتمع المن والأذى كان الإبطال قاطعًا لا مرية فيه ولا شك.

فالمولى ﷻ يحذرك بهذا المعنى أنك إن انتظرت أحدًا قطعت من طريقه؛ بمعنى: أن الله تعالى محق كل ما تبتغي من ورائه، أبطل كل هذا الذي تبتغي من وراء هذا الذي تريده من هذا الشخص، أبطله الرب ﷻ: فلن تأخذ شيئًا مما فعلت في حقه من هذه الصدقة، ولا من ذلك المعروف لن تأخذ شيئًا، بل قد أبطل عليك ذلك، وأخذت معصية المنّ، وأخذت إثم الأذى من الله تعالى، وذهبت إليه بالمعصية منًّا وأذى، وهذا كما يقال هذا لا عقل ولا شرع، لا عقل ولا دين، يعني لا عقل ولا نقل!

لذلك كانت هذه المسألة من المسائل التي لو تفكر أهلُ الإيمان في كونها مسألة يعقل المرء فيها حدود الشرع الذي ينبغي أن يكون هدفه ومقصوده؛ لتغير الحال، وإن كان العقل وحده ليس كافيًا في أن يسير المرء إلى الله، لا يكفي؛ لأن المرء يعرف النظر حرام، والغيبة حرام، والسخرية حرام، وكذا حرام، وكذا حرام، ومع ذلك يواقع هذا الحرام، ويعرف أن القيام والصيام والصدقة والزكاة طاعات تقرب إلى الله، ومع ذلك يقصر عنه وينام عنه، ويغفل عنه !

العقل إذن وحده ليس كافيًا، بل لا بد من معونة الرب؛ لتثبيت هذا العقل وإنارته، ولحمل هذا القلب على هذه الأعمال، وتيسيرها له ﷻ، والله يمن عليهم إذ هداهم للإيمان كما ذكرنا، فإن كان يمن عليهم؛ فله المن، وله الثناء الحسن الجميل، والمؤمنون ليس لهم المنّ، وإنما لهم إن فعلوا أن يأخذوا جزاء فعلهم من الله ﷻ.

فإذا رأى المرء في نفسه المنَّ، ينبغي أن يعود عليها باللوم، وأن يعود عليها بالمجاهدة؛ ليخرجها عن إبطال عملها، ماذا استفدت عندما تعمل وتعمل، ثم تأتي في نهاية المطاف لتبطل كل هذه الأعمال؟ وتأخذ بدلاً منها سيئات وذنوبًا ومعاصي تحملها عند الله تعالى؟

كيف يحصل ذلك؟ يحصل ذلك بأن يذكر ربه باسمه المنان ﷻ، فيكثر من ذكر هذا الاسم، كما أمر الرب ﷻ، وأن يدعو الله ﷻ به: أنك أنت الحنان المنان كما ورد في لفظ الحديث، الذي ذكرنا. فيدعو الله كما ورد عن النبي ﷺ أدعوك بأنك أنت الحنان المنان الواحد الأحد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، بديع السماوات والأرض.. إلى آخر ما ورد في هذا المتن العظيم من كلام النبوة المقدس في دعاء الله تعالى.

الآية الرابعة: ونريد أن نمن على الذين استضعفوا

موعدنا في هذه الفقرات مع قوله ﷻ: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص : ٥-٦]، وهي من أعظم الآيات الجميلات في القرآن الكريم التي تبين أشياء كثيرة يتعلم بها المرء كيف يحب كلام الله، وكيف يظهر له جمال هذا القرآن وبلاغته، وكيف يظهر في القرآن هذه المعاني الكثيرة في هذه الكلمات القليلة، كما سيتبين من شرح هذه الآيات.

وهذه الآيات في مطلع سورة القصص، وسورة القصص نزلت بالقرب من هجرة النبي ﷺ إلى المدينة، وفي هذه الفترة حدث للمؤمنين من أصحاب النبي ﷺ ما حدث من شدة ومن مشقة وعنت، ومن ترك الأهل والمال والولد والدار والوطن والنساء، ووصلوا إلى تلك الحال الصعبة التي حكاها القرآن، وأتت بها السيرة؛ فنزلت هذه الآيات لتبشر المؤمنين بأن تمكين الله -تعالى- قد قرب لهم بعد صبرهم وثباتهم على دينهم وتحملهم الأذى في مكة، ولتبين لهم أنه قد أوشك هذا الليل أن ينقضي، وأوشك صبح التمكين ونصر المؤمنين أن ينبلج وأن يأتي؛ ولتكون هذه الآيات في نفس الوقت طمأنة لقلوب المؤمنين على أن الله -تعالى- لم يفعل ذلك ليهلكهم ولا ليدمرهم ولا ليعذبهم، وإنما: ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ [الأنفال: ٣٧]، وليهلك الكفرة عن بينة، وأن الله -تبارك وتعالى- بين لحظة وأخرى، أو بين عشية وضحاها يرفع عنهم البلاء، إن استحقوا ذلك، وأن الله -تعالى- ينصر المستضعفين المظلومين طالما كانوا مستمسكين بأمر الله تعالى، وأن الله -تبارك وتعالى- يهلك الجبارين والمتكبرين مهما علوا ومهما طغوا ومهما بغوا في

هذه الحياة الدنيا، وحصلوا فيها، حتى وصل الأمر إلى أن يقول فرعون: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات: ٢٤]، فلم يبق بعد ذلك أن يقول شيئًا! فقد وصل إلى الدرجة العليا في التكبر والبغي والظلم التي لم يصلها أحد من قبله، ومع ذلك كانت الآية العظمى من الله تعالى بإهلاكه، فلما تكبر إلى هذه الدرجة خسف الله ﷻ به إلى هذه الدرجة. فلم يمنعه هذا العتو والبغي والفساد والقوة والعظمة التي كان فيها، أن يهلكه الله -تبارك وتعالى- وأن يأخذه أخذ عزيز مقتدر!

من ناحية ثانية يظهر في هذه الآيات المعنى الجميل، وهو معنى: المنّ من الله -تعالى- على الذين استضعفوا؛ لتكون هذه الآية سببًا لشرح صدر المؤمنين، وتثبيتهم، والربط على قلوبهم، والاستبشار والبشرى لهم: لأن الله -تعالى- يمكن أن يمنّ عليهم حال الاستضعاف، ويرفع عنهم، ويهلك أعداءهم، وغير ذلك مما حدث لنبي الله موسى عليه السلام، وقومه؛ وليتميز لهم في نفس الوقت كيف أن هؤلاء المستضعفين في ظاهر الحال، الذين كانوا يقولون لموسى عليه السلام: ﴿ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ [الأعراف : ١٢٩] كانت أحوالهم من الاستضعاف والإذلال كلها في نهاية السوء كما سنبين، فماذا حدث لهم، قال: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٢٩].

وهذا ما سنشير إليه: ليكون المؤمنون على بينة من أمرهم في أنهم مستضعفون، ولكنهم للأسف مستضعفون ومقصرون. فهم مقصرون في دينهم واتباع سنة نبيهم، والقيام بحق نصرة هذا الدين، ومقصرون في الجهد والخدمة لرب العالمين ﷻ، ويريدون أن ينتصروا، وأن يأتيهم النصر من عالم الغيب! فتجد كل أحد ينتظر أن يتحقق موعود الله -تعالى- بالنصر، يقول: إن شاء الله ربنا سينصرنا ! وجالس منتظر نصرًا يأتي من لا شيء! يعني: نصر يأتي بغير أسبابه! بأن يخرق الله لهم نواميس الكون: ليروا نصر الله -تعالى- وإذلال الكفرة وهزيمتهم.

أصحاب رسول الله ﷺ عرفوا الطريق، فتحملوا وبذلوا وجاهدوا وصبروا، ففعل الله تبارك وتعالى لهم بعد ذلك ما قص القرآن وقصته السيرة من رَفعِ مرتبتهم في الدارين ونَصْرِهم على أعدائهم، وتمكينهم في أرض الله تعالى.

نبدأ من قوله تعالى[1]: ﴿ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [القصص: ٣]، والتلاوة هي القراءة لكلام مكتوب أو محفوظ كما قال النبي ﷺ: ﴿ وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ ﴾ [النمل: ٩٢] فما كان محفوظًا أو مكتوبًا نسميه تلاوة عندما نقرأه. وجعلت التلاوة على النبي ﷺ وحده؛ لأنه الذي يتلقى الوحي من السماء.

وعبر عن الخبر بالنبأ في قوله ﷻ: ﴿ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ ﴾ ؛ لأن النبأ يفيد أنه خبر ذو شأن وأهمية لهؤلاء المستمعين، ومهد الله -تعالى- لهذا النبأ بقوله تعالى: ﴿ نَتْلُوا عَلَيْكَ ﴾ للتشويق لهذا النبأ الذي هو خبر عظيم سيأتي، وأن المؤمنين محتاجون إلى أن يسمعوا هذا القصص الجميل، وإلى أن يتميزوا منه مواضع العبرة والعظة؛ ليكون تثبيتًا لهم، وليكون شرحًا لصدورهم، وليكون كذلك بشرى لهم بأن يهزم الله أعداءهم، وأن ينتقلوا من الاستضعاف إلى القوة والتمكين.

واللام في قوله تعالى: ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ لام التعليل أي: نتلو عليك لأجل قوم يؤمنون؛ فكانت الغاية من تلاوة النبأ على النبي ﷺ، هي أن ينتفع بذلك قوم يؤمنون، والمقصود أن ينتفع بها المؤمنون، ولكن جاء التعبير الجميل "قوم يؤمنون" بالمضارع ولم يقل المؤمنين؛ ليفيد تمكن الإيمان منهم، وهو أبلغ في التعبير عن ذلك من قول "للمؤمنين"؛ لأن المضارع يفيد التجدد، ويفيد استمرار هذا التجدد، فإيمانهم موجود ومستمر ومتجدد، وكلما سمعوا موعظة وعبرة ازداد إيمانهم، وتجدد فهم هذا الإيمان.

---

[1] - يتعدى فعل "نتلو" بحرف "على" كقوله: ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ [البقرة: ١٠٢] ، وقوله: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ ﴾ [الأنفال: ٢] و: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ﴾ [البقرة: ٢٥٢]. راجع ابن عاشور- رحمه الله - التحرير والتنوير، تفسير الجزء العشرون، صفحة ٦٤- ٦٦.

والمراد بقوم يؤمنون، يعني المتلبسين بالإيمان؛ لأن الإيمان شأنهم وسجيتهم، فأجرى وصف الإيمان على قوم: ليفيد أن كونهم مؤمنين هو من مقومات كينونتهم.

الآية التالية، هي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ وهي مرتبطة بالآية التي قبلها، ويسميها أهل اللغة بيان لقوله: ﴿ نَتْلُوا عَلَيْكَ ﴾، فيكون المعنى: ما الذي سنتلوه؟ نتلو عليك كيف علا فرعون في الأرض، وكيف جعل أهلها شيعًا.

وهي كذلك مرتبطة بما بعدها، وهي آية المنّ التي نحن بصددها، وهي قوله: ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا ﴾ [القصص: ٥]؛ لأن هذه الجملة معطوفة على قوله: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ فيكون المعنى: ونتلو عليك كذلك أننا نريد أن نمكن المستضعفين في الأرض، وأن ننصرهم، وأن نهزم عدوهم، مع أن فرعون علا في الأرض وتكبر.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ تبين هذه المعاني من معاني الفساد الذي كان فعلاً سببًا للهلاك؛ ليتعلم أهل الإيمان أن هذه المفاسد، التي ذكر الله تبارك وتعالى، هي أسباب الدمار والهلاك.

وابتدأت القصة في قوله: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ابتدأت بذكر أسبابها؛ لتكون عبرة للمؤمنين، فعندما يسأل المرء: ما السبب في أن خسف الله -تعالى- بفرعون وقومه وأغرقهم؟ جاءت الآية بالسبب: العلو والتكبر والإفساد في الأرض؛ ويقول المفسرون: إن الآية عندما قدمت السبب الذي أهلك الله -تعالى- فرعون لأجله؛ فإن ذلك يكون عبرة للمؤمنين ألا يكونوا مثله أبدًا، فيتخذون العبرة، ويبتعدون عن مواطن الهلاك التي بين الله -تعالى- أسبابها، ويكونون على حذر منها؛ لأن الله -تبارك وتعالى- يهلك من تشبه بها، أو اتصف بها.

ويبين ذلك أن العلو والتكبر من قبيح الخلال، فلولا تجبر فرعون وتكبره، ما حل به وبقومه الاستئصال، ولما خرج هؤلاء المستضعفون من الذل الذي كانوا فيه. ترى بني إسرائيل

كانوا سيخرجون من ذل العبودية التي كانوا فيها؟ كان كل شيء سيبقى على حاله، ولكن لما اتصفوا بهذه الصفة التي يحذر الله -تبارك وتعالى- المؤمنين من الاتصاف بها رأينا نتيجتين:

الأولى: هلاك فرعون واستئصاله.

والثانية: خروج بني إسرائيل من الذل والاستضعاف إلى النصر والتمكين على هذا الفرعون.

وقد صوّر الله تعالى في كلمات القرآن الكريم عظمة فرعون في الدنيا بقوله: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾، وهو تصوير بليغ يبين عظمة اختيار الألفاظ ودقتها في إيصال المعاني الجميلة: وذلك لأن قوله: ﴿ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ على قِصرها تبين أنه بلغ في العظمة مبلغًا لم يبلغه أحد، فلم يذكر له تصويرًا آخر يدل على مدى ما هو فيه من عظمة، وما هو فيه من مملكة متسعة وأرض وأنهار تجري من تحته وما سخر الله له. ولم تصور الآية لأي مدى قد وصل العلو، فدل تركها هكذا على علو عظيم.

وما قيمة تصوير هذه العظمة؟ أن يفهم المرء عظمة الله –تعالى- وقوته وقدرته، ولتكون العبرة بهلاكه بعد ذلك العلو من أكبر العبر.

والعلو في قوله: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ يقصد به العلو المذموم، لا العلو الممدوح أو العلو المباح؛ لأن هناك من العلو ما هو الكبر، يعني أنه مذموم. أما الذي ليس مذمومًا فهو أن يترجح أحد على أحد.

والعلو المذموم المذكور في الآية: علوٌ معنوي، كالذي ذكر في ختام آيات إهلاك قارون أيضًا، في قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣] ومعناه الكبر، بأن يستشعر المرء نفسه عاليًا على موضع غيره، لا يساويه أحد.

فأصبح كل شيء محتقراً بالنسبة إليه، فهو علو مستعار لمعنى التفوق وغيره، وهو غير محقوق لحق، فيرى نفسه عاليًا وأعلى من غيره ومتكبرًا، ولا يقوم عليه حق لأي أحد. فيظن

صاحبه أنه غير محقوق لدين أو شريعة أو رعي حقوق المخلوقات معه، فإذا استشعر شيئًا من ذلك لم يعبأ في تصرفاته بصلاح ولا تجنب فساد وضر، وإنما يتبع ما تحدوه إليه شهواته، وما يرضي هواه، وحسبك أن فرعون كان يجعل نفسه إلهًا !

وهذه المسألة التي نراها في دنيا الناس اليوم: بأن يرى المرء نفسه فوق غيره؛ فلا يجعل حسابًا لأحد بعد ذلك، لا هو مرتبط بدين يقوم به، ولا بخُلق يربط تصرفاته وأحواله، ويقيد من تصرفاته في الناس، ولا يرعى حقوقًا لأحد، ولا يعبأ برعي مصالح ولا بتجنب مفاسد ولا بدفع ضر ولا بجلب مصلحة، وإنما يتبع ما يحمل عليه هواه وشهوات نفسه.

والنوع الأخر من العلو، هو رجحان أحد في أمر من الأمور؛ لأنه جدير بالرجحان، وهو علو غير مذموم. فلو رجحنا أحدًا لعقله، أو لعلمه على الجاهل، أو لصلاحه، أو لذكائه، أو لسبب عادي من القيام بمصالح الجماعة ومراعاتها، كالقائد بالنسبة لجنوده، فلا بد أن يكون هذا الأمر موجودًا في الترجيح حتى يسير النظام، وأعدل الرجحان وأفضله من قِبل الدين والشريعة، كرجحان المؤمن على الكافر، والتقي على الفاسق، قال تعالى: ﴿ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ ﴾ [الحديد: ١٠] وكما ذكر الله تعالى: ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ ﴾ [آل عمران: ١٦٣] وكما قال المولى ﷻ: ﴿ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ ﴾ [الزمر: ٩].

ولا يعني هذا أن يتكبر أصحاب هذه الدرجة على غيرهم، وإنما عطاء الله تعالى لهم ليتواضعوا وليخبتوا وليصلحوا دينهم وأحوالهم.

قال ابن عاشور – رحمه الله - : وفرعون هذا هو رعمسيس الثاني، وينطقونها رمسيس الثاني، ورعمسيس نسبة إلى رع الإله المُدَّعى، وهو الملك الثالث من ملوك العائلة التاسعة عشرة في اصطلاح المؤرخين للتاريخ الفرعوني، وكان فاتحًا كبيرًا شديد السطوة وهو الذي وُلد موسى - عليه السلام- في زمانه على التحقيق. وقوله: ﴿ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ والمعنى الأول للأرض: أرض مصر : حيث مقر المملكة، فالتعريف فيها للعهد، المعنى الثاني أن يكون المراد بالأرض جميع

الأرض المشهورة حينئذ. لماذا؟ لأن مُلك رعمسيس الثاني كان ممتدًا من بلاد الهند إلى نهر أطونة في أوروبا، وكان علوه أقوى من علو ملوك الأرض وسادة الأقوام.

قوله: ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ يعني: جعل أهل مصر شيعًا؛ حتى يتسنى له أن يحكمهم، وحتى يتسنى أن يضرب ضعيفهم بقويهم، وحتى يبقوا متفرقين لا يستطيعون القيام في وجهه، أو التألب عليه. وهذه عادة كل حاكم يريد أن يبقى على هذا الحال، كما ذكر المستعمرون الذين احتلوا أرض المسلمين: فَرِّقْ تَسُدْ.

قوله: ﴿ يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ ﴾ وهذه هي الطائفة الإسرائيلية، قوله: ﴿ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾، وجملة ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ تعليل لجملة ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾. فإذا قلنا : لماذا تكبر فرعون في الأرض؟ قال: لأنه كان من المفسدين؛ فلو أنه كان من المصلحين ما تكبر وما طغى.

وقوله: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ فيه أيضًا دليل على أنه إفساد لا صلاح معه؛ لأن فعل الكون "كان" يفيد تمكن خبر الفعل من اسمه، يعني: تمكن الإفساد من فرعون، كأن نقول: شدة تمكن الإفساد من خلقه.

كما نقول: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٣٤] فيكون ذلك دليلاً على أن الله – تعالى- متصف بالسمع والبصر لنهاية الاتصاف الذي يليق بالله تعالى، فيكون الاسم وهو لفظ الجلالة متصف بالسمع والبصر في أشد غايات التمكن.

وجاء الوصف بتمكن الإفساد من فرعون؛ لأن فعله اشتمل على مفاسد عظيمة:

المفسدة الأولى: التكبر والتجبّر، فإنه مفسدة نفسية عظيمة تتولد منها مفاسد جمة، منها: احتقار الناس، والاستخفاف بحقوقهم، وسوء عشرتهم، وبث عداوته فيهم، وسوء ظنه بهم، وأنه لا يرقب فيهم موجبات فضل سوى ما يرضي شهوته وغضبه؛ فإذا انضم إلى ذلك أنه ولي أمرهم وراعيهم كانت صفة الكبر مقتضية سوء رعايته لهم، والاجتراء على دحض حقوقهم، وأن يرمقهم بعين الاحتقار فلا يعبأ بجلب الصالح ودفع الضر عنهم، وأن يبتز منافعهم لنفسه،

وأن يُسخر من استطاع منهم لخدمة أغراضه، وألا يلين لهم في سياسة؛ فيعاملهم بالغلظة، وفي ذلك بث الرعب في نفوسهم من بطشه وجبروته.

وهذه الصفة هي أمّ المفاسد وجماعها؛ لذلك قدمت على بقية المفاسد التي ذكرت بعدها، وأعقبت بأنه كان من المفسدين.

المفسدة الثانية: أنه جعل أهل المملكة شيعًا وفرقهم أقسامًا: فجعل منهم شيعًا مقربين منه، وجعل بعضهم بضد ذلك، وذلك فساد في الأمة؛ لأنه يثير بين الأمة التحاسد والتباغض والتقاطع، ويجعل بعضهم يتربص الدوائر ببعض؛ فتكون الفرق المحظوظة عنده متطاولة على الفرق الأخرى، وتكدح كل فرقة لتزحزح هؤلاء المحظوظين عن حظوظهم بإلقاء النميمة والوشايات الكاذبة؛ حتى يحل هؤلاء غيرهم. وشأن الملك الصالح أن يجعل الرعية كلها بمنزلة واحدة منه، بمنزلة الأبناء من الأب، يحب لهم الخير ويقومهم بالعدل واللين، لا ميزة لفرقة على فرقة، ويكون اقتراب أفراد الأمة منه بمقدار المزايا النفسية والعقلية التي هم فيها.

المفسدة الثالثة: أنه يستضعف طائفة من أهل مملكته فيجعلها محقرة مهضومة الجانب لا مساواة بينها وبين فرق أخرى، ولا عدل في معاملتها في حين أن لها الحق في الأرض كما لغيرها. والمراد بهذه الطائفة بنو إسرائيل كما ذكرنا، وأشار بقوله: ﴿ يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً ﴾ أن الاستضعاف على الطائفة من أولها إلى آخرها ليس على شخص منها أو بعض أشخاص، وإنما على الطائفة كافة.

المفسدة الرابعة: أنه يذبح أبناءهم يعني: يأمر بذبحهم، والأبناء المراد بهم الذكور من الأطفال، وقصده من ذلك ألا تكون لبني إسرائيل قوة من رجال قبيلتهم؛ حتى يكون النفوذ في الأرض لقومه خاصة.

والمفسدة الخامسة: أنه يستحي النساء، يعني: يستبقي حياة الإناث من الأطفال فأطلق عليهن اسم النساء باعتبار المآل، ويستحيهن ليصرن نساء فتصلحن لما تصلح له النساء بغير رجال، لأن يصرن بغايا، لأنه يقتل ذكورهم ويستبقي النساء، وهؤلاء النساء ليسوا أزواجًا لهؤلاء القبط من أهل فرعون؛ فيبقى النساء بغايا لا رجال لهن، مما يوقع في هذه المفاسد التي يذكر القرآن الكريم؛ وإذ كان احتقارهن بصد قومه عن التزوج بهن فلن يبقى لهن حظ من رجال القوم إلا قضاء الشهوة.

بعد هذه المقدمة وهذه المفاسد التي ذكرت: لتكون عبرة للمؤمنين، جاء قوله تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَارِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ۝ ﴾ [القصص: ٥-٦] وهو محط الكلام الذي نريد أن نشير إلى معانيه، في كون أن الله ﷻ هو المنان، وكيف رتب الله –تعالى- لفرعون أن يتربى موسى في داره وبين قومه ورجاله ونسائه: ليكون سبب هلاك فرعون، وسبب زوال هذه الأمة من أمم القبط. وفي نفس الوقت ما هي الشروط التي يمتن الله تعالى، أو تكون سبب منة الله تعالى على المؤمنين؛ حتى يأخذوا منها العبرة والعظة التي تكون سببًا لمنة الله عليهم.

قوله: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾، عطفت فيه جملة: ﴿ وَنُرِيدُ ﴾ على جملة ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [القصص: ٤] فواو العطف في قوله "ونريد" معناها أنه في نفس الوقت الذي علا فيه فرعون وتكبر ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ قد انقضت إرادة الله تعالى، ﴿ وَنُرِيدُ ﴾: من الإرادة، بأن يمن على الذين استضعفوا، وأن يذهب هؤلاء المتكبرون، ويبيدهم ﷻ ويمحو ذلك كله من الأرض: الكبر والطغيان واستحياء النساء وقتل الأطفال، ثم يمكن لبني إسرائيل ﷺ ويجعلهم أئمة، ويجعلهم الوارثين.

والعطف، في نفس الوقت، بيان لنبأ موسى وفرعون الذي قال المولى ﷻ: ﴿ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [القصص: ٣]. ما هو النبأ الذي حدث بين موسى وفرعون؟ أنه يستضعف هذه الطائفة، ويذبح أبناءها، ويستحي نساءها. ما المطلوب حينئذ؟ المطلوب أن يفهم المؤمنون العبرة منها، أنه قد انقضت هذه الإرادة، بالمنة على هؤلاء المستضعفين، فكانت هذه الإرادة من تمام نبأ موسى وفرعون، وهو موقع عبرة عظيمة من عِبَر هذه القصة وهي إتمام نبأ موسى وفرعون بالحق.

وجيء بصيغة المضارع ﴿ وَنُرِيدُ ﴾ مع أن إرادة الله -تعالى- قد انقضت من قبل، وأن الله -تعالى- قد قضى هذا الأمرﷻ فيما قضاه في خلقه، لاستحضار ذلك الوقت كأنه في الحال؛ أي: إن فرعون يطغى عليهم، والله يريد في ذلك الوقت الذي يطغى عليهم فيه إبطال هذا الطغيان بالمن على المؤمنين.

وهذا هو حال المؤمنين في كل زمان وصل بهم الاستضعاف إلى هذه الصورة التي ذكر القرآن الكريم؛ ليعلم المرء هذه الحالة الحاضرة إذن، فرعون يستضعفهم والله يريد أن يمن عليهم بإبطال عمله، وجعلهم أمة عظيمة؛ ولذلك جاز أن تكون جملة ﴿ وَنُرِيدُ ﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿ يَسْتَضْعِفُ ﴾ باعتبار أن تلك الإرادة المقارنة لوقت استضعاف فرعون إياهم. فالمعنى على الاحتمالين.

والمن هو الإنعام، والذين استضعفوا في هذه الآية هم الطائفة الذين استضعفهم فرعون، والأرض هي نفس الأرض في قوله: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ وهي نفس الأرض التي ذكرت في الآية: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [القصص: ٥].

وقال الآية: ﴿ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا ﴾، ولم تقل:"عليهم"، فالقرآن أظهر في محل الإضمار مع ارتباط الآيات ببعضها، فلماذا؟!

يقول ابن عاشور: ونكتة إظهار الذين استضعفوا دون إيراد الضمير للطائفة، للتنبيه على ما في الصلة من التعليل؛ لأن إيراد الضمير على ما في الصلة فيه تعليل لسبب رحمة عباده ﷻ ونصر المستضعفين، أي: ليبين لك -أيها المستمع- أن سبب المن وسبب الرحمة النازلة على عباده ﷻ وسبب النصر إنما هو بسبب استضعافهم، فالعلة التي نزل الله -تعالى- بها رحمته ﷻ عليهم ونصر المستضعفين المظلومين أنهم وصلوا إلى الاستضعاف ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ٩٨] فكان الناصر لهم حينئذ هو الله تعالى، لما وصل بهم الحال إلى ذلك الأمر إلى تلك الدرجة.

وهي المسألة المهمة التي يتعلمها المؤمن، أن أهل الإيمان ليس لأنهم وصلوا إلى هذه الدرجة من الاستضعاف أنه قد انتهى نصرهم ولن ينتصروا، لا بل على العكس أن الله تعالى لما قال: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا ﴾: ليبين لك أن الاستضعاف سبب لرحمة الله ونصره وتنزله؛ حتى لا تيأس من كونك مستضعفًا إلى هذه الدرجة؛ فتترك وتيأس من نصر الله – تعالى- لا، بل إذا ازداد الاستضعاف فوصل إلى نهايته فاعلم أن معه نصر الله –تعالى- وتمكينه لهؤلاء المستضعفين.

وهؤلاء المستضعفون من المؤمنين اليوم لا شك قد وصلوا إلى درجة منحطة جدًّا في الاستضعاف والامتهان، وعدم مبالاة الكفرة بهم، وأنهم يسومونهم سوء العذاب، ويفعلون بهم ما لا يتخيله أحد هذه الأيام، ولا يتخيل المرء أن يكون لهذه الأحوال السيئة الواقعة حلاً قريبًا، ولا يتخيل لها انفراجًا يجعل المؤمنين المتقين يعود إليهم أملهم، أو كما ذكر الله -تبارك وتعالى- في قوله: ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٤] فالمرء لا يرى شفاء صدره قريبًا في مثل الأحوال الواقعة اليوم؛ لذلك تأتي هذه الآيات الكريمات لتفتح باب الأمل للمؤمنين، ولكنه أمل مرتبط بأسبابه.

فالمؤمنون يتمنون أن يروا هذا اليوم الأسود الذي يذلّ الله –تعالى- فيه الكفر، ويرفع أهل الإيمان، ويرون فيه الكفرة أذلاء، قد أنزل الله بهم بأسه، أو أنزل عليهم عذابه وشدته ﷻ، وسامهم -سبحانه وتعالى- سوء العذاب، أو خسف بهم، أو أهلكهم، أو دمَّرهم، أو أغرقهم، أو أوقع بهم شيئًا من هذه النوازل التي ينزلها الرب ﷻ بهؤلاء المشركين المتجبرين الطاغين، ولكنهم إنما يحلمون بذلك، أحلام في النوم، أو أحلام في اليقظة، ولم يقدموا لها أسبابها، ولم يأخذوا في خطوات واضحة تكون سببًا لأن يمنّ الله –تعالى- عليهم بذلك، بل تلك أمانيهم أن يروا ذلك !

لذلك كانت أهمية هذه الآيات، التي تبين أن الاستضعاف ليس وحده هو السبيل لأن يرفع الله –تعالى- عذابه عن المؤمنين، أو أن ينزل كذلك بأسه بالكافرين، وإنما لا بد أن يكون هؤلاء الذين استُضعِفوا في الأرض أهلاً لأن يجعلهم الله –تعالى- أئمة، كما قال: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ﴾ [القصص: ٥] ولا شك أنه لن يجعلهم أئمة من الهواء، وأن يمكن لهم بدون أي أسباب قدموها لهذا التمكين، أو بدون بذل

وجهد قد فعلوه في إمكانهم وفي وسعهم، حتى يبدل الله -تعالى- تلك الأحوال؛ لذلك فهذه الآية في محل العبرة لأهل الإيمان كيف يبذلون جهدهم ووسعهم حال استضعافهم؛ ليكون هذا الجهد وهذا الوسع الذي بذلوه سببًا أن يمن الله -تعالى- عليهم، وأن يجعلهم أئمة، وأن يجعلهم الوارثين، وأن يمكن لهم في الأرض، وأن يأخذ أعداءهم كما بين ﷻ في قصة بني إسرائيل.

وتبين الآيات كذلك أن بني إسرائيل وصلوا إلى درجة صعبة من الاستضعاف وانتهاك الأعراض التي وصفها القرآن الكريم، وفي ذلك العبرة لأهل الإيمان أنه مهما بلغ حال الاستضعاف بالمؤمنين فإن ذلك لا يكون سببًا أبدًا في أن ييأسوا، أو أن يقنطوا من رحمة الله تعالى، بل كلما بلغ الاستضعاف مبلغه؛ فإنه كما قال: ﴿ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح: ٦] فالعسر نفسه معه اليسر، فليس بعد العسر يسر، كما ذكر الله، وإنما معه يأتي في نفس الوقت وفي نفس الحال، فكأن هذا العسر مبطنًا باليسر في داخله، وأنه يوشك أن ينفرج هذا العسر بذلك اليسر الذي أبطنه الله تعالى فيه.

وأهمية ذلك لأهل الإيمان، ألا يكون ما هم فيه سببًا لقعودهم، وسببًا لتثبيطهم، وسببًا لضعف همتهم عن القيام بأوامر الله تعالى؛ لأنه عندما ييأس المرء من أنه لا يمكن أن يصلح الحال أبدًا، ولا أن تقوم للمسلمين قائمة بعد ذلك، وأن الله -تعالى- قد أغلق باب الاستجابة في وجه المؤمنين الذي لا يستحقون هذه الاستجابة، إذا بالله -تعالى- يفتح أبواب الرحمة، وإذا بالله تبارك وتعالى يرفع بأسه عن المؤمنين، وينزل بأسه بالكافرين، وإذا به ﷻ يفرّج وينفّس عن المؤمنين، ويُهلك أعداءه أعداء الدين؛ لأن ذلك إنما هو مختص به نفسه ﷻ، أن ينصر دينه، وأن يرفع رايته، كما قال: ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٢٦]، ﴿ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾ [محمد: ٧].

فذلك يدعوهم إلى أن يعلموا قرب التغيير، كما ذكر النبي ﷺ أن الله تعالى ينظر إلى عباده قنطين، وهو يضحك ﷻ من قنوطهم وقرب غَيْرِه[1]، يعني: يضحك إلى أنهم وصلوا إلى

---

[1] - الحديث أخرجه أحمد (١١/٤، رقم ١٦٢٣٢)، وابن ماجه (٦٤/١، رقم ١٨١) والطبراني (٢٠٧/١٩، رقم ٤٦٩)، والدارقطني في الصفات (ص ٢٧ ، رقم ٣٠). وأخرجه أيضًا: الطيالسي (ص ١٤٧، رقم ١٠٩٢)، وابن

درجة من القنوط، لا يظنون معها أن يغير الله –تعالى- الحال، وإذا به يضحك لقرب غيره، يعني: لقرب تغير هذا الحال، أن هذا الحال أوشك أن يتغير: فبينما هم أذلاء قنطين يائسين مما هم فيه، إذا بالله يضحك؛ لأن هذا الذل وذلك القنوط وذلك اليأس إنما هو قبيل الفرج بقليل، و يوشك الفرج أن ينزل.

ومن ثَمَّ كانت هذه العبرة الثانية التي يتعلمها المؤمنون؛ لتكون هذه العبرة سببًا لأن يستمسكوا بدين الله تعالى، وأن يبذلوا جهدهم ووسعهم؛ ليحققوا هذا الحال من الله تعالى، وليرفعوا عن أنفسهم ذلك اليأس وذلك القنوط الذي حل بهم، وكذلك هذا الضعف في قلوبهم وأبدانهم عن السير إلى الله تعالى، بل ذلك يكون سبب قوتهم؛ لأنه عندما تقترب هذه المرحلة من نصر الله تعالى؛ فإن المؤمنين عليهم أن يكونوا أكثر عملاً وأكثر بذلاً، ومثال ذلك في رمضان، فإنه عندما يوشك أن تنتهي أيامه، وتقترب أيام المغفرة وتوزيع الجوائز من الله –تعالى- على الصادقين: إذا بالنبي ﷺ يكون أشد اجتهادًا وتشميرًا، وأشد بذلاً لوسعه وجهده ﷺ[1]؛ ليكون ذلك سبب تحصيل أعظم جائزة يعطيها المولى ﷻ في مثل تلك الأيام.

وعليه فإن المؤمنين عندما يصلون إلى الدرجة العظمى في الاستضعاف؛ فإنهم ينبغي أن يزيدوا أعمالهم ووسعهم وجهدهم؛ ويظنوا أن نصر الله تعالى قريب، كما ذكر المولى ﷻ: ﴿ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤] فعندما وصل بهم الحال أن زُلزلوا وكما ذكر الله ﷻ: ﴿ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ ﴾ [البقرة: ٢١٤] دل ذلك على ﴿ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤].

أبي عاصم في السنة (١/٢٤٤ ، رقم ٥٥٤). قال البوصيري (١ ص ٢٦): هذا إسناد فيه مقال. وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده ضعيف، ولفظه: (عَنْ أَبِي رَزِينٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ضَحِكَ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عَبْدِهِ وَقُرْبِ غَيْرِهِ. قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوَيَضْحَكُ الرَّبُّ عزّ وجلّ؟ قَالَ: نَعَمْ؟ قَالَ: لَنْ نَعْدَمَ مِنْ رَبٍّ يَضْحَكُ خَيْرًا) .

[1] – الحديث أخرجه البخاري (٢٠٢٤)، ومسلم (١١٧٤) ولفظه: (عنْ عائشة رضي اللَّهُ عنْها قالتْ: كان النَّبِيُّ صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ شَدَّ مِئْزَرَهُ، وَأَحْيَا لَيْلَهُ، وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ) .

عظيم قدر منة الله تعالى

فقد خصت الآية بالذكر من المن أربعة أشياء، منَّ الله –تعالى- بهم على المستضعفين في مقابل ما كان يفعله فرعون، ما هي هذه الأشياء؟

الأولى: بجعلهم أئمة.

الثانية : جعلهم الوارثين.

الثالثة: بالتمكين لهم في الأرض.

الرابعة : أن يكون زوال ملك فرعون على أيديهم.

هذه الأربعة عطف الله –تعالى- فيها العام على الخاص، وهي المسألة الجميلة التي يفهمها المرء؛ ليتبين ذلك المن الذي يمن الله –تعالى- به على عباده، فلما علا فرعون في الأرض وتكبر عليهم وطغى، واستضعف هؤلاء، وقتل أولادهم، واستحيا نساءهم، وكان من المفسدين فسادًا بلغ في الفساد قمته وأعلاه، إذا بمنة الله –تعالى- تكون على عكس ذلك كله، التكبر والطغيان مصيره الغرق، فبعد أن كان متكبرًا إذا به يدفن في قاع البحر، وبعد أن كان يقتل أبناءهم جعلهم أئمة ﷺ، وبعد أن كان يستضعفهم حتى يستمر ملكه، أزال الله –تعالى- ملكه على أيديهم، على يدي هذا الطفل الذي قد تربى في حجر فرعون نفسه.

واسمع تفصيلاً لهذه المعاني ليتعلم المؤمنون كيف يسلكون سبيل الأئمة في هذا الدمار والضنك الذي يحيون فيه الآن، يقول ابن عاشور: فأما جعلهم أئمة: فذلك بأن أخرجهم ﷺ من ذل العبودية، وجعلهم أُمة حرة مالكة أمر نفسها، لها شريعة عادلة، ولها قانون معاملاتها، ولها قوة تدفع بها أعداءها، ولها مملكة خالصة لها وحضارة كاملة تفوق حضارة جيرتها؛ بحيث تصير هذه الأمة وهؤلاء الأئمة قدوة للأمم في شئون الكمال وطلب الهناء؛ فهذا معنى جعلهم أئمة أي: يقتدي بهم غيرهم، ويدعون الناس إلى الخير، وناهيك بما بلغه ملك بني إسرائيل في عهد سليمان بن داود عليهما السلام فقد بلغ ملكهم مبلغًا عظيمًا كما ذكر القرآن الكريم.

فلن يصل المؤمنون المتقون اليوم إلى أن يكونوا أئمة إلا بأن يسلكوا نفس الطريق الذي جعل الله به ﷺ بني إسرائيل أئمة؛ وهو الذي ذكره الله –تعالى- في قوله: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً

﴿ يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤] فجعلهم أئمة ﴿ لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ يعني صاروا واثقين فيها، وهو طريق المؤمنين الآن، أن يصلوا إلى هذا الحال من حسن التوكل واليقين في الله والثقة فيما عنده، وأن يرتكنوا إليه ﷻ، وأن يحسنوا التوكل عليه ﷻ، مع ذلك الصبر الذي يحملهم على مراعاة أوامر الشرع، والقيام بها، وتحمل مرارة ما يعود عليهم بسبب القيام بها.

وأهل الإيمان قاعدون، لا شك متكاسلون عن أن يرفعوا عن أنفسهم وعن المؤمنين هذا الاستضعاف برحمة الله –تعالى- وتنزل قوته ومدده على المستضعفين المظلومين، وفي نفس الوقت هم قاعدون عن أن يكونوا أئمة يجعلهم الله –تعالى- بمنه وكرمه يُقتَدى بهم، وأن يكونوا سبيل الخير لغيرهم.

وأما جعلهم الوارثين، فهو أن يعطيهم الله –تعالى- ديار قوم آخرين، وأن يحكمهم فيهم. وكان يمكن أن يقال: "ونجعلهم وارثين، ولكن جاءت الآية بالتعريف ﴿ وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ وهو تعريف الجنس المفيد أنهم أهل الإرث الخاص المعينين لشيء ما، وهو إرث السلطة في الأرض بعدما كان هذا الإرث قبلهم من أهل السلطان، فإن الله –تعالى- أورثهم هذه الأراضي في الأرض المقدسة وما حولها، وأحلهم محل الكنعانيين والآموريين والآشوريين والآراميين على ما كانوا فيه من العظمة؛ حتى قيل عنهم: الجبابرة. فإنه لما قال لهم موسى ادخلوا الأرض المقدسة، قالوا: ﴿ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾ [المائدة: ٢٢] وإنهم لن يدخلوها ما داموا فيها، ومع ذلك أورثهم الله ﷻ أرض الجبابرة هؤلاء وبقوا فيها وعمروها وورثوها من بعد أهلها، ذلك الإرث الخاص الذي عرفه في قوله: ﴿ الْوَارِثِينَ ﴾ كما شاء الله -تبارك وتعالى- لهؤلاء المستضعفين.

قوله: ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ يعني: لم يجعلهم وارثين فقط بحيث إنهم يرثون هذه الأرض، ثم يعود أهلها فينقلبون عليهم، ويأخذونها منهم مرة أخرى، لا، وإنما مكن لهم ﷻ يعني: ثبت سلطانهم فيما ملكوه من أرض الشام، وقواهم بين تلك الأمم ﷻ.

وانظر إلى تدبير الملك الحق سبحانه ذلك الحال الذي زال به ملك فرعون، في الآيات التي جاءت بعد ذلك، قال تعالى: ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴾ [القصص: ٨]، فعندما أخبر الكهان فرعون أن زوال ملكه سيكون على يد طفل من بني إسرائيل إذا به يقتل كل الأطفال، فقال له رجال ملئه وحاشيته: إذا قتلتهم كل سنة سيأتي زمان ليس هناك رجال يقومون بالسخرة؛ لأنه قد سخر هذه الطوائف ليكونوا بناءين وخدام وغيرها من المهن، والمجالات التي استعمل فيها بني إسرائيل، فإذا قتل كل أبنائهم فمن أين يأتي برجال يقومون بهذه الأعمال؟ فاضطر لقتل الأطفال عامًا وتركهم عامًا، ففي العام الذي يترك فيه الأطفال ولد هارون، في العام الذي يقتل فيه الأطفال ولد موسى، عليهما السلام.

وكان موسى على هذا الحال الذي قص الله تعالى، من أنه كان هو العدو والحزن الذي تربى في حجر فرعون؛ ليكون زوال ملكه على يديه، فبعد أن كان فرعون سيزيل بني إسرائيل من أولهم إلى آخرهم، ويستأصل شأفتهم، فزال هو وجنده كما قال: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴾ [القصص: ٨].

لذلك يقول العلماء في تفسير هذه الآيات: إن فرعون كان من أشد الناس غباءً وحمقًا؛ لأنه لما أخبره الكهان أن زوال ملكه سيكون على يد طفل من الطائفة الإسرائيلية: كان يقتل أبناءهم ويستحي نساءهم؛ ليمتنع ذلك! وهذا الغباء؛ لأن هذا الخبر الذي أخبروه به إما أن يكون صادقًا أو كاذبًا، فإن كان صادقًا فلا محالة سيزول ملك فرعون ولو قتل أطفال الدنيا كلها، وإن كان كاذبًا، فلماذا يقتل الأطفال؟

والمؤمنون ينبغي ألا يكونوا على هذا الحال السيئ، ولا أن يفكروا بهذه الطريقة الحمقاء التي لا ينبغي أن يفكروا بها! بأنه لو كان كذا كان كذا، وسيسعى في كذا ليحصل كذا، وسيرتب كذا لينبني عليه كذا، وإذا بكل "كذا" يصير هباء، ويأتي مراد الله تعالىمن حيث لا ينتظر، ويأتي مراد الله -تعالى- من حيث لم يتوقع، بل ويأتي مراد الله تعالى من حيث حذر هو، كما قالت الآية: ﴿ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص: ٦].

نستكمل قوله: ﴿ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص: ٦] وكان يمكن أن تقول الآية: ونري فرعون ما كان يحذر من أن واحدًا منهم سيكون زوال ملك فرعون على يديه، ولكن الله تعالى أظهر ذلك كله لفرعون وهامان وجنودهما، وبيّن لهم أن الحذر لم ينفعهم، وأن ملكهم قد زال من هذا الطريق الذي كانوا يحذرون؛ ليعلم المرء قوة الله -تعالى- وقدرته وترتيبه في الخلق، وليعلم المرء كذلك إن ظن أن هذا الطريق لن يوصله إلى شيء، إذا به الطريق الموصل لا سواه، وأن الحذر من أن هذا الطريق هو الذي سيؤدي به، إذا بهذا الطريق الذي كان يحذر هو سبب الفساد وسبب الهلاك؛ فيتعلم المرء حينئذ ألا يقترح على الله -تبارك وتعالى- تغييرًا يريده هو بعقله القاصر وفهمه القليل، وإنما يترك لله -تعالى- إرادته التي بها تمشي أمور كونه، ويتربى بها خلقه ﷻ، وتنفذ بها مشيئته، ويقع بها قضاؤه ﷻ كما وقع في هذه القصة؛ ليتبين للمؤمنين أنه مهما علا المرء ومهما طغى فإنه إن أراد الله له ذلك فلا مفر له.

والسائل يسأل: هل فرعون الذي قتل الأولاد هو الذي أهلكه الله؟ لا، فرعون الأول غير فرعون الثاني[1]، كما جاء في سورة الشعراء.

وهامان -قال المفسرون - هو وزير فرعون، وأحسب أن هامان ليس باسم علم، ولكنه لقب مثل: فرعون وكسرى وقيصر ونجاشي وغيرها، والظاهر أن هامان لقب لوزير الملك في مصر في ذلك العصر[2].

---

[1] – بعض المستشرقين من النصارى يورد الشبهة في هذه القضية، بالتشكيك في أن فرعون في دولة القبط — والقبط اسم سكان مصر القديمة، وهكذا كان اسمهم فلا يعني هذا كونهم نصارى— لم يحدث له الغرق. ففرعون المقصود في الآية: ﴿ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص: ٦] هو ملك مصر منفتاح الثالث، والذي حكم مصر بعد رعمسيس الثاني الذي قتل أولادهم وبدأ هذه السُّنة السيئة، والذي ولد موسى -عليه السلام- في زمانه، وهو الذي كان يحذر ظهور رجل من بني إسرائيل يكون له شأن.

[2] – بعض المستشرقين من النصارى يورد الشبهة في هذه القضية أيضًا، بزعمهم أنه لم يكن لفرعون وزير اسمه هامان، واتخذوا هذا الظن مطعنًا في الآية. وهذا اشتباه فإن الأعلام لا تنحصر، وهامان كان لقب الوزير، وهو لقب كفرعون نفسه، فلم يكن من أسماء الأعلام كالأسماء التي نتسمى بها الآن. وهو يشبه طعن بعض المستشرقين من

وفي النهاية نشير سريعًا للآيات التي بينت قدرة الله -تعالى- في إهلاك فرعون وقومه، وكذلك في إنجاء موسى ومن معه، وهي آيات سورة الشعراء: ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ۝ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ۝ ﴾ [الشعراء: ٦١- ٦٢] بنو إسرائيل قالوا لموسى عليه السلام، "عليه العوض"، البحر أمامنا، وفرعون وراءنا وسنرجع مرة أخرى للذل والاستعباد وإلى أسوأ مما كنا فيه، ﴿ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴾ فماذا حدث بعد ذلك؟ ﴿ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [الشعراء: ٦٣] وهذه من أعظم الآيات في الأول والآخرا. ماذا يعني انفلاق البحر اثنتا عشرة فلقة؟ يعني الماء وقف هكذا عاليًا كأنه جبل! هل يستطيع أحد أن يوقف الماء في الهواء؟ اثنا عشر طود عظيم، الطود: الجبل، فصار الماء جبالاً من المياه بينها وبين كل جبل طريق يابس يمر فيه القوم.

ثم ماذا حدث؟ ﴿ وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ۝ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ۝ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴾ [الشعراء: ٦٣-٦٦] والآية الثانية ﴿ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا بَعۡدُ ٱلۡبَاقِينَ ﴾ [الشعراء: ١٢٠]. بنو إسرائيل ظلوا واقفين لا يريدون أن يمروا، حتى مرَّ سيدنا موسى، فعبروا وراءه، ونزل فرعون وقومه البحر فأمر الله -تعالى- بإطباق البحر عليهم فكأن لم يكونوا!

النصارى كذلك في قوله -تعالى- في شأن مريم حين حكى قولها: ﴿ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴾ [مريم: ٢٨] قالوا: كيف تكون مريم أخت هارون، وهارون قد مات منذ زمن طويل؛ حيث هارون هو أخو موسى، فكيف تكون أخت هارون؟ وكأنه قد أغلق الباب على هارون -عليه السلام- ولم يبق بعده من اسمه هارون! فليس بممتنع أن يكون لمريم أخ اسمه هارون، لا عقلاً ولا واقعًا. أما هارون المذكور في هذه الآية فهو عابد أو كاهن من كهان بني إسرائيل صالحًا تقيًا، و تشبيهًا لها بأنها في ديانتها وفي عفتها وصيانتها كهارون؛ لأنه لما يقال لأحد: يا أخ فلان، يعني: أنت مثل فلان، ويكون المعنى أن الأختية هنا ليس أختية النسب، وإنما في كونها مثله في الدين والصيانة والعفة والكهانة والتعبد لله -تعالى- والانفراد بالله والخلوة له ﷺ.

والناظر في الآيات يلاحظ معني من أعظم المعاني في قوله: ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴾ [الشعراء: ٦٥-٦٦] فبني إسرائيل من أولهم إلى آخرهم: جنودهم ونسائهم وأولادهم وأطفالهم ومركوباتهم وما حملوا معهم من كل شيء، أنجاهم الله تبارك وتعالى أجمعين، فلا يوجد واحد فقط، "وقع غلط" فغرق مثلا أو سقط من على دابته فغرق، كلا، ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ۝ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٦٥-٦٧]، أما فرعون وقومه فكما قال ربنا، فقد نزلوا كلهم البحر، ولم ينج منهم أحد.

وفي هذا عبرة عظيمة لا يستطيعها البشر، ولا الدنيا بأسرها! فالبشر لا بد معرضون للتقصير ولعدم دقة الحسابات ولعدم مراعاة بعض الأمور؛ لأنه ليس هناك في الدنيا مائة في المائة، ولكن ترتيب الرب ﷻ، ﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ۝ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ۝ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ﴾ [الشعراء: ٦٤-٦٧] وأزلفنا، يعني: قربنا، فقرب فرعون وقومه وجنوده فأغرقهم أجمعين، وأنجى موسى ومن معه أجمعين، ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ﴾ وأي آية !

الآية الخامسة : فمنّ الله علينا ووقانا عذاب السموم

بعد أن أشرنا في شرح الآيات السابقة إلى ما يتعلق بالمنن التي مَنَّ الله تعالى بها على خلقه في الدنيا، نتكلم في هذه الآية عن منة الله –تعالى- عليهم في الآخرة. وهي في قوله ﷻ: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۝ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۝ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ۝ ﴾ [الطور:٢٥- ٢٨] : لنفهم معنى من معاني المن من الله تعالى على المؤمنين، كيف امتن الله تعالى عليهم في هذا الحال، ووقاهم عذاب السموم؟ كيف امتن الله عليهم وما أنقصهم من عملهم من شيء؟ كيف امتن عليهم وألحق ذريتهم بهم ولم يرهنهم بأعمالهم؟ كيف امتن عليهم وأتم عليهم

نعيمهم ولذتهم وسرورهم؟ كيف امتن عليهم ﷻ بتمام أنسهم بأولادهم؟ كيف امتن عليهم برفع وزيادة أعمال آبائهم كرامة لهم، أي رفع أعمال أبنائهم كرامة لآبائهم؟ والمنن التي لا حصر لها في هذه الآية.

والملاحظ هنا يجد أن هذه الآية جاءت معترضة لسياق الآيات، فالسياق بدأ بوصف نعيم أهل الجنة من المتقين: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ۝ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ [الطور: ١٨-٢٠] ثم جاءت هذه الآية معترضة: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ ﴾ [الطور : ٢١] ثم يُستكمل السياق الأول في وصف النعيم بعدها: ﴿ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ [الطور : ٢٢-٢٣]...إلى آخر الآيات.

لذلك نبين أولًا المعاني في هذه الآيات قبل استكمال آية المنة. فالاعتراض في هذه الآية – يعني دخولها في نصف آيات النعيم – يبين كرامات المؤمنين في الجنة، بإلحاق ذريتهم بهم؛ لأنه من كمال النعيم الذي يتنعم به المؤمنون في الآخرة أن تكون ذريتهم معهم لا أن يكونوا هم في النعيم وأولادهم وذريتهم معذبون في الجحيم، فكأن الله –تعالى- كمل لهم نعيمهم وسرورهم ولذتهم بأن جمع لهم ذريتهم، فاكتمل نعيمهم وسرورهم وأنسهم باجتماعهم بأولادهم وذريتهم.

وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ ﴾ جاء فيه اللفظ: ﴿ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ ﴾ فهذه الذرية التي اتبعت هؤلاء ولحقت بهم لحقت بهم: لكونهم مؤمنين، مع أن الكلام في بداية الآيات كان للمتقين: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ۝ ﴾ [الطور : ١٧].

وهذه منَّة الله تعالى، فإذا تحققت ذريتهم بمجرد مسمى الإيمان، يمن الله تعالى على هذه الذرية التي لم تبلغ في إيمانها وعملها الصالح مبلغ آبائها، بأن يُلحِقهم بآبائهم، منة من الله تعالى على هؤلاء المتقين؛ ثم هل ذلك ينقص الآباء شيئا من أعمالهم ليأخذها من أُلحِق؟ أجابت الآية:

لا! لن ننقصهم شيئا، وذلك فضل الله تعالى الواسع عليهم وعلى ذرياتهم، إكمالاً لنعيمهم، وإتمامًا لسعادتهم وأنسهم بجوار الله تعالى والنبيين.

وتأتي تكملة الكلام القرآني الفريد: ﴿ كُلُّ ٱمْرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ فيكون السؤال: لما كان كل مرهون بعمله، فما المنة في أن هؤلاء الذرية يلتحقون بالآباء إذا كانوا قد رهنوا بأعمالهم؟ يقول: إن هذا فيه كنايتين: إحداهما أن أهل الكفر مقرونون بجزاء أعمالهم، وثانيتهما أن ذريات المؤمنين الذي ألحقوا بآبائهم في النعيم ألحقوا في الجنة كرامة لآبائهم، بشرط الإيمان، ﴿ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ ﴾ فهذه الذرية لن تلحق بالآباء إلا أن تكون ذرية مؤمنة، فالإيمان هو الأصل في أن تلحق بهم ذريتهم، ولكن لولا تلك الكرامة لكانوا مرهونين بعملهم كما رهن غيرهم: لأن أعمالهم لا تصل إلى درجات آبائهم فلا يلحقون بهم.

ولكن كرامة لآبائهم وإتمامًا لنعيم آبائهم، لم يرتهنوا بأعمالهم الناقصة التي لم تبلغ آباءهم، وإنما رفعت أعمالهم إلى أعمال آبائهم في الدرجة حتى حصلوا بذلك درجة آبائهم.

منة الله تعالى على الآباء والذرية بصلاح الآباء

وهي قوله: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [الطور : ٢٥]، وأول ما يصادفنا فيه قوله تعالى: ﴿ وَأَقْبَلَ ﴾ والواو هنا للعطف، وهي معطوفة على قوله: ﴿ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ [الطور : ٢٣] يعني: فيما هم فيه من فرح الجنة، ومن نعيم وسرور ولذة يتحدثون ويتناقشون ويتسامرون في هذه المجالس من مجالس النعيم لأهل الجنة.

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ من الذين يتساءلون؟ الآباء وذرياتهم، فضمير "بعضهم" عائد إلى المتقين وإلى ذرياتهم كما قال تعالى في الآية السابقة : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الطور : ٢١ : ٢٢]

فهؤلاء الآباء والذرية، وهم يتنازعون هذا الكأس، أقبلوا يتساءلون؛ إتمامًا للأنس، وإظهارًا لفضل الرب، وتبيينًا لمنة الله –تعالى- العظمى على الآباء والذرية في نفس الوقت.

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ [الطور : ٢٦]. يقول ابن عاشور: والإشفاق توقع المكروه، وهو ضد الرجاء، وهذا التوقع متفاوت عند المتسائلين بحسب التقصير في أداء حق التكليف، أو من العصيان؛ ولذلك فهذا الإشفاق أقوى في جانب ذرية المؤمنين؛ بسبب سوء أعمالهم، وزيادة عصيانهم، كانوا أكثر خوفا من أن يحل عليهم مكروه الرب في الآخرة أكثر من الآباء.

ويجوز أن تكون المقالة وهي قوله: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾، صادرة من الذين آمنوا من المتقين، يخاطبون ذرياتهم الذين ألحقوا بهم، ولم يكونوا -أي هؤلاء الآباء المتقون- يحسبون أنه ستلحق بهم ذريتهم المقصرون المفرطون.

كانوا إذن خائفين وجلين، ولم يكونوا مشفقين فقط على أبنائهم؛ وإنما كانوا مشفقين على أنفسهم وأبنائهم، وعلى أعمالهم، وعلى علاقتهم بالله تعالى، وقيامهم بمسئوليتهم بحقوق التكليف الشرعي بما أمر الله تعالى.

لذلك قال ابن عاشور: وهذا الإشفاق في الدنيا على حسب المنة في الآخرة؛ بمعنى أن الإشفاق درجات متفاوتة، ليس كل المتقين في الحياة الدنيا مشفقين بنفس الدرجة، خائفين متوقعين للمكروه، مترقبين أعمال آخرتهم، حذرين لها. وهي أول ما يتعلمه المرء حتى ينتظر منة الله تعالى المنان، الإشفاق في الدنيا، والخوف على نفسه، وأهله، أن يكون متحملاً لمسئوليات هذا الدين؛ لأن الإشفاق يكون على حسب القيام بتكاليف الشرع. وذلك لأن الإشفاق درجات على حسب القيام بحق التكليف الشرعي، وبالتالي كانت منة الله –تعالى- في الآخرة على حسب درجات الإشفاق في الدنيا، فمن كان أكثر إشفاقًا كان أعلى درجة، ومن كان في الدنيا أقل إشفاقًا وخوفًا كان في الآخرة كذلك أخفض درجة عند الله تعالى، وهذه مسألة لا كلام عليها، كما قال: ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١٦٣]. وكذلك من خاف في الدنيا أمن يوم القيامة، ومن أمن في الدنيا خاف يوم القيامة؛ فإن كان خوفه كبيرًا كان أمنه كبيرًا، وإن كان خوفه ضعيفًا كان خوفه في القيامة كذلك، وهكذا.

قوله: ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ [الطور : ٢٧] فهذا الإشفاق سبب من أسباب منة الله تعالى؛ عندما يكون المرء مشفقًا خائفًا يتوقع المكروه، ولا يتوقع أن عمله يمكن أن يكون سببًا لنجاته، بل يعمل ويظن أن عمله ليس سببًا للنجاة، وليس سببًا للفوز، بل على العكس لا يكون سبب الفوز والنجاة إلا الخوف والحذر، وأنه دائم التوقع للمكروه من أعماله، وأقواله، وتصرفاته؛ حتى يكون أشد احتراسًا منها لما يقع بسببها في معصية الرب ﷻ.

﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ بالعفو عنكم، فأذهب عنا الحزن، ووقانا ﷻ أن يعذبكم بالنار؛ لأنه لما كان عذاب الذرية يحزن آباءهم جعلت وقاية الذرية من العذاب وقاية لآبائهم؛ لذلك قالوا: ﴿ وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾، يعني: وقانا وإياكم هذا العذاب بسبب وقايتكم أنتم لهذا العذاب؛ ولأنكم لو كنتم تتعذبون، كنا نحن في الحزن والألم والضيق لتعذيبكم.

وهذا القول من الآباء: ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ إغراقا في الشكر عنهم وعن ذريتهم؛ لأن العفو عن الذرية كأنه عفو عن الآباء، ومعنى الشكر أظهر في جانب الذرية؛ لأن الله –تعالى- قد أوصلهم إلى هذه الدرجة مع قلة الأعمال، والوقوع في العصيان، وبالتالي كانت منة الله –تعالى- عليهم عظيمة، فقالوا شاكرين شكرا كبيرا لله تعالى: ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا ﴾ جميعا نحن وأنتم ﴿ عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾.

والسموم هي الريح التي تهب من جهة حارة جدًّا، يعلمها العرب، وهذه الريح أيامها كان من يستنشقها يموت، وكانت إذا جاءت فإنما تأتي بالدمار والهلاك، وأطلقت هنا على سبيل تقريب المعنى لهؤلاء في الآخرة.

وقوله: ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ﴾ [الطور : ٢٨]، وهي الصفة الجميلة التالية التي بها يمتن الله –تعالى- على عباده، أنهم لا يتخلفون عن دعائه، والابتهال له ﷻ، مع حسن الأدب في هذا الدعاء، والابتهال حتى يستجيب لهم ﷻ ويمتن عليهم بأن يعطيهم ما يريدون منه ﷻ، وألا يخذلهم فيما دعوه به ﷻ.

وقوله: ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ﴾، تعليل لمنة الله عليهم، نقول: لماذا منَّ الله علينا؟ لأننا كنا من قبل ندعوه. وهذا التعليل هو المفيد لأهل الإيمان في انتظار منة الله تعالى. فكما ذكرنا أن الصفة الأولى هي الإشفاق الذي يستدعي المنة عليهم؛ كان دعاؤهم هو الصفة الثانية. وهذا القول كذلك ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ﴾ ثناء على الله ﷻ بأنه استجاب لهم وألحق ذريتهم بهم.

وقوله: ﴿ مِن قَبْلُ ﴾،أي: كنا ندعوه في الدنيا. وقوله: ﴿ نَدْعُوهُ ﴾، حُذف فيه المفعول ليدل على العموم. فعندما نقول: ندعوه بأي شيء؟ يقال: كنا نبتهل إليه ونتضرع إليه في أمورنا كلها، وأول أمر دخل معنا في هذا العموم هو الابتهال إلى الله –تعالى- لأنفسهم ولذريتهم بالنجاة من النار ولنوال نعيم الآخرة، والوقاية من أسباب الهلكة.

قال ابن عاشور: ولما كان هذا الكلام في دار الحقيقة لا يصدر إلا عن إلهام ومعرفة من الله تعالى، كان دليلاً على أن دعاء الصالحين لأبنائهم وذرياتهم مرجو الإجابة؛ لأنهم كانوا يقولون قولاً حقًّا وفصلاً قد وقع في دار الحق. كما دل على إجابة دعاء الصالحين من الأبناء لآبائهم كذلك بأن يلحق الله تعالى الآباء الذين لم يسعفهم عملهم الصالح، بأبنائهم الذين وصلوا إلى هذه الدرجة من الله ﷻ. قال النبي ﷺ: « إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ »[1]، فدل على استجابة دعاء الولد الصالح لأبيه. ومما ورد في أحاديث النبي ﷺ أن الولد الصالح كذلك يلحق به آباؤه ممن لم يصل إلى درجته[2] فضلاً من الله تعالى كذلك كما تفضل على الأبناء فألحقهم بالآباء الصالحين.

---

[1] – الحديث رواه مسلم (١٦٣١)، عنْ أبي هُرَيْرةَ رضى الله عنه.

[2] – الحديث رواه الإمام أحمد (٢١١٨)، وقال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (٢٧/٣): رواه أحمد بإسناد حسن. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٥١/١٠): رواه أحمد والطبراني في الأوسط ورجالهما رجال الصحيح، غير عاصم بن بهدلة وقد وثق. ولفظه: (عنْ أبي هُرَيْرةَ قالَ: قالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عليْهِ وَسلَّم: «إنَّ اللَّه –عزَّ وجلَّ– لَيَرْفَعُ الدَّرجَةَ لِلْعَبْدِ الصَّالِحِ فِي الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَنَّى لي هَذِهِ؟ فَيَقُولُ: بِاسْتِغْفَارِ وَلَدِكَ لَكَ»).

ثم قال: ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾ والبر: أي المحسن في رفق، والرحيم: أي شديد الرحمة، وأفاد ذلك المبالغة؛ أن البر الرحيم هو الله، وأن غيره ليس ببر ولا رحيم على الحقيقة، وأن كل برٍّ ورحمة إنما هو من برّه ورحمته ﷻ، ولأن بره ورحمته ليس كمثلهما شيء، فقد استجاب ﷻ دعاءهم.

الفصل الثاني:

العزيز سبحانه وتعالى

أولا: المعنى اللغوي للعزيز

العزيز من العز، والعز في أصل اللغة هو: القوة والشدة والغلبة، والعز والعزة: الرفعة والامتناع، كما قال تعالى: ﴿ ... وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ ...﴾ [المنافقون : ٨] وله: أي وله العزة والغلبة.

ورجل عزيز: أي منيع لا يغلب ولا يقهر ويقال: عزني فلان على الأمر: إذا غلبني عليه كمال قال تعالى: ﴿ ... وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [ص : ٢٣] وقوله تعالى: ﴿.. فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ...﴾ [يس : ١٤] أي شددنا وقوينا، وعز الشيء يعز فهو عزيز أي قليل، حتى ما يكاد يوجد، أي يصبح نادرا، مثل قولنا: هذا شيء عزيز، أي: قل حتى ما يكاد يوجد[1].

وهذا الاسم المبارك ذكر في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، وأنه قد ورد به السمع أي: ورد به الكتاب والسنة أو الإجماع، وورد دليله في الكتاب والسنة ، ومما يستدل به على أن هذا الاسم من أسماء الله تعالى قوله تعالى: ﴿ .... وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾ [البقرة : ٢٦٠] ، وقوله تعالى: ﴿ ... وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ ﴾ [آل عمران : ٤]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ [الشعراء : ٩] وقوله تعالى: ﴿ ... إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [فاطر : ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿ ... ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأنعام : ٩٦]، وقال سبحانه أيضًا : ﴿ رَبُّ

---

(١) جاء في القاموس المحيط باب الزاي مع العين : عَزَّ يَعِزُّ عِزًّا وعِزَّةً، بكسرهما، وعزازةً: صارَ عَزيزًا، كتَعزَّزَ، وقَوِيَ بعدَ ذِلَّةٍ. وأعَزَّهُ وعَزَّزَهُ، و الشيءُ: قَلَّ، فلا يَكادُ يُوجَدُ، فهو عَزيزٌ، ج: عِزازٌ وأعِزَّةٌ وأعِزَّاءُ، وـ الماءُ: سالَ، وـ القَرْحةُ: سالَ ما فيها، وـ عَلَيَّ أن تَفْعَلَ كذا: حَقَّ، واشْتَدَّ، يَعِزُّ، كَيَقِلُّ، ويَمَلُّ. وعزِزْتُ عليه أعِزُّ: كَرُمْتُ. وأُعْزِزْتُ بما أصابَكَ، بالضم، أي: عَظُمَ عَلَيَّ. والعَزُوزُ: الناقَةُ الضَّيِّقَةُ الإِحليلِ ج: عُزُزٌ، وقد عَزَّتْ، كمَدَّ، عُزُوزاً وعِزازًا، بالكسر، وعَزُزَتْ، ككَرُمَتْ، وأعزَّتْ وتَعَزَّزَت. وعَزَّهُ، كمَدَّهُ: غَلَبَهُ في المُعازَّةِ، والاسمُ: العِزَّةُ، بالكسر،كمَزْعَزَهُ، وـ في الخِطابِ: غالَبَه، كَعازَّهُ. والعَزَّةُ: بِنْتُ الظَّبْيَةِ، وبها سُمِّيَتْ عَزَّةُ. والعَزازُ: الأرضُ الصُّلْبَةُ. انظر: القاموس المحيط للفيروز آبادي، ج:١ ص: ٥١٧، طبعة مؤسسة الرسالة.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ ﴾ [ص : ٦٦] وقوله تعالى: ﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٨﴾ ﴾ [البروج : ٨]، وكل ذلك على سبيل المثال لأن هذه الآيات أكثر من تسعين موضعًا في القرآن الكريم مما يدل على أن هذا الاسم قد تسمى به المولى سبحانه وتعالى، فصار من أسمائه التوقيفية كما ذكر العلماء.

ولم يرد في القرآن اسم (العزيز) إلا مقرونا بغيره (عزيز غفور) أو (العزيز الرحيم) أو (العزيز العليم) أو (عزيز ذو انتقام) كما ذكر سبحانه وتعالى ، واقتران هذا الاسم الجميل بهذه الأسماء الحسنى يعطي العديد من المعاني الجديدة لهذا الاسم مما يتعلق بالله تعالى من معاني العظمة والكبرياء والغلبة وغير ذلك.

ثانيًا: معاني العزيز في حق الله تعالى

ذكر ابن جرير في تفسيره، قال: العزيز أي الشديد في انتقامه لمن انتقم من أعدائه، وقال ابن كثير[1]: العزيز أي الذي قد عز كل شيء فقهره، وغلب الأشياء، فلا ينال جنابه سبحانه وتعالى لعزته وعظمته وجبروته وكبريائه.

ويقول الشيخ السعدي[2]: العزيز الذي له العزة كلها، عزة القوة، وعزة الغلبة، وعزة الامتناع، فامتنع أن يناله أحد من المخلوقات، وقهر جميع الموجودات، دانت له الخليقة، وخضعت لعظمته، وهو ما نظمه ابن القيم في النونية قائلا:

وهو العزيز فلن يُرام جنابه — أنّى يرام جناب ذي السلطان
وهو العزيز القاهر الغلاب — لم يغلبه شيء هذه صفتان
وهو العزيز بقوة هي وصفه — فالعز حينئذ ثلاث معان
وهي التي كملت له سبحانه — من كل وجه عادم النقصان

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ج: ٨، ص: ١٠٨، طبعة دار الكتب العلمية.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، عبد الرحمن السعدي ص ٩٤٦، طبعة مؤسسة الرسالة.

أما الإمام القرطبي فقد أوسع في الكلام عن معنى العزة في حق الله تعالى فذكر له ثمانية معان. يقول: وهو - أي العزيز- جاء في الكتاب والسنة، وجاء به إجماع الأمة، وجاء معرفا ومنكرا في غير ما آية، ولا خلاف في جواز إجرائه على غير الله تعالى، كمال قال تعالى: ﴿ ... قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝ ﴾ [يوسف : ٥١] ويحتمل أن يكون وصفًا.

وقوله: وجاء معرفًا، أي بالألف واللام أو بالإضافة، كما ذكرنا في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ ... ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝ ﴾ [الأنعام : ٩٦]، ومنكّرًا كما في قوله تعالى: ﴿ ... إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ۝ ﴾ [فاطر : ٢٨].

وقال ابن الحصار ولا أعلم خلافًا في جواز التسمي به منكرًا، يعني أن يقول: عزيز، فيجوز أن يتسمى به المخلوقات، وابن الحصار لا يجيزه معرفا إلا لله تعالى، لأن الألف واللام في أسماء الله جل وعلا إما للحصر وإما للمزية . والحصر: أي أن يكون الاسم المعرف محصور في الله تعالى فيما لا مشاركة فيه، فلا تنحصر تلك المعاني إلا في الله تعالى. والمزية ألا يكون مزية فيها إلا لله: فهذه المزية إنما تختص بالمولى جل وعلا.

يقول: (عَزَّ يَعُزُّ) برفع العين في المستقبل، أي بضم العين في المضارع: "يعُز" ، فهو عزيز - إذا غلب. ومنه قول الحق: ﴿ ... وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ۝ ﴾ [ص : ٢٣] فمضارع: (وعزني) ما المضارع؟ قال: ويعُزني في الخطاب، لا يقال: ويعِزني أو يعَزني .

<u>(١) عزّني، أي: غلبني وغالبني</u>، وفي المثل: (من عَزَّ بَزَّ) أي من غلب سلب، أي من غلب في القتال سلب المقاتل الذي غلبه، فيسلب سلاحه وثيابه وكل ما يملك. ويقال أيضا: (عَزَّ يَعَزُّ) بفتح العين في المستقبل، فهو عزيز.

<u>(٢) (التعزيز) المراد منه القوة والشدة</u>، ومنه قول الحق تعالى: ﴿ ... فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ...﴾ [يس : ١٤] أي قويناهما وشددناهما بثالث، ومنه تعزز فلان أي صار عزيزًا، وكذلك يقال للأرض القوية الصلبة (عَزاز) لامتناعها على من أراد أن يحفرها، ومن أمثال العرب: (إذا عز أخوك

فَهِنَ) بكسر الهاء، أي أن تكون هينا، أي إذا اشتد أخوك معك فَلِن أنت. ويقال أيضا: (عَزَّ يَعِزُّ) بكسر عين المستقبل، عِزًّا وعَزَازًا

(٣) إذا قَلَّ، لا يكاد يوجد، فهو عزيز. وعز فلان يَعِزُّ عِزًّا أي صار عزيزًا، أي قويًّا بعد ذلة. وهذه الثلاثة هي الأصول، واسم الفاعل من جميعها: عزيز، والجمع: عِزاز، كقوله: كريم وكِرام.

(٤) العزيز معناه الجليل الشريف، وهو ما حكاه أبو إسحاق الزجاج ومنه قولهم: فلان يعزز بفلان، أي يتجالل به، ويشرف به، ويتكبر به، قال تعالى: ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ...﴾ [المنافقون : ٨] أي ليخرجن الجليل الشريف منها الذليل.

(٥) أي الممتنع الذي لا ينال ولا يدرك، فقول العرب: حصن عزيز إذا كان لا يوصل إليه.

(٦) العزيز: هو المعز لغيره، فَعِيل بمعني مُفْعِل كأليم بمعنى مؤلم. فإذا أردت العزة فهي من العزيز سبحانه فهو الذي يعزك سبحانه بالطاعة، ويعزك بالعفو، وبغير ذلك مما سنذكر من أسباب العزة بالله سبحانه وتعالى.

(٧) بمعنى مُعَزّ ومعزوز على فَعِيل بمعنى مفعول، كقولهم: كف خَضِيب أي مخضوب، ورجل قتيل أي مقتول.

(٨) عزيز : أي عزيز عليه أولياؤه.

يقول الإمام القرطبي: فهذه ثمانية معان يجوز وصف الله تعالى بها كلها في قول علمائنا، يقال: الله العزيز سبحانه وتعالى بمعنى الغالب القاهر، فهو من صفات الأفعال ومنه قوله تعالى: ﴿ حمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝ ﴾ [غافر: ١- ٢]، أي: من الله

القاهر المحكم، خالق الأشياء، وإذا قيل في العزيز: إنه من القوة فهو صريح في الدلالة على الاقتدار.

وإذا قلنا: هو سبحانه وتعالى قدير فإن القدرة التي يتحقق بها العزة وغيرها لا بد أن تشتمل على جميع الصفات، لو قلنا: هو قدير على الخلق إذن هو عالم، إذن هو خالق، إذن هو حي سبحانه وتعالى، إذن هو بارئ، مصور، إذن هو القادر الباعث هو المحيي هو المميت، فكل الصفات تدخل في هذا المعنى.

وإذا قيل في العزيز: إنه لا مثل له ولا نظير من عز يعِز، فهو يدل في حق الله تعالى على وجود تكامل حتى لا يُماثل، فعزيز أي ليس كمثله شيء، لا نظير له ولا ندّ سبحانه وتعالى.

وإذا قيل: إنه الجليل، فهو يدل في حق الله تعالى على شرف الذات، فذاته عليةٌ شرفها سبحانه وتعالى، لا يدرك كنه ذلك إلا هو، وإذا كان في الناس شرفاء أجلاء فمن باب الأولى أن يكون تمام الشرف وتمام الجلالة إنما هو لله الخالق سبحانه وتعالى، وكمال الصفات يدل على شرف الذات وعلى كمال الصفات.

وإذا قيل: العزيز هو الممتنع الذي لا يصل إلى جنابه شيء بل هو يغالب كل شيء، إنه الممتنع الذي لا يرام، فهو يدل صريحا على المُلك، ويدل على أنه الأعلى، ويدل على أنه القاهر، ويدل على أنه الصمد، ويتضمن ذلك قهرَ من سواه، وعجزَ من دونه سبحانه وتعالى.

فإذا كان هو القاهر - جل وعلا- الممتنع الذي لا يرام إذن فكل أحد أمامه ناقص عاجز، كما يقول: مقهور بقهره جل وعلا.

وإذا قيل: معناه المعز، فهو صريح في ترفيعه من يشاء، يعز من يشاء ويذل من يشاء، بيده الخير سبحانه وتعالى، وهو من صفات الفعل، فيتضمن جميع الصفات التي لا يتم الفعل إلا بها، كالإرادة والعلم وغيرهما، وإذا كان هو يعز من يشاء فدل في نفس الوقت على أنه يذل ويخفض من يشاء سبحانه وتعالى، ودل في نفس الوقت على أن للعزة أسبابها، وأن للذلة والخفض أسبابها، التي بها يعز هؤلاء الذين شاء لهم العز، وبيَّن طريق العزة التي سبحانه وتعالى يعزهم بها، وبين طريق الذلة والانخفاض التي توصلهم إلى حال سيئ.

وإذا قيل: إنه سبحانه وتعالى المُعَزُّ بالفتح أي المعزوز، ويدل على عبادة العابدين، وحرمة المتحرمين له سبحانه وتعالى. والمُعَزُّ الذي يُعَزُّ بطاعة عبادة، وليس معناها أن يرتفع سبحانه أو يزداد، لا، وإنما العزة هنا - كما يقول - راجعة لهم، والحرمة هنا راجعة لهم، أنهم صاروا أعزة بالله، أو معزوزين بالله تعالى.

والمعزوز كالمحمود ، أي الذي نحمده سبحانه وتعالى بما يجب له فهو كذلك معزوزًا سبحانه وتعالى ، فكما أنه محمود أي جمعت له كل صفات الحمد، وأنواع الحمد المختلفة التي يتعبده المرء بها، وأنه بلغ من كل صفة أعلاها وأشرفها ، كذلك في العزة، فله جل وعلا تمام العزة وكمال العزة بكل الاعتبارات، أي أن الله عزيز بكل اعتبار وأن كل اعتبار من هذه الاعتبارات الله تعالى كامل العزة فيه ؛ إذ هي درجة الله تعالى التي لا يصل إليها أحد، بل كل عزة من عزته.

إذن فكيف تتوافق الآية الكريمة: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ...﴾ [فاطر: ١٠] مع قوله: ﴿ ... وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ...﴾ [المنافقون : ٨] يقال: كل العزة بكل اعتبار لله، وما كان للبشر فهو من عزة الله تعالى ، والعزة على الحقيقة لله أما للبشر فهي على المجاز: لأنها من الله تعالى.

وإذا قيل: إنه بمعنى ﴿ ... عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ...﴾ [التوبة : ١٢٨] فيدل في آخر الأمر على كرامته سبحانه وتعالى لأوليائه وأهل طاعته، ويكون أيضا من صفات الأفعال لله تعالى.

النقطة التالية أنه سبحانه وتعالى في كل ما ذكرنا من معان هو المختص سبحانه وتعالى بأعلى الكمال فيها؛ والمعنى المطلوب أن العبد في المقابل من ذلك كله إنما هو على النقص والقلة والذلة، وأنه لولا ربه ما كان هو.

فكل ما في هذا الاسم له سبحانه وتعالى بكل اعتبار، وإن تسمى به غيره فهو مجاز بكل اعتبار، وإذا عز المخلوق فوصف بالعزة فهذا الاسم له مستعار، ومن باب أولى أن يكون الاسم موصوفًا به ربه سبحانه وتعالى. يعني: إذا كان الخلق الفقير الحقير، عزيزًا وله قوة وله غلبة، ويستطيع أن يتسلط على خلق الله فمن باب أولى أن من وهب وأعطى، ووسع ورفع وخفض كل ذلك من باب الأولى أن يتصف هو سبحانه وتعالى بذلك من القوة والمنعة والغلبة.

فهو العزيز الذي لا يُضام جاره، ولا يُذل أنصاره، وهو الممتنع الذي أمنع عن الأبصار أن تدركه، وعن الأوهام أن تكيفه، وهو القوي الذي لا يغالب سبحانه وتعالى، والقوي الذي لا يناهض، لا إله إلا هو العزيز الحكيم، المعز لأوليائه، المانع لهم وعنهم، قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ...﴾ [الحج : ٣٨] وقال تعالى: ﴿ ... وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة : ٢٥١].

أما الإمام أبو حامد الغزالي فقد لخص معان العزيز في المقصد الأسنى[(١)] ، يقول رحمه الله تعالى: العزيز هو الخطير - وهذا لفظ جديد استعاره القرطبي من كلام الغزالي، واستعاره الرازي وغيره من أهل العلم - يقول: العزيز هو الخطير، الذي يقل وجود مثله، وتشتد الحاجة إليه، ويصعب الوصول إليه.

فقد لخص المعاني الثمانية في هذه الألفاظ، وإن كانت المعاني الثمانية أوضح في إصلاح القلب على التعبد، ودعاء الله تعالى بالأسماء الحسنى، ولكنها عادة الإمام - حجة الإسلام أبو حامد الغزالي، مع غض النظر عن ما يتكلم فيه من أشعرية لا علاقة لنا بها، ولكننا نأخذ المعاني التي تتوافق مع كلام أهل السنة.

يقول: فما لم يجتمع عليه هذه المعاني الثلاثة لم يطلق عليه اسم العزيز، وتنتهي القلة في الوجود إلى ألا يكون موجودًا إلا واحد، فيكون الموجود من هذا الشيء واحدا، وتشتد الحاجة إليه، ويصعب الوصول إليه، فكم من شيء يقل وجوده ولكن إذا لم يَعظُم خطره، ولم يكثر نفعه لم يسمَ عزيزا، وكم من شيء يعظم خطره ويكثر نفعه ولا يوجد نظيره، ولكن إذا لم يصعب الوصول إليه لم يسم عزيزا، كالشمس مثلا، فإنه لا نظير لها، والأرض كذلك، والنفع عظيم في كل واحد منهما، والحاجة شديدة إليهما، ولكن لا يوصفان بالعزة؛ لأنه لا يصعب الوصول إلى مشاهدتهما، فلا بد من اجتماع المعاني الثلاثة.

---

(١) انظر: المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، الأمام أبي حامد الغزالي ص ٧٨،٧٧، طبعة دار المشرق.

ثم في كل واحد من المعاني الثلاثة كمال ونقصان، في هذه المعاني الثلاثة، وهي (الذي يقل وجوده، وتشتد الحاجة إليه، ويصعب الوصول إليه) فيها كمال وفيها نقصان، الكمال المطلق فيها لله تعالى، وما دونه فهو ناقص لا شك، لا يصل إلى كماله بذلك النقصان أحد إلى الله تعالى.

والكمال في قلة الوجود أن يرجع إلى واحد، بمعني: لو قلنا ليس في الوجود إلا هذا الشخص انتهى إلى الكمال في هذا المعنى الأول، بأن يشار إليه هو فقط بأنه ليس مثله شيء، فصار الكمال لهذا الواحد فقط، بحيث يستحيل وجود مثله، وليس هذا إلا الله جل وعلا، فإن الشمس - وإن كانت واحدة في الوجود - فليست واحدة في الإمكان، فيمكن أن توجد شموس أخرى كثيرة.

وشدة الحاجة أن يحتاج إليه كل شيء في كل شيء، حتى في وجوده وبقاءه وصفاته، وليس ذلك على الكمال إلا لله تعالى، اشتدت الحاجة إليه، فكل أحد محتاج إلى الله، شديد الحاجة إليه، ممتلئ بالضرورة في كل ذرة من ذراته إلى الله تعالى، كل ذرة إذا لم يحركها ربه لم تتحرك سبحانه وتعالى، وقفت هذه الذرات من أولها إلى آخرها، لذلك يقول: وشدة الحاجة أن يحتاج إليه كل شيء في كل شيء، وكذلك المرء في كل شيء محتاج إلى الله تعالى، لا يدعي أنه ليس محتاج إليه في شيء ومحتاج إليه في أشياء، فلا يستطيع أحد أن يقول ذلك حتى في وجوده وبقاءه وصفاته، وفي كل ما يتعلق به، وليس ذلك على الكمال إلا لله عز وجل.

والكمال في صعوبة المنال - وهو ما ذكره في الصفة الثالثة - أن يستحيل الوصول إليه، سواء على معنى الإحاطة بكنهه، وهي لله جل وعلا، أو في أي شيء آخر، فلا يمكن أن تصل إليه سبحانه وتعالى، فصار ذلك كله لله.

والعزيز من العباد من تتمثل فيه هذه الأمور، أي من يحتاج إليه عباد الله في أهم أمورهم، وهي الحياة الأخروية والسعادة الأبدية، وذلك مما يقل - لا محالة - وجوده، ويصعب إدراكه، وهي رتبة الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، يشاركهم في العز فيها من ينفرد بالقرب من درجتهم كالخلفاء، وورثتهم من العلماء، وعزة كل واحد منهم بقدر علو رتبته عن سهولة النيل والمشاركة، وبقدر عناءه في إرشاد الخلق.

ونختم هذه المعاني بكلام **الإمام ابن القيم** يقول[1]: من أسماء الله الحسنى العزيز، الذي له العزة التامة، ومن تمام عزته سبحانه وتعالى براءته عن كل سوء وشر وعيب.

ثم يقول: العزيز هو الذي يقضي بما شاء لكمال عزته حكم على العبد وقضى عليه، هو الممتنع القوي الغالب القاهر، جاء عبيده فقضى فيهم بما شاء هو لا بما يشاءون، وقضى فيهم بما أراد هو لا بما يطلبون ويتمنون. فهو يقضي بما يشاء لكمال عزته، ولكمال علمه جل وعلا، ولتمام إرادته وقوته، لذلك يقول: وأنه لكمال عزته حكم على العبد وقضى عليه، بأن قلَّب قلبه، وصرف إرادته على ما يشاء، وحال بين العبد وقلبه، يريد المرء شيئا وإذا به قد أصيب بما يمنعه، أو منعه عنه رغما، أو منعه عنه بما أرسل إليه.

وهذا نراه كثيرا: يريد المرء سفرا فإذا به يمرض مثلا، أو يحدث له حادث، يريد أن ينجح فإذا به يحدث له ما يمنعه من أن يذهب إلى الامتحان، جمع مالا ويريد أن يبيع شيئا أو أن يشتري فإذا به قد سُلب ماله، يريد أن يحصل شيئا يرى فيه مصلحته ومنفعته إذا بالله تعالى يرى المنفعة والمصلحة في شيء آخر فيمنع ذلك الشيء، أراد الطاعة فإذا به لم يستطع ، وذهب إلى المعصية وأراد به خيرًا فإذا به يوقفه عن المعصية ويمنعه منها، إلى آخره، وكل ذلك في الفقر والغنى والطاعة والعزة، والدرجات العلى والدرجات الدنيا، والمال والولد والنفس والأهل، كل ذلك قضى فيه وحكم سبحانه وتعالى بما شاء.

يقول: وحال بين العبد وقلبه، وجعله مريدًا لما شاء منه العزيز الحكيم سبحانه وتعالى، وهذا من كمال العزة؛ إذ لا يقدر على ذلك إلا الله، لا يقدر على هذا الأمر أحد أن يقلب قلبه وأن يصرفه وأن يجعله مريدا لشيء لا يريده الرب جل وعلا، ليس معنى ذلك أن المرء مجبور، وإنما كما سيقول الإمام ابن القيم: فكأنه مختار غير مختار، وهو الكلام الذي ينبغي فهم معناه على اعتقاد أهل السنة الصحيح.

لذلك يقول: إذ لا يقدر على ذلك إلا الله، وغاية المخلوق -إن تصرف فيك- أن يتصرف في بدنك وظاهرك، وأما جعلك مريدا لما يشاءه منك ويريده فلا يقدر عليه إلا ذو العزة الباهرة

---

(١) انظر: مدارج السالكين، ابن القيم ، ج: ١ ص ٢٢٢، ٢٢٣- دار الكتاب العربي.

سبحانه وتعالى، والقوة القاهرة، فإذا عرف العبد عز سيد ولاحظه بقلبه، وتمكن شهوده منه كان الاشتغال به عن ذل المعصية أولى به وأنفع؛ لأنه يصير مع الله لا معنى نفسه.

ومن معرفة عزته في قضائه أن يعرف العبد أنه مقهور، ناصيته بيد الله تعالى، لا عصمة له عن الذنب إلا بعصمته، ولا توفيق ولا له إلى الطاعة إلا بمعونته، فهو ذليل حقير في قبضة عزيز حميد سبحانه وتعالى.

يقول: ومن شهود عزته أيضًا في قضائه أن يشهد أن الكمال والحمد والغناء التام والعزة كلها لله، وأن العبد نفسه أولى بالتقصير والذم. فالذي أولى بالتقصير أن تذمه إن وقع واقع وأن تتشكى منه هي نفسك الأمارة بالسوء. أتشتكي من ربك أنْ نزل بك قضاؤه وحل بك حكمه سبحانه وتعالى؟! لا ينبغي ذلك، ولكن ينبغي أن يرى المرء نفسه بعين النقص والقِلة، لما تأتي من المعصية والغفلة، لا أن يراها بعين الكمال، ولا أن يراها بعين الرفعة والعزة، بل يراها على عكس ما ينبغي أن يرى ربه سبحانه وتعالى.

فهذا طريق من الطرق الموصلة إلى الله أن ينظر لنفسه دائمًا بعين التقصير، وعين الذم، وعين العيب، وعين الذل والحاجة، حتى إن لم يره الناس كذلك فهو يعلم من نفسه المصائب والآفات التي لو اطلع عليها الناس لسوَّدوا وجهه، ولفُضح بها، وكل أحد يعلم من نفسه ذلك بينه وبين ربه، فلمَ يريد أن يُمدح وأن يُثنى عليه؟ بل العكس **لا يصل إلى الله تعالى ولا يدخل إليه إلا مفتقرا إلا مفلسا، لا يرى لنفسه شيئا ولا من نفسه شيئا، ولا به شيئا**. فإن كان فيه شيء فنعمة الله ، وإن كان له شيء فمن الله، وإن كان في تقصير وتفريط وسيئات فمن نفسه كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى : ٣٠].

يقول: وكلما ازداد شهود ذله ونقصه وعيبه وفقره، ازداد شهوده لعز ربه وكماله وحمده وغناه، وبالعكس فنقص الذنب وذلته يطلعه على مشهد العزة. ومنها أن العبد لا يريد معصية مولاه، من حيث هي معصية. فالكثير لا يريد أن يعصي ربه، ويتأفف من ذلك، ويتألم ويتوجع أن عصى ربه، أو غفل عنه، أو نام عنه، أو واقع ذنبا خالفه فيه، أو قصر في واجب قد أمره به.

يقول: فإذا شهد جريان الحب، وجعله فاعلا لما هو غير مختار له، مريدًا بإرادته ومشيئته واختياره فكأنه مختار غير مختار. فهذا يُشهد العبد عزة الله وعظمته وقدرته وكماله، يعني عندما يرى العبد أنه لا يريد المعصية فإذا به تجري عليه المعصية، علم ذلك، علم أنه كما يقول: إنما هو مريد لا بإرادته، رأى نفسه شائيا لا بمشيئته، ومختارا لا باختياره، وقد اختار على غير ما أراد أن يختار، وفعل ما لا يريد أن يفعل، ووقع فيما لا يريد أن يقع، فبأي شيء قد وقع وفعل ما لا يريد؟! ذلك يشهده عزة الله تعالى، ويرميه على عتبات ربه، ويوقظه من غفلته، ويعلمه كيف يقف على حدود الله تعالى وأوامره، يريد من ربه أن يهيأ له الرشد، وأن يبين له الطريق، وأن يتململ بين يديه، لأنه لا حول له ولا قوة، وأنه إذا لم يؤيده ربه لا يؤيده أحد، وإذا لم يعنه لا يعينه أحد، وإذا لم يوفقه لا يوفقه أحد، حتى نفسه التي أراد منها ذلك لم يقع منها ذلك، بل وقع العكس.

فعلم حينئذ عزة الله تعالى، وانتفت من نفسه الكبرياء، وانتفى من قلبه عدم التواضع لربه، وسار إليه سبحانه وتعالى منكسرا خاشعا مخبتا، يعلم أن سبحانه وتعالى لا يدخل عليه إلا هؤلاء المتواضعون، وأن من كان كذلك أي على غير التواضع فإنه يعذبه ولا يبالي « **لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر** »[1]، وكما قال: « **العز إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني فيهما عذبته** »[2]، وذلك العذاب الذي يراه المرء في دنياه في عبادته، ويراه في دنياه في ضيقه ونكده، وعدم انشراح صدره، وعدم إقباله على ربه.

لذلك يقول: ويجب على الإنسان أن يخضع لعظمة الله، وأن يتذلل لعزته، فينقاد مسلمًا له، خاضعًا لقضائه، مستسلمًا ومسلّمًا لأمره، يرجو بذلك العز الدائم، والملك الأبدي،

---

(١)أخرجه مسلم (٩٣/١ ، رقم ٩١) ، ولفظه (عَنْ عَبْدِ اللَّهِ عَنِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ « لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ »).

(٢) أخرجه مسلم (٢٠٢٣/٤ ، رقم ٢٦٢٠) ، ولفظه (عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ وَأَبِي هُرَيْرَةَ قَالاَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: «الْعِزُّ إِزَارُهُ وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ فَمَنْ يُنَازِعُنِي عَذَّبْتُهُ »).

أن يكون ملكًا في الدنيا والآخرة، يقول في الجنة لما يريده: كن فيكون، لأن الله قال لهم: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ [الإنسان : ٢٠] أي: وإذا رأيت هناك رأيت نعيمًا وملكًا كبيرًا، يقول للطائر انزل ينزل، جاهزًا يأكله، كن فيكون، له ملك أضعاف ملك الدنيا يتُحكم فيه كيف يشاء، كما ذكرت أحاديث الجنة.

ثم يواصل كأنه يرسم الطريق للعزة التي ينبغي أن يحصلها المرء: واعلم أنه على قدر ركوعك خاضعًا، وسجودك خاشعًا يكون عزك في الدنيا والآخرة، على قدر ما تركع لربك خاضعًا وتسجد له خاشعًا، فشرط الخضوع والخشوع، وليست الصلاة التي نصلها هذه الأيام، لأنه لو كانت هذه الصلاة على القدر الذي يصل بنا إلى عزة الله لكان الحال قد تغير، لو كانت هذه الصلاة يتحقق فيها الخضوع والخشوع الذي يذكر الرب ويذكر الرسول صلى الله عليه وسلم لكانت أحوال المؤمنين اليوم على غير ما هي عليه، وإنما صلاتهم لم ترق بعد إلى هذا الخشوع والخضوع الذي به ينالون العزة عند الله تعالى، لذلك قال صلى الله عليه وسلم لمن سأله مرافقته في الجنة: "أعني على نفسك بكثرة السجود"[1] أي بكثرة الصلاة، أن يكثر من الصلاة يعين بها نفسه لما سأل النبي صلى الله عليه وسلم أن يكون رفيقه في الجنة قال أو غير ذلك؟ قال لا هو ذاك، قال أعني على نفسك بكثرة السجود.

فهناك **أولًا**: أن يستمسك بعزة لا يعتز بغيره سبحانه وتعالى، ويعبده بما له من أنواع العزة وباعتبارها وتمامها وكمالها، **وثانيًا**: أن يعز نفسه بطاعته سبحانه وتعالى، نال العزة في دنياه وأخراه.

ثم الشيء الثالث: فإن أكسب الخلق مع ذلك عزة. كيف يكسبهم عزة يزداد بها هو عند ربه؟ بأن يدعوهم إلى الله ليدخلوا في عزة الله، أي بأن دعاهم إلى طاعته ليأخذوا قسطهم من عزته سبحانه وتعالى، فكان شغله الشاغل في إصلاح نفسه أن يعز غيره بأن يدخله على الله

---

(١) أخرجه مسلم (١/٣٥٣ ، رقم ٤٨٨)، ولفظه (عَنْ ربيعة بن كعب الأسلمي – رضي الله عنه – قال : «كنتُ أبيتُ مع رسولِ الله ، فآتيه بوَضوئه وبحاجته ، فقال لي : اسألني ، فقلتُ : إني أسألك مرافقتكَ في الجنة ، قال : أوَ غيرَ ذلك ، قلتُ : هو ذاك ، قال : فأعِنِّي على نَفْسِك بكثرةِ السجود»).

تعالى مطيعًا؛ ليأخذ من عزته، وجنبهم طريق الشيطان الذي هو طريق الذلة؛ لأن طريق الذلة هو طريق الشيطان والنفس والهوى، طريق المعصية، طريق الفسق، طريق الغفلة، طريق البعد عن الله تعالى، فهذا هو عزيز بمعنى مُعِز، وإن عكس هذه الحالة فهو ذليل مذِل.

فالدعوة إلى الله تعالى من آثار هذه العزة ، وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، من كونه عزيزا بالله تعالى، عزيزا بدينه، عزيزا بإيمانه الذي امتلأ به قلبه، فتنجاب عنه وتزول عنه هذه الصفات من صفات الخنوع والضعف والخشية والاستكانة والوهن والذلة والصغار، التي تتنافى أن يكون عزيزا بالله تعالى، فمهما اعتز بالله جل وعلا قوي على كل شيء، ومهما قلت عزته ضعف، وصار إلى هذا الحال الذي وصلنا إليه في هذه الأيام.

فإذا أراد المرء أن يعزه ربه، وأن يجعله غالبا قاهرا، وأن يجعله عزيزا ممتنعا، وأن يجعله قويا في جوار الكفرة المعتدين فإنما طريقه حينئذ أن يكون عزته من الله تعالى، وقوته بالله تعالى، وغلبته بالله تعالى، يأخذ الأسباب ولكن لا يلتفت إليها، ينظر إلى مسببها وخالقها سبحانه وتعالى الذي يقويه، ينقلب المرء حينئذ بتوحيده ربه بهذا الاسم المبارك إلى شخص جديد، فيكون ممتنعا امتناعه بربه، عزيزا بولايته لربه وطاعته، قويا قوته بربه، شديدا شدته بربه، مغالبته بربه، لا يغالبه غالب؛ لأنه يغلب بالله، لا يقوى عليه قوي؛ لأنه يقوى بالله، لا يمتنع عليه شيء؛ لأنه ممتنع بالله.

فالمرء إذا لم يستطع أن يدفع عن نفسه أو غيره ، ويقول: لا أتمكن، لا أستطيع، فإنما هو ينظر لقوته القاصرة، وإلى ما هو فيه من ضعف، وعجز، ويريد أن يغالب غيره بذلك العجز وذلك الضعف وذلك الهوان وتلك الذلة ! إنما إذا ركن المرء فليركن إلى الركن الركين، كما جاء في قصة لوط عليه السلام لما جاءه هؤلاء المجرمون: ﴿ قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ۝٧٩ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ۝٨٠ ﴾ [هود :٧٩ - ٨٠] قال له جبريل: إنك تأوي إلى ركن شديد، قال له الله تعالى: ﴿ ... لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ ... ﴾ [هود : ٨١]، انظر: القرية كلها واقفة لتصل إلى هؤلاء الأضياف، قال له: ﴿ ... لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ ... ﴾ [هود : ٨١] انظر إلى هذه المعاني التي تُقوي القلوب، وترفع المحبة إلى الله تعالى في القلب، ويشاهد بها المرء توحيده ربه وقوته وقدرته وغلبته.

علم المرء عن ربه معنى العزة، ليكون سببا لمحبة الله، وسببا لجوء إلى الله، وسببا للتعرف إلى الله، وسببا للتقوي والاشتداد بالله تعالى، وسببًا للمغالبة بالله تعالى : حتى يخرج المرء بأثر من آثار هذا الاسم، وحتى يستطيع أن يدعو الله به: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ...﴾ [الأعراف : ١٨٠].

والسؤال: كيف تأخذ بحظك من هذه العزة، من أين تأخذها؟ وكيف تحرزها؟ وكيف تتحصل عليها؟ لا يأخذ المرء من معاني العزة إلا بعزة الله له، **والله لا يعز إلا أهل طاعته وأولياءه وعباده الصالحين** فلا بد من تقديم أسباب وأعمال يتحصل بها المرء بفضل الله تعالى على العزة بقدر ما قدم؛ لأن الله لا يظلم أحدا، إذا رأيت نفسك علمت أين أنت من معنى العزة، أنت عزيز بعزة الله تعالى، تعتقد أن الله يعز من يشاء، ويذل من يشاء.

ثالثًا : الشرح الإجمالي لآيات العزة في القرآن

أول ما يصادفنا من آيات في كلامه سبحانه وتعالى عن العزيز، **أن الله هو العزيز سبحانه وتعالى**، ووجدت أن ما يغلب على آيات القرآن من الوصف بالعزة يلازمه الوصف بالحكمة ﴿ ...ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٩] ﴿ ... عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء : ٥٦] ووجدت أسماء أخرى تلازم هذا الاسم المشرف كـ﴿ ...ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [الأنعام : ٩٦] ﴿ ... ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾ [هود : ٦٦] ﴿ ... ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴾ [ص : ٦٦] ﴿ ...عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر: ٢٨] ﴿ ... ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴾ [ص : ٩] ، ولكن الغالب فيها على العزة والحكمة.

وقد وردت العزة مرتبطة بالحكمة في سياقات كثيرة: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الحديد : ١] ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الحشر : ١] . وسبح أي: نزه، وأول ما ينبني عليه الدين والإيمان والعبادة هو تنزيه الرب سبحانه وتعالى، وهو توحيده، فبين سبحانه وتعالى المعنى الأول لهذه

العزة، أنه سبحانه وتعالى لكونه عزيزا، أي لكونه غالبًا قويًا، لا نظير له، يعز أوليائه ويذل أعدائه ينبغي أن ينزهه المرء وأن يوحده، وألا يشرك معه غيره فيما يتعلق بأعمال القلب وأعمال الجوارح.

فعندما بدأ سبحانه وتعالى بهذه المعاني في التسبيح دل على أن هذا العزيز لا يجوز لأحد إلا أن يوحده بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، إلا أن لا يشرك معه أحدا، إلا أن يطهر قلبه بمعرفته ومحبته بالخوف والرجاء، باليقين والتوكل والرضا، بمحبة لقاء الله، والشوق إليه، والاستعداد لهذا اللقاء، إلا بالدعوة إليه، إلا برفع راية التوحيد، إلا بأن يكون ذليلاً على المؤمنين، عزيزًا على الكافرين في نفسه.

وقد يسأل السائل: لماذا بدأنا بسبح لله؟ لأن الله يُسَبَّحُ لأنه عزيز، وهذا العزيز سبحانه وتعالى قد تحققت فيه الصفات التي بها ننزهه، وقد تحققت فيه تلك العزة التي بها تحقق للمرء وتكمل له صفات الكمال النفسي والعملي في هذه الحياة الدنيا، فيكون هذا العبد أهلا لمجاورة الرب، ولا يكون أهلا لمجاورة الرب سبحانه وتعالى إلا أن تتحقق فيه هذه الصفات السالمة، فلا يدخل الجنة وعليه صفات مريضة، أو صفات مذمومة، أو عليه أدران من الذنوب والمعاصي، ولا يدخل الجنة إلا بأن يكون لائقا بالدخول على الملك سبحانه وتعالى، لذلك بين لهم هذا التنزيه، وهذا التسبيح، وكذلك هذا التوحيد، وبين لهم في نهاية المطاف هذه القضية المتعلقة بتوحيده سبحانه وتعالى.

لأن العزيز هو الذي اتصف بهذه المعاني من معاني العزة، وأنهم لما سمعوا ذكره واتبعوا أمره سبحانه وتعالى إذا به قد وهبهم من هذه الصفات ومن تلك الأسماء تلك الحظوظ على مقدار ما بذلوا في تنزيهه وتوحيده وعبادته وشكره، والسلامة على رسله واتباعهم، لذلك كان هذا المعنى الجديد، أنه يعطيهم القوة والغلبة، ويعطيهم العزة، وكذلك يعز أولياءه ويرفعهم، وأنه يشد من أزرهم، وأنهم إذا ما تعرضوا لشيء كانوا هم الغالبين كما ذكر المولى سبحانه وتعالى.

وبالتالي ننظر إلى أحوالنا حينئذ لنرى هذا المعنى، وهو كيف يوحد المرء ربه باسمه العزيز فينزهه وينزه رسله، ويحمده على ذلك، فيأخذ حظه من العزة، ويأخذ حظه مما نزه به ربه، ويأخذ حظه من هذه الصفة التي يسير بها بين الموفق ليفوز في الدنيا وفي الآخرة، ولترتفع

رايته، وفي نفس الوقت ليأخذ حظه من هذه العزة بينه وبين المؤمنين، فتنقلب هذه العزة إلى ذلة، وتبقى هذه العزة في حق الكفرة وغيرهم إلى تلك العزة التي إن تحققوا بها حق التحقق كتب لهم الغلبة، وكتب لهم النصر كما ذكر الله جل وعلا: ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة : ٢١] لذلك قال: (سبح لله) (يسبح لله) في مواضع عديدة.

والمسألة المرتبطة بذلك في القرآن الكريم تقديم العزيز على الحكيم، أو على العليم أو على الرحيم، قال ابن القيم مبينًا وجه ذلك : فقدم العزيز على الحكيم؛ لأنه سبحانه وتعالى عز، فلما عز حكم، لأنه لو لم يكن عزيزًا لما حكم، وربما هذا من تقديم السبب على المسبب.

وقدم الحق تبارك وتعالى العزيز على العليم، فقال: ﴿ ... ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [الأنعام : ٩٦] قال ابن القيم: تضمن هذان الاسمان صفتي القدرة والعلم، وخلق أعمال العباد، وحدوث كل ما سوى الله تعالى، وتضمنت هذه اللفظة إثبات القدر، أي لما قال: العزيز وقال: العليم، قلنا: العزيز تثبت قدرة الله تعالى وقوته كما ذكرنا، والعليم تثبت كذلك خلق أعمال عباده، وأنه لما خلق العباد وأعمالهم كان ما سوى الله سبحانه وتعالى مخلوقا، أليس كذلك؟ فتضمنت هذه اللفظة وهي ﴿ ... ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ إثبات القدر.

لأنه لا يخلقهم سبحانه وتعالى إلا بقوته وعلمه، ولا تخرج نَسمة في الدنيا ولا مخلوق إلا بعلمه تكوينا، وإنشاء، وإحياء، وإماتة، وتقديرًا، ورزقًا، ووهبًا، وطولاً، وعرضًا، وإبراء، إلى كل ذلك، كل ذلك بعلمه، لما خلق كل هذا العدد الموجود، وصور هذا على شكل، وهذا على شكل، وذلك على شكل، وأخرج لهذا منظرا على شكل ومالا على شكل، وأطال هذا وقصَّر هذا، وأعطى هذا ومنع هذا، وأطال في عمر هذا وقصَّر في عمر هذا، دل ذلك كله على أن ذلك كله إنما هو بعلمه سبحانه وتعالى، ليس هكذا بغير علم عبثا، لا يدري ما خلق مثلا! ولا مَنْ خلق! ولا كيف خلق! ولا متى خلق! ولا متى يموت! ولا ماذا أعطاه! وماذا رزقه! كل ذلك، لذلك يقول: وأن ما سوى الله تعالى مخلوق، فتضمنت هذه اللفظة إثبات القدر ، وأن كل شيء بقدر عنده سبحانه وتعالى، ولأن عزته تمنع أن يكون في ملكه ما لا يشاء، أو أن يشاء ألا يكون فكانت عزته تبطل ذلك، فتقدمت العزة على العلم: ليبين أنه لا يقع في ملكه إلا ما يشاء، وأنه سبحانه

وتعالى قدر كل شيء فأحسن تقديره، وخلق كل شيء فقدره تقديرًا بعلمه سبحانه وتعالى، وخلقه بعزته وقدرته وغلبته، وما أثبت لنفسه من القوة سبحانه وتعالى.

والأخيرة وهي قوله: ﴿ ... ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝ ﴾ [الشعراء : ٩] سبحانه وتعالى، فالله عزيز في رحمته، ورحيم في عزته، وهذا هو الكمال، العزة والرحمة، والرحمة مع العزة، فهو رحيم بلا ذل، لما قال عزيز دل على أنه عندما وصف بالرحمة لم تكن الرحمة عن ذلة، وإنما عن عزة، رحمهم سبحانه وتعالى ولطف بهم ورأف ربهم جل وعلا وهو عزيز، أي ممتنع قادر سبحانه وتعالى، غالب، لا يهمه من ذلك كله شيء، جل وعلا، ولا يقوم له من ذلك كله شيء، ولا يعود عليه من ذلك كله شيء، ولكن لما قال: هو عزيز، وهو في ذات الوقت رحيم، دل على أن هذه الرحمة من غير ذلة، ليست كرحمتنا التي تدل على ضعف القلب، أو شدة العاطفة أو المحبة، أو الميل إلى هذا المرحوم أو إلى كذا، لا، وإنما هو يرحمهم وهو عزيز سبحانه وتعالى، وهذه العزة ليست في الخلق على الحقيقة، فعندما يرحم المرء ولده، أي قلبه صار ضعيفًا أمامه، وصار أرأف به، وصار يعامله بحنان أكثر؛ لأنه يراه صغيرا، ويراه كذا، فيضعف أمام ولده، ويضعف أمام من هو أكبر منه، أو يضعف أمام الدنيا وشهواتها؛ بحيث تجد هذه الرحمة مع هذا الضعف الإنساني.

مع الله تعالى ليس الأمر كذلك، هذه الرحمة تكون عزا، وهذه الرحمة لا تستقيم إلا أن يكون عزيزًا سبحانه وتعالى، إذن رحمهم وهو عزيز، وهو قوي، وهو غالب، ليس بما يعتري من ضعف، أو يعتريه من قلة، أو يعتريه من حزن على فراقه، أو يعتريه من وقوع له في مرض أو غيره، كلا، هو عزيز، رأيته يمرض الأطفال، أي تجد الأطفال يمرضون ويموتون، تجد الكبير يعيش، وتجد الغني وتجد الفقير، وتجد السائل، وتجد الأعرج، وتجد الأعمى، وتجد الصحيح، وتجد السلم، وكل ذلك برحمته، ولكن برحمته التي قد ملئت عزة، أو بعزته التي يرحم بها عبادة بتلك الرحمة، وهذا هو الكمال وهذا هو العلو، وهذا هو ترك مشابهة المخلوقين سبحانه وتعالى، الذي هو من صفاته جل وعلا الكاملة عند أهل السنة كما ذكرنا.

الثاني: أن الله تعالى وصف كتابه بالعزة

قال تعالى:﴿ ... وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ...﴾ [فصلت : ٤١- ٤٢] وسنشير إلى هذه العزة التي لازمت كتاب الله تعالى، وهل هي من حيث أن هذا الكلام هو كلام الله فيكون عزيزا بعزة الله؟ لا يصل إليه أحد، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لا يستطيع أحد أن يحاجه؟ أو بمعنى المغالبة كما هو من معاني العزة ؟

وكتاب الله تعالى تنزيل من العزيز، كم قال: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝ ﴾ [غافر : ٢] وكذلك يهدي إلى صراط الله العزيز ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝ ﴾ [سبأ : ٦] وقوله أيضا: ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝ ﴾ [إبراهيم : ١] وهذا يفدنا معاني كثيرة لا يحيطها الحصر، في القرآن نفسه، من إحكامه، ومن إعجازه، ومن خلوده، ومن رفعته، ومن عظمته، ومما امتلأ به من القصص، وأنه باحتوائه على التوحيد والعبادة والسلوك والمعاملة والإقبال على الله، واحتوائه كذلك على الأحكام وعلى المعاملات، واحتوائه على ما يربط المؤمنين ببعضهم والمؤمنين بالمنافقين، والمؤمنين بأهل الكتاب، ودولة الإسلام بدولة الكفر، وهكذا، مع خلود هذا الكتاب ورفعته، وحفظ الله له.

الثالث: أن الله تعالى وصف الرسول صلى الله عليه وسلم بالعزة

والجزئية التالية وهي جزئية أن العزة للرسول، كما قال تعالى: ﴿ ... وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ ...﴾ [المنافقون : ٨] وأن العزة لأنبيائه ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝ ﴾ [المجادلة : ٢١] وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ...﴾ [التوبة : ١٢٨] والعزة هنا لها معنى جديد، لمن يسأل عن

معنى العزة في هذه الآية هل هي وصف للرسول أم وصف عُدي إلى غيره صلى الله عليه وسلم قال: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ ...﴾ [التوبة : ١٢٨] يقول: عزيز عليه، هو عزيز ولكن العزة في هذا المقام عليه ما عنتم، فلما عبر بالعزة دل على كونه عزيزا صلى الله عليه وسلم، لأن معنى وسياق الآية لولا أن قضية العزة لها دخل لما ذكرت في الآية، فلما أشار بالعزة دل على أن العزة لها دخل في الآية، فهو عزيز صلى الله عليه وسلم.

والعزيز في الآيات في سياق الكفرة ولم تكن في المؤمنين، لماذا؟ لأنها بسبب عزته صلى الله عليه وسلم وقع بهم ما ساءهم في بدر، وفي أحد، وفي الأحزاب، وغلبهم، وأخذ منهم مكة، وفتحها، ورفع رايته، وقتل رجالهم وأشرافهم، وسبى نساءهم، فكانت تلك العزة الباهرة من الله له دليلا على هذا الحال أنه لعزته صلى الله عليه وسلم كان تفسيرها بعد كونه عزيزا أن من عزته حدث لهم ما حدث، فكان صلى الله عليه وسلم بعد أن حدث لهم ذلك جاء المعنى ﴿ ...عَزِيزٌ عَلَيْهِ ...﴾ [التوبة : ١٢٨] أي شاق عليه، شديد عليه عنتكم وكفركم وشرككم الذي أوقعكم فيما كان من عزة الله فظهرت فيكم عزته من حيث أنه أبادهم، وأخذ أرضهم ونساءهم، وهدم صروحهم وأصنامهم، وارتفعت راية الدين عليهم، إلى آخره، كان يود ألا يكون، وذلك شاق عليه، كان يود لهم الإسلام والدين، وأن لا تظهر عليهم هذه الأحوال، التي هي من عزة الرسول صلى الله عليه وسلم.

وفي نهاية الكلام قال الله:﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [المجادلة : ٢١] ومعنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى فرض أو حكم أنه سيغلب هو ورسله، سواء بإهلاك أعدائهم، أو برفع راية رسله، وانتصارهم على هؤلاء الأعداء، أو بما بينت لنا الآيات من قصص وعبر لهذه الأمم السابقة التي كذبت رسلها، كما ذكر المولى سبحانه وتعالى في عاد وثمود، كل ذلك مع قوة الله تعالى وعزته، كما ذكر مثلا في قصة ثمود ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [هود : ٦٧] لما قال: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ

﴿رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ۝﴾ [هود : ٦٤ - ٦٦] ، وهذا الدليل على قوله سبحانه وتعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝﴾ [المجادلة : ٢١].

أما قول أهل مدين لشعيب عليه السلام: ﴿... وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ۝﴾ [هود : ٩١] دل على أنه عزيز بالله تعالى، ولكنه في أعينهم ليس عزيزا. فالرسل أعزة بعزة الله لهم، مرتفعون ممنوعون بمنع الله إياهم، أقوياء بقوة الله لهم ومدده لهم، وأنهم لا نظير لهم، وأن الله تعالى يعز رسله وأولياءه ويذل أعدائه.

وكما أشرنا في عزة القرآن، فقوله تعالى: ﴿الٓر ۚ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝﴾ [إبراهيم : ١] يشمل عزة القرآن وعزة الرسول، فهو صلى الله عليه وسلم يخرج بعزة الله وقدرته ودعوته الناس من الظلمات إلى النور، ويخرجهم في نفس الوقت بكتابه، فكان إخراجه صلى الله عليه وسلم بهذا الكتاب إلى صراط العزيز، فصار كتابه سبحانه وتعالى طريق هذه العزة من كل وجه، وصار النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي يأخذ بأيديهم إلى هذه العزة من خلال وحي الله لهم كتابا وسنة، لذلك الذين يفهمون قالوا: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝﴾ [سبأ : ٦].

ولما قال إبراهيم عليه السلام ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝﴾ [البقرة : ٢٦٠] ولم يتردد ولا شيء؛ لأنه نبي معصوم، وإنما بين هذا الحال الذي ذكره القرآن، فإن عرض للمرء عارض مثله علم أنه يزيل التردد والاضطراب الذي يصيب قلبه بأي شيء؟ بعزة الله تعالى، وليعلم حينئذ أن الحكمة التي اتصف الله تعالى بها مع العزة في هذه تدل على أنه من حكمته يضع سبحانه وتعالى هذه العزة على حسب تلك الحكمة.

الرابع: أن العزة تطلب من الله تعالى

وهو ما نسميه آثار هذا الاسم المشرف، يقول الإمام القرطبي[1] في قوله: ﴿ ... فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ ...﴾ وظاهر هذا إيئاس ، يعني: أن ييئس، السامعين من عزته، وتعريفهم أن ما وجب له سبحانه وتعالى من ذلك لا مطمع فيه لغيره، ولذلك قال: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ ﴾ [يونس : ٦٥] فمن علم أنه لا إله إلا هو، وأنه الملك الحق، وعلم أن الذي وجب له من العزة يستحيل أن يتصف به غيره، وهذا المعنى الأول.

والمعنى الثانية: أن المراد من قوله تعالى: ﴿ ... إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ ...﴾ هو تنبيه ذوي الأقدار العالية عند الله وأصحاب الهمم الجميلة في إقبالهم على ربهم سبحانه وتعالى من أين تنال العزة، ومن أين تُستحق، فمن طلب العزة من الله، وصدق ربه في طلبها، بأن طلبها بالافتقار والذلة، لأنه لا يطلب شيئا من الله إلا بالافتقار والذلة والسكون والخضوع- أما العزة فهي كما قال صلى الله عليه وسلم عن الله سبحانه وتعالى: **(العز إزاري)**[2]- وجدها عنده سبحانه وتعالى إن شاء غير ممنوعة ولا محجوبة؛ لذا قال صلى الله عليه وسلم : **(من تواضع لله رفعه)**[3].

---

(١) انظر: تفسير القرطبي، طبعة عالم الكتب، ج: ١٤، ص: ٣٢٨.

(٢) أخرجه مسلم (٢٠٢٣/٤ ، رقم ٢٦٢٠) ، ولفظه (عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ وَأَبِي هُرَيْرَةَ قَالاَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: «الْعِزُّ إِزَارُهُ وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ فَمَنْ يُنَازِعُنِي عَذَّبْتُهُ »).

(٣) أخرجه مسلم (٢٠٠١/٤ ، رقم ٢٥٨٨)، ولفظه (عَنْ أبي هريرة – رضي الله عنه – : قال : قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : «ما نَقصَ مال من صدقة – أو ما نقصتْ صدقة من مال – وما زاد اللهُ عبدا بعفو إلا عزًّا ، وما تواضعَ عبد لِلهِ إلا رَفَعَهُ اللهُ»).

والملاحظ لسياق الكلام القرآني في قوله: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ...﴾ يلاحظ أن هناك تقدير للكلام في الآية، يعني هناك كلام محذوف. والتقدير: من كان يريد العزة فليطلبها من الله، لماذا؟ لأن العزة كلها عند الله فمن طلبها من غير الله وَكَله الله تعالى إلى من طلبها عنده ، أي إذا طلب العزة من دون الله فليذهب إلى هؤلاء ليعتز بهم، وليأخذ منهم العزة، هل سيأخذ؟ لا، لماذا؟ لأن العزة لله جميعًا، وليست عندهم عزة على الحقيقة ولا على المجاز ! وذلك ليتعلم المرء كيف يوحد ربه، وكيف يفرده بمعاني العزة والقوة والغلبة والبطش، وكونه جليلاً، يعز أولياءه سبحانه وتعالى، فيركن المرء ويميل إليه، ويقف بين يديه يطلب العزة منه؛ ليكون قويًّا مغالبًا لنفسه وهواه وشيطانه وأعدائه في الداخل والخارج، لذلك من حاول أن يعتز بالبشر والمخلوقين تعزز بالزائل، تعزز بمن لا عزة له، تعزز بهذا الذي لا يمكن أن يعطي لنفسه العزة، ولو سلبت من العزة لا يعطيها لنفسه، ولا يستطيع أن يردها، فما بالك أن تطلبها من هذا الذي لا يستطيع أن يعز نفسه، من الذي عز نفسه فلم يمت؟ أو أعز نفسه فرُفعت ولم يتزل؟ من الذي أعز نفسه فلم يحدث له ما يحدث ويجري على البشر؟

لذلك يقول هنا: فمن طلبها من غير الله وكله الله إلى من طلبها إليه. طلبتها من أمير من غفير من رئيس من كبير من صغير من غني من غيره، وكله الله تعالى إليه، فإذا ما وكله الله تعالى إلي ذلك العبد خذله، حتى من نفسك، تقول: أنا عندي مال وعندي علم وعندي عقل وعندي عمل، ويريد أن يتعزز بذلك على الخلق، يكله الله تبارك وتعالى إلى علمه وعقله وماله، فإذا به يصبح لا علم له، أو لا عقل له، أو يصبح ميتًا، أو يصبح فقيرًا، أو تدور عليه الأيام ، ثم يصير لا شيء، وإن كان كذلك ففوق كل ذي علم عليم، وفوق كل ذي سلطان سلطان، فمن أين يحصل هذه العزة؟!

يقول: وذكر المولى قومًا طلبوا العزة من عند سواه ، كما قال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ ...﴾ [النساء : ١٣٩] وكان الرد أيضا: ﴿ ... فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ ﴾ [النساء : ١٣٩] وتقدير الكلام بعد قوله: ﴿ ... أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ ...﴾ ؟ ليس عندهم عزة، لماذا؟ لأن ﴿ ... ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ ﴾، فأنبأك صريحا - لا إشكال فيه - أن العزة له، وحينئذ يعز من يشاء ويذل من يشاء، وقال الشاعر:

وإذا تذللت الرقاب تخضعا   منا إليك فعزها في ذلها

أي إذا تذللت الرقاب لله خضوعا منها لربها سبحانه وتعالى فعزها في ذلك الذل الذي تذللته لله تعالى.

إذن هؤلاء الذين اتخذوا غير الله تعالى أولياء يعتزون بهم فإنهم لم يعتزوا بشيء، وهم يبتغون ما ليس عندهم، لأن العزة لله جميعًا، فماذا عندهم حتى تبتغوه منهم؟! لذلك يتعلم المرء كيف يفرد ربه بالقوة والجلالة والشرف والكبرياء، ويفرده بالغلبة والمغالبة، ويفرده بعد ذلك بما يكون سببا لأن ينشر عليه سبحانه وتعالى من عزته. **فمن يريد العزة فليطلبها من الله.**

يقول ابن عاشور [1] في تفسير قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ...﴾ [فاطر: ١٠] ، والمقصود: أنه من كان يريد العزة فليستجب للرسول صلى الله عليه وسلم ليحصل العزة، كيف؟ قال: من كان يريد العزة فليستجب لله تعالى، ويتبع الرسول صلى الله عليه وسلم، ويتزكى وحينئذ يأخذ من هذه العزة التي هي لله جميعا، وقال العزة لله جميعا، لماذا؟ لأن عزة الله تعالى أحاطت بكل شيء، فلا يخرج شيء عن هذه العزة، فإن أردت أي شيء من العزة فهو لله، وذلك لأن المشركين كانوا يتعززون بأموالهم، بأولادهم، فهم يتعززون بموهوم على الحقيقة، وإن تعززوا بشيء فهو زائل من هذه الوجهة، وليس مكتملا من بقية الوجهات، وإنما كل وجهات العزة لله تعالى.

وقوله: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ...﴾ [يونس: ٦٥] فيها جزئية مهمة وهي جزئية الخوف. بمعنى أن المرء إذا تعزز بالله لم يكن له خوف من غير الله؛ لأن الباعث له على الحزن هو خوفه من المشركين مثلا، أو رؤيته للمشركين على أنهم لهم عزة، ولهم صولة، ولهم جولة، ولهم ارتفاع، ولهم منعة، ولهم قوة، ولهم عدد، ولهم عُدة، ولهم تأثير، وأنه يمكن أن يحدث منهم له ما يكون سببا لإيقاع الحزن به من أذى، ومن ضيق ومن شدة،

---

(١) انظر: التحرير والتنوير- الطاهر بن عاشور- ج: ٢٢، ص: ٢٦٩-٢٧٥ - الدار التونسية للنشر.

ومن تعذيب، ومن غلبة الكفرة على المسلمين إلى آخره، فنهاهم حينئذ سبحانه وتعالى على ما ليس من عمله، ولذلك قال: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ...﴾ [يونس : ٦٥] .

فلا يحزن أهل الإيمان أبدًا لأقوال المشركين والكفرة أو المستهزئين أو غيرهم، إذا استهزءوا بهم أو قللوا من قيمتهم، أو وضعوا من شأنهم قال: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ...﴾ [يونس : ٦٥] لماذا؟ ﴿ ... إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ...﴾ فكل الذي تراه من هذه العزة لا ينبغي ابدًا أن يكون سببا لخوفك، أو لقلقك أو اضطرابك، بل هذه العزة زائلة؛ لأن العزة التي ينبغي أن تكون سبب النصر هي عزة الله، وسبب قوة القلب هي عزة الله.

ويأتي المؤمنون المقصرون المفرطون ليروا أنهم لم يتعززوا بالله فإذا بهم قد نقص إيمانهم، وضعف يقينهم، وضعف توكلهم على الله تعالى، وازداد خوفهم من الخلق، وأنهم يمكن أن يفعلوا بهم، وأن يضروهم في أرزاقهم، ويحزنوهم في سيرهم وعملهم، أو في كذا وكذا، قل: ﴿ ... إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ...﴾ على قدر ما تحصل من عزة على قدر ما ترتفع عنك - بسبب هذه العزة - سطوة هؤلاء الكفرة؛ لأن سطوتهم وعزتهم زائلة، ليست على الحقيقة عزة، بل العزة لله جميعا، فإذا ما جاء العكس، وهو ﴿ ... أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ ...﴾ قيل له: ﴿ ...فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ ﴾ فبعد أن قال: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ...﴾ [يونس : ٦٥] ويدخل فيها هذه الأمور التي أشرنا إليها من الخوف، إذا بقلب المؤمن يثبت، ويقول: فعلى ماذا أخالف الرسول؟ لماذا يخالف الرسول صلى الله عليه وسلم، هل لأنه خائف من المشركين؟ نقول له: هذا دليل على نقص العزة من الله تعالى، والتقوي والشدة بالله، والغلبة بالله، ونقص الاعتقاد بقوة الله سبحانه وتعالى، ونقص بكونه يؤيد أولياءه وينفعهم سبحانه وتعالى، فهو من عزته وقوته سبحانه وتعالى نفع أولياءه، ولكونه حكيما يعلم من يستحق هذا من غيره فلحكمته وضع هذا الاستحقاق عند أهله.

فلا يقول أحد: سيحدث لي، سيجري لي كذا وكذا ... إذا به ينبغي أن ينظر في اعتزازه بالله، وفي ضعف يقينه في قوته وقدرته وغلبته سبحانه وتعالى.

ومن آثار عزته سبحانه وتعالى كذلك أنه يعز من يشاء ويذل من يشاء ﴿ ... وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ... ﴾ [آل عمران : ٢٦].

الخامس: أن التزكية من آثار العزة والحكمة. كما جاء في القرآن الكريم في هذه الآية الجميلة: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [البقرة : ١٢٩] والملاحظ للسياق ربما يرى أن سياق تعليمهم الكتاب والحكمة يناسبه مثلا: إنك أنت العليم الحكيم، مثلا، أو: التزكية، يناسبه: إنك أنت اللطيف الخبير، أو غير ذلك مما يتناسب، إنما جاءت هنا هذه الآية مع العزة والحكمة. فكأنه يقول: إن هذه العزة سبيل التزكية، وإن التزكية سبيل العزة، ولا يحصل شيئا من العزة إلا أن يكون زاكيا عند الله تعالى، أي مرتفعا طاهرا في نماء وتقدم ورقي إلى الله تعالى، وإذا وصلت إلى هذا المعنى من معاني العزة، فتح الله تعالى عليك به، وسلكت سبيل تحصيل هذه العزة بالتزكية.

لذلك قال في الآية التي ذكرناها في سورة الأعلى: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ [الليل : ١٨ - ١٩] وهي آية عامة.

والتزكية في هذه قوله تعالى متأخرة عن التعليم : ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [البقرة : ١٢٩] وفي باقي الآيات القرآن ، قدمت التزكية: ﴿ ... وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ... ﴾ [آل عمران : ١٦٤] وسورة الجمعة: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ... ﴾ [الجمعة : ٢] ومعناها: يعلمهم الكتاب والحكمة متأخرة عن التزكية ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ ... ﴾ [الجمعة : ٢] قال: لما كان القصد من العلم التزكية قدم التزكية،

فالقصد من التعلم وتلاوة الآيات كل ذلك القصد منه التزكية، أنزل عليهم الكتاب وعلمهم...لماذا؟ ليزكيهم، هو قد أتى لذلك فقط صلى الله عليه وسلم ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ ...﴾ [الجمعة : ٢] أول ما جاء صلى الله عليه وسلم (ويزكيهم) هل بمجرد ما قرأ الآيات زكاهم؟ ولكن (ويعلمهم) فصار الهدف التزكية لذلك قدم على العلم، لأن المقصود من العلم هو التزكية.

والآية الأولى الخاصة بسيدنا إبراهيم لما دعا، دعا بما يؤيد الواقع الذي يقول: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [البقرة : ١٢٩] فإذا تلا عليهم الآيات وعلمهم الكتاب والحكمة كان ذلك سبيل التزكية. فهذا الترتيب هو ترتيب الواقع في الآية.

فالمقصود أن تعلم أن تتلو آيات وأن تتعلم الكتاب والحكمة فتسير في طريق التزكية، وأن تفهم أن ما تتعلمه من هذا الكتاب والحكمة المقصود منه التزكية، فتقدم التزكية في هذه الحالة، وليس المعنى أن تقدم التزكية على العلم، ولكن أن مقصود العلم هو التزكية، فلما كان الاهتمام بالتزكية بين التزكية أولا. فتعلمت من الآيتين أن تعلم أن طريق التزكية هو هذا الكلام من كلام الله، وهذا العلم من علم الوحي الكتاب والحكمة يكون سبب التزكية، ولا تنس أن تعلم أن مقصودك من العلم هو التزكية والكتاب والحكمة.

فعندما يسأل أحد: كيف نتزكى بالعزيز؟ نقول: أن تتفهم الكتاب كما هو منهجنا سواء في الأسماء الحسنى أو في غيرها، وأن تتلو هذا الكتاب، فتختم القرآن -كما ورد عن السلف- في ثلاثة أيام، فيستنير قلب المرء بنزول هذه الآيات عليه، وينشرح صدره بكلام الله ويقبل عليه بمحبته حين يتعلم الكتاب والحكمة، وينزل الكتاب والحكمة على قلبه استضاء بكلام الله، واستنار بآياته، فيكون ذلك علما تقصد منه التزكية.

<u>**السادس: من آثار العزة المغفرة**</u>، وهي من الآيات المخيفة ، كما قال تعالى: ﴿ ... وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [المائدة : ١١٨] فعندما يقرأ المرء هذه الآية يكون

يتعجب من أن تكون خاتمة للآية: ﴿ ... وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فالمتبادر أن يقول: (وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم)، فجاءت المغفرة هنا من العزة والحكمة، ولها معناها. وكذلك لما تكلم الله جل وعلا عن المؤمنين وقال: ﴿ ... وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٧١] فمن عزته وحكمته رحمهم سبحانه وتعالى، ولها أيضًا معان.

السابع: أن النصر من آثار عزته وحكمته ورحمته، وذلك في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ ... وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران : ١٢٦] وجدنا النصر من عند الله؛ لأنه عزيز حكيم، وهذا الكلام كله متعلق بالله وبآثار عزته وبحكمته. ، وقوله كذلك سبحانه وتعالى: ﴿ ... يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الروم : ٥] فجاءت العزة مع الرحمة في النصر.

الثامن: أن الرزق من آثار قوته وعزته، قال جل وعلا: ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾ [الشورى : ١٩] وذلك حتى إذا أراد المؤمنون أن يصححوا علاقتهم بالله، واعتقادهم في الله، قد أعطاهم رزقهم في الدنيا والآخرة سبحانه وتعالى كل ذلك بأي شيء؟ إنما هو بعزة الله سبحانه وتعالى، التي إن تحققوا بها تحقق لهم ذلك كله، وقد تحققوا الصحابة - رضي الله عنهم - بذلك كله فتحقق لهم كل هذه الآثار، نصروا؟ نعم. نصرهم الله؟ نعم. ببدر وهم أذلة؟ نعم. رزقهم بعد أن كانوا فقراء عالة؟ نعم. رحمهم ﴿ ... أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٧١] سبحانه وتعالى. غفر لهم؟ نعم. رضي عنهم؟ نعم. أعطاهم ووهبهم؟ نعم. ثبتهم ورفع رايتهم؟ نعم. أعزهم وأذل أعداءهم؟ نعم، كما ذكر الله تعالى.

التاسع : ادعاء بعض الضعاف للعزة

وهو المعنى المقابل، وقد ذكره الله تعالى أيضًا، فبين أن هناك من يدّعون العزة، وانظر إلى أقوالهم لترى هذه المعاني الإجمالية الواردة في كلام الله تعالى.

والآية الأولى في ذلك: ﴿ ... وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الشعراء : ٤٤] إذن فرعون له عزة في نظر من؟ في نظر الكفرة. لو تعزز على المسلمين، يكون الرد في هذه المسألة: ﴿ ... إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ... ﴾ [يونس : ٦٥] فهل له عزة أم لا؟ ليس له عزة ولا شيء، وما يتعزز به الكفرة لا قيمة له، سواء تعززوا بقوتهم، بعددهم، بعُدتهم، بأن الدنيا لهم، بأن الملك والجاه والسلطان لهم، كل ذلك - كما يقول المولى - ﴿ ... إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ... ﴾ [يونس : ٦٥] لا عزة لهم، ولا قيمة لهم، ولا قوة لهم، ولا غلبة لهم، ولا نصر لهم، لماذا؟ لأن النصر بيد الله كما ذكرت الآية الأولى: ﴿ ... أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ﴾ [البقرة : ٢٩] والآية الأخرى المتعلقة بالنصر: ﴿ ... يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴾ [الروم : ٥].

فإذا قال القائل: ﴿ ... وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الشعراء : ٤٤] يقال: ﴿ ... إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ... ﴾ [يونس : ٦٥] فإذا ما أخيف المرء بفرعون وغيره قال : ﴿ ... إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ... ﴾ القوة والغلبة والممانعة وما لا يستطيعه البشر بيد الله، وأن هذا الذي تدعون أن لهم عزة أو قوة أو غلبة كل ذلك إنما هو محض من الله تعالى، فحينئذ يخلع المرء من قلبه عزة المخلوقين، أن يعتز بالمخلوق، وأن ينزع من لسانه تعظيمهم، وأن ينزع يديه عن خدمته، إلا من حض الشرع عليه، أي إلا من حض الشرع على أن تعزه بقلبك، وأن تعظمه بلسانك، وأن تقوم على خدمته؛ إذ هو قد عظم الشرع بقلبه، وأثنى عليه بلسانه، وقام عليه ببدنه، وخدمه بكامل قوته وجوارحه، فحينئذ يسخر الله له أهل الإيمان ليوفوه حقه ذلك في الدنيا، مع ما ينتظره يوم يقوم الأشهاد.

أما هؤلاء الكفرة فقد أعطاهم الله تعالى : ليمتحنهم، ليختبر المؤمنين، ليرى - كما قال المولى سبحانه وتعالى في تلك الآيات في سورة محمد : ﴿ ... ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ... ﴾ [محمد : ٤].

لما رأى الناس عزة المشركين ورفعتهم وما هم فيه قال المولى عنهم حاكيا هذه الآية التي ينبغي أن نفهمها عن المؤمنين وعن المشركين وعن المنافقين : ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ ﴾ [مريم : ٨١] أي ليتعززوا بهم، وليتقووا بهم، ولينتصروا بهم، ولتحقق لهم أسباب العزة ، فهل كانوا لهم عزا؟ ﴿ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ ﴾ [مريم : ٨٢] فيتعلم المرء حينئذ أنه إن تعزز بشيء انقلب عليه، إن تعزز بشيء دون الله من قوة أو شخص أو مال أو سلطان، إن تعزز بزائل أو حي مات ، لذلك قال: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ... ﴾ [الفرقان : ٥٨] إن رأيت أحدا لا يموت فتوكل عليه، سيكفيك إلى يوم القيامة، أليس كذلك؟ فإن كان ذا مال، فالله سبحانه وتعالى قال في أصحاب المال:﴿ ... فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [الكهف : ٤٢] وإن كان ذا جاه وسلطان: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [القصص : ٨١].

وهذه كذلك تأتي بنا إلى الآية: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ ... ﴾ [النساء : ١٣٩] فإذا كانت في الكفرة المنافقين نأتي إلى هذه الآية لعلها نزلت في المؤمنين والمنافقين، قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ ... ﴾ [النساء : ١٣٩] فأكد الله عليهم بالمعنيين في معنى العزة ﴿ ... أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ ﴾ [النساء : ١٣٩] ففي هذه الآية بالذات قال ذلك سبحانه وتعالى ﴿ ... أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ

﴿ٱلْعِزَّةَ ...﴾ [النساء : ١٣٩] بولايتهم لهم، بمحبتهم ونصرتهم إياهم، لوقوفهم معهم لتأييدهم لهم، بكذا بكذا؟ بيقينهم عليهم وتوكلهم وخوفهم ورضاهم عنهم ﴿...فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۝﴾ [النساء : ١٣٩].

فائدة مهمة: كيفية العزة مع أخوة الإسلام

هل يجوز للمرء أن يتعزز على أهل الإيمان ؟! فلعله يتعزز على غيرهم؛ لأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، والعزة للرسول وللمؤمنين من عزة الله، وعزة الله بالطاعة فهل يجوز له أن يتعزز على غيره من إخوانه؟ لا، لأنه قال: ﴿ ... أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ...﴾ [المائدة : ٥٤] تظهر عزتك في المغالبة والمقاتلة، وإظهار دينك، وارتفاعك به، وإظهار علو الإسلام ورايته على الكافرين، أما المؤمنون فعلاقتك بهم ليست علاقة التعزز أبدًا، وكلما تعززت عليهم كلما افتقدت عزة الله لك ؛ لأنه ذكر هذه المسألة سبحانه وتعالى بذلك اللفظ الذي ليس هناك لفظ أقل منه يمكن أن يكون بين المؤمنين، وهو لفظ الذلة.

فالمرء في علاقته بالمؤمنين يعاملهم بالذلة، ولو كان هناك لفظ آخر يمكن أن يشير إلى هذا المعني ويؤدي هذا الغرض تأدية صحيحة بين المؤمنين. لعبر به القرآن الكريم، ولكنه عبر بهذه اللفظة لتبين كيف يكون المرء مع إخوانه في التذلل، وأن ذلك ليس تركا لكرامته، بل كرامته في أن يتواضع لله مع إخوانه، فيعزه الله سبحانه وتعالى تلك العزة الكاملة، وأما الكرامة التي يدعي فإن الكرامة في التقوى ﴿ ... إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ...﴾ [الحجرات : ١٣] إن له كرامة، وأنه لا ينبغي أن يفعل به كذا وكذا، وأنه ليس هناك أحد أحسن من أحد ولا أعلى من أحد، وإذا فعل معي كذا سأفعل معه كذا وكذا كما فعل، هو يفعل بي ويكلمني بالطريقة السيئة وكذا، وسأفعل فيه نفس ما فعل، ويظهر هذا التعزز الذي ليس من أدب النبي، ولا من توجيه القرآن في هذه المعاملة، ويظن بها المرء أن ذلك من كرامته، وإنما كرامته في التقوى التي تكون سببًا للعزة؛ كما قال: ﴿ ... إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ...﴾.

إذن لا يظن المرء أبدًا أنه أهان نفسه لإخوانه أو تذلل لهم في قول أو فعل أو في معاملة أو غيره، التذلل المشروع الذي ينبغي أن يظهر فيه هضم نفسه، وسعيه على آخرته،

وكرامته بربه، لا بعمله وقوله، وأنه يرى إخوانه أفضل منه، ولا يرى نفسه أفضل، فإنه حينئذ يرفعه الله تبارك وتعالى، ولا يزيده سبحانه وتعالى بذلك التواضع إلا عزًّا.

وهذه مسألة مفتقدة في معاملتنا كلها، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فيريد كل أحد أن يكون عزيزا بنفسه، مفتخرا بها، قويا بها، بعقله، بفهمه، بعلمه، بماله، بسلطانه، بهيئته، بشكله وجماله، وغير ذلك من تلك الزوائل التي تجعله يتعالى على خلق الله تعالى بما ينبغي أن يظهر عليهم أنه دونهم، وأنه ليس بأفضل منهم، مع أن ذلك راجع إلى التقوى، والتقوى في القلب، لا يعلمها إلا الله، وإن كان الله تعالى قد أظهرها على الجوارح فذلك مقياس ظاهر بين الناس، ولكن من الأفضل عند الله؟ ذلك لا يعلمه أحد، ولعل هذا الأخ الذي تحتقر أفضل عند الله منك، لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: "**بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم**" (١) فهذا الكلام ليس لمجرد العلم ، بل لتغيير الواقع الذي نحن فيه، ولينعكس ذلك على المؤمنين، في محبتهم وتوادهم وتراحمهم وتآلفهم واجتماع قلوبهم، إلى آخر ما تتنزل به رحمة الله، ويرتفع به بلاؤه، ويقل به الشقاء الواقع على المؤمنين اليوم.

والحظ الثاني من علاقتك بغيرك حظك في علاقتك بأوليائه سبحانه وتعالى، فعليك أيضًا أن تتذلل لأوليائه وأهل طاعته كما ذكرنا الآية في الذلة، ولا تعتز عليهم، فبذلك أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم؛ حيث يقول: ﴿ ... وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الحجر : ٨٨] ومدح أقوامًا فقال: ﴿ ... أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ... ﴾ [المائدة : ٥٤] وأن تعز من أعزه الله بطاعته وتواليه، وتهين من أهانه بمعصيته وتبعده وتعاديه، قال تعالى: ﴿ ... وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ... ﴾ [المنافقون : ٨] ، وقال: ﴿... وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ ﴾

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٨٦/٤ ، رقم ٢٥٦٤)، ولفظه (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم–: « لاَ تَحَاسَدُوا وَلاَ تَنَاجَشُوا وَلاَ تَبَاغَضُوا وَلاَ تَدَابَرُوا، وَلاَ يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا. الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يَخْذُلُهُ وَلاَ يَحْقِرُهُ. التَّقْوَى هَا هُنَا ». وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ « بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ »).

[النساء : ٨٨] فله سبحانه وتعالى العزة بكل اعتبار، وهي صفته ومنعته لأوليائه، وهي فضله لرسوله صلى الله عليه وسلم، الذي يظهر منها تأييده وعصمته وإعانته ونصرته، وجميع قلوب العاملين على طاعته، أي أن يجمع قلوب العاملين من المؤمنين على طاعته صلى الله عليه وسلم، بل أن يموتوا بين يديه قبل أن يصل إليه أحد ، قال تعالى - الآية كاملة في الذلة على المؤمنين -: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ...﴾ [المائدة : ٥٤] ومن كان عزيزًا كان الأعلى؛ لأن العزة تعني العلو والرفعة، فمن كان عزيزًا بدينه وبولايته لربه وطاعته له، وعزيزًا بعزته لأوليائه وطاعتهم له ومحبتهم، وعزيزًا بعزة الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: ﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ ...﴾ [آل عمران : ١٣٩] تكون النتيجة له ﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [آل عمران : ١٣٩] يتحقق لهم عدم الهون أو الحزن ﴿ وَلَا تَهِنُواْ ...﴾ [آل عمران : ١٣٩] أي: ولا تضعفوا، ولا تحزنوا وأنتم الأعلون: لأنهم قد تعززوا بعزة الله فلا يصل إليهم ذلك.

العاشر: عزة الكفار باطلة

وقد استكمل القرآن موضوع العزة، فبعد أن بيَّن عزة الله تعالى وآثارها، وارتباطها بالعلم، والرحمة، والحكمة، إذا بالقرآن ينقلنا إلى موضوع آخر، وهو أنه قد أثبت للكفرة عزة، ولكن عزة باطلة، لأنه قال: ﴿ ... إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ ...﴾ [يونس : ٦٥] لا عزة لهم، ولو كانوا في عزة فهي عزة زائلة، لا قيمة لها، لأن أصحابها زائلون، وهذا الذي ينبغي أن يتعلمه المؤمنون.

أول هذه الآيات: ﴿ ... وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ ...﴾ [الشعراء : ٤٤] أي أن فرعون أخذ يتعزز، وهم تعززوا من عزته، فإذا بهم جميعا قد أطبق عليهم البحر بعزة الواحد القهار سبحانه وتعالى، ولم يكن لهم عزة ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ ...﴾ [مريم : ٨١ - ٨٢] عندما تتضح الحقائق ويظهر أن لا عزة لهم

سيكفرون بهؤلاء الذين عبدوهم؛ لظهور الحقيقة، وأنهم ما كان لهم عزة ولا كان لهم شيء، وكانوا زائلين، وكانوا لا قيمة لهم في الدنيا ولا في الآخرة، وأن ما ارتفعوا به في الدنيا صاروا إلى هذا الزوال، والعزة جميعا الباقية المحيطة هي عزة الله.

والآية التالية: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ...﴾ [البقرة : ٢٠٦] فالعزة بالإثم بينت في المقابل العزة بالطاعة، وإذا أخذته هذه العزة التي يظن بها أنه أكبر من أن يرد عليه أحد، أو أن يعظه أحد، أو أن يذكره أحد، لا معارض لقوله، هذه العزة بالإثم تأخذ المؤمنين إذا قيل له: اتق الله، كيف تكلمني هكذا، فأنا أعرف التقوى، وأعرف الله، وأعرف وأعرف ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ [البقرة : ٢٠٦] لا يقال هذا على سبيل التسلية أو الخبر، ولكن على سبيل تربية المؤمنين وتوجيههم وتعليمهم، أنهم إذا قيل لهم ذلك أخذتهم العزة بالبر، وهي أن ينصاع لأمر الله، وأن يستجيب لموعظة الله، وأن يطأطئ رأسه لكلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم.

ومعنى أخذته العزة: أخذته كما تأخذه الحمى، كما يقال: احتوته الحمى، أخذته الحمى أي ركبته من كل جهاته، فأصبح ساخنا ، يهذي بكلام ولا يتفهم ما يقول، ولا يدرك ما يقول، وهكذا أخذته كأنها تلبسته واحتوته، هذه العزة النخوة التي يظن بها أن له قيمة وأمن له قدرا، وأنه لا معارض له، وكيف يتطاول عليه أحد ويكلمه بهذا الكلام، كيف ذلك؟ من هو؟

وقد نعى على المؤمنين فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ ﴾ [النساء : ١٣٩]

ثم قال المولى: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ ﴾ [ص : ٢] وهذه العزة التي يدعون إنما هي عزة الجاهلية ونخوتها، التي تقوم على العناد والكبر والضلال، وتقوم على المكابرة والعلو والفساد، وهي لا قيمة لها، أعند هؤلاء عزة؟! السؤال استفهام إنكاري، إذن لماذا يموتون؟ لماذا ينهزمون؟ لماذا يمرضون؟ لماذا يخافون؟ ينامون وهو خائفون أن يقتلوا أو يموتوا أو أن تذهب أموالهم كما ذكرنا في الآيات، أو أن يخسف بهم، أو أن يفعل بهم، أو أن يصابوا بما يصاب به هؤلاء البشر العاديون كما يقال، أي أن تصيبهم الأمراض والعلل والمصائب كما

يصيب غيرهم ممن هو لا مساواة بينه وبينه، لا مال له ولا جاه، ويصاب بما يصاب، وفي ذلك العبرة إذن للمؤمنين والعظة، في مقابل تلك العزة التي ذكرنا لله تعالى، وهي عزة جائزة: ﴿ ... وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ...﴾ [المنافقون : ٨] وهي العزة بالبر، العزة التي هي من الله، والعزة التي لا إثم فيها، والعزة التي لا كبر فيها، والعزة التي لا تطاول فيها، هي العزة التي يركن فيها إلى الله تعالى.

ألا ترى ما أعد الله تعالى لمن تكبر وتعزز عليه، قال الله العظيم مخبرًا عن مخاطبة المؤمنين في الآخرة للكافرين: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [المدثر : ٤٢] أيها الأعزاء، وكذلك الآية المتعلقة بالعزيز: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الدخان : ٤٩] أكنت عزيزًا في الدنيا؟ ذق إنك أنت العزيز الكريم، على سبيل التهكم والسخرية لما وصل إليه حاله، أي هذا العزيز الكريم في الآخرة من الذلة والمهانة، ومما هو فيه مما يشفق عليه أهل النار أنفسهم، ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [المدثر : ٤٢ - ٤٣]، وقال في تنكيل من تعزز عليه : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الدخان : ٤٩]، وقال في التنكيل نفس الكلام : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ ...﴾ [البقرة : ٢٠٦].

وهذه الآيات الكريمات مما يخيف المرء أن يصل إلى تلك الحال التي يتعزز فيها بغير الله، أو يكون طريق المعصية هو طريقه الذي يسير فيه، يظن أنه مما يأتي في الدنيا من هذه الأمور التي يعلو بها سببًا لعزته في الدنيا والآخرة كما ذكرنا، كما كنا نقرأ في سورة الكهف اليوم، في قوله: ﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ [الكهف : ٣٤] حتى لو بادت ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ...﴾ [الكهف : ٣٦] الاثنين معًا ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ...﴾ [الكهف : ٣٦] ولئن قامت كما تدعون ﴿ ... وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الكهف : ٣٦] أي من هذه الجنة ﴿ ... مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الكهف : ٣٦]،

أي مع ذلك التكذيب يقول: لا، أنا عزيز في الدنيا، والله تعالى ما أعطاني ذلك إلا لعلمه بي، كما شرحنا في خطبة قارون - في الزمان الماضي - كذلك ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ...﴾ [القصص : ٧٨] أي: إما على علم من عنده أو على علم من الله أنه يستحق ما هو فيه من المال والحاشية وغير ذلك من العلو في الدنيا، لذلك يقول هنا في تلك الآية الكريمة التي ذكرها.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مخبرًا عن الله عز وجل: **(العز إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني فيهما قصمته)** [1] الحديث رواه مسلم، وقال: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [القصص : ٨٣].

الحادي عشر: أن الله تعالى هو رب العزة

ومما بين ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ ...﴾ [الصافات : ١٨٠]أي من له العزة الحقيقية، من هو متصف بأعظم العزة، التي هي له خاصة، ليست لأحد سبحانه وتعالى، هو ربها جل وعلا، رب العزة أي ممتلك هذه العزة التي لا يشاركه فيها أحد، ممتلك لهذه العزة الحقيقة الامتلاك الذي به سبحانه وتعالى يقوم بما يريد، فإن كان مع العلم ذكرنا الأقدار السابقة، إن كان مع الحكمة ذكرنا شيئا من معناها، إن كان مع القوة نشير إلى هذه المعاني ﴿ ... إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحديد : ٢٥] سبحانه وتعالى.

وقوله: ﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ ...﴾ مفيدة في هذا السياق؛ حيث ختم بها سورة الصافات: ﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾ [الصافات : ١٨٠ - ١٨٢] وهي تحتمل معاني الكمال الثلاثة، الأول:

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٢٣/٤ ، رقم ٢٦٢٠) ، ولفظه (عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ وَأَبِي هُرَيْرَةَ قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم–: «الْعِزُّ إِزَارُهُ وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ فَمَنْ يُنَازِعُنِي عَذَّبْتُهُ »).

وهو تنزيه الله تعالى ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ.. ﴾ الذي يدعو إلى محبته وتوحيده. والثاني: السلام على الرسل الذين بلغوا هذا التنزيل، وهدى الله تعالى به الناس، فاكتملت فيهم تلك الصفات التي تسبب رفعتهم في الدنيا، ونجاتهم في الآخرة، فلا تكتمل تزكيتهم، ولا يكتمل إرشادهم وإخراجهم من الظلمات إلى النور ومن الضلال والحيرة إلى الإيمان والثبات إلا بهؤلاء الرسل، الذين أرسلهم الله تعالى من الملائكة إلى الرسل، وبهؤلاء الرسل الذين أرشدوا الناس إلى طريق الآخرة، وسلوك الطريق الموصل إلى الله تعالى، وتبيين ما لهم إذا وصلوا إليه من النعيم المقيم، وينذرونهم - في نفس الوقت - ما يحل بهم إذا وصلوا إلى الله من العذاب الأليم، فيحملهم ذلك كله على أن يسلكوا ذلك السبيل إلى الله تعالى محبة ومعرفة وتوحيدا وخضوعا وخوفا ورجاء وخشية ويقينا وتوكلا وإقبالا، ثم ركوعا وسجودا وعبادة، وإنفاقا وصوما، ثم جهادا وبذلا، وأمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر، وهداية في أنفسهم، وهداية للناس كذلك بهداية الله لهم.

لذلك سلم عليهم؛ لسلامة ما وصفوا به ربهم، ولسلامة ما وصفوا به دينه واتبعوه، وهذا الأمر الثاني الذي تصلح به أحوال الناس، أن يعلم عن هؤلاء الرسل ما أرسل الله تعالى إياهم به، وأن يعلم أنه ما أرسلوا إلا أن يصفوا الله تعالى بهذا التنزيه، وأن يصفوه بتلك السلامة التي سلم بها في أسمائه الحسنى وصفاته العليا، وفيما أرسل رسله به، فكانت هذه السلامة دليلا لأولئك المتبعين أن يتبعوا هؤلاء الرسل، وأن يكون هؤلاء الرسل هم أسباب نجاتهم، وأسباب صلاحهم، وأسباب فوزهم، وأسباب علوهم في الأولى والآخرة.

ثم الصفة الثالثة وهي الحمد، فإنه إذا كان التنزيه وإرسال الرسل مما يكتمل به صلاح المرء، وتكتمل به صفاته النفسية والعلمية والعملية فإنه لا يتم له ذلك كله إلا بحمد الله تعالى وشكره على هذا التوفيق الذي وفقه الله تعالى إليه، وأن الشكر والحمد لله تعالى سواء بالثناء عليه بالحمد أو لأن له الأسماء الحسنى، يكون بما أسدى إلينا من هذه النعم، ولا يتم إيمان المرء إلا بهذا الشكر، فيكون شاكرا لربه على كل أحواله، مبديا لربه أنه بغير الله تعالى لا شيء، وأنه محتاج إلى المزيد من الله تعالى في سبيل الهداية والرحمة والتزكية كما قال:﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ... ﴾ [البقرة : ١٢٩]

فتلاوة الآيات ليؤمنوا، ثم يعلمهم الكتاب والسنة؛ ليكونوا أهدى وأقرب إلى الله، ثم يزكيهم، ترتفع درجتهم عند الله ﴿...إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٩] .

فلولا هذه العزة التي ذكرها في قوله: ﴿ سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ ما كان اكتمال هذه الصفات التي هي كمال المرء النفساني والبدني، وهي كمال في الترقي إلى الله تعالى، وهي كماله في التوحيد، كما جاء في قصة يوسف - عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام - لما قال لهذين المشركين: ﴿ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴾ [يوسف : ٣٨] فنخرج بمعاني الهداية التي ينبغي أن يتحمس المرء لها، فيفهم كيف يصفي قلبه لتنزيه ربه سبحانه وتعالى، ولاتباع رسله، ولحمده وشكره، بالسير على هذه الأحوال الحسنة، والالتزام بهذا الطريق الذي يوصله إلى الفوز في الدنيا والآخرة، إلى الفوز بالسعادتين.

الثاني عشر: من آثار عزة الله سبحانه: إنجاء رسله وأوليائه وإهلاك الطغاة

نشير إلى شيء من القصص التي تبين العزة والغلبة لله تعالى، وهذه القصص تفيد المؤمنين في أشياء جميلة كثيرة، كنا قد شرحنا شيئا منها في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم.

ففي قصة موسى - عليه الصلاة والسلام، عليه وعلى نبيا أفضل الصلوات والتسليمات -حاول فرعون أن يمنع خروج هذا الصبي إلى الدنيا، فقالوا لما قال له الكهان: إن موتك أو هلاكك سيكون على يدي غلام من بني إسرائيل، فأمر بقتلهم، قالوا: يقتلهم عامًا ويتركهم عامًا، وولد موسى في العام الذي كان يقتل فرعون فيه المولودين، ولكن يأبى الله العزيز إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون، فولد موسى عليه السلام، وليس ذلك فقط، بل تربى في قصر فرعون نفسه، ليأتي اليوم الذي يقتل فيه فرعون، ويزاح ملكه، ويأخذ موسى عليه السلام بني إسرائيل كما طلب ورفض فرعون، وكان نداء الله تعالى لموسى أول بعثته: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [النمل: ٩].

وكان أن تربى موسى في قصر فرعون، وفي بيته، وتحت رعايته، ولما حاول أن يقتل موسى ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ ...﴾ [القصص : ٢٠] كان هذا الخروج والرجوع فيه هلاك فرعون وهامان وجنودهما أجمعين، كما ذكر الله سبحانه وتعالى في ذلك القصص القرآني البديع، في قصة موسى في طول القرآن وعرضه.

وكان كذلك الأمر بالنسبة ليوسف عليه السلام، فقد أراد إخوته قتله في بادئ الأمر ﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا ...﴾ [يوسف : ٩] اطرحوه أرضًا أي أن ينفوه في أرض بعيدة لا يتمكن من الرجوع إلى أبيه، وأن ينشأ في بلاد غريبة وأن ينتهي أمره، ولم يكن لهم سبيل إلى قتله؛ لأن الله تعالى كان يريد منه أمرًا لا بد من إمضائه وإتمامه، من إيحائه إليه بالنبوة والتمكين ببلاد مصر، والحكم بها.

ولما حاول اليهود كذلك قتل عيسى عليه السلام رفعه الله تعالى إليه كما قال في سورة النساء، ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٥٨]

وهكذا الأمر بالنسبة - للنبي صلى الله عليه وسلم - و هو الذي عليه مدار ذلك كله — لما مكر به كفار قريش ليقتلوه أو ليخرجوه أو ليثبتوه، وحاولوا أن يصدوا الناس عنه، وعن الإيمان به، وحاربوه في ذلك، وألبوا عليه القبائل حتى كانوا على فم الغار، يقول أحدهما: لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا، قال: "ما ظنك باثنين الله ثالثهما، لا تحزن إن الله معنا" (١)، لذلك قال بعدها سبحانه وتعالى: ﴿ ... إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٣٧/٣ ، رقم ٣٤٥٣) ، ومسلم (١٨٥٤/٤ رقم ٢٣٨١) ، ولفظه (عَنْ أَنَس: قَالَ حَدَّثَنِي أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْغَارِ فَرَأَيْتُ آثَارَ الْمُشْرِكِينَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ رَفَعَ قَدَمَهُ رَآنَا قَالَ مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا).

اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [التوبة : ٤٠].

وقد نصر الله تعالى المؤمنين في بدر على ما كانوا فيه من ضعف وقلة، كما قال: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ...﴾ [آل عمران : ١٢٣] أذلة لا تعني أنهم ليسوا أعزاء، ولكن: أنتم أذلة في قلة العدد، وفي قلة العتاد، وفيما كانوا فيه - عليهم رضوان الله تعالى - من الافتقار والشدة والمشقة، لم يكن عندهم ما يركبون، كان الثلاثة يعتقبون بعيرًا، أحدهم يمشي واثنان يركبان، وكان النبي كذلك صلى الله عليه وسلم، ولكنهم كانوا أعزاء بطاعته لله تعالى، ولولا ذلك ما نصرهم.

فهذا يعطي المرء الثقة في ربه سبحانه وتعالى؛ لأن ربه لا يُمانع ولا يُرد أمره، كما قال:﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة: ٢١] وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وإن شاء الناس، والناظر في قصص الرسل والأنبياء عليهم أفضل الصلاة والتسليم يرى ذلك واضحًا جليًا.

رابعًا : الشرح التفصيلي لبعض آيات العزة في القرآن

والكلام في شرح هذه الآيات على حسب ما يفتح الله تعالى فيه مفردات أخرى من الأسماء الحسنى ترتبط معنا بهذه العزة التي توضح هذا الجمال والجلال القرآني، والتي توضح جمال الله تعالى وقوته وعظمته، وتوضح في نفس الوقت أنه لا كمال لغيره، وتوضح كيف يكون هذا الكلام على سبيل أن يتعلم المؤمنون كيف تكون لهم تلك العزة من الله، وألا يتعززوا إلا به، وألا يهزمهم غيرهم في شيء لأنهم معتزون متعززون بالله تعالى، وأن تزكيتهم عندما يريدون أن يتزكوا، أي عندما يريدون أن يكونوا زاكين عند الله جل وعلا، كيف تكون العزة طريقهم، إلى هذه المعاني، لماذا؟ لأن الكتاب أنزل على ذلك، ولأن الرسول و الرسل كانوا كذلك، مع ما ذكر في مقابل عزة الله من عزة الكفرة الباطلة، كبيرهم وصغيرهم، فرعونهم وذليلهم.

الآية الأولى: فلله العزة جميعا

قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ...﴾ [فاطر: ١٠] وقد يسأل سائل: لماذا نبدأ بها؟ لأنها هي المدخل لأن يعرف المرء عزة الله، وطريق العزة، فنحن نتكلم عن عزة الله حتى نعرف معانيها، وقد ذكرنا هذه المعاني، ثم بعد ذلك الطريق الذي يوصل المرء إلى أن يكون عزيزا، متصفا بهذه الصفة من صفات الله، ويتحقق فيه قوله: ﴿ ... وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ...﴾ [المنافقون: ٨].

يقول الطاهر ابن عاشور[1] في تفسير قوله: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ...﴾ [فاطر: ١٠]: هنا مضى ذكر غرورين إجمالا في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝ ﴾ [فاطر: ٥] فالغرور الأول الذي نهى الله تعالى أن يغتر به المرء هو غرور الحياة الدنيا ﴿... فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ...﴾ [فاطر: ٥] والغرور الثاني: ﴿ ... وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝ ﴾ [فاطر: ٥] يعني الشيطان، فأخذ سبحانه وتعالى في تفصيل الغرور الثاني، فقد ذكر إجمالاً غرورين ينبغي أن يحذر المرء منهما؛ حتى تستقيم أحواله، وحتى يصل إلى هذا المعنى من معاني العزة.

تكلم عن الغرور الأول إجمالاً وهو غرور الدنيا، ثم عن غرور الشيطان تفصيلاً، ثم عاد إلى تفصيل الأهم وهو الغرور المتعلق بالدنيا، وهذا الغرور المتعلق بالدنيا الذي دخل فيه المشركون، فاغتروا بهذا الغرور، وهذا ملخص الكلام .

الغرور الأول ذكره إجمالا قال: ﴿... فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ...﴾ [فاطر: ٥] كيف؟ لم يذكرها هنا، وأما الشيطان فقال: ﴿ ... وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝ ﴾ [فاطر: ٥] وأخذ في

---

(١) انظر: التحرير والتنوير– الطاهر بن عاشور– ج: ٢٢، ص: ٢٦٩–٢٧٥ – الدار التونسية للنشر.

تفصيل الغرور الثاني وهو غرور الشيطان ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾ [فاطر: ٦].

يقول: إن الشيطان لكم عدو، وما استتبعه أي وما استتبع هذا الكلام من هذا الغرور - الغَرور اسم الشيطان - من التنبيه على أحجار كيده، وانبعاث سموم مكره، والحذر من مصارع متابعته، وإبداء الفرق بين الواقعين في حبائله ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ ... ﴾ [فاطر: ٨] والمعافين من أدواءه - أي من أمراضه وعلله - بدارًا بتفصيل الأهم والأصل.

وقد كان أعظم غرور المشركين في شركائهم ناشئًا من عزة هؤلاء المشركين، فصارت عزتهم بالإشراك بالله تعالى؛ نظرا لقوتهم وجمعهم وعددهم وعدتهم، وما إلى ذلك، فإذا بالله تعالى يقول: هذه العزة لا قيمة لها، إنها عزة منعدمة، باطلة، والعزة الصحيحة التي لا تفنى ولا تبيد هي عزة الله تعالى، فعليكم أيها الناس إذا أردتم العزة الصحيحة التي لا تنعدم أن تتبعوا الرسول صلى الله عليه وسلم

يقول: وإذ قد كان أعظم غرور المشركين في شركهم ناشئًا عن قبول تعاليم كبرائهم وسادتهم، وكان أعظم دواعي القادة المشركين لتضليل دهمائهم وصنائعهم هو ما يجدونه من العزة، والافتنان بحب الرئاسة، فالقادة يجلبون لأنفسهم العزة، والأتباع يعتزون بقوة قاداتهم، لا جرم حينئذ إذا علمنا ذلك عن المشركين وأتباعهم كانت إرادة العزة ملاك تكاتف المشركين بعضهم مع بعض، إرادة أن يكونوا أعزاء هي السبب في تكاتفهم. فهؤلاء اعتزوا بقوتهم ورياستهم وهؤلاء اعتزوا بعزة قادتهم، فتكاتف هؤلاء وهؤلاء لإرادة هذه العزة، وإبقاءها مرفوعة عن المسلمين وعلى غيرهم ممن يناوئهم، لذلك قال: كانت إرادة العزة ملاك تكاتف المشركين بعضهم مع بعض، وتألبهم على مناوأة الإسلام ومخالفته وحربه، فوُجِّه الخطابُ إليهم : لكشف اغترارهم بطلبهم العزة في الدنيا، وجه الخطاب هنا ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ ... ﴾ فكل مستمسك بحبل الشرك، معرض عن التأمل في دعوة الإسلام، لا يمسكه بذلك إلا إرادة العزة، لذلك نادى عليهم القرآن بأن من كان ذلك صارفه عن الدين الحق فليعلم بأن العزة الحقيقية في اتباع الإسلام، وأن ما هم فيه من عزة هو كالعدم.

﴿ ... فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ...﴾ يقول: ومن هنا شرطية: ﴿ مَن كَانَ ﴾ هل معنى ذلك ثبوت العزة لله مرتب في الوجود على حصول هذا الشرط؟ لا، فليس بمترتب على هذا الشرط، بل عزة الله موجودة أردتها أم لم تردها، أرادها الخلق جميعًا أو لا.

فتعيَّن أن ما بعد فاء الجزاء هو علة الجواب أقيمت مقامه، أي التقدير: عندما قلنا من كان يريد العزة فلله العزة فلم تكن ﴿ ...فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ ...﴾ هي الجواب؛ لأنها ليست متوقفة على طلبها، وإنما يقول هنا: هذا علة الجواب، أي يقول: من كان يريد العزة فليستجب إلى دعوة الإسلام ففيها العزة، جواب الشرط هو العلة؛ لأن العزة كلها لله.

وقد فصلت الآيات في غرور الشيطان ، ثم عادت إلى الكلام على غرور الدنيا، يقول: إن من أعظم غرور الدنيا هو العزة لهؤلاء القادة، الذين يتبعهم هؤلاء الدهماء، ويضللونهم بوجود القوة والمنعة. وكأن الله يوجه المسلمين إلى أن كل ذلك إنما هو من غرور الدنيا التي هم فيها، وأن الدنيا زائلة، وبالتالي إذا ادعوا العزة فيها فهي عزة زائلة أيضًا، وأنهم إذا ادعوا العزة فهي غرور وباطل؛ لأن الدنيا كلها من أولها إلى آخرها غرور كما ذكر الله تعالى، ويتعلم المؤمنون حينئذ أن الاغترار بما هم فيه من قوة ومنعة إنما هو من غرور الدنيا، وهو زائل، والاغترار بما هم فيه من تعالٍ سواء هم قادة أو غيره من المشركين الذين يحاربون الدين والإسلام، ومن أتباعهم الذين يتبعونهم على هذا الضلال، فإنهم في غرور وضلال، وأن عزتهم زائلة.

وذلك لأن عزة الله تعالى موجودة، وأنه سبحانه وتعالى لا يعطي هذه العزة إلا لمن استجاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ولله تعالى؛ ولأن الاستجابة هنا استجابة للرب الحق وللرسول الحق، فكانت العزة هي العزة الحق، التي لا تفنى والتي لا تنقضي، وأنتم أيها المؤمنون مطالبون بهذا الحال الحسن، وهو: **أن المرء كلما استجاب لله وللرسول أخذ من هذه العزة بقدر هذه الاستجابة**، وإذا قلت استجابته قلت عزته، وطغى عليه غرور الدنيا وغرور أصحاب العزة من الكفرة وغيرهم، بحيث ما ينقص من عزة الله بسبب الاستجابة له تزداد لهؤلاء المشركين عليه بكيدهم وإضعافهم وتألبهم ومخالفتهم وحربهم وغيره.

لذلك يقول: فتعين أن ما بعد فاء الجزاء هو علة الجواب، أن بعد قوله: ﴿ ... فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ ...﴾ لله العزة هو العلة، إنما الجواب هو كما يقول: من كان يريد العزة فليستجب - هذا هو الجواب - إلى دعوة الإسلام، ففيها العزة، لأن العزة كلها لله.

فأما العزة التي ينشئونها لأنفسهم سواء كانوا كفرة أم مسلمين، لأن المسلمين المؤمنين فيهم شيء من هذا أيضا، يحاول أن يكون عزيزا بما لم يعتز به من الله سبحانه وتعالى، بنفسه، أو بقوته، أو بفهمه، أو بعلمه، أو بعقله، أو بماله، أو بجاهه، أو بسلطانه، ويتعزز به على خلق الله تعالى، وينظر إليهم نظرة التنقص، ونظرة التقلل والحط من شأنهم وقيمتهم؛ لأنه قد تعزز عليه بماله - مثلا - أو بعلمه، أو بعقله، أو بغير ذلك، حينئذ يُنبه عليه ويوصى ويفهم بأن هذا الذي يتعزز به زائل أيضا كالعادة؛ لأن العزة في الاستجابة لله ولرسول، في الاستجابة لدعوة الإسلام التي منها أن يكون ذليلا على المؤمنين لا عزيزا عليه، وإن أراد العزة فإنما يحصلها في الذلة، أي لا يكون عزيزا مع إخوانه إلا أن يكون ذليلا لهم كما ذكر الله تبارك وتعالى ﴿ ... أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ ...﴾ [المائدة : ٥٤].

فأما العزة التي يتشبثون بها فهي كخيط العنكبوت؛ لأنها واهية بالية، وهذا الأسلوب متبع في قول الله تعالى ﴿ ... فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ...﴾ ليس العزة التي ادعاها المشركون لأنفسهم.

وأفادت كلمة جميعا في قوله تعالى: ﴿ ... فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ...﴾ الإحاطة، فكانت بمنزلة التأكيد للقصر الادعائي، أي جعلت (جميعا) هذه الجملة تتأكد بثلاثة مؤكدات. فالقصر بمنزلة تأكيدين، فلله العزة قصر العزة على الله، وجميعا هذا التأكيد الثالث، لأن القصر يفيد تأكيدين كما يقول السكاكي، ليس الحصر والتخصيص إلا تأكيدا على تأكيد، وهذا قريب من قوله تعالى: ﴿ ... أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ ﴾ [النساء : ١٣٩] في الآية الأخرى، فإن فيه تأكيدين، بـ(إن) التي تفيد التوكيد ﴿ ... فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ ...﴾ [النساء : ١٣٩] وتأكيدا بـ(جميعا) ﴿ ... فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ ﴾ [النساء : ١٣٩] ، ومعناه: أن العزة كلها لله تعالى، أيها الطالبون للعزة والقوة والمنعة، والغلبة، من العزيز الذي لا نظير له، وأنه يعز

المؤمنين ويرفعهم، وأنه سبحانه وتعالى هو المعز، وأنه هو المعزوز جل وعلا، إلى آخر ما بينا في هذه المعاني من آيات الله تعالى، ومن أساليب اللغة العربية.

يقول: أي العزة كلها لله يا من يطلب العزة، لا يشذ منها شيء فيثبت لغيره، أي لا يثبت لغيره شيء قد شذ عن عزته ؛ لأن العزة المتعارفة بين الناس كالعدم، إذ لا يخلو صاحبها من احتياج، بل ومن وهن، وأن العزة الحق لله، هو محتاج إلى من يعزه، فإذا كانت عزته بالعقل فليس له إنما قد أعطاه المولى، أو بالمال فيمكن أن ينتهي أو يصبح فقيرا، أو بالسلطان فيمكن أن يعزل ويصبح شحاذا، يطرق الأبواب لمن يقضي له حاجته، وهكذا.

ولذلك قال: العزة المتعارفة بين الناس صاحبها في احتياج وفي ضعف، ليس في احتياج فقط، **فإذا مرض هذا المسكين المتعزز فهو في احتياج إلى من يطببه**، ليس معتزا بنفسه حتى لا يمرض فضلا عن أن يداويه أحد ويحتاج إليه، أو حتى يداويه أحد فضلا عن أن يمرض.

وينبغي أن يتعلم المؤمنون هذه القضايا لتكون سبب رفعتهم اليوم، وسبب توحيدهم لله جل وعلا، وسبب تعبدهم لله بهذه العزة، وسبب معرفة السلوك الموصل لهذه العزة، ولتكون كذلك سببا لمعرفة النقص الذي هم فيه من القيام بهذه العزة التي وضعها الله لهم، ثم أدبروا عنها وتركوها خلف ظهورهم، وفضلوا عليها الذلة والمسكنة التي نحن فيها اليوم !

وقد يتخيل المرء في لباسه أو طعامه أو شرابه أو منصبه أو غير ذلك أن فيه العزة، وأنه لو فعل كذا وكذا من الدين والتدين واتباع النبي صلى الله عليه وسلم سيكون منظره سيئا وقليل العزة بين الناس، وأنه يمكن أن يُنظر إليه نظرًا شزرًا، ويقلل من قيمته، ويحط من شأنه، إلى آخر هذه المعاني التي نراها اليوم، ولا بد أن يكون كمثلهم في هذه الأحوال والمناظر والهيئات والمال والسلطان، ويحاول ويجاهد أن يصل إلى ما وصلوا إليه؛ حتى يحصل عزتهم واحترامهم، أليس كذلك؟

يقول: من كان يريد العزة فانصرف عن دعوة الله؛ إبقاء على ما يخاله لنفسه، إبقاء على ما يظن أنه يبقيه لنفسه من عزة فهو مخطئ؛ إذ لا عزة له، فهو كما أراق ماء للمع السراب، أي كمن ظن أن السراب ماء فأراق له ماء فإذا به سراب لا ماء فيه. والعزة الحق لله تعالى الذي دعاهم على لسان رسوله، وأن عزة المولى سبحانه وتعالى تنال حزبه وأولياءه، وينال حزبه وأولياءه منها حظٌّ، فلو اتبعوا أمر الله والتحقوا بحزبه صارت لهم عزة الله وهي العزة

الدائمة، فإن عزة المشركين يعقبها ذل الانهزام والقتل والأسر في الدنيا، وذل الخزي والعذاب في الآخرة، وعزة المسلمين المؤمنين إن تمسكوا بها فهي في تزايد في الدنيا، وهي لها درجة الكمال في الآخرة.

الآية الثانية: فإن زللتم.. فأعلموا أن الله عزيز حكيم

وهو الكلام المعاكس في معنى العزة ، وهو قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٢٠٨ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٢٠٩ ﴾ [البقرة :٢٠٨ - ٢٠٩] ليتضح الجانب الآخر من الصورة.

يقول المولى سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً ...﴾

والسلم بمعنى السلام، سواء كانت مكسورة أم مفتوحة، السِّلم أو السَّلم، يقول ابن عاشور[(١)]: وإذا فُسر السلم بالإسلام - أي دين الإسلام - فإن الخطاب: يا أيها الذين آمنوا، أمر للمؤمنين بأن يدخلوا في السلم، فيؤول ذلك - وهم مسلمون لما قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ ...﴾ بأن يدخلوا في الإسلام وهم مسلمون، ولم يكن المقصود أن يسلموا مرة أخرى، بل هم مسلمون، لما ذكرهم بالإيمان والإيمان عنوان للمسلمين في خطاب القرآن الكريم، وخطاب النبي صلى الله عليه وسلم، لا يقول: يا أيها الذين آمنوا إلا للمؤمنين به صلى الله عليه وسلم المؤمنين بالله - فيكون معنى الكلام أنه أمر بزيادة التمكن منه، أي بزيادة التمكن من الإسلام والتغلغل فيه والدوام عليه.

يقول: فالذي يبدو لي أن تكون مناسبة ذكر هذه الآية عقب ما تقدم هي أن قوله تعالى السابق: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ ...﴾ [البقرة : ١٩٠] تهيئة لمقاتلة

(١) انظر: التحرير والتنوير– الطاهر بن عاشور– ج: ٢، ص: ٢٧٥ – الدار التونسية للنشر.

المشركين، فلما قال: (قاتلوا) ثم قال: ﴿ ... ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ ...﴾ كانت (قاتلوا) هذه تهيئة لقتال المشركين الذين صدوا المسلمين عن البيت في غزوة الحديبية، وإرجافهم، تهيئة المسلمين لقتال المشركين الذين صدوهم عن البيت، وأرجفوا بينهم بأنهم أجمعوا أمرهم على قتالهم، وأرجفوا بقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه بمكة حين أرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قريش، فذكر ذلك.

ثم جاء الكلام بعد ذلك في موضعه فاستأنف هنا، بعد أن سالم النبي صلى الله عليه وسلم، وعاهد المشركين على وضع الحرب، وعلى الشروط التي ظن المؤمنون لأول وهلة أنها شروط مجحفة للمسلمين، ومنها: أن من أتى من المشركين إلى المسلمين مؤمنًا رده النبي صلى الله عليه وسلم، ومن أتى من المسلمين إلى المشركين لم يردوه إليه، إلى آخر هذه البنود الجائرة في ذلك العقد، حتى إن عمر رضي الله عنه يقول: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ لِمَ نعطي الدنية في ديننا؟ إلى آخر ما ورد عن الصحابة، فهذه القصة بينت كيف اعترض المؤمنون على أن يعطوا الدنية في دينهم، واعترضوا على هذه القضايا الجائرة التي فرضها المشركون على المسلمين، إلى آخره، فجاءت هذه الآيات لتقول: إن كثيرا من المسلمين كانوا آسفين من وقوعه، حتى إذا جاء ذلك فإذا بالله تعالى يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ ...﴾ [البقرة : ٢٠٨] أيها المؤمنون إذا جاء أمر الله ذلك فلا محيص لكم أن تدخلوا فيه، وألا تعترضوا عليه، وأن الاعتراض على هذا الأمر وعدم الاستجابة لأمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فيه الذلة والمهانة، وفيه الانهزام والانكسار الذي كان قد ذكر قبل ذلك إن أردتم العزة فالعزة في الاستجابة، قال هنا: الذلة والمهانة في ترك الاستجابة؛ ليتوائم الأمران إذن عند المؤمن، أن يعلم أن اعتراضه حتى لو كان فيه ظاهره حقا - اعتراضه وليس مخالفته، وليس الخروج عن أمر الله، وليست المعصية، وليست الغفلة، وليس البعد، وليست موالاة الكفرة، وليس التعزز بالمال والجاه وغيره، وليست العزة على المؤمنين والذلة على الكافرين، ليس كل ذلك مما نفعل اليوم هو الذي حدث من المؤمنين، بل مجرد أن اعترضوا - فقال: لا، ادخلوا في السلم كافة، استمروا على ما أنتم فيه من إيمان، وزيدوا عليه، ولا تخرجوا عن هذه الحالة لأن فيها عزتكم التي ترجون، وإن كنتم تظنون أن العزة في الاعتراض، كلا، العزة في التسليم، ولذلك عبر بالسَّلم والسِّلم أي الاستسلام والانقياد التامَّيْنِ لله وتعالى، وبقدر ما

يدخل المرء في هذا السلم بقدر ما يخفف عن نفسه أمر الله النازل، وبلاءه المحيط، كما سيذكر في نهاية الآية.

يقول: ﴿ ... وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ ...﴾ [البقرة : ٢٠٨] تحذير لهم، ادخلوا في السلم كافة أولا، ثم إن الخروج عن هذا الأمر والاستسلام والانقياد إنما هو اتباع لخطوات الشطان خطوة خطوة، حتى يكون اتباعًا كاملا، قد امتلأ بالمهانة والذلة في الدنيا، وما يستتبعه من عذاب الله في الآخرة، والذلة والمهانة في الدنيا تعني أن يرتفع عليهم المشركون، وأن يؤذوهم، وأن يكونوا سبب هوانهم وذلتهم، وانفراط عقدهم، وضياع أرضهم، وانتهاك بلادهم ومقدساتهم وأعراضهم، لذلك يقول هنا: ﴿ ... وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ ...﴾ [البقرة : ٢٠٨] تحذير مما يصدهم عن الدخول في السلم المأمور به بطريق النهي عن خلاف المأمور به، وفائدته - أي فائدة هذا الكلام - التنبيه على أن ما يصدر عن الدخول في السلم هو من مسالك الشيطان المعروف بأنه لا يشير بالخير ﴿ ... وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ ...﴾ [البقرة : ٢٠٨] فائدة هذا الكلام الذي هو تحذير عن أن يصدهم عن الدخول في السلم كافة فائدته التنبيه على أن ما يصدر عن الدخول في السلم هو من مسال الشيطان المعروفة، فهذا النهي الذي يتكلم إنما هو كما كان المولى سبحانه وتعالى يطلب منهم بأن ذلك من خطوات الشيطان، التي تصدهم عن ذلك الأمر الذي نهاهم المولى على أن لا يكونوا فيه.

لذلك قال: وهو إشارة كراهة جمهور المؤمنين في الحديبية من إعطاء الدنية للمشركين، كما قال عمر في ذلك، وكما قال سهل بن حنيف يوم صفين: أيها الناس اتهموا الرأي فإني قد رأيتنا يوم أبي جندل ولو نستطيع أن نرد على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فعله لفعلنا، والله ورسوله أعلم بإعلامهم أن ما فعله رسول الله لا يكون إلا خيرا، وهو ما ينبغي أن يتعلمه المرء ، فإن وسوس له الشيطان علم أنه من خطوات الشيطان.

ويمكن أن تكون: ﴿ ... وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ ...﴾ لمجرد بيان علة الأمر بالدخول في السلم، أنه إذا دخل في السلم وظن أن هذه الكراهية التي قد كرهها من الدخول في ذلك، لذلك يقول: وليعلم أن الله تعالى أبدًا لن يضيعه كما بين ذلك أبو بكر رضي الله عنه؛ حيث قال لعمر رضي الله عنه لما سأله: ألسنا على الحق؟! أليس عدونا كذا وكذا وكذا ...؟! قال:

نعم، ثم قال له: الزم غرزه، أي الزم غرز النبي صلى الله عليه وسلم؛ فإنه على الحق، وإن الله تعالى لن يضيعه، قال ذلك النبي أيضا صلى الله عليه وسلم: **(أنا رسول الله ولن يضيعني)**.[1]

---

(١) أخرجه البخاري (٩٧٤/٢ ، رقم ٢٥٨١) ، ومسلم (١٤١١/٣ ، رقم ١٧٨٥) ، وهو حديث طويل في صلح الحديبية موضع الشاهد منه (قال معمر : قال الزهريُّ في حديثه : فجاء سهيل بن عمرو ، فقال : هاتِ اكْتُبْ بيننا وبينك كتابا ، فدعا النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- الكاتب، فقال النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- : اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال سهيل : أما الرحمن ، فوالله ما أدري ما هو ؟ ولكن اكتب : باسمك اللهم ، كما كنت تكتُبُ ، فقال المسلمون : والله لا نكتُبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- اكتبْ: باسمك اللهم.

ثم قال : هذا ما قاضى عليه محمد رسولُ الله، فقال سهيل : والله لو كُنّا نعلم أنّكَ رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- ما صَدَدْناكَ عن البيت ، ولا قاتَلْناكَ ، ولكن اكتب: محمدُ بنُ عبد الله. قال النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- : والله إني لرسولُ الله ، وإن كذّبتموني، اكتب: محمد بن عبد الله - قال الزهريُّ: وذلك لقوله : لا يسألوني خُطّة يُعَظِّمون فيها حرمات الله إلا أعطيتُهم إيّاها - فقال له النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- : على أن تُخَلُّوا بيننا وبين البيت فنطوف به ، فقال سهيل : والله لا تتحدّثُ العربُ أنّا أُخِذْنا ضُغْطة ، ولكن ذلك من العام المقبل ، فكتب.

فقال سهيل : وعلى أنّهُ لا يأتيك مِنّا رَجُل - وإن كان على دِينِكَ - إلا رَدَدْته إلينا، قال المسلمون : سبحان الله! كيف يُرَدُّ إلى المشركين ، وقد جاء مسلما ؟ فبينا هم كذلك ، إذْ جاءَ أبو جَنْدَل بنُ سُهيل بن عمرو يَرْسُفُ في قيوده، وقد خرج من أسفل مكةَ ، حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين ، فقال سهيل : هذا يا محمد أول ما أُقاضيك عليه : أَنْ تردّهُ إليّ ، فقال النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- : إنّا لم نَقْضِ الكتاب بعدُ ، قال : فوالله إذا لا أُصالحُكَ على شيء أبدا، فقال النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- : فأجِزْه لي، قال : ما أنا بمُجيزِهِ لك ، قال : بلى [فافعل] ، قال : ما أنا بفاعل، قال مِكْرَزُ بنُ حفص : بلى ، قد أجزناهُ لكَ ، قال أبو جندل: أيْ معشر المسلمين، أُرَدُّ إلى المشركين وقد جئتُ مسلما ؟ ألا تَرَوْنَ ما قد لقيتُ؟ - وكان قد عُذِّبَ عذابا شديدا في الله - فقال عمرُ بنُ الخطاب : فأتيتُ نبيَّ الله -صلى الله عليه وسلم- فقلتُ : ألستَ نبيَّ الله حقّا ؟ قال : بلى ، قلتُ : ألسنا على الحقّ وعدوُّنا على الباطل؟ قال : بلى ، قلتُ : فلم نُعْطِي الدَّنِيّةَ في ديننا إذا؟ قال : إني رسولُ الله ، ولستُ أعصيه

ولذلك يقول: هنا تنبيه على أن ما خبر نفوسهم من كراهية لهذا الصلح إنما هو من وساوس الشيطان، فإذا كانت هذه الكراهية - التي هي كما يقول المولى سبحانه تعالى في تلك الآيات - إنما كانت كراهية شرعية لإعطاء الدنية في دينهم ومع ذلك عدها من خطوات الشيطان، ومن وساوسه؛ لأنها تخالف أن يدخلوا في السلم والإسلام كله كما ذكر الله تعالى، أو كلهم كما أمر الله جل وعلا، فما بالك بهذه المعاصي التي تخرج عن عزة الله، وتوقع في وسوسة الشيطان واتباع خطواته!!! فهو يتكلم عن الكراهية في الدخول في السلم على رؤية أنه الحق، لا على المعصية التي نحن فيها اليوم، واتباع خطوات الشيطان.

وانظر إلى الترهيب الشديد بعد ذلك قال: ﴿ فَإِن زَلَلْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ ﴾ [البقرة : ٢٠٩] أي: جاءتكم البينات ثم بعد ذلك زللتم، وقد شبه كما ترون اتباع خطوات الشيطان بالمزلقة، كأنه يسير وراءه في طريق زلق، يقع فيه، يتزحلق منه كل آن في الوحل أو الطين، و ما يشبه ذلك من عذاب الله تعالى ﴿ فَإِن زَلَلْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ ﴾ لم يقل: (فاعملوا أن الله غفور رحيم) لا، وإنما قال: ﴿ ...فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ ﴾ يجازيكم بعكس هذه العزة التي كنتم ترون في وسوسة الشيطان، يجازيكم بعكس هذه العزة التي كنتم ترون في عدم الدخول في السلم كافة، يجازيكم بهذه العزة التي قصرتم فيها في اتباع النبي صلى الله عليه وآله

، وهو ناصري. قلتُ: أوَ ليس كنتَ تحدِّثنا أنَّا سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال : بلى. قال : فأخبرتُك أنكَ تأتيه العام؟ قلت: لا. قال : فإنك آتيه ومُطَّوِّف به.

قال : فأتيتُ أبا بكر ، فقلتُ : يا أبا بكر ، أليس هذا نبيَّ الله حقّاً ؟ قال : بلى ، قلتُ: ألسنا على الحق ، وعدُّونا على الباطل؟ قال : بلى ، قلتُ : فلم نُعْطِي الدَّنيَّةَ في ديننا إذا؟ قال : أيُّهَا الرجل ، إنَّهُ رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- ، وليس يَعصي ربَّه ، وهو ناصِرُهُ ، فاسْتَمْسِكْ بِغَرْزِهِ ، فواللهِ إنَّهُ على الحقِّ ، قلتُ : أوَليس كان يحدِّثنا : أنَّا سنأتي البيت ونطوفُ بِهِ ؟ قال: بلى. أفأخبرَك أنه يأتيه العام ؟ قلت: لا. قال : فإنَّكَ آتيه ومُطَّوِّف به؟ قال عمرُ : فَعَمِلْتُ لذلك أعمالاً..) .

وسلم، ويكون معنى الآية هنا على عكس تلك الآية الأولى التي أشرناها في قوله: ﴿ ...فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ...﴾ [فاطر: ١٠].

لذلك يقول هنا: ﴿ ...فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ ﴾ والبينات هنا هي الأدلة والمعجزات التي ظهرت وتظهر مع الإسلام، ومع النبي صلى الله عليه وسلم، يقول: ﴿ ...فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ ﴾ لماذا هنا جاءت العزة والحكمة؟ قال: لأنه بعد أن جاءتهم هذه البينات واتضح لهم أنه يجب أن يدخلوا السلم كافة، والإسلام وأن يتبعوا، وألا يروا العزة في غيره، وأن يعلموا أن العزة لله جميعا، وأن العزة في اتباع الله تعالى وأوامره، واتباع الرسول، وما قضى به عن الله جل وعلا.

لذلك يقول هنا: فكان العلم بأنه تعالى عزيز مستلزمًا تحققهم بأنه معاقبهم لا يفلتهم ﴿ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ ﴾ أي أن الله تعالى لما قال بتصدير العزة هنا دل على أن عذابه متحقق، وأن ذلك مستلزم لأن يتحقق عذابه لهم أو معاقبتهم، وأنه لا يفلتهم سبحانه وتعالى؛ لأن العزيز لا ينجو من يخالفه أو من يناوئه، لذلك كانت هذه الآية على خلاف الآية الأولى ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ...﴾ [فاطر: ١٠].

فكان العلم بأنه تعالى عزيز يستلزم ذلك تحققهم أنهم متحققون بمعاقبته له، وعدم إفلاتهم منه؛ لأن العزيز لا ينجو من يناوئه، وأما الحكيم فيقول: فيحتمل أنه المحكم للأمور، ومناسبة الحكمة هنا مع العزة أن المتقن للأمور، الذي يتقن أموره سبحانه وتعالى، وأنه من حكمته أن مستحق العقوبة لا يفلت منه سبحانه وتعالى، فيكون الكلام هنا وعيدا من الله جل وعلا، وإلا فإن الناس كلهم يعلمون أن الله عزيز حكيم.

فإذا جاءتك هذه الآية فقلت: ﴿ ...فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ ﴾ يقال لك: أنا أعلم أن الله عزيز حكيم، يقال له: لا، عزيز أنه لا يفلت من يخالفه، وأن عقابه متحقق، وحكيم قال: من حكمته سبحانه وتعالى أن مستحق العقوبة لا يتركه سبحانه وتعالى، بل هو

داخل في الوعيد إن شاء عذبه في الدنيا أو في الآخرة، وإن شاء عفا عنه إن كان مؤمنًا، ولكنه داخل في الوعيد بعذاب الله تعالى، هل فهمت الآيتان معا؟

الآية الثالثة: سبحان ربك رب العزة عما يصفون

وقد أشرنا إليها في التفسير الإجمالي للآيات وهي قوله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ﴾ [الصافات: ١٨٠- ١٨٢] وهي لصيقة بالآيتين اللتين ذكرنا، وتبين أن العزة إن تحققت اكتمل للمرء الكمال الإنساني في الدنيا، وكذلك الكمال الرباني في الآخرة؛ حيث جمعت هذه الآية ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ ﴾ [الصافات: ١٨٠] أصناف الكمالات التي يسعى إليها المؤمنون؛ ليكونوا متصفين بهذه الصفات من صفات الله تعالى، على قدر جهدهم واجتهادهم، وعلى قدر فتح الله تعالى عليهم إن رآهم يستحقون شيئا يفتح به عليهم، فإن الله لا يتأخر لحكمته على أن يفتح عليهم.

قوله: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ ﴾ [الصافات: ١٨٠] وهو خلاصة ما حوته السورة، بل خلاصة جامعة[1]: من تنزيه الله تعالى، وتأييده رسله، فجمعت: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ﴾ [الصافات: ١٨٠- ١٨٢] تنزيه الله تعالى، والثناء على الرسل والملائكة، وحمد الله على ما سبق ذكره من نعمة على المسلمين من هدى ونصر وفوز بالنعيم المقيم.

وهذه المقاصد الثلاثة هي أصول كمال النفوس في الآجل والعاجل، فكمال النفس الذي يسعى إليه المؤمنون بمعرفة صفات الرب وتوحيده ودعائهن واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم، وسلوك مسلكه في كل أحواله ومعاملاته وعباداته - جمعتها هذه الآية بل جمعت

---

(١) انظر: التحرير والتنوير– الطاهر بن عاشور– ج: ٢٣، ص: ١٩٨ – الدار التونسية للنشر.

المقاصد الثلاثة، وهي أصول كمال النفوس في العاجل والآجل؛ لأن معرفة الله تعالى بما يليق به، معرفة الرب بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، وما يليق بالله تعالى من هذه المعرفة التي تستدعي التوحيد والدعاء، وتستدعي متابعة النبي - هذه المعرفة تنقذ النفس من الوقوع في مهاوي الجهالة، معرفة الرب - لا شك - تنقذ النفس من الجهالة والوقوع في مهاويها المفضية إلى الضلالة فسوء الحالة في الدنيا والآخرة، وإنما يتم - هذا الكمال - بتنزيهه سبحانه وتعالى عما لا يليق به جل وعلا، وهو التوحيد الذي قطعنا فيه شوطا، فأشار قوله ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ ...﴾ [الصافات : ١٨٠] إلى هذا التنزيه، وأشار وصف رب العزة إلى التوصيف بصفات الكمال ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ ...﴾ [الصافات : ١٨٠] إلى هذا التوحيد المتعلق بالربوبية، والعزة إلى التوصيف المتعلق بالأسماء الحسنى، وهذا التنزيه المتعلق بالربوبية والأسماء الحسنى يكتمل بالتوحيد الذي دعت إليه الرسل فقال: ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ ﴾ [الصافات : ١٨١].

وقوله: ﴿ ... رَبِّ ٱلْعِزَّةِ ...﴾ يشير إلى التوصيف بصفات الكمال؛ فإن العزة تجمع الصفات النفسية، والصفات المتعلقة بالربوبية؛ لأن الربوبية هي كمال الاستغناء عن الغير، ولما كانت النفوس - وإن تفاوتت في مراتب الكمال - لا تسلم من نقص أو حيرة كانت في حاجة إلى مرشدين ويبلغونها مراتب الكمال بإرشاد الله تعالى، وتلك الواسطة هي الرسل، فكانت هذه الواسطة كذلك غاية من الله تعالى للناس ليصلوا إليه، وليتعرفوا عليه، وليحبوه جل وعلا، وليقبلوا على توحيده، فكان أن سلم عليهم سلام سلامهم من وصف ربهم بصفات الكمال السالمة التي لا نقص فيها.

وتفسير آخر يقول: وسلم على المرسلين بسلامة ما وصفوا به ربهم من الصفات، فكانوا أن استحقوا هذا السلام بتلك السلامة، وكانت غاية ذلك - أي غاية هذه المعرفة بالرب وإرسال الرسل ليعلموا الناس ويرشدوهم إلى هذه المعرفة - كانت غايتها هي بلوغ الكمال في الدنيا والفوز بالنعيم الدائم في الآخرة.

وهذان الأمران، نعمة تستوجب على الناس حمد الله تعالى، نعمة إرسال الرسل تستوجب حمد الله، وهذه النعمة من الله نفسه تستوجب أن يحمد الناس ربهم بأن عرَّفهم، وتحبب إليهم بصفاته، بل ولم يقتصر على ذلك فأرسل الرسل لتعرفهم ربهم، وليعلموا من

صفاته ما يبلغ كمالهم وفوزهم في الأولى والآخرة. فكان الكمال الثالث هو حمد الله تعالى على ذلك الذي فعله بهم، وعلى تلك الصنائع والمعروف التي لا تقدر؛ حيث كانت سبب نجاتهم في الدنيا والآخرة، لذلك يقولك: وتلك نعمة تستوجب على الناس حمد الله تعالى على ذلك؛ لأن الحمد يقتضي اتصاف المحمود بالفضائل ، ويقتضي إنعامه بالفواضل، وأعظم هذا كله نعمة الهداية بواسطة الرسل، فهم المبلغون عن الله تعالى إرشاد الخلق إلى الله تعالى.

وأما كونه سبحانه وتعالى رب العزة، أي مالك هذه العزة، المنفرد بها حقيقية؛ إذ لا يملك العزة على الحقيقة إلا هو، ولا يملك العزة الحقيقية إلا هو سبحانه وتعالى، وهي العزة التي لا يشوبها افتقار، فإضافة رب إلى العزة على معنى لام الاختصاص، بمعنى أن العزة الحقيقية التي لا يشوبها شيء هي لله تعالى، مختصة بالله تعالى، كما يقال: صاحب صدق أي لمن اختص بالصدق، وكان عريقا فيه، والتعريف في العزة كالتعريف في الحمد، تعريف للجنس، يقتضي انفراده تعالى به؛ لأن ما يثبت لغيره عندما يقول: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ ...﴾ أن غيره لا عزة له؛ إذ رب العزة كلها هو الله تعالى، فلا عزة لغيره، كما أنه لا حمد لغيره على الحقيقة، فهذا كما يقول تعريف الجنس، أي كل هذه العزة وجنس هذه العزة لله تعالى، وبالتالي عزة غيره ليست موجودة بل هي عدم، كما تقدم.

وسلام على المرسلين، كلمة سلام فيها تنكير للتعظيم، أي: وسلام عظيم لا يقدر قدره أحد، لا يستطيع أن يصفه أحد؛ لكونهم المبلغين عن الله تعالى.

الآية الرابعة : ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم

الآية الكريمة: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [البقرة : ١٢٩] والمتبادر أن الرسول كان يتخير من الأسماء الحسنى المناسب للاستجابة بدعائه، فإن دعا الله تعالى بالمغفرة فإن يدعوه بأنه الغفور، أو طلب منه الرزق فإنه يدعوه بأنه الرزاق، أو إن طلب منه القوة والمنعة فإنه يدعوه بأنه القوي القادر، إلى آخر هذا المعنى، فلا يمكن مثلا أن يدعوه بالرزق ويقول له: إنك أنت الغفور الرحيم مثلا، أو أن يقول له: إنك أنت الملك القدوس السلام، ولذلك وردت هذه

المعاني حتى يستخدمها المرء عندما يدعو ربه بأي من الأدعية التي يود أن يحصلها من الله، أو بأي أثر من الآثار التي يريد من الله أن يظهرها فيه، وأن يزكيه بها.

ولكن حين ننظر في هذه الآية: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ وبالرجوع إلى الكلام الذي اشرنا إليه آنفا، فإن تلاوة الآيات والتزكية وتعليم الكتاب والحكمة يناسبه أن يدعو الله بأنه عزيز حكيم، فلما دعا بهذه الدعوات وختمها بأنه العزيز الحكيم كأنه يقول: اغفر لي إنك أنت الغفور الرحيم، زكني إنك أنت العزيز الحكيم، أو علمني الحكمة إنك أنت العزيز الحكيم، أو علمني وفقهني وارزقني تلاوة كتابك إنك أنت العزيز الحكيم.

فقوله: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ ...﴾ هذه دعوة إبراهيم عليه السلام - لم يقل: وابعث لهم رسولا، إنما قال فيهم رسولا ثم أكدها بمنهم ليخرج من بينهم، أي من قريش نفسها، من العرب أنفسهم، من أبناء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، لا يأتيهم رسول من الخارج كرسل بني إسرائيل مثلا، وذلك تشريف لهم، وحمل لهم على الإيمان به وتصديقه واتباعه، وأن يعلموا أن الخير في أن يؤمنوا بما جاء، وأن يجاهدوا تحت لوائه، وأن يدعوا بدعوته، وليعلموا كذلك أن تزكيتهم وقربهم من الله ونجاتهم في الآخرة سبيلها محبة هذا النبي وطاعته واتباعه صلى الله عليه وسلم؛ لذلك قال: ﴿ ... وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ ...﴾.

يقول[١]: ومعنى ﴿ ... يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ ...﴾ أي يقرأ عليهم آياتك قراءة التذكير، وهذا فيه إشارة إلى أنه يأتيهم بكتاب فيه شرع من الله تعالى ﴿ ... يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ ...﴾ كأنه صلى الله عليه وسلم يأتيهم بكتاب قد شرعه الله لهم، يبين لهم فيه هذه الآيات، والآيات جمع آية، والآية هي الجملة من القرآن الكريم، سُمِّيت آية لدلالتها على صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - بمجموع ما فيها من دلالة صدور مثلها من أُمِّي لا يقرأ ولا يكتب.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير– الطاهر بن عاشور– ج: ١، ص: ٧٢٣ – الدار التونسية للنشر.

وما نُسجت عليه تلك الآيات الكريمات من نظم، أعجز الناس عن الإتيان بمثله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء : ٨٨] ﴿... قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ ...﴾ [يونس : ٣٨] وهي أقصر سورة في القرآن وقع بها التحدي.

فلما صارت تدل على صدق الرسول، ولما صارت معجزة لا يستطيع أن يأتي البشر بمثلها كانت هذه الآية دالة على أنها من الله تعالى، فلما نُسجت هذه النسج طلبت من الناس حينئذ توحيد الله كما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولما اشتملت عليه هذه الآيات من الدلالة القاطعة على توحيد الله تعالى، وكمال صفاته، دلالة لم تترك مسلكًا للضلال في عقائد الأمة، بحيث أمنت هذه الأمة من الإشراك، قال صلى الله عليه وسلم في خطبة حجة الوداع: (**إن الشيطان قد يئس أن يعبد في بلدكم هذا**)[1].

ثم نلاحظ جملة المضارع في قوله: ﴿... يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ...﴾ وهذا دليل على تكرر هذه التلاوة، التي ينبغي أن يتعلمها المرء منها أيضا معنى من معاني العزة؛ لأنه لما طلب إبراهيم عليه السلام من ربه أن يبعث فيهم رسولا على يتلو عليهم آياته ، دل على أن تلاوة هذه الآيات تصل بهم إلى هذه الحال الحسن، فجيء بالمضارع للإشارة إلى أن هذا الكتاب تتكرر تلاوته، وأن تكرر التلاوة يفيد هذه العزة، وتلك الحكمة التي يقول عنها: والحكمة العلم بالله تعالى، ودقائق شرائعه، وهي معاني الكتاب وتفصيل مقاصده، فهذا تفسير الحكمة عند ابن عاشور.

---

(١) أخرجه الترمذي (٤٦١/٤ ، رقم ٢١٥٩) ، وقال: حديث حسن صحيح، ولفظه (عَنْ سليمان بن عمرو بن الأحوص قال: سمعتُ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول في حَجَّةِ الوداع للناس : «أيُّ يوم هذا ؟» قالوا : يومُ الحجِّ الأكبر ، قال : «فإن دماءَكم وأموالَكم وأعراضكم بيْنَكُمْ حرامٌ كحُرمَة يومكم هذا ، ألا لا يَجني جانٍ على ولده ، ولا مولودٌ على والده ، ألا وإن الشيطان قد أيس أن يُعْبَدَ في بلدكم هذا أبدًا ، ولكن سيكونُ له طاعةٌ فيما تحتقرون مِنْ أعمالكم ، فسيَرْضى به») .

ويستكمل: وهذه الدقائق من الشرائع هي معاني الكتاب، وهي تفصيل مقاصده، فمن تعلم حينئذ العلم لله تعالى، وعلم من الكتاب معرفة المعاني وتفصيل المقاصد، فإنه قد أضاف الحكمة التي طلبها إبراهيم لتعليم النبي صلى الله عليه وسلم، وكأنه يقول: لا يكون المرء حكيما إلا أن يعلم هذا العلم بالله تعالى، وأن يعلم دقائق شرعه، وتفصيل كتابه، ومقاصد هذا الكتاب، التي بلغها النبي صلى الله عليه وسلم.

وكل ذلك لا يحصله إلا بأن يكون عزيزًا بالله تعالى، قد تحقق من معاني العزة، أو قد تحقق بالعزة من ضمن ما تحقق، أي من أسماء الله الحسنى وصفاته العليا.

وعن مالك رحمه الله تعالى: الحكمة: معرفة الفقه والدين والاتباع لذلك، أي أن يعرف الدين والفقه، وكأنه تؤول إلى الكلام الأول الذي أشار إلى معنى الحكمة، وعن الشافعي رحمه الله تعالى ، الحكمة سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ ... وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ...﴾ [البقرة : ١٢٩] أي يعلمهم الكتاب والسنة، كما ذكر المولى سبحانه وتعالى لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ ...﴾ [الأحزاب : ٣٤] آيات الله أي كتاب الله، والحكمة أي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكلاهما - أي مالك والشافعي -ناظر إلى عطف الحكمة على الكتاب، وهذا يقتضي المغايرة، أن الكتاب غير الحكمة، أو فيه زيادة معنى.

فكيف يحصل الناس حكمته بعزته سبحانه وتعالى، وكيف يفيض عليهم عطاء من الحكمة لينتقلوا عن هذه الأحوال التي هم فيها إلى تلك الأحوال من الأحوال العالية لهؤلاء الذين ظهرت عليهم آثار أسمائه وصفاته سبحانه وتعالى؟

يرتبط ذلك بقوله: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ ...﴾ [البقرة : ٢٦٩] فإذا كان قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ...﴾ وأن ذلك بسبب العزة التي يمكن أن يصلوا إليها، يقول هنا: ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾ [البقرة : ٢٦٩] أي لو قلنا: يزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة؛ لأن من يؤتى الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا وما

يذكر إلا أولو الألباب، علم تحقيق هذا الخير العظيم في وصول المرء إلى هذه الدرجة، وعلم كيف أن الله تعالى أخرج هؤلاء العرب من جاهليتهم إلى أن يكونوا حكماء بهذه الطريقة، وكيف وهبهم هذا الخير الكثير الذي ذكر، وكيف اختصهم به سبحانه وتعالى، وكيف فتح الطريق لمن بعدهم أن يكونوا على هذا الحال، لذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝ ﴾ [الجمعة : ١] وبعدها قال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ ﴾ [الجمعة : ٢] فهذه الحكمة التي قد أتاها سبحانه وتعالى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ ﴾ [الجمعة : ٣] أي وآخرين من هؤلاء المؤمنين يؤتيهم سبحانه وتعالى ويعلمهم الكتاب والحكمة، أي يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة.

إذن قد فتح الباب لأمثالنا من الضعفاء والمساكين - وهم مقصرون وما زالوا مبتعدين عن أن يقفوا بهذا الباب - ليحصلوا ذلك العطاء، وليدخلوا تحت هذه الدعوة المباركة لإبراهيم، وليدخلوا تحت اختصاص الله لهم، إن الله قد اختصهم واصطفاهم واجتباهم لأن يكونوا كذلك وهم لا يريدون، وقد فضلوا الدنيا وما عليها على مثل هذا الحال وتلك التزكية والحكمة !

يقول[١]: هذه الجملة اعتراض وتسجيل لما تضمنته آيات الإنفاق من المواعظ والآداب وتلقين الأخلاق الكريمة، مما يكسب العاملين به رجاحة العقل واستقامة العمل، أي هذه الآيات تأتي اعتراضا في النصف بين الآيات السابقة من آيات الإنفاق، وآيات الإنفاق السابقة - كما تعلمون - التي جاءت في هذه السورة الكريمة ذكرها المولى سبحانه وتعالى إلى قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا

(١) انظر: التحرير والتنوير– الطاهر بن عاشور– ج: ٢٨، ص: ٢١١ – الدار التونسية للنشر.

﴿ٱلْخَبِيثَ ...﴾ [البقرة : ٢٦٧] إلى آخره، حتى وصل إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ ...﴾ [البقرة : ٢٩٥ - ٢٦٩] لذلك يقول: جاءت الآية معترضة بين الآيات لما تضمنته آيات الإنفاق السابقة من المواعظ والآداب وتلقين الأخلاق الكريمة، مما يكسب العاملين به أي بهذه الأخلاق والآداب رجاحة العقل واستقامة العمل.

فالمقصود في هذه الآية التنبيه إلى نفاسة ما وعظهم الله به، أي لما قال لهم هذه المواعظ وهذه الأخلاق وهذه الآداب، ثم قال: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ ...﴾ [البقرة : ٢٦٩] كأنه يبين أن ما يترتب على هذه الأخلاق والمواعظ والآداب التي ذكرها سبحانه وتعالى تنبيه إلى عظم هذه الأخلاق : لأنه لا يتبعها ولا يقوم بها إلا من اختص بالحكمة من الله تعالى.

إذن لما قال سبحانه وتعالى: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ ...﴾ [البقرة : ٢٦٩] بعد قوله: ﴿... وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ ...﴾ [البقرة : ٢٦٨] دل على أن المواعظ التي يعظهم بها من النفاسة بمكان؛ لأن هذه المواعظ من استقام عليها دل على رجحان عقله، وأن الله هو الذي أعطاه ذلك الرجحان، وأن الله هو الذي ألهمه تلك الحكمة، ووهبه إياها، فكانت هذه المواعظ - طالما انبنى عليها ذلك الوصف العظيم من الله بأن أصحابها ممن أوتي الحكمة - دل على أن هذه المواعظ في أعلى درجات النفاسة، لذلك يقول: فالمقصود التنبيه إلى نفاسة ما وعظهم الله به، وتنبيهم إلى أنهم قد أصبحوا به حكماء بعد أن كانوا في جاهلية جهلاء، والمعنى: هذا من الحكمة التي آتاكم الله تعالى، فهو يؤتي الحكمة من يشاء، وهذا كقوله تعالى: ﴿... وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ ...﴾ [البقرة : ٢٣١].

قال الفخر الرازي في تفسير هذه الكلمات: على أن الأمر الذي لأجله وجب ترجيح وعد الرحمن على وعد الشيطان، فالشيطان يعدهم الفقر ويأمرهم بالفحشاء، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا - لذلك يقول: نبه على أن الأمر الذي لأجله وجب ترجيح وعد الرحمن على وعد الشيطان، وأن وعد الرحمن سبحانه وتعالى ترجحه الحكمة والعقل، ووعد الشيطان ترجحه

الشهوة والحس، من حيث إنهما يأمران بتحصيل اللذة الحاضرة، ولا شك أن حكم الحكمة هو الحكم الصادق المبرأ من الزيف، وحكم الحس والشهوة يوقع في البلاء والمحنة، وحكم الحس والشهوة حكم الشيطان، . لذلك يقول: فتعقيب قوله: ﴿... وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً ...﴾ [البقرة : ٢٦٨] بقوله: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ ...﴾ [البقرة : ٢٦٩] إشارة إلى أن ما وعد به تعالى من المغفرة والفضل إنما هو من الحكمة، وأن الحكمة كلها من عطاء الله يؤتيها من يشاء.

كل ذلك نقوله في الحكمة؛ حتى يتعلم الناس الانتقال من الشهوة والغضب، ومما هم فيه من عدم رجاحة العقل في ترجيح أوامر الرحمن، واستقامة العمل في ترجيح أوامره على وسوسة الشيطان والشهوات، وأن هذه الوسوسة وتلك الشهوات قد ملنا إليها لعدم اتصاف المؤمنين بتلك العزة التي يفتح الله تعالى عليهم بها باب الحكمة.

ثم يردف الشيخ الكلام في الحكمة وقدم الحكمة والكلام عليها، وأنها من أهم مهمات العالم منذ الزمان القديم، يقول: والحكمة إتقان العلم وإجراء الفعل على وفق ذلك العلم، وهو العلم بالله، والعلم بدقائقه تفاصيل الشرع، والعلم بمقصود هذا الشرع، وأن يجري بعد ذلك أفعاله على وفق هذا العلم العظيم الذي قد أتاه الله تعالى: حينئذ يكون ممن اختصهم الله بالحكمة، وأعطاهم سبلها، وسلك بهم طريقها، وأتاهم منها حظا يكون المرء به قريبا من الرب.

والحكمة مشتقة من الحكم، والحكم هو المنع؛ لأنها تمنع صاحبها من الوقوع في الغلط والضلال، عندما يكون راجح العقل، مستقيم العمل، قد انبنى ذلك على العلم، ووافق فعله ذلك العلم وتبعه، وكان علمًا بالله تعالى ودقائق الشرع ومقصوده كان على هذا الحال الحسن تمنع صاحبها من الوقوع في الغلط والضلال، قال تعالى: ﴿... كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ...﴾ [هود : ١] ومنه سميت الحديدة التي في اللجام وتجعل في فم الفرس يلجمها به؛ حتى لا تسرع، أو حتى تقف، أو حتى تمتنع عن الفعل الذي لا يريده راكبها سميت حَكَمَة.

ومن يشاء الله تعالى إيتاءه الحكمة هو الذي يخلقه مستعدا إلى ذلك بسلامة العقل واعتدال القوى؛ حتى يكون قابلا لفهم الحقائق، منقادا إلى الحق إذا لاح له، لا يصده عن ذلك هوى ولا عصبية ولا مكابرة ولا آنفة، ثم ييسر له سبحانه وتعالى أسباب ذلك من حضور الدعاة، وسلامة البقعة من الظلمة أو العصاة، فإذا انضم إلى ذلك توجهه إلى الله تعالى بأن

يزيد أسبابه تيسيرًا وأن يمنع عنه ما يحجب عنه الفهم فقد كمل له التيسير، وصار على هذا الطريق وهذا التحصيل بتلك الحكمة.

أقسام الحكمة ومعانيها

والحكمة قسمت أقسامًا على حسب اختلاف المواضيع باختلاف الأسباب باختلاف الأماكن، فهي عند الشرق - الهنود - البراهمة وعند أهل الصين وعند بلاد فارس حكمة زرادتش، وفي القبط - سكان مصر القديمة قبل المسيح بآلاف السنين - ثم انتقلت حكمة هؤلاء الأمم الشرقية إلى اليونان وهذبت ونقحت وغيره، وانقسمت إلى قسمين: الحكمة العملية، والحكمة النظرية.

والحكمة العملية تنحصر في تهذيب النفس، وتهذيب العائلة وتهذيب الأمة، هذه الحكمة القديمة، فالأول: تهذيب النفس وهو علم الأخلاق، وهو التخلق أو الاتصاف بصفات العلو الإلهي بحسب الطاقة البشرية، والثاني: علم تدبير الأسرة وكونها النواة الأولى لاستقامة المجتمع، والثالث: علم السياسة المدنية في سياسات الدولة وغيرها.

والحكمة في نظر الدين أربعة فصول:

أحدها: معرفة الله تعالى حق معرفته، وهو علم الاعتقاد الحق.

والثاني: ما يصدر عن هذا العلم به سبحانه وتعالى من كمال النفس، وهو علم الأخلاق.

والثالث: تهذيب العائلة واستقامة أمرها، وهو قوله: ﴿ ... قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا ...﴾ [التحريم : ٦] إلى آخره من تهذيب النفس ومن العمل على ذلك مع أسرته وأبنائه.

والرابع: تقويم الأمة وإصلاح شئونها، وهو المسمى في الشرع علم السياسة المدنية، وهو مندرج في أحكام الإمامة والأحكام السلطانية، ودعوة الإسلام فيه - أصوله وفروعه - لا تخلو من شعبة من شعب هذه الحكمة، وقد ذكر الله تعالى الحكمة في مواضع كثيرة من كتابه، كان كل مرادا به ما فيه صلاح النفوس من النبوة والهدى والإرشاد ، وقد كانت الحكمة تطلق عند العرب على الأقوال التي فيها إيقاظ للنفس ووصايا بالخير، فترى شعراء الجاهلية مثلا - كثيرًا -

ينطقون بهذه الجمل من جمل الحكمة في أشعارهم كزهير بن أبي سلمى وغيره من الشعراء، وفيها إخبار بتجارب السعادة والشقاوة، وكليات جامعة للآداب.

أما في كلام الله تعالى فقد ذكرنا أن الحكمة في هذه المواضع إنما هي صلاح النفس بالنبوة والهدى والإرشاد وإيقاظ النفس ووصاياها بالخير، والإخبار بتجارب السعادة والشقاوة، والكليات الجامعة للآداب والأخلاق وذكر الله في كتابه سبحانه وتعالى، وقد جاء ذكر لقمان بشيء من هذه المعاني وتلك الوصايا في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ ...﴾ [لقمان : ١٢].

والحكيم - في نهاية الكلام - هو النابغ في هذه العلوم أو في بعضها، فبحكمته يعتصم من الوقوع في الخطأ والضلال والغلط بمقدار مبلغ تلك الحكمة، وفي الغرض الذي تتعلق به هذه الحكمة، فبمقدار الحكمة بمقدار ما يمتنع من الضلال، وبغرض الحكمة إن كانت في الآداب في الأخلاق في الساسة في الإلهيات فإنه بمقدار هذه الحكمة الذي تتعلق بتلك الحكمة يحصل هذه الأمور التي ذكرناها في مقصودات الحكمة.

قواعد الحكمة التي تحمي من الوقوع في الغلط والضلال

﴿ ... وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ ...﴾ [البقرة : ٢٦٩] وهو الذي شاء الله تعالى إيتاءه الحكمة، والخير الكثير منجر إليه، من أين؟ قال: من سداد الرأي والهدي الإلهي، ومن تفاريع قواعد الحكمة التي تعصم من الوقوع في الغلط والضلال بمقدار التوغل في فهمها واستحضار مهماتها؛ لأننا إذا تتبعنا ما يحل بالناس من المصائب نجد أن معظمها من جراء الجهالة والضلالة وأفن[١] الرأي، أي معظم ما نعاني منه اليوم، والجهالة تأتي للتعصب، تأتي لعدم الفهم، تأتي للأخلاق السيئة، تأتي للتقصير، تأتي لتفريط، تأتي للشهوات، تأتي للنوم،

(١) انظر القاموس المحيط مادة أفن: أَفَنَ النَاقَةَ يَأْفِنُها: حَلَبَها في غيرِ حِينِها، فيُفْسِدُها ذلك، والمأفونُ: الضَّعيفُ الرأيِ والعَقْلِ، والمُتَمَدِّحُ بما ليس عنده،وأُفِنَ الطَّعامُ، كعُنِيَ، يُؤْفَنُ أفنا فهو مأفونٌ: وهو الذي يُعْجِبُكَ ولا خَيْرَ فيه.

تأتي لمخالفة الشرع، وكل ذلك من قلة الحكمة التي تفكر فيها المرء، وتعلم منها عن الله، وفي نفس الوقت فإنها بمقدار ذلك بمقدار ما يقع المرء في الغلط والضلال.

وبعكس ذلك نجد ما يجتنيه الناس من المنافع والملائمات مجرد كله من المعارف والعلم بالحقائق، ولو أننا علمنا الحقائق كلها لاجتنبنا كل ما نراه موقعا في البؤس والشقاء، أي لو تتبع المرء هذا العلم عن الله ودقائق الشرع ومقصود الشرع، وعلم هذه المقصودات من مقصودات الحكمة الأربعة، وصار هذا المعنى هو الحاكم له فيما يكون من علم، وفيما يتبعه العمل بعد ذلك لانتقل إلى الاستقامة ورجاحة العقل، ووجد نفسه شيئا آخر لا تقف له الشهوات فينساق وراءها، ولا تقف له المعاصي فيقع فيها، ولا تتعرض له الشبهات فتدخل في قلبه، بل قد حسمته الحكمة ومنعته وعصمته من أن يقع في كل ذلك.

وتلك الحكمة كلها إنما هو مردود إلى الله تعالى ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾ [البقرة : ٢٦٩] لذلك قال: ﴿ ... وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾ [البقرة : ٢٦٩] تذييل للتنبيه على أن من شاء الله سبحانه وتعالى إيتاءه الحكمة هو صاحب العقل وأن تذكر الحكمة واستصحاب إرشادها بمقدار استصحاب العقل وقوته.

واللب في الأصل خلاصة الشيء وقلبه، وأطلق هنا على عقل الإنسان لأنه أنفع شيء فيه، وهذا هو الجزء المهم، كيف يحكم المرء عقله في معرفة الحكمة لا في إيجاد هذه الحكم وإيجاد هذه الأحكام، والوقوف في هذه الأفهام بهذه الطريقة السيئة التي لا تزيد عن كونه مغرورا بعلمه، مغرورا بعقله، مغرورا بفهمه، يرى عقله هو الذي ينبغي أن يسير عليه، ويرى عقله هو الذي ... كلا إذا لم يكن هذا العقل من فضل الله تعالى في إيتاء الحكمة فإنه عرضة لهذا الزيغ وهذا الضلال، وهذه الجهالة، وهذه الحالة التي نحن فيها اليوم.

يقول: والتزكية التطهير من النقائص، وأكبر النقائص الشرك بالله تعالى، وفي هذا تعريض بالذين أعرضوا عن متابعة القرآن، وأبوا إلا البقاء على الشرك، وكأنه يقول بما يفيد المؤمنين: أن الإعراض عن القرآن وفهمه ومعرفة المقصود منه وتعلم ما فيه من التوحيد والأمر والنهي، ثم معرفة قصص الأمم السابقة وما يستفيد منها المرء، وكذلك العلم باليوم الآخر وما

يستفيده من المنع والزجر عن الوقوع فيما يخالف أمر ربه، أو يعصي به ربه سبحانه وتعالى، وبما فيه من النعيم للقادمين عليه، كل ذلك يحمل على الإيمان والعمل الصالح، ويحمل على الاستقامة، إذا ما تفكر المرء بهذه الطريق علم كيف يحصل تلك الحكمة التي تعصمه من الزيغ، والتي جاء بها النبي صلى الله عليه وسلم.

وقد جاء ترتيب الجمل في الذكر على حسب ترتيب وجودها؛ لأن أول تبليغ الرسالة تلاوة القرآن، ثم يكون بعد ذلك تعليم معانيه، كما قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝ ﴾ [القيامة : ١٨- ١٩] ثم بعد العلم تحصل التزكية، وهي في العمل بإرشاد القرآن الكريم كما ذكر.

وقوله: ﴿ ...إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ ﴾ لأنه لا يغلبك أمر عظيم سبحانه وتعالى لا يغلبه ولا يمتنع عليه، ولا يصعب عليه أمر عظيم، لماذا؟ لأنه العزيز، ثم إنه لا يعزب عن علمه وحكمته شيء، فيعلم كيف يضع الحكمة عند من يستحقها، وكذلك الرحمة عند من يستحقها، وكأنه ينبه على المؤمنين أن الله تعالى لعزته لا يمتنع عليه شيء، ولا يكبر عليه شيء، بل كل شيء يقول له كن فيكون، وإن وقفت ببابه أعطاك ما تتخيل أنه عظيم وكبير ولا يمكن أن تحصله.

فتتعلم أنه لا يعطي أي أحد وإنما عندما يعطي سبحانه وتعالى فإنه يعطي على الحكمة ، التي هي تدل على اسم من أسمائه وهو الحكيم سبحانه وتعالى، ولا يعطي الحكمة أي أحد وإنما يعطيها من يشاء ممن يستحقها، ويعطي من يشاء على قدر ما يستحق بعلمه سبحانه وتعالى، الذي لا يعزب عنه شيء، وهذا نعي على المؤمنين أن ينظروا فيما أعطاهم الله تعالى، وفيما اختصهم به سبحانه وتعالى من ذلك الفضل والخير الذي ذكر جل وعلا: ليروا ماذا حصلوا منه؛ حتى تثبت أقدامهم، وتستقيم أعمالهم، وتتنور بصائرهم، ويستطيعون السير إلى الله تعالى، وهذا هو المهم الذي يفكر فيه المرء، هل هو قد حصل شيئا من ذلك أم لا؟ هل هو أهلٌ لأن يحصل من ذلك شيئا؟ هل هو أهلٌ أو أنه لا زال بعيدا عن تحصيل ذلك؟ إن علم ذلك وحاول وجاهد نفسه أن يحصله فالله تعالى لا يتعاظمه شيء، ولا يكبر عليه شيء، بل يستطيع أن يعطيك كل شيء سبحانه وتعالى يليق بك وفقا لحكمته جل وعلا.

الآية الخامس: أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم

قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ [التوبة : ٧١] وهي قريبة من معنى الآية السابقة، ونشير إليها حتى تكتمل بعض أطراف من الموضوع. لما علمنا أن من آثار العزة التزكية وإرسال الرسل بهذه الحكمة، وتلاوة الكتاب، والعلم بالله تعالى، وفهم دقائق كتابه ومقصود هذا الكتاب من الأخلاق والآداب والمواعظ التي سيقت لتحقيق ذلك، وحمل المؤمنين عليه، وما يقوم بها إلا أولو الألباب، فهذه الآية تبين ذلك أيضًا.

وهي بعض التفصيل في هؤلاء الذين يستحقون هذه الرحمة، فإن كانت التزكية أعم من الرحمة فقد بينها، وإن كانت الرحمة أعم من التزكية فبينها.

وقوله: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ ...﴾ [التوبة : ٧١] يقابل قوله بعد ذلك في نفس السورة قبل بضعة آيات: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ ...﴾ [التوبة : ٦٧]، وهذا يعني أن الطائفة التي ينالها العفو من الله تعالى هي الملتحقة بالمؤمنين، لأن الآية تقول: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ ...﴾ [التوبة : ٦٧] ولم تقل: أولياء بعض، ولكن عندما ذكر المؤمنين قال: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ ...﴾ [التوبة : ٧١] يقول[1]: عبّر في جانب المؤمنين والمؤمنات بأنهم أولياء للإشارة إلى أن اللحمة الجامعة بينهم هي ولاية الإسلام، فهم فيه على السواء، ليس واحد منهم مقلدا للآخر ولا تابعًا له على غير بصيرة، لما في معنى الولاية من الإشعار بالإخلاص والتناصر.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير– الطاهر بن عاشور– ج: ١٠، ص: ٢٦٢ – الدار التونسية للنشر.

بخلاف المنافقين كأن بعضهم ناشئ من بعض في مقامهم، وهذا ذم لهم، كأنهم داخلون في بعضهم أو خارجون من بعضهم، متداخلون، لا إخلاص لهم ولا تناصر ولا ولاية ولا محبة، وإنما كأنهم شيء يدل على ذلك الاحتواش الذي يحتوشه أولئك من بعض فكأنه يقول: هم عصبة واحدة في السوء وفي الذم، وفي الظاهر والباطن الذي لا إخلاص فيه، وكذلك هذا الظاهر والباطن الذي لا إخلاص فيه لا يدل على التناصر والمحبة؛ لأنهم مراءون، إن أظهر شيئا فقد أخفى غيره، أو إن أخفى شيئا فقد أظهر غيره، على خلاف المؤمنين فهم مخلصون في الظاهر والباطن، لذلك فهم مخلصون في محبتهم، مخلصون في تناصرهم، مخلصون في معونتهم ومساعدتهم، ومخلصون في تجمعهم وتناصرهم.

ويزيد في وصف المؤمنين هنا: يقيمون الصلاة؛ لأن الصلاة هي أعظم المعروف، ويؤتون الزكاة، في مقابل المنافقين الذين يقبضون أيديهم، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ ... وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ...﴾ [التوبة : ٦٧] وقوله: ﴿ ... وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ...﴾ [التوبة : ٧١] في مقابل المنافقين أيضا في قوله: ﴿... نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ...﴾ [التوبة : ٦٧] وقوله: ﴿ ... أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ...﴾ [التوبة : ٧١] مقابل قوله سبحانه وتعالى: ﴿... فَنَسِيَهُمْ ...﴾ [التوبة : ٦٧] في المنافقين.

إذن المؤمنون يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، والمنافقون لا يقيمون الصلاة ولا يذكرون الله إلا قليلاً، ويقومون إليها كسالى، والمنافقون يقبضون أيديهم، والمؤمنون يطيعون الله ورسوله، وكل ذلك سبب عن عزة الله لهم، وعن تعززهم بالله جل وعلا، لذلك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم، و﴿ ... أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ...﴾ [التوبة : ٧١] مقابل ﴿... فَنَسِيَهُمْ ...﴾ [التوبة : ٦٧] للمشركين.

وقوله: ﴿ ... سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ...﴾ [التوبة : ٧١] السين هنا يقال: لتأكيد حصول الرحمة في المستقبل، فستقع لهم الرحمة في المستقبل، فحرف الاستقبال يفيد مع المضارع ما تفيد قد مع الماضي، كمال قال: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝ ﴾ [الضحى : ٥].

وذلك للإشارة على الدلالة على أن ما سيرد بعد اسم الإشارة صاروا أحرياء به من أجل الأوصاف المذكورة قبل الإشارة، كأنه يقول: أولئك الذين قد تحققت فيهم هذه الصفات سيكونون في محل رحمة الله تعالى، بمعنى أن هذه الصفات المتحققة فيهم سبب رحمتهم، ما قبل اسم الإشارة سبب فيما بعد اسم الإشارة الواقع جزاء لهم، فجزاؤهم أنهم سيرحمهم، لأنه قال: أولئك، بسبب ما قبل اسم الإشارة هو سبب الرحمة.

وجملة ﴿ ... إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٧١] تعليل لجملة ﴿ ... سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ...﴾ فهذه هي الآية، أي العزة والحكمة علة هذه الرحمة، أي لكونه عزيزا سبحانه وتعالى حكيما فسيرحمهم ، فما هي العلة لأن يرحمهم الله؟ قال: لأنه عزيز حكيم، كيف؟ قال: لأنه تعالى لعزته ينفع أولياءه، ولحكمته يضع الجزاء لمستحقه، كأن المستحق لهذا الجزاء - وهو الرحمة - أولئك الأشخاص الذين تحققت فيهم هذه الصفات، الله تعالى يقول: ﴿ ... إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أي سيرحمهم سبحانه وتعالى؛ لأنه عزيز، لأنه جل وعلا لعزته تلك ينفع أولياءه فيرحمهم سبحانه وتعالى. فعندما تقول: إن الله عزيز حكيم، كأنك تقول: سوف يرحمه الله؛ لأن الله عزيز، أي هذا الشخص يستحق الرحمة، والله يرحم أولياءه سبحانه وتعالى دون غيرهم.

فلماذا لم يقل: أولئك سيرحمهم الله إن الله غفور رحيم، وهي أنسب من عزيز حكيم هنا؟ قال: لأنه لعزته إنما ينفع أولياءه سبحانه وتعالى، ولما تحقق أولياؤه بهذه الصفات التي يجازيهم أحسن الجزاء عليها فإنه سبحانه وتعالى يرحمهم بهذه العزة منه؛ لأنه إنما ينفع أولياءه.

وهذه مسألة من أعظم المسائل، أن تتعلم كيف تصل إلى هذا الحال، أن تكون في محل أن يرحمك الله تعالى، وأن تكون من أوليائه فيختصك بهذه الرحمة؛ لأنه لا يختص بهذه الرحمة إلا أولياءه، وأنه بعزته سبحانه وتعالى ينفع أولياءه الذين جاهدوا على أن يتصفوا بصفاته سبحانه وتعالى اللائقة بالإنسان من صفات الله.

المقصر إذن في هذه الولاية لا يقول: أنا من أوليائه، وهو يعز أولياءه، فسيرحمهم، نقول: لا تقول أنا على هذا الحال، ولكن قل سأجاهد على أن أكون كذلك، والله المستعان، وهو سبحانه وتعالى لحكمته يضع الجزاء لمن يستحق هذا الجزاء، وإلا لمن يكن حكيما، لو وضع الرحمة عند غير أوليائه سبحانه وتعالى ورحمهم في المستقبل وتكررت الرحمة منه يكون

حكيما؟ إذا كان يرحم أعدائه فما بالك بأوليائه! أو إذا كان قد ترك أولياءه ولم يرحمهم أيرحم أعداءه أم أن يسلط عليهم عذابه ونقمته وينزله عليهم؟!

وقضية الرحمة يعلم المؤمنون اليوم أنهم في أشد الاحتياج إليها ليرتفع البلاء وتتنزل عليهم السكينة في دينهم ودنياهم وظاهرهم وباطنهم واعتقاداتهم وعباداتهم ومعاملاتهم ودعوتهم إلى الله تعالى، فمشكلتنا إذن في كيف يكون المرء متحققا بالعزة التي يرحم الله تعالى بها أولياءه؛ لأن الله تعالى من عزته ينفع أولياءه بكل وجوه النفع، وينزل عليهم كل ما يكون سبب سعادتهم في الدنيا والآخرة، إذا رأى المرء رأى نفسه هو المقصر في أن يحصل ذلك من الله تعالى، ثم يريد بعد ذلك رحمة الله واستجابة الدعاء وغير ذلك، قال له: لا، الحكيم يضع الجزاء لمستحقه.

الآية السادسة: خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب

قوله: ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ﴾ [ص: ٩] (أم) هنا كما يقول علماء العربية منقطعة للإضراب[١] وهو إضراب انتقال، فيضرب المتكلم عن الكلام السابق ليشعر بأن الكلام الآتي بعدها استفهام للإنكار والتوبيخ، أي إنكار لقولهم كأنه يقال: هم عندهم خزائن رحمة الله ؟!! كأنه ينكر عليهم بهذا الإضراب ويستخف بكلامهم ويوبخهم بهذا الاستفهام أي ليست خزائن فضل الله تعالى عندهم حتى يتصدوا لحرمان من يشاءون حرمانه من مواهب الخير، فإن المواهب من الله يهبها لمن يشاء يختار للنبوة من يشاء وللإيمان من يشاء ولغيره من يصطفيه، وليس الاختيار لهم حتى ينكروا ذكروا في الآية السابقة: ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ ﴾ [ص: ٨].

وتقديم الظرف (عندهم) للاهتمام لأنه مناط الإنكار، وهو كقوله تعالى: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ [الزخرف: ٣٢] قال سبحانه وتعالى: ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ﴾ ولم يقل: أم خزائن ربك عندهم. لأنه مناط الإنكار؛ لأنه ينكر عليهم أن يكون عندهم الخزائن

---

(١) انظر: التحرير والتنوير- الطاهر بن عاشور- ج: ٢٣، ص: ٢١٥ – الدار التونسية للنشر.

فهم يتكلمون وينكرون فهل عندهم خزائن الله حتى يعطوا من يشاءون؟ لذلك قال: ﴿ أَمْ عِندَهُمْ ﴾ وقدمها لتبين أنه ليس عندهم لا خزائن رحمة ربك ولا عندهم أي شيء آخر بل هم مملوكون لله مربوبون له لا يملكون اختيارًا ولا يملكون شيئًا من الله تعالى، بل إن شاء سبحانه وتعالى أخذهم أخذ عزيز مقتدر وإن شاء هداهم سبحانه وتعالى.

و"الخزائن": جمع خِزانة - بكسر الخاء - وهي البيت الذي يخزن فيه المال أو الطعام ويطلق كذلك على أي صندوق من خشب أو حديد أو غيره يكون فيه المال مخزونًا.

وعليه فلهذا المعنى الأخير شبهت رحمة الله بالشيء النفيس الغالي الذي يضعونه في الخزانة حفظًا له وخوفًا عليه وعدم تفريط فيه، لذلك شبهت رحمة الله بالشيء النفيس المخزون، وهو في نفس الوقت تطمح إليه النفوس، وهذه الخزائن يملكها هو - سبحانه وتعالى - فلا يعطي إلا بمشيئته، فلا يخرج منها إلا ما يشاء خازنها، وعلى ذلك يدل هذا الأمر على معنى الاختصاص بالله تعالى، وإذا نظرنا إلى هذا المعنى: أولئك سيرحمهم الله إذن كأنه سيخرج الله سبحانه وتعالى من خزائنه النفيسة هذا المكنون العظيم الذي يكون سبب رحمتهم ورفعتهم وسكينتهم وثباتهم على دينهم وسبب اختيارهم من عند الله من إيمان وعمل صالح وجهاد في سبيله ، وفي نفس الوقت نفهم أنه الله تعالى سيرحمهم بشيء له قيمته العظمى حتى كان نفيسًا عند الله تعالى.

فإذا نظر المرء إلى هذا المعنى علم معنى العزة إذن، وكيف أنه بنقصان العزة أو بقلتها يقل ويضعف هذا الشيء النفيس الذي يرحمنا الله تعالى به.

ومن ثم كان ما فيه المرء من حال ضعيف في الإيمان والثبات والبذل والبركة والدعوة إلى الله وغير ذلك مما يرحم الله تعالى به عباده في أنفسهم وأبدانهم فضلاً عن دينهم وأعمالهم وتقواهم وأولادهم وأموالهم ورفعتهم في هذه الدنيا على أعدائهم، إنما هو محتاج إلى هذه العزة التي قد فرطنا في معانيها ولم نأخذ بأسبابها، وكيف يوحد المرء ربه بها ويدعوه بها ويحبه بها حتى يظهر أثر تلك العزة عليه وعلى معاملته إخوانه، وعلى معاملته لغيرهم من خلق الله تعالى.

والعدول عن اسم الجلالة إلى الوصف (ربك) : لأن له مزيدًا من المناسبة للغرض الذي فيه الكلام، وهو إيماء إلى أن تشريفه إياه بالنبوة من آثار صفة ربوبيته فلم يقل سبحانه وتعالى:

أم عندهم خزائن رحمة الله. كما قال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُ ﴾ [التوبة: ٧١] بل قال: ﴿ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ﴾ وإضافة الرب إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- لتكريمه وتشريفه ورفع درجته، وكذلك يدخل في هذا الأمر كل من تحصل على رحمة الله دل على أنه مشرف من الله تعالى على قدر هذه الرحمة، ومشرف من الله سبحانه وتعالى على قدر ما وفقه لهذه العزة التي ينال بها الرحمة.

لذلك أتى بوصف الربوبية؛ لأن فيه مزيد مناسبة لصفة هذه الرحمة والتشريف بها من الله تعالى؛ حيث إن وصف الرب مؤذن بالعناية، عندما يقول: ربك. أي الذي خلقك ويعتني بك ورزقك وأعطاك ووهبك وعدلك وكفاك سبحانه وتعالى، فهذا الوصف يدل على عناية الرب بمربوبه بعبيده بمن هم تبع له سبحانه وتعالى، مؤذن بالعناية والإبلاغ إلى الكمال، أي يعلم المرء بأن الله معتن به، وأن الله سبحانه وتعالى يريد له أن يبلغه الكمال في هذه الصفات التي شرفه بها جل وعلا، ثم أجرى سبحانه وتعالى على الرب صفة العزيز لإبطال تدخلهم في تصرفه؛ لأنه إذا كان هو العزيز، ولم نقل: أم عندهم خزائن رحمة ربك الغفور الرحيم، لكان من الممكن أن يكون لهم حيلة أو كلام أو أن لهم ما يمكن أن يتدخلوا به في توزيع رحمة الله على خلقه، فلما قال: ﴿ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ﴾ كأنه يقول: لا تصرف لهم مع الله؛ إذ هو العزيز الممتنع القوي القادر الذي لا يغالبه أحد، ولا يمتنع عليه شيء جل وعلا، ولا يتدخل في كونه وأمره وتدبيره سبحانه وتعالى أحد ولا شيء.

إذن جاءت لفظة العزة هنا لتضيف لمعنى الرحمة هذا المعنى أنه يرحمهم؛ لأنه عزيز أي كما ذكرنا من قبل أن الله تبارك وتعالى يعرف مصلحة أوليائه فيقوم لهم بها، وفي نفس الوقت لأنه يبين أنه ليس أحد في هذا الكون يمكن أن يكون له تصرف أو تدخل أو عمل مع الله تعالى، وهو ما يفيد المرء من جهتين في هذا السياق، أن رحمة الله مختصة به لا يشاركه فيها أحد فيطمئن حينئذ قلب المرء إلى رحمة الله طالما كان عزيزًا به أعطي هذه الرحمة، والجهة الثانية أن العزة التي وصف الرب نفسه بها لا يغالبه فيها أحد وفي نفس الوقت إنما المؤمنون الذين إذا تحققوا بالعزة كان لهم هذا التشريف العظيم من الله.

ولا ينبغي أن يعلم الناس ما سبق عن اسم العزيز ثم لا تتغير لهم أحوال ولا أقوال ولا تعبدات في الظاهر ولا في الباطن أو لا تتغير لهم أخلاق وصفات العزة، فمتى يرجون رحمة الله النفيسة التي لا يحصلها أي أحد بما هو عليه ؟!

وقوله: ﴿ ٱلْوَهَّابِ ﴾ بعد العزيز في هذه الآية لإبطال جعلهم الحرمان من الخير تابعًا لرغباتهم؛ لأنه إن أرادوا أن يحرموا أحدًا من الخير فليس ذلك تابعًا لرغباتهم. لماذا؟ لأن الله هو الوهاب، يهب لمن يشاء ويعطي من يشاء ويهب لمن يشاء وهو الوهاب العزيز سبحانه وتعالى، يمتنع أن يتدخل أحد في تصرفاته ويمتنع أحد أن يحرم أحدًا من وهبه وإحسانه وجوده، ولو اجتمعت إذن الأمة على أن تمنع المرء من هذا الوهب من الله تعالى لما استطاعت إلى ذلك سبيلاً فيتيقن قلب المؤمن ساعتها أنه كلما كان المرء عزيزًا زاد في وهبه ومنع منه الحرمان سبحانه وتعالى، وأن المولى جل وعلا يريد له الخير ويريد به الخير بل هو سبحانه وتعالى يهبه على قدر وهب الله سبحانه وتعالى العظيم جل وعلا.

إذا اطمأن المرء إلى أن الله هو الذي يهبه جل وعلا ويعطيه ويمنحه وأن الله هو الذي يحسن إليه ويفتح عليه لم يهمه أحد في هذه الحياة الدنيا، ولا يهمه طلب أحد حرمانه أو رغبة أحد في حرمانه لا يهمه أن يرغب أحد في أن يحرمه، لن يحرمه شيئًا طالما أن الله هو الوهاب.

نستكمل: والعزيز هو الذي لا يغلبه شيء، والوهاب هو كثير المواهب، والنبوة وغيرها رحمة عظيمة فلا يخول إعطاءها إلا شديد العزة وافر الموهبة، فكأن هذه النبوة رحمة عظيمة من المولى جل وعلا ليس إلا لكونه شديد العزة وافر الموهبة وفي نفس الوقت لا يعطها إلا لمن تحقق بهذه الصفة وهي العزة والوهب سبحانه وتعالى، وأعظم من اتصف بذلك هو الرسول – صلى الله عليه وسلم- من الله عز وجل فكان في محل اختيار الرب سبحانه وتعالى لهذه النبوة وذلك الاستيفاء وهذا الاجتباء من الله تعالى.

مرة أخرى المؤمنون مدعوون لهذا الاجتباء، والتقصير فيه تقصير في أمر دينهم ودنياهم وآخرتهم وهمهم على هذا الدين.

الآية السابعة : النصر من عند الله.. العزيز الحكيم

وإذا كان ما سبق من الآيات مرتبطًا بآثار الله تعالى في العزة كان من آثار العزة كما ذكرنا الغلبة فإن من أعظم ما يرحم الله تعالى به المؤمنين في الدنيا أن ينصرهم على أعدائهم، وجدنا النصر كذلك من عزة الله تعالى. لذلك قال الله تعالى: ﴿ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ [آل عمران: ١٢٦] وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ١٠] ونشير إلى الآيتين حتى يتأكد للمؤمن أنه لا ينتصر إلا أن يكون عزيزًا، لا ينتصر إلا أن يصل في مرحلة العزة إلى مرحلة الانتصار بالله تعالى أن الله ينصره - جل وعلا - على نفسه وشيطانه وهواه وعلى عدوه في الخارج وعلى عدوه في الداخل، نفسه وشيطانه وهواه وعلى أعدائه في الخارج من كل ملة وجنس ودين ولون.

الآية الأولى وهي: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

فبعد أن ذكر ما حدث للمؤمنين في بدر قال سبحانه وتعالى: ﴿ بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ ﴾ [آل عمران: ١٢٥-١٢٦].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ ﴾ [آل عمران: ١٢٦] فائدة التصريح به مع ظهور أن البشرى إليهم؛ لأن الله جعل نزول الملائكة بشرى لأهل الإيمان ليس معناه - كما يظن البعض – أن الملائكة نزلت بشارة فقط أو أن الله بشرهم بنزول الملائكة، وإنما الصحيح هو الذي عليه جمهور العلماء والمفسرين من أن الملائكة نزلت في بدر وقاتلت مع المؤمنين كما ذكر الله تعالى: ﴿ إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأنفال: ١٢]

وهذا أمر من الله - جل وعلا - للملائكة بأن يقاتلوا ويضربوا المشركين وصح في الحديث الشريف وقوع كثير من المشركين قتلى بدون أن يقتلهم أحد.

وهذا هو مقصود: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٢٦] فليس المقصود ما جعله الله إلا بشرى لكم فقط بل المقصود أن هذه البشارة لكم أنتم. يقول هنا[1]: وفائدة التصريح به مع ظهور أن البشرى إليهم، هي الدلالة على تكريمه سبحانه وتعالى إياهم بأن بشرهم بشرى لأجلهم أي وما جعله الله إلا بشرى لأجلكم، أي نزلت الملائكة وحاربت معكم وجعلنا ذلك بشرى لكم يعني البشارة لكم تكريماً بأن بشرهم لأجلهم كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝ ﴾ [الشرح: ١] أي ألم نشرح لأجلك لك أنت، لم يكن هناك إذن نفي متقدم على أن الملائكة للبشرى فقط، بل النفي هنا لإثبات أن البشرى لهم هم، أي لأجلهم قد حصلت ليس لنفي أن الملائكة لم يقاتلوا، أي ما جعله الله إلا بشرى لكم فقط ، وليس معناه أن نزول الملائكة كان بشارة ولم يكن قتالاً. إنما كان بشارة لأهل الإيمان بنصرهم لهم وقتالهم معهم، ليس نفيًا لقتال الملائكة بل هو إثبات للبشرى تكريماً للمؤمنين.

فكيف يظن أحد أنه لم تحارب الملائكة؟ النفي في هذه الآية ليس على هذا النحو ولا يحتمله السياق، بل هو بشرى لكم، لذلك يقول: والبشرى اسم المصدر (بشَّرك بشرى)، والبشرى خبر بحصول ما فيه نفع ومسرة للمخبر به، فإن الله لما وعدهم بالنصر أيقنوا به فكان في تبيين سببه –وهو الإمداد بالملائكة- ورؤية هذه الملائكة لبعض المؤمنين ورؤية بعض المؤمنين للملائكة وهم يقاتلون طمأنة لنفوس المؤمنين؛ لأن النفوس تركن إلى الصور المألوفة وتركن إلى المحسوس وتطمئن إليه، لا تركن كثيرًا إلى غير المألوف.

قوله: ﴿ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ﴾ والطمأنينة: سكون وعدم اضطراب واستعيرت هنا ليقين النفس بحصول الأمر، أي تشبيهًا للعلم الثابت للنفس بعدم اضطرابها، وهذا دليل البشرى من الله وتثبيت الله تعالى لهم، والمعنى المهم الذي يتعلمه المؤمنون أن الله جل وعلا من

---

(١) انظر: التحرير والتنوير– الطاهر بن عاشور– ج: ٤، ص: ٧٧ – الدار التونسية للنشر.

نصره للمؤمنين الأعزاء الذين قد تعبدوا بالعزيز – سبحانه وتعالى – دعوة وتوحيدًا ومحبة ومعرفة بالرب – سبحانه وتعالى – العزيز كان لهم ذلك، أي كانت لهم تلك البشارات بنزول الملائكة ومحاربتهم معهم وفي نفس الوقت كانت لهم تلك الطمأنينة.

المرء اليوم لا يرى هذه الطمأنينة ولا يرى هذه السكينة، ولا يرى هذه الأخبار التي تطمئن قلبه بل عند كل خبر مفزع – شيئًا ما – إذا به يضطرب ويتردد، ويحدث له من الخوف وربما من الهلع وغير ذلك من الأحوال السيئة وما يمنعه من الثبات على الأمر ومن الاتصال بالله تعالى، ومن مقاومة هذه الشدائد، والوقوف أمامها تلك الوقفة التي تدل على الطمأنينة والسكينة والرحمة التي منشؤها العزة من الله تعالى، كلما كان عزيزًا وجدته واقفًا قويًا غير مضطرب ولا متردد رابط الجأش ثابت القلب يواجه كل ما يمكن أن ينزل به غير وجل ولا خوف ولا هيبة.

قوله:﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ إجراء وصفي العزيز الحكيم هنا: لأنهما أولى بالذكر في هذا المقام: لأن العزيز ينصر من يريد نصره والحكيم يعلم من يستحق نصره سبحانه وتعالى .

ونوضح شيئًا ما في الآية الأخرى في الأنفال لتبين هذه الآية الأولى ونربط الآيتين معا لقرب المعنى واللفظ والسياق، وآية الأنفال: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الأنفال: ١٠] فعطف على قوله تعالى: ﴿ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ [الأنفال: ٩] عطف عليه القول: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ﴾ [الأنفال: ١٠] وفائدة التبشير بإمداد الملائكة في يوم بدر[(١)] أنه كان أول يوم لقي فيه المسلمون عدوًّا قويًا وجيشًا عديدًا فبشرهم الله تعالى بكيفية النصر الذي ضمنه لهم بأنه يجيش جيشًا من الملائكة لهم: لأن النفوس أميل إلى

---

(١) انظر: التحرير والتنوير– الطاهر بن عاشور– ج: ٩، ص: ٢٧٦ – الدار التونسية للنشر.

المحسوسات والنصر من المعاني التي يدق إدراكها وسكون النفس كذلك، أما النفس فتسكن للصور المحسوسة، إذا رأت وراءها جندًا يقاتلون يعاونونها ويؤازرونها ويكثرون جمعها ويقاتلون دونها أحست بالنصر، ومالت إلى تصديق هذه البشرى، أما إن قال: هناك من ينصرك ويمدك وهو لا يرى شيئًا لعله يكون مترددًا أو مضطربًا أو لا يتمكن من أن يصدق مثل هذا الكلام.

ونعرض لما بين الآيتين من الاختلاف في ترتيب النظم وذلك في ثلاثة أمور:

الأمر الأول: في اختلاف النظم بين الآيتين في آل عمران: ﴿ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٢٦] وحذف لكم دفعًا للتكرار؛ لأن لفظ "لكم" سبق قبل ذلك في قوله: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ [الأنفال: ٩] ، والاستجابة من الله تعالى لكم أنتم لا لغيركم فعلم السامع أن البشرى لهم فأغنت "لكم" الأولى عن "لكم" الثانية لفظًا، ومعنى، ولأن أية آل عمران سيقت مساق الامتنان والتذكير بنعمة النصر حال كونهم في قلة وضعف فكان في تقييد البشرى بأنها لأجلهم زيادة في المنة.

إذن سورة آل عمران كانت في البشرى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٣] وفي المنة، امتن عليهم في آل عمران: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٢٣] فقال: بلى وما جعله الله إلا بشرى لكم في آل عمران لذلك يقول: فكان تقييد البشرى بأنها لأجلهم زيادة في المنة، أي جعل الله ذلك بشرى لأجلكم.

أما آية الأنفال لمن يذكر قصة الأنفال قصة سورة بدر يقول: فهي مسوقة مساق العتاب، كأن الآية فيها هنا عتاب لأهل الإيمان على كراهية الخروج إلى بدر في أول الأمر وعلى اختيار أنهم كانوا يريدون غير ذات الشوكة لهم أن تكون غير ذات الشوكة لهم هم يحبون أن يحصلوا العير لا أن يحصلوا النفير أي لا يحبون المواجهة على هذا الحال من القلة في العدد والعدة والسلاح، وما كانوا فيه من فقر ومسكنة إلى آخره، لأنهم يظنون بالأسباب الظاهرة أنهم

لن ينتصروا فلم يحبوا أن يفوز الكفرة، لذلك قال هنا: فجرد "بشرى" عن أن يعلق به "لكم"، إذ كانت البشرى للنبي -صلى الله عليه وسلم- ومن لم يترددوا من المسلمين، لذلك لم يقل بشرى لكم.

أما في آل عمران فكانت منة للمؤمنين فقال: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٢٦] لما أراد – سبحانه وتعالى – أن يمتن حيث كان هؤلاء المؤمنون بعد أن صدرت إليهم أوامر الله تعالى بملاقاة الكفرة كلهم تحت الطاعة تحت راية النبي -صلى الله عليه وسلم- يلقون بأنفسهم دونه صلواته وسلامه عليه.

الأمر الثاني: في اختلاف نظم الآيتين وهو تقديم المجرور هنا في قوله: ﴿ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ﴾ [الأنفال: ١٠] في آل عمران يقول: ﴿ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ﴾ [آل عمران: ١٢٦] وهو يفيد الاختصاص فيكون المعنى ولتطمئن به قلوبكم لا بغيره، وفي هذا الاختصاص تعريض بما اعتراهم من الوجل من الطائفة ذات الشوكة، وقناعتهم بغنم العروض التي كانت مع العير فعرض لهم بأنهم لم يتفهموا مراد الرسول حين استشارهم النبي صلى الله عليه وسلم فقال لهم: إن العير قد سلكت الساحل. أي أن العير قد أفلتت وها قد أقبلت مكة في خيلها وخيلائها في جيشها في النفير، والله وعدكم إحدى الطائفتين، إذن التعريض بأنهم فهموا أن الطائفة الثانية سينصرون عليها.

إذن لما وعدهم الله إحدى الطائفتين ثم هربت العير كان لابد من إنفاذ وعد الله تعالى فإن الله لا يخلف وعده لابد أن ينتصر المؤمنون على النفير على الطائفة الأخرى، ألم يعدهم – سبحانه وتعالى – إحدى الطائفتين، أفلتت الطائفة الأولى فبقيت الطائفة الثانية إذن هي الطائفة التي وعدهم أن ينتصروا عليها، لما ترددوا هم في هذا الفهم وخافوا من ملاقاة قريش جاء قوله تعالى بتقديم المجرور: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ﴾ لأنهم لم يتفهموا مراد الرسول -صلى الله عليه وسلم- حين استشارهم وأخبرهم بأن العير سلكت طريق الساحل فكان ذلك كافيًا بأن يعلموا أن الطائفة الموعود بها تمحضت أنها طائفة النفير ولم يبق شيء إنما هي طائفة النفير هي الموعود بها من نصر الله تعالى.

وكان الشأن أن يظنوا بوعد الله أكمل الأحوال وأحسن الظن، فلما أراد الله تعالى تسكين روعهم وعدهم بنصر الملائكة علماً بأنه لا يطمئن قلوبهم إلا بذلك، ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ ﴾ أي بشرى لأولئك الثابتين.

الثالث : قوله تعالى — وهو مقصودنا الآن — أنه قال في سورة آل عمران: ﴿ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران: ١٢٦] فصاغ الصفتين العليتين في صيغة النعت أي وصف بهما لفظ الجلالة، وأما في أية الأنفال كما سنذكر الكلام متكاملاً قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ١٠] صاغ في سورة الأنفال بصيغة التأكيد: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ١٠] لماذا صاغها في الأنفال بالتأكيد، وصاغها في آل عمران بالصفة؟ صاغها بالتأكيد في الأنفال؛ لأنهم كانوا مترددين أن ينصرهم الله تعالى فأكد لهم أن النصر من عند الله إنه عزيز حكيم قوي غالب يضع النصر لمن يستحقه من أهله وأوليائه — سبحانه وتعالى — ولا يغالبه أحد، ولا ترددوا في أنه لما وعدكم الطائفة الثانية أنكم منصورون عليها، وكأنه كما يقولون في البلاغة نزل المخاطب هذا منزلة الذي يتردد في ذلك.

فمثلاً عندما أقول لك: إن الله قوي عزيز. فكأني أنزلك منزلة من لا يعلم أن الله قوي عزيز، هذا يسمون التأكيد هنا وتنزيل المخاطب منزلة من لا علم له بذلك من لا يعلم أن الله هو العزيز الحكيم وهو المناسب للأنفال لما كان فيه المؤمنون من حال ولما كان فيه بعضهم من تردد في الخروج لملاقاة النفير، ولما كانوا فيه، كل ذلك ليس تنقصًا لهم بل لأنهم ظنوا أنهم هم يريدون أن يخرجوا لملاقاة قريش، ولكن ظنوا أن ما هم فيه أنهم خرجوا على عجلة ولم يتأهبوا، ولم يأخذوا للقتال عدته ولم يخرجوا مستعدين؛ لأن يبذلوا كل الأسباب الظاهرة حتى ينتصروا لم يخرجوا بشيء، النبي —صلى الله عليه وسلم - تهيأ لخروج أو لملاقاة العير ولكن جاءت النفير ولم يستعدوا للقتال أنما خرجوا لملاقاة خمسين رجلاً يحرسون قافلة فيها أموال أهل مكة فإذا بهم يواجهون جيش مكة كله بصناديده بأبطاله بشجعانه بقواده، فماذا يفعلون حينئذ.

لذلك يقول: فنزل المخاطبين منزلة من يتردد في أنه تعالى موصوف بهاتين الصفتين وهي العزة المقتضية أنه إذا وعد بالنصر لم يعجزه شيء إن الله عزيز حكيم، والحكمة فيما يصدر

من جانبه بحيث يجب أن تغوص الأفهام في تبين مقتضاها ذلك الكلام منه سبحانه وتعالى، فكيف لا يهتدون إلى أن الله لما وعدهم الظفر بإحدى الطائفتين — وقد فاتهم العير — أن ذلك آيل إلى الوعد بالظفر بالنفير، لذلك كانت هذه الجملة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ١٠] كيف تظنون ذلك وقد وعدكم أنك ستأخذون طائفة منهما منصورين عليها وقد فاتت طائفة فلم يبق إلا واحدة سيتحقق فيها نصر الله وموعوده. فنزلهم منزلة المتردد في ذلك.

أما الأولى في آل عمران أجرى عليهم: ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران: ١٢٦] لأنه لا نصر إلا من عنده؛ إذ هو العزيز الذي لا يغالبه أحد، الحكيم سبحانه وتعالى الذي يضع النصر عند من يستحقه.

ويجب على المسلم الاهتمام بأمر دينه، وإلا كيف سنحصل هذه العزة التي ننتظر بها رحمة الله في هذه الأيام وما قبلها وما بعدها.

الآية الثامنة: واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم

قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ ﴾ [الممتحنة: ٥] والمتابع لهذه الآيات القرآنية الكريمة يلاحظ أن الدعاء باسمه العزيز جاء في أكثر من موضع على خلاف مقتضى الظاهر، ففي المغفرة: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [المائدة: ١١٨] وفي الرزق: ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ ﴾ [الشورى: ١٩] ونلاحظ هنا خلاف المتوقع فلو قيل: الرزاق المتين. لاستقام السياق غير مخالف لمقتضى التوسل إلى الله تعالى بما يناسب من الأسماء الحسنى، أنت تدعو الله تعالى فتتوسل إليه بما يناسب دعوتك من الأسماء الحسنى، أن يغفر لك؛ لأنه غفور رحيم ، أن يهب لك بأنه هو الوهاب، ويرزقك بأنه الرزاق، يتوب عليك بأنه التواب، هذا قد أشرنا إليه.

وأول السورة يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾ [الممتحنة: ١] لماذا؟ لأنهم كفروا بما جاءكم من الحق، وكأن ذلك الكفر أهم دليل وأهم علة لا يلقى إليهم بالمودة بسببها ، فترتيب هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ ﴾ [الممتحنة: ١] القول إذن: ﴿ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾ [الممتحنة: ١] ولأنهم: ﴿ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ﴾ [الممتحنة: ١] فهم لم يكتفوا بكفرهم بل تلبسوا بإخراج الرسول معكم من ديارهم، ﴿ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ﴾ [الممتحنة: ١] أي إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وإن كنتم خرجتم جهادًا في سبيلي وابتغاء مرضاتي.

فالمعنى: لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة لأنهم كفروا بما جاءكم من الحق، وهذا من أعظم الأسباب التي تجعلك لا تلقي بالمودة أبدًا لهؤلاء الذين كفروا بما جاءك بالحق، وهذا أولى إذا زاد على ذلك الأعمال التي يُكاد بها أهل الإيمان.

ثم أعاد القول: ﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝ ﴾ [الممتحنة: ١] وهو تعليم آخر بعد هذه التعليمات. لماذا؟ قال: ﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ۝ ﴾ [الممتحنة: ٢] وهذا كله حاصل: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ ﴾ [البقرة: ٢١٧].

فالقارئون لهذه الآية غالبًا يقصرون عن فهمها الفهم المطلوب الذي يدل عليه السياق واللغة العربية، وما نزل على النبي –صلى الله عليه وسلم- في قصة حاطب بن أبي بلتعة –رضي

الله عنه- وهو من البدريين عندما أخبر أهل مكة بغزو النبي لهم في فتح مكة، وقال عمر: لقد نافق حاطب دعني أقتله دعني أضرب عنقه، فقال له النبي –صلى الله عليه وسلم-: **(لعل الله اطلع على أهل بدر فقال افعلوا ما شئتم)** ثم قال حاطب وهو معتذر: **(أنا لم أكفر بالله)**.[(١)]

فدل على أن الموالاة لهؤلاء الكفرة كما ذكرت الآيات يمكن أن تكون كفرًا ويمكن أن تكون أقل من الكفر، يمكن أن تكون كفرًا وفسقًا ومعصية أو تشبهًا كالتشبهات العادية التي يعيش بها الناس سواسية جميعًا يعني لا فارق بين المسلم والكافر، أما ما كان فسقًا فالتشبه بهم فيه فسق، وما كان معصية فالتشبه بهم فيه معصية، وما كان كفرًا فالتشبه بهم فيه كفر، إن قصد هذا الكفر فهو كفر وإن لم يقصد وجاء بالتشبه الكافر فليس بكافر كما ذكرنا في موانع الحكم بالكفر على المعين من أهل القبلة، تعرضنا لذلك في شرح العقيدة الطحاوية.

---

(١) يشير الشيخ إلى ما أخرجه البخاري (١٠٩٥/٣ ، رقم ٢٨٤٥) ، ومسلم (١٩٤١/٤ ، رقم ٢٤٩٤) ، ولفظه (عنْ علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – قال : «بعثني رسولُ الله –صلى الله عليه وسلم– ، أنا والزبير والمقدادَ ، فقال : انطلقوا حتى تأتوا رَوْضةَ خاخٍ ، فإن بها ظعينة معها كتاب ، فخذوه منها ، فانطلقنا تتعادى بنا خيلُنا حتى أتينا الرّوضة ، فإذا نحن بالظّعينةِ ، فقلنا: أخرجي الكتاب. قالت: ما معي من كتاب ، فقلنا : لتُخْرِجنّ الكتاب أو لتُلْقِينّ الثيابَ ، فأخرجتْهُ من عقاصها ، قال : فأتينا به النبيَّ –صلى الله عليه وسلم– ، فإذا فيه : من حاطبِ بنِ أبي بَلْتَعَةَ إلى ناس من المشركين من أهل مكة ، يخبرُهُم ببعض أمرِ رسول الله –صلى الله عليه وسلم–. فقال رسولُ الله –صلى الله عليه وسلم– : يا حاطبُ ، ما هذا؟ فقال : يا رسول الله ، لا تعجَلْ عليّ ، إني كنتُ امرءا مُلْصَقا في قريش ، ولم أكنْ من أنْفُسهم ، فكان من مَعَكَ من المهاجرين لهم قرابة يَحْمُون بها أموالهم وأهليهم بمكةَ ، فأحْبَبْتُ – إذْ فاتني ذلك من النسب فيهم – أن أتّخذ فيهم يدا يحمون بها قرابتي ، وما فعلتُ كفرا ، ولا ارتدادا عن ديني ، ولا رضى بالكفر بعد الإسلام. فقال رسولُ الله –صلى الله عليه وسلم– : إنّهُ قد صَدَقكم. فقال عمرُ : دعني يا رسول الله أضربْ عُنُق هذا المنافق. فقال رسولُ الله –صلى الله عليه وسلم– : إنه قد شهد بدرا ، وما يدريك لعل الله اطّلعَ على أهل بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم ، فقد غفرتُ لكم. قال : فأنزل الله عز وجل : {يا أيُّها الّذين آمنوا لا تتّخِذُوا عَدُوّي وَعَدُوّكُمْ أوْلِيَاء} [المتحنة : ١]») .

ولا شك أن لهم أحكامًا أخرى في قوله: ﴿ لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾ [الممتحنة: ٨] إلى آخره، ﴿ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ﴾ [الممتحنة: ٩].

ثم بين المولى سبحانه وتعالى ما عليه أهل الإيمان من الحنيفية، دين إبراهيم– عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- ومن معه: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ ﴾ [الممتحنة: ٤].

نأتي إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ [الممتحنة: ٥] والفتنة اضطراب الحال وفساده وقد تصل إلى الكفر، وحينئذ تأتي الآية الكريمة: ﴿ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ [البقرة: ١٩١] فليست الفتنة أن تخبر بصنيع أحدهم كما يقال بالعامية: فتن عليه. ليست هذه الفتنة هي المقصودة في الآية، الفتنة المقصودة في الآية فساد الحال حتى يصل إلى الكفر، وعندما يصل هذا الحال إلى هذه الدرجة فإن هذه الفتنة تكون أشد من القتل كما ذكر الله تعالى، فليس نقل الكلام بين اثنين هو المقصود بأن يكون فتنة أشد من القتل.

وتجيء الفتنة وصفًا للفاتنين والمفتونين، عندما يقول المولى سبحانه وتعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ معنى أن يجعلهم فتنة للذين كفروا أن يفتنهم الذين كفروا عن دينهم، يصدق عليهم حينئذ أن يتسلط عليهم الذين كفروا كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [البروج: ١٠].

ويصدق أيضًا أن تختل أمور دينهم بسبب الذين كفروا أي بمحبتهم وتقربهم منهم كقوله تعالى حكاية عن موسى: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ﴾

[الأعراف: ١٥٥] عندما اتخذوا العجل موالاة لقومهم وسكتوا عليه قال: هذه فتنة تضل بها من تشاء. يعني بسبب تقربهم ومحبتهم.

يقول[١] هنا: والدعاء الأول يدعو الله تعالى ألا يكونوا مفتونين. يعني ألا يفتنهم الكفرة عن دينهم وهذه المسألة المهمة اليوم، لماذا؟ لأنه قال: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ وهذا اللفظ المبارك وهو العزيز كما ذكرنا الاسم المشرف نحن ندعو الله تعالى به حتى لا يوقعنا في هذه الفتنة، فعندما يأتي أحد ليقول: ما العصمة في هذه الفتن التي نزلت بالمؤمنين من كل النواحي من فتنة في دينهم ومن فتنتهم في أعمالهم، ومن فتنة في قلوبهم وغير ذلك من أنواع الفتن التي يفتنون بها من الشهوات والتي دعا النبي صلى الله عليه وسلم بأن يجنبنا الله تعالى الفتن والفواحش ما ظهر منها وما بطن، فهذا هو الدعاء الأول.

فقوله: ﴿ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا ﴾ على هذا الوجه أن يُفتن المؤمنون بالذين كفروا، واللام في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ على الوجهين للملك، أي لا تجعلنا مفتونين مسخرين لهم، والحال أسوأ من ذلك كما تعلمون، إذن نحن في أشد الحاجة إلى العزيز.

يقول: ويجوز عندي أن تكون فتنة مصدرًا بمعنى اسم الفعل. وهو المعنى الثاني الذي ينبغي في الآية. وهو قوله أي فلا تجعلنا فاتنين، ومفتونين، بأن يكون الذين كفروا قد فتنوهم في دينهم واختلال أمرهم ومن وقوع الفساد بينهم بسبب مودتهم أو التقرب إليهم أو عدم الإنكار لهم وغير ذلك من الأمور التي تخالف الحنيفية دين النبي صلى الله عليه وسلم ودين إبراهيم.

وكيف يكون المؤمنون سبب فتنة الذين كفروا؟ بمعنى أن يدعو المؤمنون ربهم ألا يغلبهم الذين كفروا، وأن يصرفهم عنهم وأن يصرف عنا ما يكون به اختلال أمرهم وسوء الأحوال أي لا يكون شيء من ذلك فاتنًا للذين كفروا أي مقويًا لفتنتهم فيفتنون في دينهم أي يزدادون كفرًا وهو الفتنة في الدين لظنهم أن المؤمنين على الباطل وأنهم لولا أنهم على الباطل لانتصروا عليهم فلما انتصر الكفرة كان ذلك سبب فتنتهم وبقائهم على كفرهم وغلوهم في هذا

---

(١) انظر: التحرير والتنوير- الطاهر بن عاشور- ج: ٢٨، ص: ١٤٨ - الدار التونسية للنشر.

الكفر؛ هذا الانهزام الاختلال والفتنة صارت للمؤمنين وكل ذلك فتنة للذين كفروا، فصار المؤمنون فاتنين للذين كفروا عن دينهم: لأن هؤلاء الكفرة قد انتصروا وارتفعوا على المؤمنين وقاتلوهم وأذلوهم وسخروهم وفعلوا بهم تلك الأفاعيل، لذلك قال: كيلا يكون ذلك فاتنًا للذين كفروا يفتتنون في دينهم، يزدادون كفرًا فيظنون أن المؤمنين على الباطل وأنهم هم على الحق.

قوله: ﴿ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ﴾ بعد أن دعا المؤمنون هذه الدعوات بعد تقديم، أعقبوا دعواتهم التي تعود إلى إصلاح دينهم في الحياة الدنيا بطلب ما يصلح أمورهم في الحياة الآخرة، عندما قالوا: ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وإنما طلبوا من ربهم بأن يصلح أحوالهم وطلبوا من ربهم الأمور التي تصلح أحوال دينهم في الحياة الدنيا سواء في ألا تختل أمورهم وأن يضطرب دينهم أو ألا يزداد المشركون فتنة مما عليه المؤمنون بل الدعاء أن ينتصروا على الكافرين ليظهر الحق ويعلو ويدحض الباطل وينخفض حتى يكون سببًا لأن يرى الكافرون أن المؤمنين على الحق فلا يكون ذلك سببًا لفتنتهم.

فبعد أن دعا المؤمنون هذه الدعوات من صلاح الدين أن يصلح الله تعالى دينهم في هذه الحياة الدنيا طلبوا من الله تعالى ما يصلح أمورهم في الحياة الآخرة وما يوجب رضا الله تعالى عنهم، فإن رضاه يفضي إلى عنايته بهم وتيسير أمورهم في الحياتين، رضا الله تعالى عن المؤمنين يؤدي إلى أن الله جل وعلا ييسر ويصلح أحوالهم في الدنيا، فيستجيب سبحانه وتعالى لهم بألا يكونوا فتنة وألا يفتنوا ويستجيب لهم في الآخرة كذلك بهذه المغفرة التي من حازها فقد فاز فوزا عظيماً فيستمر ليقول فإن رضاه يفضي إلى عنايته بهم لتسيير أمورهم في الحياتين – أي في الحياة الدنيا بما دعوا وفي الحياة الآخرة بما طلبوا من غفران الله تعالى.

قوله: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ هو تعليل بعد هذه الدعوات التي دعاها المؤمنون، فعللوا استجابة الله لها بأنه هو العزيز الحكيم سبحانه وتعالى. فإن التوكل والإنابة والمصير تناسب صفة العزة، عندما تذكر الآية التي قبل ذلك: ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً ﴾ [الممتحنة: ٤-٥].

هذه الألفاظ كلها تناسب صفة العزة، إذ مثله - سبحانه وتعالى — يعامل بمثل ذلك، وطلب ألا يجعلهم فتنة يناسب صفة الحكيم أي الرب سبحانه وتعالى ، وكذلك طلب المغفرة وأنهم لما ابتهلوا إليه ألا يجعلهم فتنة للكافرين وأن يغفر لهم رأوا أن حكمته تناسب هذه الإجابة عندما يقولون لله تعالى أي ربنا اغفر لنا لا تجعلنا فتنة للكفرة لا في اختلال ديننا ولا في فساده ولا في أن يزداد هؤلاء الكفرة علوًّا وطغيانًا بسبب ما رأوا من كوننا فتنة لهم؛ لأننا مهزومون أمامهم هذا يناسب حكمة الله في إجابة هذا الدعاء، إنه - سبحانه وتعالى — عندما تدعوه بهذا الدعاء تدعوه بما يناسبه؛ لأن ذلك يناسب الحكمة من الله تعالى التي تجعله يجيب هذه الإجابة؛ لأن من حكمته سبحانه وتعالى أن ينصر المؤمنين وأن يصلح أحوالهم في الدنيا، وألا يجعلهم سببًا لفتنة الكافرين على الحالين اللذين ذكرنا، وأن يغفر لهم رأوا أن حكمته سبحانه وتعالى تناسبها إجابة دعائهم لما فيه من صلاحهم، والصلاح يناسب حكمة الله تعالى وقد جاء المؤمنون يسألون الله بذلك الدعاء الذي يصلح دينهم ودنياهم وآخرتهم.

وصفة العزيز هنا تناسب كذلك التكرار، هذا التكرار الذي كرر في الآية: ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ فيناسبها العزة كذلك؛ لأنه العزيز سبحانه وتعالى . فإن فتنة أوليائه لهؤلاء الكفرة حيث يكون أولياؤه مقهورين مذلولين يجعل هؤلاء الكفرة في حالة علو وفتنة بأن المسلمين لو كانوا على حق ما كانوا في هذا الحال فذلك يناسبه أن يعزهم ربهم سبحانه وتعالى في ضعفهم وقلتهم وأن يعزهم سبحانه وتعالى وأن يمنعهم وأن ينصرهم جل وعلا لئلا يقع في كونه سبحانه وتعالى اختلال حال المؤمنين ووقوع هذه الفتنة التي تجعل الكفرة مستهزئين بهم ضالعين في الطغيان عليهم متشبثين بكسرهم وصغارهم وذلتهم. وهذا ينافي أن يكون عزيزًا؛ لأن العزيز يعز هؤلاء الأولياء ويدفع عنهم كما بينا ويرى ما يصلحهم ويقوم به لهم سبحانه وتعالى.

إذن عندما تدعوه بهذه العزة في هذه الأيام فإنما تدعوه بهذه المعاني ، أن يرفع الله تعالى عن المؤمنين هذه الفتنة التي وقعوا فيها في أحوالهم ونحن جميعًا محتاجون إلى أن يحفظهم الله تعالى من الفتن وأن يجنبهم هذا الزلل ويأخذ سبحانه وتعالى بأيديهم لطريق الاستقامة ، وأن يرفع رءوسهم ورايتهم حتى لا يكونوا في هذا الموقف الذي يدعي فيه هؤلاء الكفرة أن المؤمنين لو كانوا على حق ما كان ذلك حالهم. ويكون سببًا في ألا يدخل أحد منهم

الدين وسببًا في استمرار أذاهم وسببًا في استمرار تعذيبهم وانتهاكهم لحرمات العباد والبلاد من المؤمنين.

العزة تناسب ذلك، بأن يعزهم سبحانه وتعالى ويمنعهم، ويدفع عنهم، وأن يكونوا ممتنعين بأشد منعة، وهي منعة الله جل وعلا، فالعزة والحكمة متعلقتان بالمغفرة التي ينبغي أن تكون من هم المؤمنين الزائد في هذه الأيام.

الآية التاسعة: يرزق من يشاء وهو القوي العزيز

وبعدما ذكرنا الرحمة والمغفرة والعزة والتزكية والنصر وغير ذلك من الآثار المهمة ننتقل إلى قوله: ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾ [الشورى: ١٩] حتى يطمئن المؤمنون على ما يسبب اضطرابهم وقلقهم في هذه الحياة الدنيا وعلى ما يسبب ضيقهم ونكدهم وعلى ما يسبب شغلهم وغفلتهم عن الله تعالى وما يكون معطلاً لهم عن السير إلى الله تعالى، فإنهم حتى لو ساروا إليه فإنهم يسيرون وهم مهزوزون مضطربون لاختلال أمورهم كالنفقات والهموم وغير ذلك من الأحوال التي تستقيم بها الدنيا، وكذلك الآخرة. فإذا بالله تعالى يقول لهم العزيز الذي تعززتم به وارتكنتم إلى جنابه الكريم القوي الممتنع سبحانه وتعالى قد ضمن لكم ذلك وهو القوي جل وعلا، وهو ييسر لكم هذا الرزق ويبعثه لكل أحد، ولو أن أحدكم فرَّ من رزقه يتبعه رزقه حتى يدركه، فلن يخرج من الدنيا إلا وقد حصل كل الرزق الذي كتب له، لن يخرج من الدنيا وله دينار أو درهم عند الله تعالى لم يصله في وقته المعلوم الذي قد كتبه الله له.

لذلك نستكمل آثار العزة التي فرطنا فيها ولم نحصل شيئًا نعتز به في أمور الدين والدنيا والآخرة، شيئا نتقوى به على أنفسنا والشيطان والهوى والأعداء الخارجين، على شيء نحصل به المغفرة والرحمة والنصر والتزكية والرزق.

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾ [الشورى: ١٩] وهذه الآية توطئة لآية: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ﴾ [الشورى: ٢٠] لأن ما سيذكر في الجملة الآتية هو أثر من آثار لطف الله بعباده ورفقه بهم، بما يسر من

الرزق للمؤمنين منهم والكفار في الدنيا ثم ما خص به سبحانه وتعالى المؤمنين من رزق الآخرة زائدًا على رزق الدنيا.

فالجملة كما يقول[1]: مستأنفة تقدمة لاستئناف الجملة الموطأ لها. الجملة الموطأ لها هي قوله: ﴿ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ وقبل أن يقول سبحانه وتعالى هذه الجملة وطأ لها بأن الرزق من الله سبحانه وتعالى ، وأنه من لطفه سبحانه وتعالى رزق الكفرة والمسلمين. ولكن المسلمين خصهم برزق زائد هو رزق الآخرة. واللطيف هو القوي البر. ويدخل في هذا كثير من النعم. وفسر عدد من المفسرين اللطيف بواهب بعضها.

وجملة: ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ﴾ الرزق هو إعطاء ما ينفع. يقول: وهو عندنا – وابن عاشور أشعري في هذه المسألة وهذا أيضًا هنا قريب من كلام السلف – لا يختص بالحلال على خلاف كلام المعتزلة.

والظاهر في الآية أن المراد هنا رزق الدنيا. ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ﴾ ثم جاء فقال: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ ﴾ [الشورى: ٢٠] بهذا الرزق في الدنيا نؤته منها، ﴿ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى: ٢٠].

والمشيئة ﴿ مَن يَشَآءُ ﴾ تقدير الرزق لكل أحد من العباد ليكون عموم اللطف للعباد باقيًا. والمعنى أنه للطفه سبحانه وتعالى بجميع عباده لا يترك أحدًا منهم بلا رزق لجميع خلقه سبحانه وتعالى، لما في الهواء، ولما تحت الماء، وفي جوف الأرض، وللبشر، وكل ذلك قد يسر له هذا الرزق لعموم لطفه سبحانه وتعالى الذي يستدعي الشكر ويستدعي التقوى، والتعزز بالله تعالى حتى يكون المرء موحدًا لربه مطمئنًا إلى ما عنده، وكما قالوا: علمت أن رزقي لن يأخذه غيري فاطمأن قلبي.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير– الطاهر بن عاشور– ج: ٢٥، ص: ٧١ – الدار التونسية للنشر.

فلا يأخذ أحد رزق أحد، لا شك أن الله جعل هذا الرزق لفلان وهذا لفلان، فهل يمكن لأحد أن يغافل ربه ويقع هذا الرزق لهذا الإنسان أو ينعكس الحال؟! كلا ، وهذه تلك العزة التي ينبغي أن يفهمها المرء عن ربه جل وعلا.

فإذا ما علم أن رزقه آت ومقسوم وما عليه إلا أن يأخذ بالأسباب الصحيحة الشرعية التي بينها المولى سبحانه وتعالى وبينتها السنة المشرفة، فإنه سيحصل هذا الرزق الذي كتبه الله تعالى له، وإن كان يريد العاجلة ﴿ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ۝ ﴾ [الإسراء: ١٨-١٩] .

وذلك ينقلنا إلى نقطة مهمة، وهي: هل الكافر مُنَعَّم في الدنيا أم أنه مستدرج؟! يقول: اختلف أهل الأصول – أي أصول الدين – في نعمة الكافر، والكلام في الخلاف لفظي، والنهاية أن الكافر منعم كما في قوله – سبحانه وتعالى – : ﴿ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ ﴾ [المزمل: ١١] فهذه موجودة في كلام الله تعالى وفي رزقه سبحانه وتعالى.

ومن قال: إنه غير منعم. قالوا: ذلك استدراج من الله تعالى في زيادة النعم حتى يعذب عليها في الآخرة، ولو قالوا: لا هذا رزقه من لطفه الذي لطف بالعباد جميعًا. لكان وجهًا.

وعطف سبحانه وتعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾ على صفة لطيف في قوله: ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ﴾ أو على جملة: ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ﴾ وهو تمجيد لله تعالى بهاتين الصفتين.

والسؤال: لماذا جاء في القرآن الكريم بهذا التمجيد لله ليختم به الآية؟ يقول: يفيد الاحتراز عن توهم أن لطفه سبحانه وتعالى عن عجز أو مصانعة، فهو يلطف سبحانه وتعالى بعباده، فيرزق الكافر والمؤمن ليس عن عجز ولا مصانعة ولا مداهنة، ولا شيء من ذلك فإنه قوي عزيز، أو للاحتراز عن توهم أن رزقه لمن يشاء عن شح أو قلة، كلا فإنه القوي، والقوي تنتفي عنه أسباب الشح، والعزيز تنتفي عنه أسباب الفقر، فرزقه لمن يشاء بما يشاء منوط

بحكمة يعلمها في أحوال خلقه عامة وخاصة، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ﴾ [الشورى: ٢٧].

إذن جاءت هاتان الصفتان تتميماً لهذا المعنى: أن الله جل وعلا هو القوي العزيز في رزقه أي الذي يرزق بغير شح يعطي ويده مبسوطة سحاء الليل والنهار سبحانه وتعالى ، انظروا ماذا أنفق منذ خلق السماوات والأرض ؟

وكذلك انظروا لهذا العزيز سبحانه وتعالى الذي تعتزون به وتمتنعون به فإنه تنتفي عنه أسباب الفقر لذلك قال: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ﴾ [محمد: ٣٨] وهذا المعنى يفيدنا في هذه المسألة القوية، أنك قد علمت أن الرازق لك سبحانه وتعالى قوي عزيز لا شح في إنفاقه ولا إمساك ولا حرص، وإنما يرزق من يشاء بما يشاء، أمره بين الكاف والنون كما يقال: كن فيكون، كن ذهبًا يكون ذهبًا كن جبالاً تكون جبالاً، ما يشاء، وأدنى أهل الدنيا منزلة في الجنة ملكه فيها كملك كذا وكذا من ملوك الدنيا أضعافًا مضاعفة.

لذلك فعندما تطلب من الله جل وعلا تطلب وأنت راكن إليه أنه سبحانه وتعالى سيعطيك ولن يبخل عليك وسيبارك لك فيما طلبت من هذه الأمور ترجو بها الدار الآخرة، ترجو بها وجه الله والدار الآخرة.

أما من يرجو الدنيا، قال تعالى في قارون: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [القصص: ٧٩-٨٠] انظر لهذا المعنى: ﴿ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [القصص: ٧٩]، ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ ﴾ [القصص: ٨٠] لماذا؟

انظر إلى الآية بعدها: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ [القصص: ٨١] بعد أن كانت هذه الدار لا نظر في هدمها أو خسفها وأن هذه الأموال التي يقول سبحانه وتعالى فيها: ﴿ إِنَّ

قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ ﴾ [القصص: ٧٦] المفاتيح التي يفتح بها ويغلق بها تنوء بالعصبة إذا حملوا هذه المفاتيح لا يستطيعون رفعها أو حملها بسهولة بل تنوء بكواهلهم أي لا يمشون بها مستقيمين بل يمشون مشية من يحمل حملاً ثقيلاً لا يستطيع أن يواصل به السير!

ثم ذكر في النهاية: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ﴾ [القصص: ٧٩] الشارات والزينات والأولاد والسلاح والخدم والتبع والأموال والخيول، فخسفنا به وبداره الأرض، ويروى أن سيدنا موسى وقف يشاهده فكان يقول للأرض: خذيه خذيه: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [القصص: ٨١].

المؤمن على عكس ذلك يعطيه ربه ويكرمه ويفتح عليه، ولكن الله سبحانه وتعالى يعطيه بالحكمة التي يراها صالحة له، فلا يأتين أحدكم فيقول: فلماذا أظل أدعو الله أن يعطيني ويرزقني ولا آخذ شيئًا؟ كلا بل قد أعطاك أشياء أخر غير التي طلبت، لماذا؟ لأنه سبحانه وتعالى لو أعطاك ما طلبت فستفسد، لذلك يعطيك ما يشاء سبحانه وتعالى مما يراه المناسب وفيه الحكمة التي يعطيه لك بها، لو أعطاك مالاً أو قوة إذا بك تستخدمه في معصيته فالله يمنعك ذلك لعلمه سبحانه وتعالى أنه لو وسع عليك فيه أفسدك هذا المال، ويمسك عن المال لعلمه أنك بفقرك إليه ولجوئك له تصلح أحوالك فيكون إقبالك على الله وخشوعك له وصلاح دينك ودنياك، ويمنعك القوة: لأنه يعلم أنك يمكن أن تطغى بها وأن تتكبر.

لذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [القصص: ٨٣] في أي وجهة كانت، ﴿ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣].

بعد هذا الاستطراد، لماذا جاء هذا التعليل في نهاية الآية؟ يقول: والإخبار عن اسم الجلالة بالمسند المعرف باللام يفيد معنى قصر القوة والعزة عليه سبحانه وتعالى. يعني ﴿ وَهُوَ

﴿ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ يسمونه المسند وهذا المسند معرف بالألف واللام "القوي العزيز" وهذا التعريف، كأنه يقول: لا قوي ولا عزيز غيره، وإن قوة غيره وعزته كالعدم، وهذا هو الذي يفيدك في هذه المسألة بعد أن ركنت إليه في رزقك وطلبك من القوة والعزة وصلت إلى هذه الحال: أن غيره كالعدم في القوة والعزة، أي أن غيره قد امتلأ شحًا وفقرًا، وأسباب الحرص والبخل قد اجتمعت فيه، وإذا لم تجتمع فيه أسباب البخل والشح فإن أسباب الفقر لا شك مجتمعة فيه، وفي كل أحد إلى أن تقوم الساعة؛ لأنه ليس أحد غنيًا غنى ذاتيًا، بل كل ذلك بغنى الله تعالى، وإغناء الله له.

فكأنه يقول لما قصر القوة والعزة عليه للمبالغة في ماله سبحانه وتعالى حتى كأن قوة غيره وعزة غيره عدم، وهذا يعلمنا كيف يتجرد القلب من قوة وعزة غيره سبحانه وتعالى ، وأن يعلم العدم في القوة والعزة لغير الله تعالى، وأنه مهما أراد القوة والعزة التي يأخذ منها الرزق من الله تعالى فهي بالله لا بغيره، وأنه هو القوي وأن القوة له جميعًا كما ذكر أي ليس لغيره وهو العزيز سبحانه وتعالى الذي لا يغالبه أحد، المعز لأوليائه سبحانه وتعالى فعلمت ذلك وتيقنته فامتلأ قلبك بكونه القوي العزيز، وخلا قلبك عن سواه في القوة والعزة. أفرغت قلبك من سواه وأن سواه أصبح عندك كالعدم.

وهذه الحال التي نعاني منها، وتصل بالقلب إلى هذا الاضطراب، أن يقع به الشيء فلا يرتكن ولا يركن إلى القوي الذي يعطيه وهو العزيز، ويركن إلى هؤلاء المعدومين الذين يموتون لا يملكون لأنفسهم ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، يذهب إليهم ليتقوى بهم، ليعطوه، ليقفوا بجانبه، ليقوموا له بشأن من شئونه، ليصرفوا له تصريفًا من تصاريف الدنيا، وهم لا يعلمون أن هذه القلوب كلها بيد الله يصرفها كيف يشاء، وأن لا قوة لقلب منها ولا عزة ولا شيء، وأن قوتهم وعزتهم وغير ذلك كله عدم، عندما يتجرد قلب المرء بهذا الحال يعلم توحيده لله تعالى وقوته بالله تعالى وعزته بالله تعالى.

أما القوي الذي يعطيك لا عن شح، ويمنع عنك لا عن تقطير لك أو بغض وإنما لحكمة يرى فيها صلاحك سبحانه وتعالى كان عليك أن ترتكن إليه وهو العزيز الذي لا سبب من أسباب الفقر في عطائه سبحانه وتعالى في كل عطائه، وإنما الواضح من عطائه لكل أحد هو الرزق فيعطيك سبحانه وتعالى، وهو قد انتفت عنه كل أسباب الفقر أو القلة - حاشا لله تعالى

- فأنت حينئذ تسأل غنيًّا مليئًا يعطيك ولا ينتظر منك شيئًا، وتسأل قويًّا عزيزًا يعطيك ولا يبخل عليك وتسأل حينئذ وأنت عالم أنه بلطفه لك وبلطفه عليك سبحانه وتعالى يعطيك ما يكون سبب رحمته، فقد تتشكى من ضيق الحال وقلة الأعمال وأنت لا تدري أنها لو فتحت وتغيرت ولكانت حالك على غير الحال الذي أنت فيه بل إلى أسوأ حال قد منعه الله تعالى عنك.

بيَّنا هذا المعنى المهم، المتعلق بالرزق الذي يرزقه الله تعالى للمؤمنين والذي يجب أن يفهموا عزة الله فيه وأن يوحدوه بها لتنفك عنهم قضايا الرزق التي أبكتهم، وأحزنتهم وشغلتهم وألهتهم في هذه الدنيا، فهم إن حصلوا الدنيا فهم خائفون على نقصانها وفقدها، وإن لم يحصلوها فهم باكون على فقدانها وما هم فيه من حال.

الآية العاشرة: ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين

قوله تعالى: ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المنافقون: ٨]

فبعد الكلام على عزة الله وآثارها نشير سريعًا إلى عزة الرسول صلى الله عليه وسلم، وذكرنا ذلك من قبل في قوله في سورة التوبة: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة: ١٢٨] .

أما هذه الآية فهي في سورة "المنافقون" وهي سورة تبين أحوال المنافقين في المدينة وتبين وصفهم وتبين حالهم في الإيمان والكفر والنفاق وتبين موقفهم من النبي –صلى الله عليه وسلم- والصحابة المكرمين. وفي النهاية آياتها الكريمات جاءت الآية التي نحن بصددها.

وقوله [١] سبحانه وتعالى: ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ﴾ استئناف ثان على أسلوب التعداد والتكرير لذلك لم يعطف، ومثله – أي مثل هذا

---

(١) انظر: التحرير والتنوير– الطاهر بن عاشور– ج: ٢٨، ص: ٢٤٩ – الدار التونسية للنشر.

الأسلوب يكثر في مقام التوبيخ. فلو قال السائل: سياق هذه الآية في أي موضوعات الكلام؟ لقلنا: التوبيخ. أي يوبخ بها المنافقين، فكأنه يقول: أنتم الأذلون والرسول –صلى الله عليه وسلم- هو العزيز والمؤمنون.

وهذا وصف لخبث نوايا المنافقين - حتى يفهم المرء شيئًا من صفاتهم - حيث تكرر هؤلاء اليوم كذلك، إذا أرادوا التهديد وإفساد إخلاص الأنصار وأخوتهم مع المهاجرين بإلقاء هذا الخاطر في نفوس الأنصار بذرًا للفتنة والتفرقة وانتهازا للخصومة، وهذا القول محكي عن عبد الله بن أبي ابن سلول، وكذلك عند قوله: ﴿ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ [المنافقون: ٧] وصيغة المضارع في هذه الحكاية: ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ ﴾ ليبين استحضار هذه الحالة العجيبة، كأن هذه الحالة حالة حاضرة اليوم، والمدينة : يثرب أي مدينة النبي صلى الله عليه وسلم المنورة – وقوله: ﴿ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ﴾ فالأعز هو القوي العزة الشديد العزة يعني الأقوى في العزة منا سيخرج الأذل والأقوى في العزة أي الذي لا يقهر ولا يغلب على تفاوت في مقدار العزة؛ إذ العزة مسألة نسبية، تحصل بوفرة العدد وسعة المال والعدة، وأراد بالأعز أي الذي حصل النسبة العالية التي لا يقهر بها من أسباب هذه العزة، فإنهم هم أهل المدينة وأهل الأموال وأكثر عددًا من المهاجرين.

أبطل الله تعالى كلامهم بقوله: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وهو جواب بالطريقة التي تسمى القول بالموجب أو بالموجَب - بالفتح - في علم الجدل مثل أن تقول لأحدهم: العزيز منا سيغلب الذليل ويخرجه إن شاء الله. فيرد عليك: لا بأس أنت الذليل وأنا العزيز وسأغلبك وينالك مني الأذى. هذا من الأسلوب الجدلي.

فأبطل الله تعالى كلامهم بهذا القول، والمعنى أنه إن كان الأعز يخرج الأذل فإن المؤمنين هم الفريق الأعز مع أنهم أقل عددًا وعدة ومالاً، وأنهم مهاجرون لا حول لهم ولكنهم هم الأعز، لماذا؟ انظر: عزتهم بكون الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم وبتأييد الله رسوله وأولياءه، إذن هذه هي المسألة التي أعطتهم العزة أن الرسول فيهم صلى الله عليه وسلم، وطالما كان الرسول

صلى الله عليه وسلم فهم فإن الله يؤيد رسوله ومن فهم رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن عزة الله هي العزة الحقة المطلقة وعزة غيره منعدمة ناقصة مهما بدت في ظاهر الحال أن لهم عزة في مال أو جمع أو عدة أو غير ذلك.

فلا جرم أن أولياء الله هم الذين يفقهون إذا أراد الله نصرهم ووعدهم بذلك، فإن إخراج هؤلاء من المدينة يكون على أيدي المؤمنين، إنما يخرج أنتم يا أهل النفاق، أهل الإيمان يعلمون وعد الله تعالى بنصرهم، ويفقهون ذلك إذا أراد الله تعالى، وبالتالي فإن الإخراج من المدينة إنما يكون لكم أنتم، لأنكم لا عزة لكم، وإن العزة بالله وإن القوة له، وإنه ما شاء الله سبحانه وتعالى كان.

وقوله: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ ﴾ كان يمكن أن يقول: والعزة لله ولرسوله، ولكن تقديم لفظ الجلالة لقصد القصر وهو - قصد قلب - يعني أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين لا لكم، كما تحسبون، وهذه التي ينبغي أن يتعلمها المؤمن اليوم أن العزة له لا لغيره كما يحسب غيره، وكما يظن غيره أن له العزة عليه، لا، العزة لله ولرسوله ولأوليائه.

وإن كان تقصير فالتقصير من هؤلاء الأولياء الذين لم يقوموا بالعزة حق قيامها ولم يوفوا الدين حق قدره؛ ليحصلوا هذه العزة والتأييد والمنعة من الله تعالى.

لذلك يقول: وإعادة اللام في قوله: ﴿ وَلِرَسُولِهِۦ ﴾ وكان يمكن أن تغني واو العطف فيقول: ولله العزة ورسوله والمؤمنين. ولكن لما قال: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ دل على أمرين: على استقلال العزة للنبي صلى الله عليه وسلم، يعني: أن النبي له عزة مستقلة، كأنه يقول: ولله العزة ولرسوله العزة، وللمؤمنين العزة، ولكن هذا المعنى لتأكيد عزة الرسول، وأنها بسبب عزة الله جل وعلا ووعده إياه عندما أكدها باللام أو أعاد اللام هنا إنما لتأكيد أن عزة النبي من عزة الله وأن عزة النبي قائمة بذاتها -صلى الله عليه وآله وسلم- بتأييد الله تعالى له.

إذن لماذا أعادها في المؤمنين في قوله: ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال: لتأكيد أن لهم العزة من الله تعالى؛ لأن الحال التي هم فيها قد تخفى العزة فيها عليهم لقلتهم وحاجتهم، فلما قال: ﴿

﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أكد أن لهم العزة ولكنه جاء بالتأكيد هنا حتى يتبين هذا الخفاء الذي يمكن أن يقع فيه أحد من أنهم لا عزة لهم، لا بل لهم العزة وأكد عليها مهما كانوا في قلة وحاجة.

هنا قال: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون: ٨] نفى عنهم العلم؛ لأنهم لم يتأملوا في أمارات ظهور المسلمين، فإن المسلمين في كل موقعة يدخلونها ينتصرون ويرتفع أمرهم وتعلو رايتهم، والقبائل التي تقاتلهم تذل وتقل ويدخل منهم ناس كثير في الإسلام فلذلك دل على أنهم لم يتأملوا هذا الحال الذي يبين حال المؤمنين في الظهور وحال الكافرين في الانحطاط وحال المؤمنين في ازدياد سلطانهم يومًا فيومًا وفي تناقص أعدائهم كذلك؛ إذ هو أمر مشاهد، فكيف يظن المنافقون أن عزتهم أقوى من عزة قبائل العرب الذين يسقطون بأيدي المسلمين، هذا دليل على جهلهم وعدم نظرهم وتأملهم في الواقع الذي يدل على ارتفاع ذات المؤمنين مع القلة والحاجة وانحطاط غيرهم من القبائل القوية الممتنعة، حتى في وجود هؤلاء من أهل المدينة.

كيف يصير المؤمنون أعزة؟

علمنا إذن أن العزة لرسوله، وطالما كانت العزة للرسول -صلى الله عليه وسلم- فالمعنى أن أولياؤه -صلوات الله وسلامه عليه - كذلك تتنزل عليهم هذه العزة، وما تتنزل العزة إلا أن يكونوا من أوليائه كما ذكر الله تعالى: ﴿ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٤].

فعندما ترتفع أسهمهم بالتعزز بالله تعالى، وكذلك يزيد تمسكهم بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم- وطاعته وأن يبذلوا وقتهم وجهدهم لنصرة دينهم، ونصرة نبيهم -صلى الله عليه وآله وسلم- فإن هذه العزة كلها تتحقق لهم.

هذه إذن النقطة الهامة فليست هذه الآيات على سبيل القصص والحكاية فقط، فالله تعالى يقول لك: ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين، كلام الله تعالى يريد أن يوصل إليك هذا المعنى: يا أيها المؤمنون الذين لم يفهموا مراد الله ومقصده أن هذه العزة للرسول وللمؤمنين إنما قد تأتت للمؤمنين باتباعهم للرسول وتأييدهم له صلى الله عليه وسلم، القرآن يوصل إليك هذا المعنى، أن هذه الولاية التي تتحقق بها العزة إنما تأتي من ولاية المؤمنين للرسول وتأييدهم له

ونصرتهم لدينه والقيام بسنته -صلى الله عليه وسلم- والدعوة له والجهاد تحت رايته، إلى آخر ما قام به المؤمنون الذي استحقوا أن يُحصلوا هذه العزة.

أما أن يقول المسلم: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ دون أن تتفكر فيها فماذا الذي أخذته من هذه الآية؟ وما الذي أصبت من حظ من فهمها والعمل بها؟ وماذا أخذت من حظ نفسك أنت أيها المسكين في تنقية هذا القلب من كل عزة إلا لله، ومن كل ولاية إلا للرسول، ومن كل فهم إلا لعزة النبي صلى الله عليه وسلم؟

إذن الكلام ليس على سبيل الإخبار فقط؛ لأن الإخبار واقع لا محالة عندما يقول الرب سبحانه وتعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فيقع الإخبار والتصديق بمجرد العلم، ولكن هل المؤمنون الموجودون اليوم قد حصلوا من هذه العزة شيئًا كما حصل المؤمنون الأولون؟ الجواب: لا، فلماذا؟

يقال: لتقصيرهم في أن يكونوا أولياء للنبي صلى الله عليه وسلم أولياء لله تعالى، تُراهم لو كانوا حول النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الحالة التي هم فيها الآن أكانوا ينتصرون؟ لقد انكسروا في أُحد بسبب مخالفة واحدة فقط، خالف الرماة النبي صلى الله عليه وسلم فأصابهم ما أصابهم، فما بالك بما نحن فيه من مخالفة أسباب العزة التي لا تعد ولا تحصى.

الآية الحادية عشر: آيات عزة القرآن

بقي الكلام على عزة الكتاب الكريم، وكيفية تحقق هذه العزة إلى صراط الله العزيز الحميد، وأن هذا الكتاب العزيز يهدي إلى هذا الصراط العزيز، ومعنى هذه العزة التي ينبغي التوصل إليها. فهذه العزة من أهم المطلوبات التي يجب على المؤمن أن يحصلها في معرفته بعزة الله؛ لأن المرء إذا علم أن كتاب الله عزيز آمن بأنه الحق، وإذا علم بأنه عزيز كان سبب هدايته إلى صراط الله وبابه وكان سبب هدايته على الصراط يوم القيامة وكان سبب رفعته وشرفه في الدنيا والآخرة.

وإذا ما كانت هذه العزة للكتاب على هذا النحو دلت على أنها باب عظيم من الأبواب التي نسأل عنها، كيف يصير المرء عزيزًا ؟ كيف يحقق معاني العزة التي نشرح فيها ونتكلم عنها

بعد أن تكلمنا على عزة الله، وكيف يحصل المرء منها ما يصير به عزيزًا وعزة الرسول وعزة الكتاب؟

وهناك العديد من الآيات التي تتكلم على عزة الكتاب قال تعالى: ﴿ حمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝ ﴾ [الجاثية: ١-٢] فكان الكتاب عزيزًا وأنزل من العزيز.

وإن هم قاموا بحق الكتاب وعرفوا حدوده وحقوقه وأوامره ونواهيه وعرفوا شرائعه وما ينبغي وما يترك، واهتموا بهذا الكتاب الاهتمام الكافي تلاوة وحفظًا أي تركوا هجره الذي ذكر الله تعالى من التلاوة ومن الحفظ ومن التدبر ومن الاستشفاء به والتحكم إليه، وغير ذلك فإنهم قد سلكوا طريق التعزز بهذا الكتاب الذي هو من عزة الله أو الذي أنزله العزيز، وحينئذ يحققون هذا المطلوب من العزة لهم.

إذا نظر الناظر حينئذ وجد أن سبب ذلة المؤمنين وسبب عدم عزتهم في أنهم لم يعتزوا بالله تعالى ولم يسيروا في الطريق الذي يحقق لهم تلك العزة ولا بعزة الرسول ولا بعزة الكتاب، بل تعززوا بالزائل كما ذكرنا في الكفار والمنافقين عندما ذكرنا شرح هذه الآيات التي ذكر الله تعالى فيها الكفرة: واتخذوا من دون الله آلهة ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا ۝ ﴾ [مريم: ٨١] أو أن الكافرين عندما علمنا أن العزة لله وحده سبحانه وتعالى فكأن عزة غيره عدم، وبالتالي كانت عزة الكافرين التي يعتزون بها من العدد والعدة والسلاح والمنعة، ويعتزون بها بما هم فيه من هيئة حسنة وشارة حسنة، وغير ذلك من الأمور التي تبهر أعين المؤمنين اليوم، فإنها ليست عزة على الحقيقة من ناحية، ومن ناحية أخرى إن الكافرين لا عزة لهم بل العزة لله جميعا ﴿ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا ﴾ [النساء: ١٣٩] سبحانه وتعالى.

خرج المؤمنون بهذا الحال أن العزة لله، وأنه ليس لأحد في غير سبيله وكتابه واتباع رسوله عزة، وأن الفاسق تقل عزته بقدر تقصيره وفسقه، وأن الكافر لا عزة له أصلا فيخرج من قلبه حينئذ التعزز بغير الله كفرة كانوا أو مالاً كانوا أو جاهًا أو سلطانًا أو أي شيء يتعززون به من دون الله فليس هو بعزة على الحقيقة، بل هو عدم كما بينا ذلك عندما شرحنا آيات كثيرة في هذا الحال، ونستكمل هذه المسألة.

وأول ما يصادفنا في هذا الكلام هو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴾ [فصلت: ٤١] وهذه آية مهمة جاءت في سياق قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢] ونشير إلى المعاني.

يقول[1]: وقد أجري على القرآن ستة أوصاف في هذه الآية ، ما منها واحد إلا وهو كمال عظيم:

الوصف الأول: أنه يذكر الناس كلهم بما يغفلون عنه، مما في الغفلة عنه فوات فوزهم، أي يذكرهم بما غفلوا عما فيه فوزهم، إذا فاتهم ذلك لم يفوزوا ، وهذا المعنى الأول للذكر ومن ثم كان هذا الوصف لازمًا للمؤمنين، فإن هم تعززوا به كان سبب عدم غفلتهم عن الله، فوحدوه وسبب عدم تركهم له فائتمروا بأوامره وانتهوا عن نواهيه، وكان سبب إدمانهم عليه والقيام بحقه وعدم التفريط في تلاوته وحفظه والدعوة إليه والتحاكم له وشفاء القلب من أمراض الشهوات والشبهات به التي قال فيها النبي –صلى الله عليه وسلم- فيما يحكيه القرآن: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٣٠].

الوصف الثاني : هو شرف للباحثين عن العزة كما قال: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف: ٤٤] يعني: إنه شرف لك ولقومك، وهو الشرف لأنه يجعل لهم –أي للعرب- سمعة حسنة بين الأمم يخلد لهم بها مفخرة عظيمة وهو كون هذا القرآن نزل بلغتهم ونزل بينهم .

الوصف الثالث: هو أنه كتاب عزيز، ومعنى عزيز، كما ذكرنا أي: النفيس، وأصله من العزة والعزة هنا بمعنى المنعة كما بينا في أول شرح العزيز أنه ممتنع، فهو كتاب ممتنع على كل أحد أن يستطيعه لا بحجة وبرهان ولا بإتيانه بمثله ولو بسورة ولو بدحض حقائقه وأخباره، وما ورد فيه، ولا بشيء، لذلك يقول: والعزة هي المنعة بأن الشيء النفيس يدافع عنه، فإن

---

(١) انظر: التحرير والتنوير– الطاهر بن عاشور– ج: ٢٤، ص: ٣٠٨ – الدار التونسية للنشر.

القرآن بين الإتقان، وعلو المعاني، ووضوح الحجة، ومثل ذلك يكون عزيزًا، والعزيز أيضًا الذي يَغْلِب ولا يُغْلَب ، وكذلك حجج القرآن الكريم، لا يستطيع الإنس والجن أن يغلبوا حجة من حججه أو أن يقيموا البرهان على شيء منه أنه خطأ أو غير ذلك حاشا لله تعالى؛ لأنه كنز من العزيز الممتنع جنابه، والممتنع العزيز كذلك لا يمكن أن يكون في كلام الإله الرب -سبحانه وتعالى- أي شائبة ، هو المتكلم وهو الخالق وهو البارئ وهو المصور وهو الذي يعلم وهو الذي فعل بالأمم السابقة وهو الذي أعد الجنة والنار، وهو الذي يعلم الأنباء وهو الذي يعلم ما يصلح الناس ويأمرهم وينهاهم، وهو الذي بين لهم توحيده وأسماءه وصفاته وكل ذلك، بحيث يمتنع على شيء من ذلك أن يغلب في حجة لأنه من الرب جل وعلا.

الوصف الرابع: أنه لا يتطرق إليه الباطل ولا يخالطه لا صريحه ولا ضمنه، أي لا يشتمل على الباطل بحال، وهذه في اللغة العربية معلومة في قوله -سبحانه وتعالى-: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ [فصلت: ٤٢] أي لا يأتيه الباطل مطلقًا، أي كما نقول: ﴿ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ﴾ [الروم: ٤] أي لله الأمر مطلقًا سبحانه وتعالى، وإنما تعبير العرب بهذا اللفظ ليبين لك أنه لا يأتيه الباطل لا من هنا، ولا من هنا ولا من هناك، أي يقصد أنه لا يأتيه الباطل من أي جهة كانت .

ترى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ويأتيه من فوقه أو عن يمينه أو عن شماله أو غير ذلك؟ لا يأتيه الباطل من أي جهة كانت؛ لذلك يقول: فمثل ذلك من بين يديه ومن خلفه والمقصود استيعاب الجهات كلها تمثيلاً لحال انتفاء الباطل عنه، أن الباطل منتف عنه من كل جهاته لا يأتيه، لا في ظاهره ولا في تأويله، وعندما يقول : ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ [فصلت: ٤٢] يشبهه بحال طرد المهاجم ليضر بشخص يأتيه من بين يديه فإن صده وقاتله أتاه من خلفه، قال الشيطان: ﴿ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ [الأعراف: ١٧] ، أي إن تيقظوا لما بين أيديهم ووقفوا أتاهم من خلفهم فإن تيقظوا في الجهتين أتاهم عن أيمانهم وعن شمائلهم . ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧] إلى آخر هذا المعنى الذي بينه سبحانه وتعالى في هذه الآية التي تبين ختل الشيطان وكيفية مهاجمته

للإنسان وإيقاعه من كل الوجهات، ومن كل الطرق في الضلال والبعد عن الله تعالى وفي التفريط والتقصير وفي مخالفة أمره والوقوع في نهيه، يعني في ذلك الفساد العظيم الذي دلل الشيطان على أنه لابد أن يغوي فيه بني آدم ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص: ٨٣] كما ذكر ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: ٨٢].

فقوله:﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ يعني لا يأتيه الباطل من أي جهة كانت حتى يطمئن المؤمنون إلى ما هم عليه من حق، وسنذكر هذه الآية بعد ذلك، ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ [فصلت: ٤٢] ومعنى ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ ولم يعبر بقوله: ليس فيه باطل، ومعناه أنه ليس للباطل عليه سبيل ولا يوجد فيه هو باطل إذا كان لا يأتيه، ترى هل يمكن أن يكون فيه باطل؟ لذلك قال: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ تعبيرًا عن أنه ليس فيه باطل، ولا يمكن أن يقربه الباطل، ولا أن يأتيه أو يجيء إليه، أو أن يتطرق له، أو أن يدخل عليه، ليس فيه باطل، ولا يدخله الباطل.

ولكن قد يقال: كيف ذلك وبعض الناس كان يتهمه بأن فيه باطلا؟ الجواب: أن الآية لم تقل: ولا يدعي عليه أحد الباطل، لا بل ادعوا عليه، والله علم بذلك، وقال هذه الآية، قالوا عن القرآن الكريم: ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ ﴾ [الفرقان: ٥] إذن الآية أشارت إلى هذين المعنيين أنه ليس به، ولا يأتيه الباطل، ولا فيه باطل كذلك، ولكن لم تنف أنه لا يدعي أحد عليه الباطل، بل يمكن أن يدعيه الكفرة وغيرهم أن فيه باطلاً، وهو ادعاء كاذب؛ لأنه لا يأتيه من الأصل.

الوصف الخامس: الذي جرى على القرآن هنا أنه مشتمل على الحكمة وقد بينا الحكمة، لأنه تنزيل من حكيم ولا يصدر عن الحكيم إلا الحكمة ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة: ٢٦٩] وإن كلام الحكيم –سبحانه وتعالى- يأتي محكماً متقنًا رصينًا لا يشوبه الباطل.

الوصف السادس: وهو: ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ والحميد بمعنى المحمود أي المحمود حمدًا كثيرًا الذي يحمد حمدًا كثيرًا سبحانه وتعالى.

ولقد ذكرنا في شرحنا هذا الاسم المكرم – الحميد – أن الحميد له معنى ثان فيها، وهو بمعنى الحامد، والحميد هو الله تعالى، فكان الكلام المنزل منه سبحانه وتعالى، كذلك يستحق الحمد، وإنما يحمد الكلام عندما يكون دليلاً للخير . متى يكون الكلام محمودًا؟ عندما تسمع كلامًا يقربك إلى الله يبعدك عن الشيطان، ويؤثر في قلبك، ويزهدك في الدنيا، ويحبب إليك الآخرة، ويرفع من عزيمتك، ويقوي عزتك، ويوقفك بباب الله تعالى، ويقوم بتعريفك بربك ومحبته سبحانه وتعالى، وأن يتزل الشفاء على قلبك جل وعلا، وأن تكون امرأ خير في كل مكان، تتزل فيه مباركًا أينما كنت إلى آخر هذه الأمور ألا يكون هذا الكلام محمودًا؟ إذن هو محمود.

إذن طريقتك أيها المسكين –نحن جميعا- حتى تحصل هذه الأخلاق التي تصل بنا في النهاية إلى كونه كتابًا عزيزًا هو أن تكون محمودًا بهذه الصفات التي هي في ذاتها محمودة من القرآن، وأن الله تعالى هو المحمود ذلك الحمد الكثير وكلامه كذلك محمود حمدًا كثيرًا سبحانه وتعالى.

والمؤمن به المتعزز السائر على دربه الملتزم لسبيله كذلك يأخذ حظه من المحمود بهذه الكمية التي يصير بها محمودًا، لذلك يقول: يكون دليلاً للخيرات وسائقًا إليها، لا مطعن في لفظه ولا في معناه فيحمده سامعه حمدًا كثيرًا؛ لأنه يجده مجلبة للخير الكثير ويحمد قائله لا محالة خلافًا لفعل المشركين.

وفي إجراء هذه الأوصاف التي ذكرنا من الذكر والعزة وعدم تطرق الباطل إلى الكتاب، إيماء إلى حماقة المشركين عندما يقول للمشركين: هذا كتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، يقول: أنتم أيها المشركون حمقى، عندما يأتيكم مثل ذلك المحمود الذي تصيرون به محمودين في الدنيا والآخرة ثم لا تتبعونه فهل أنتم حمقى أو لا؟ تستحقون ما يتزل بكم من الله تعالى في الدنيا والآخرة، لذلك أكمل الكلام إلى حماقة هؤلاء الكفرة الذين كفروا بهذا القرآن وإلى سفاهة آرائهم إن فرطوا فيه فرطوا في أسباب فوزهم في الدنيا والآخرة، ولذلك جيء بجملة الحال من الكتاب عقب ذكر تكذيبهم إياه فقال: وإنه لكتاب عزيز. أليس كذلك؟

فإشارة القرآن إلى الكفرة هي إشارة إلى حماقتهم وسفاهة آرائهم إن فرطوا في هذا الكتاب، وهذه الإشارة تنسحب كذلك تعريضًا على المؤمنين إلى أنهم بقدر ما يفرطون في هذا الكتاب وبقدر ما تكون حماقتهم بقدر ما تكون سفاهة آرائهم، وأنهم يستحقون التعريض من الله تعالى أنهم فرطوا في أسباب فوزهم. وكأنه دعوة للمؤمنين وتعريض للكافرين، ودعوة للمؤمنين ليبين لهم أنهم لا ينبغي لهم أن يكونوا كالمشركين حماقة وسفاهة بأن يفرطوا في هذا الكتاب؛ إذ هو سبيل عزتهم ونجاتهم ورفعتهم وشرفهم، سبيل فوزهم، سبيل محبتهم لربهم وإقبالهم عليه، سبيل تنزل الحكمة عليهم، سبيل تزكية الله لهم، سبيل نصرهم، سبيل مغفرة ذنوبهم، سبيل تنزل الرحمة إلى آخر ما بينا.

إذن كأن الآية تريد أن تأخذ عهدًا على المؤمنين أن يبدءوا في نبذ هذا التفريط الذي فرطوا في كلام الله، وأن يستعيدوا رجوعهم إليه وانكبابهم عليه حتى يحصلوا تلك الأسباب أسباب السعادة والفوز في الدنيا والآخرة، يحصلوا أسباب العزة المجتمعة التي بينا آثارها وعزة الله تعالى ومنعته التي يمنع المؤمنين بها.

الآية التالية: آية سورة غافر . قال تعالى: ﴿ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ ﴾ [الزمر: ١-٣] يقول[١]: فاتحة أنيقة -من الأناقة- في التعبيرات التي يعجز البلغاء عنها جعلت مقدمة لهذه السورة؛ لأن القرآن جامع لما حوته ولغيره من أصول الدين.

و" تنزيل " يدل على الشرف الذي نزل منه القرآن، والذي يوصف به القرآن، وكذلك كلمة تنزيل هذه من المضعَّف، وهي مشعرة بأنه أنزله منجماً، جزءًا جزءًا أو سورة سورة، على حسب الأحوال، وعلى حسب المراد، ومقصود الشارع على حسب الأحداث والوقائع، على حسب التدرج في التعليم والتربية، وغير ذلك من المعاني التي قصد فيها التنجيم، يعني: قصد فيها أن ينزل القرآن بهذا النحو على مدى ثلاثة وعشرين عامًا.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير- الطاهر بن عاشور- ج: ٢٣، ص: ٣١٤ – الدار التونسية للنشر.

لذلك يقول: واختيار هذه الصيغة هنا للرد على الطاعنين؛ لأنه من جملة ما تعللوا به، ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ﴾ [الفرقان: ٣٢] كان الرد: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ [الفرقان: ٣٢] وأجري على اسم الجلالة الوصف باسمه العزيز والحكيم يعني ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝ ﴾ [الزمر: ١] فأجري على اسم الجلالة – أي لفظ الله – أجري عليه هذا الوصف بالعزة والوصف بالحكمة للإشارة إلى أن ما ينزل منه يأتي على ما يناسب الصفتين.

فالقرآن عزيز غالب بالحجة لمن كذب به، وغالب بالفضل لما سواه من الكتب من حيث إن الغلبة تستلزم التفضل والتفوق، وغالب لبلغاء العرب إذ أعجزهم عن معارضة سورة منه، ويكون حكيماً مثل صفة منزله سبحانه وتعالى على الإتقان وعلى انتفاء الباطل وعلى الرصانة وعلى غير ذلك، مما ذكرناه في الآية السابقة أنه محكم متقن رصين لا يشوبه باطل.

والحكيم إما بمعنى الحاكم، فالقرآن أيضًا حاكم على معارضه بالحجة هو الذي يحكم على معارضيه بأنهم على باطل أو على حق، لا يحكمون هم ولا الدنيا كما ذكرنا؛ لأنه تزيل من الله: لأنه كلام الله تعالى، كما ذكر الله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٦] هذا هو كلام الله، لذلك فهو يقول فهو حاكم أيضًا على معارضيه بالحجة.

وهذا ليُثبت المؤمنين هذه الأيام، التي قد امتلأت بالتشويش والطعن والتطاول وقلة الأدب على الإسلام جملة، فهوا كم على غيره من الكتب السماوية كما قال تعالى: ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨] يعني هو الذي يصدق هذه الكتب فيقول: هذا الكلام صادق في الإنجيل في التوراة في الإنجيل في الزبور فيما جاء هذا الكلام كذاب، هذا الكلام ليس من عند الله هو الذي يصدقهم بما جاء من كلامهم من عند الله أو لا.

﴿ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨]: هو الحاكم على هذه الكتب وعلى هذه الكتاب كما قال الله تعالى: ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨]، والكتاب اسم جنس يشمل اسم الكتب التي نزلت قبل النبي -صلى الله عليه وسلم-.

والمعنى الثاني للحكيم: المحكم المتقن، فالقرآن مشتمل على البيان الذي لا يحتمل الخطأ ، وإما بمعنى الموصوف بالحكمة فالقرآن مشتمل على الحكمة كاتصاف منازله بها سبحانه وتعالى في أنه حكيم جل وعلا، كما يقول: وهذه معان مرادة من الآية فيما نرى على أن هذين الوصفين كذلك إشارة إلى أن القرآن معجز في بلاغة لفظه، وإعجازه العلمي؛ إذ اشتمل على علوم لم يكن للناس بها علم كما بينه ابن عاشور في المقدمة في العاشرة من تفسيره هذا.

إذن لو نظر الناظر لامتلأ قلبه يقينًا بهذا القرآن، وبأنه معجز ببلاغة اللفظ والمعنى، ومع ذلك قال الله تعالى لهم: ﴿ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ ﴾ [هود: ١٣] يعني ليس بعشر سور مثله على نمطه في ألفاظه أو على نمطه في معانيه، من أين يأتي بهذا المعنى؟ حتى لو جاء بنصف آية على نفس اللفظ، مثلاً يقول : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات: ١٧٣] مثلاً ماذا بعد ذلك: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾ [الصافات: ١٧٤] فماذا سيقول القائل؟ إن كان لها معنى فقد أعجزهم أن يأتوا بمثله وإلا فإنهم يأتون بنفس اللفظ فلم نستفد إلا أنهم قد أتوا بالقرآن نفسه، وأعجزهم أن يأتوا بمثله على أي حال.

يقول: وفي وصف الحكيم إيماء إلى أنه أنزله بالحكمة، وهي الشريعة -كما ذكرنا من قبل في معنى الحكمة- وفي هذه الآية الكريمة أن الكتاب تنزيل من الله وتنزيل منجم، يعني تنزيل مفرق على عدد سنوات البعثة المحمدية، فيه إرشاد إلى وجوب التدبر في معاني هذا الكتاب، ليتوصل بهذا التدبر إلى العلم بأنه حق من كتاب الله، قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

وجملة: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ [الزمر: ٢] تنزل منزلة البيان بجملة: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ ﴾ [الزمر:] وإعادة لفظ الكتاب للتنويه بشأنه، عندما يقول:

﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [الزمر: ١-٢]

فكرر نفس الكتاب حتى ينوه بشأنه وبعظمته، وأن الكتاب هو القرآن؛ لأنه المعلوم المعهود من المخاطبة الجارية عندما يقول: سلمت على فلان؟ يقول: نعم. فهي من قبيل " ال " العهدية كما يقول علماء النحو، فمثلاً يقال: رأيت القاضي، أو ذهبت إلى القاضي. ويعني ذهبت إلى المحكمة ورأيت القاضي ويقصد هو القاضي الأول، هذا هو المعهود من الكلام، ولكن لماذا كررها المولى - سبحانه وتعالى – كان يمكن أن يقول: إنا أنزلناه إليك بالحق فاعبد الله. إنما هو تنويه بشرفه وعلوه، وأن المنزل له هو الله - سبحانه وتعالى – فهذا قطع لأي طعن في قولنا تزيل أن هذا التنزيل افتراء قال: إنا أنزلنا - نحن الملك الجبار سبحانه وتعالى – الكتاب بالحق.

لذلك يقول: وفي هذه الآية من زيادة الإعلام بصدق النبي المنزل عليه الكتاب جدير بالتأكيد؛ لأن دليل صدقه ليس في ذاته بل هو قائم بالإعجاز الذي في القرآن وبغيره من المعجزات فكان مقتضى التأكيد موجودًا بخلاف مقتضى الحال في قوله: تنزيل الكتاب من الله.

فجملة: إنا أنزلنا إليك الكتاب تتنزل هذه الآية منزلة البيان في كلام التنزيل، وإعادة لفظ الكتاب للتنويه بشأنه جريًا على خلاف مقتضى الظاهر. لأن مقتضى الظاهر الإضمار، أن يضمر هذا اللفظ كما ذكرنا إنا أنزلناه إليك بالحق هذا مقتضى الظاهر من اللغة ألا يكرر الألفاظ القريبة من نفس المعنى.

ونحن نشير إلى هذه المعاني حتى نفهم هذا الكتاب الذي ينبغي أن يكون العزة فيه موضع اهتمام المؤمنين، ولنعلم لماذا تكلم عنه المولى سبحانه وتعالى ؟ وبما تكلم؟ وكيف تكلم؟ وكيف أشار إلى العزة في هذا التكلم، وكيف أعطاه هذه المعاني، وعرَّض بالمعاني، وأشار إلى المعاني، وأخفى معاني وأظهر معاني؟ كل ذلك حتى يتدبر المؤمنون كما ذكر هنا هذا الكتاب لتوصلوا بهذا التدبر إلى أنه حق من عند الله تعالى؛ لذلك قال المولى : ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝ ﴾ [سبأ: ٦]

فيبين فضل أهل العلم الذين تدبروا ما أنزل إليه، حتى وصلوا إلى أنه الحق وعلو شأنهم وكرامتهم على الله تعالى سواء على التفسيرين في الآية .

فالإشارة في هذه المعاني تكفي المؤمنين والتعريض يكفي إلى أن يتعلموا ما ينبغي أن يقبلوا به على هذا الكتاب ليحققوا عزتهم، وألا يصيبهم التفريط مثلما عرض بالمشركين في أنهم فرطوا في أسباب فوزهم، وهذا من حماقتهم وجهلهم وسفاهة رأيهم، وهكذا المؤمنون اليوم قد انشغلوا عن هذا القرآن هذا الانشغال الذي انشغلناه بالدنيا وبالولد والمعاش وبكذا وكذا، ولم يجعل المرء للقرآن ما يكون سبب فرج عليه في ذلك كله، في رزقه، ودنياه، ودينه، وعلمه، ومغفرته، ونصره، وتزكيته كما ذكر الله تعالى مما بينا في بعض الآيات.

يقول: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [الزمر: ٢] لماذا؟ قال: أن اؤمر بأن يعبد الله جل وعلا مخلصًا له العبادة. وفي هذا التفريع تعريض بما يناسب المعنى أن يعبدوا الله مخلصين له الدين علهم، بأن يدبروا في المعنى المعرض عنه، يعني المعنى الذي يحملهم على الإخلاص كيف لم يتدبروا فيه كما أشار بحيث يحملهم على الإخلاص في تلك العبادة، وهي الإشارة التالية في الآية، أن هذا الكتاب الذي ذكر الله تعالى فيه هذا القول: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ ﴾ نعمة كبرى تقتضي أن يقابلها رسول الله –صلى الله عليه وسلم- بالشكر . والشكر هنا إفراد الرب بالعبادة والإخلاص له.

لم يفكر أحد في هذا القرآن إذًا في أن يكون مخلصًا لربه العبادة، أو بمعنى أن يشكر الله بالإخلاص في العبادة له، وبذل الجهد لله تعالى في الإقبال بهذه العبادة على ربه، بهذا القرآن الكريم.

وهو إيماء إلى أن إشراك المشركين بالله تعالى في العبادة كفرٌ بهذه النعمة التي أنعم الله تعالى به علهم، إذ أن الشكر: تصريف العبد جميع ما أنعم الله تعالى به عليه فيما خلق لأجله، وقد خلق الخلق العباد كما قال: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦] والشكر أن تصرف كل شيء فيما خُلقت له، وقد خلقت للعبادة، فالشكر أن تصرف كل شيء من نعمه؛ لتحقق هذه العبادة لا لتنصرف عنها، وتفرط فيها وتسوف العمل بها وتتكل على المشيئة لتغفل عن آخرتك وتحصيل الزاد بها.

ولا شك أن المقصود بالأمر بالعبادة التوطئة إلى تقييد العبادة بحالة الإخلاص في قوله: ﴿ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ [الزمر: ٢] ليس فقط أن تعبد الله، فالمأمور به عبادته خاصة: ولذلك لم يكن الأمر بالعبادة مستعملاً في معنى الأمر بالدوام عليها، وإنما: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ ﴾ [الزمر: ٦٦] زادت هنا فاعبد الله وحده؛ لأن المقصود هنا زيادة التصريح بالإخلاص، والرسول-صلى الله عليه وسلم- منزه عن أن يعبد غير الله وألا يخلص في عبادته، فكان توجيه الكلام إلى أمة النبي صلى الله عليه وسلم.

فعندما تأتي آيات على هذا الترتيب: ﴿ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ [الزمر: ٢] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ [الأحزاب: ١] كل ذلك ليس متوجهًا إلى النبي بل متوجه إلى أمته من خلال النبي صلى الله عليه وسلم.

وقد يسأل البعض: وما معنى ﴿ ٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ [الأحزاب: ١]؟ ألم يكن النبي صلى الله عليه وسلم متقيًا لله؟ وقال تعالى: ﴿ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ [الزمر: ٢]؟ فهل لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم مخلصًا حتى يقول له الله تعالى: ﴿ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا ﴾ [الزمر: ٢] وكذا قوله: ﴿ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٦]؟ فهل لم يكن شاكرًا؟

وهل كان هناك أشكر منه صلى الله عليه وسلم لله تعالى وأعبد منه لله تعالى؟ ومن يجعل وقته وجهده كله لله مثله صلى الله عليه وسلم؟ ليس هناك أحد مثله صلوات الله وسلامه عليه.

إذن هذا الخطاب لمن؟ لنا نحن، ولكن في صورة النبي صلى الله عليه وسلم، ليكون أوقع للمؤمنين في الاتباع والالتزام.

المهم في نهاية هذه الآيات أن يعلم المرء معاني التنزيل، والتدبر، والتنويه بقيمة القرآن، والعبادة، وصرف كل ما أوتي المرء من نعم في شكر الله تعالى بالعبادة إلى آخر هذا، ويبين هذه النعمة الكبرى، وهي القرآن الكريم، وأنه سبب عزة المؤمنين، وأنه تنزيل من العزيز

الحكيم سبحانه وتعالى، وهذه العزة وهذه الحكمة من الله قد بينت كيف كان القرآن عزيزًا وكيف كان القرآن حكيماً: لكونه منزلاً من العزيز الحكيم سبحانه وتعالى.

علمنا ذلك فعلمنا طريقًا عظيماً بل هو الطريق الذي لا طريق غيره للعزة وهو طريق نسميه: **شكر نعمة القرآن الكريم سبيل لعزة المؤمنين.**

أن يشكر الناس هذه النعمة بالعمل بهذا القرآن هو سبيل عزتهم وأن يصرفوا جهدهم وكل ما أوتوا من أجل أن يحصلوا تلك العبادة التي أمرهم الله تعالى بها، أو التي خلقهم الله - تعالى - لأجلها وأن تكون هذه العبادة خالصة لله تعالى.

فهل تعاهد الناس مع الله تعالى على أن يشكروا نعمة القرآن ليحصلوا العزة، وشكر النعمة هنا، أن يصرفوا كل ما آتاهم الله تبارك وتعالى من قوى في تحقيق هذه العبادة، وأن يصرفوا وقتهم وجهدهم للتدبر الذي يصل بهم إلى التوحيد، وأن يتعلموا قيمة القرآن في كونه عزيزًا وفي كونه حميدًا وفي كونه حكيماً، وغيرها مما بينا من المعاني.

الآية الثانية عشر: بل الذين كفروا في عزة وشقاق

فقد ذكرت الآيات الكريمات أن للكفرة عزة، وأنهم اتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا، أي ليحققوا لهم تلك العزة التي يعتزون بها، ومن مظاهر هذه العزة التي يعتز بها الكفرة وينبغي أن يتطهر منها المؤمنون ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ...﴾ [البقرة : ٢٠٥] ويكون ملخص الكلام إذن أن الكفرة اتخذوا آلهتهم ليعتزوا بهم، وليتيمنوا بتلك العزة في آلهتهم، وأنهم سيغلبون بعزة آلهتهم، هذه الأولى، والثانية أن من مظاهر تلك العزة أن تأخذهم بالإثم، وفي نهاية القول هذه العزة التي هم فيها إنما هي عزة يظهر فيها الشقاق كما قال الله تعالى: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝ ﴾ [ص : ٢]/ نشير إلى بعض المعاني، ثم نشير إلى تفسير شيء منها.

قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ۝ ﴾ [مريم : ٨١] وظهر ذلك في قولهم لفرعون: ﴿ ... وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝ ﴾ [الشعراء :

٤٤] ظهر إذن تعززهم بهذه الآلهة الزائلة في هذا القول، والثالثة أن من مظاهرهم وآثارهم التي تبين حالهم السيئ في إبداء ذلك التعزز قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ...﴾ [البقرة : ٢٠٦] وهذه العزة عزة زائلة، لا تنفع في الدنيا ولا في الآخرة، بل هي ليست عزة على الحقيقة، كما ذكرنا قبل ذلك في ما يتعلق بالله تعالى في هذه المعاني.

الآية الأولى: قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ ﴾ [مريم : ٨١] يقول[1]: واتخذوا من دون الله آلهة عطف على جملة: ﴿ وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ ﴾ [مريم : ٦٦] وهذا العطف في ضمير اتخذوا، كأنه يقول: إذا مت أنا سأعود مرة أخرى إلى الحياة وأسأل وأحاسب، ذلك لن يحدث؛ لأنهم اتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا، أي حتى لو أحياهم الله جل وعلا بعد ذلك ليحاسبهم، أو قاموا هم من الموت فإن هذه الآلهة هي التي ستكون سبيل عزتهم.

وقوله: ﴿ وَاتَّخَذُوا ..﴾ عائد إلى الذين أشركوا، والاتخاذ هو أن يجعل الشخص الشيء لنفسه، أي جعل لنفسه من دون الله آلهة، أي اتخذ - هؤلاء الكفرة - لأنفسهم اعتقادا وعبادة آلهة من دون الله، وكان الحق أن يتخذوا ربهم، فيكون المعنى : ما كان ينبغي أن يتخذ من دون الله ذلك، بل لو اتخذ لنفسه شيئا أن يتخذ ربه سبحانه وتعالى؛ ليتعزز به، لذلك يقول: وفي فعل الاتخاذ إيماء إلى أن الحق يقتضي أن يتخذوا الله إله لهم؛ إذ بذلك يتقرر الاعتقاد الحق من مبدأ الخليقة، وهذا هو الراجح الذي ينبغي أن ترجحه العقول والفطر السليمة.

وقوله: ﴿ ...لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ ﴾ أي ليكونوا سبب عزتهم، أي سبب نصرهم، ونحن نتكلم عن هذه الآيات ليرى المرء كذلك الواقع الذي نحن فيه، أن هؤلاء الكفرة اليوم إنما اتخذوا من دون الله ما يكون سبب عزتهم، مع أن الحق أن يتخذوا المولى سبحانه وتعالى وحده سببًا لهذه العزة، وماذا في ذلك؟ أي ما الذي قررته الآيات؟ قررت الآيات بعد ذلك أن اتخاذهم

---

(١) انظر: التحرير والتنوير- الطاهر بن عاشور- ج: ١٦، ص: ١٦٣ – الدار التونسية للنشر.

لهؤلاء عزًّا لا يفيدهم شيئًا، وأنهم ليس لهم عز على الحقيقة، وأن العزة الحقيقية لله تعالى، وبالتالي فإن النصر بالله جل وعلا هو الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء، وأن هؤلاء الكفرة مهما ظنوا أنهم علوا وارتفعوا وتعززوا على ربهم وبالتالي على المسلمين والمؤمنين فإن ذلك لن ينفعهم شيئًا، وأن عزتهم زائلة، وأن المؤمنين يجب أن يكونوا على يقين من ذلك؛ إذ أن العزة الحق بالله، أي أن النصر الحق والولاية الحق والمنعة الحقة والغلبة الحقة لله تعالى، فلا يكون لهم الغلبة إذن إلا بالله، ولا يكون لهم نصر إلا بالله سبحانه وتعالى، ولا يكون لهم منعة تمنعهم من الكفرة إلا الله جل وعلا، حينئذ يفيق المؤمنون لأنفسهم، ويروا أن تلك العزة التي يتعزز بها الكفرة لا تغني عنهم شيئًا ولا تفيدهم شيئًا، ولا ترفع من قيمتهم شيئًا، بل على العكس هذه العزة التي يتعززون بها إنما هي عزة زائلة، ويتعلم المؤمنون ساعتها كيف يتعززون بالله لينتصروا، كيف يتعززون بالله ليغلبوا، كيف يتعززون بالله ليمتنعوا من هؤلاء المجرمين، وليحتموا بالله منهم سبحانه وتعالى؛ حتى يكون المدافع عنهم هو الله تعالى، وحتى يكون الناصر لهم هو الله جل وعلا.

فعزة الكفرة وارتفاعهم على المؤمنين إنما هو أمر ظاهر بتقصير المؤمنين في التعزز بالله تعالى، وأن المؤمنين مهما تعززوا بالله فإنهم سيغلبون هؤلاء الكفار، وينتصرون عليهم، وترتفع عليهم راية الدين، ومسئولية المؤمنين اليوم من هذا المنطلق، أن يصححوا فيه الاعتقاد والعبادة، أي الاعتقاد الحق في الله تعالى، وعدم التشكك في أن الله تعالى هو العزيز، وأنهم مهما كانوا قلة في العدة والعتاد والعدد فإنهم هم المنصورون كما ذكر الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات : ١٧٣].

مسئولية المؤمنين - إذن - كيف يعودون لعزة الله تعالى يتعززون بها، وكيف ينتصرون بها، وكيف يحتمون بالله تعالى فيها، بغير ذلك لا يصل بهم إلى حال يُرجى منه نصر الله تعالى، ولا يرجى منه عزة الله لهم، وبالتالي فإن هذه الأيام تحتاج منا ذلك كله؛ حتى ترتفع عزة الإسلام، وحتى تنخفض راية الكفر- بل هي مخفوضة - ولكن المصيبة فينا نحن، أما هم فلا عزة لهم على الحقيقة، وإنما العزة لله جميعا.

لذلك يقول هنا: فأخبر عن الآلهة بالمصدر؛ لتصوير اعتقاد المشركين في آلهتهم أنهم هم نفس العز، فالقرآن الكريم عبر هنا بقوله: ﴿ ...لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴾ لم يقل: ليكونوا لهم معزين، أو ليعتزوا بهم، وإنما عبر بالمصدر عَزَّ يَعِزُّ عِزًّا - ليصور هذا التصوير عند المشركين، أي لتكون آلهتهم نفسها هي العز، الذي يتعززون به، وكأن الآلهة التي هي العز تدل على ذلك الزوال؛ فإن العز لله جميعا.

وتدل من باب آخر على أن انتمائهم إلى هذه الأمور التي يتعززون بها تكسبهم ذلك العز، عندما يقول: الآلهة نفسها عز ، فمعناه أن انتمائك إلى هذا العز يكسبك ذلك العز، أو تلك العزة، فكأن هذا العز إنما يتعززون به بانتمائهم إليه، وفي الحقيقة لا ينتمون لشيء.

ثم قال- وهي المهمة للمؤمنين -: ﴿ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم : ٨٢] والمعنى: أن ما تتعزز به من دون الله ينقلب ضدًا لك، إذا تعززت بالمال إذا بالمال ينقلب عليك، وإذا بالجاه ينقلب عليك، وإذا بالسلطان ينقلب عليك؛ لأنه قد انقلب على الكفرة، وبالتالي ينسحب على المؤمنين الذين يتمثلون بهم، ويتعززون بمثل عزته، ولو تعززت بالمال علمت أن هذا المال الزائل سينقلب عليك، ستتعذب به في الدنيا والآخرة، تعززت بالسلطان نفس الكلام وكأن الرب سبحانه وتعالى ينبهك مرة أخرى على أن تجرد عزتك لله تعالى، وأن تنفي كل تعزز بغير الله سبحانه وتعالى، وأن ما تتخيل أنه يقويك أو يمدك أو يبسط لك سلطانا أو جاها إنما هو في الحقيقة ضدك؛ لأنه سيكون سبب هلاكك، المال يكون منه فقرك، والجاه والسلطان سيكون منه ذلك الذي أردت به العز، والعدد والعدة اللذان أردت بهما العز سيكونان لك فردا، كما يقول الرب سبحانه وتعالى بعد ذلك: ﴿ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم : ٩٥] .

هذا هو المعنى الجديد، وهو كيف لا يكون لك تعزز إلا بالله، وأن التعزز بغيره ينقلب ضدًّا لك، وأن ما تعززت به من مال وجاه ومنصب وسلطان وغيره سينقلب عليك لتفقده فترى نفسك لا عزة لك، ولا حيلة لك، ولا سلطان لك، ولا مال لك، ولا عدد لك، ترجع وحيدا فريدا فقيرا ذليلا، كما بينت هذه الآية الكريمة: ﴿ ... سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ ...﴾ [مريم : ٨٢] هؤلاء

المشركون الذين اتخذوا هذه الآلهة من دون الله لتعزهم سيكفرون حينئذ بعبادتهم، ويقولون: يا ليتنا اتخذنا مع الرسول سبيلا، أي سيكفرون بأولئك الذين ظنوا أنهم يمدونهم ويقوونهم، ويعطونهم السلطان والمنعة، سيكفرون، ولم يقل: سينقلبون ولا غيره؛ ليبين ما سيصلون إليه من أسوأ الحالات ﴿ ... سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ ﴾ [مريم : ٨٢] .

وقوله:﴿ ... سَيَكْفُرُونَ ...﴾ عائد إلى المشركين، أي سيكفر المشركون بعبادة الآلهة، ويكون مقابل لقوله:﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ ﴾ إذا بالله يقول: سيكفرون بتلك العباد ، وفيه تمام المقابلة، بعد أن تكلفوا جعلهم آلهة لهم سيكفرون بهذه العبادة، ﴿ ... ...وَيَكُونُونَ ﴾ راجع أيضا إلى المشركين أي: سيكفر المشركون، والسين هنا ﴿ ... سَيَكْفُرُونَ ...﴾ للاستقبال، أي للحصول السريع لهذا الاستقبال، أي: عندما تقول: سآتيك إن شاء الله أي: سآتيك بسرعة في المستقبل، وحصول هذا الاستقبال قريبا، كأنه يقول: سرعان ما يكفرون بعبادتهم، وسيكفرون بتلك العبادة سريعا، وبتلك العزة التي لم يجدوها سريعًا؛ لأنهم لماذا كفروا بعبادة هذه الأصنام التي اتخذوا من دون الله؟ هم اتخذوها لتكون لهم عزًّا، فلم تكن لهم عزا، فماذا فعلوا؟ كفروا بها، لذلك ستراهم سريعًا إن شاء الله وهم يحدث لهم ذلك ﴿ ... سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ ...﴾.

والآية فيها بشارة أيام النبي صلى الله عليه وسلم بأنهم سيكفرون بعبادتهم، وينقلبون على آلهتهم، كأنهم بتلك البشارة يدخلون الإسلام بمشيئة الله قريبًا، ذلك في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، وأن يكون هؤلاء المشركون ضدًّا لهذا الأصنام، يهدمون هياكلها، وهي بشارة للنبي صلى الله عليه وسلم بأن دينه سيظهر على دين الكفر، وفي هذه المقابلة طباق مرتين.

الآية التالية التي ذكرها الرب سبحانه وتعالى : ﴿ ... وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الشعراء : ٤٤] وقد ذُكِرَ هذا القول لما لاقوا موسى عليه السلام، إذا بموسى يقول لهم: ﴿ ... أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الشعراء : ٤٣] وقوله :ألقوا ما أنتم ملقون، فيه استخفاف من موسى عليه السلام بما سيلقونه؛ لأنه عزيز بالله سبحانه وتعالى، ومؤيد من ربه

جل وعلا، لذلك استخف بما سيفعلون، واستسهل ما سيأتون به من تلك الأسحار التي يموهون بها على خلق الله تعالى، قال: ﴿ ... أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴾ أي كأنه يقول: كل الذي ستلقون لا قيمة له، ألقوا ما شئتم ﴿ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الشعراء : ٤٤].

وقالوا ذلك - كما يقول[١] - استعانة وتيمنا بعزة فرعون، أي استعانوا بعزة فرعون، وتبركوا بهذه العزة الزائلة، وقالوا: ﴿... بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾ وقيل: الباء للقسم، أي بالله لأفعلن، كأنهم أقسموا بعزة فرعون على أنهم يغلبون ثقة منهم باعتقاد ضلالهم أن إرادة فرعون لا يغلبها أحد، وأقسموا لماذا؟ وهم لا يعلمون النتيجة؟ لأنهم يعلمون أن عزة فرعون لا يغلبها شيء، فإذا أراد شيئا فسيقع بمقتضى هذه العزة من فرعون؛ لأنها إرادة آلهتهم، والعزة كما ذكرنا هي القدرة.

وقوله: ﴿ ... إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾ كأنه تسميع، فكان الذي يسمع - سواء كان موسى عليه السلام أو غيره - سيقول: وماذا تغني بعزة فرعون؟ جاء الجواب: ﴿ ... إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾ فيقولون: إنا لنحن الغالبون، كأنهم لما قالوا ذلك أرادوا بهذا القول أن عزة فرعون لا يغلبها شيء، وأنهم بالتيمن بهذه العزة والاستعانة بها سيغلبون موسى، وبالتالي انتقلوا إلى هذه النقطة، وهي أنهم ألقوا في روع موسى عليه السلام ذلك المعنى، وهو التخويف من أنهم سيغلبون، أقسموا بالله سيغلبون بعزة فرعون، لذلك أرادوا بذلك إلقاء الخوف في نفس موسى؛ ليكون ما سيلقيه في نوبته عن خور النفس، وعدم عزيمتها؛ إذ ذلك من أكبر أسباب نجاح السحر، وأن يؤثر الساحر في من أمامه أنه سيقول كذا وكذا، أو سيفعل كذا وكذا، أو أنه سيضعف عن كذا وكذا، بحيث يكون هذا السامع في ذلك المحل الضعيف فتجده يتكلم أو يقول أو يفعل أو يعزم بما ألقاه الساحر في روعه، ويخيفه بهذا الأمر . فهذا من إلقاء الخوف

---

(١) انظر: التحرير والتنوير– الطاهر بن عاشور– ج: ١٩، ص: ١٢٧ – الدار التونسية للنشر.

في روع موسى عليه السلام عندما يأتي دوره ويلقي ما في يده، هم سيلقون ما في أيديهم، وهم يلقون ما في أيديهم يقولون: نحن الغالبون بعزة فرعون؛ حتى يتخوف موسى عندما يأتي ليلقي عصاه، ويضعف حينئذ عن مواجهة السحرة. فكأن السحرة يريدون بذلك هزيمته من هذه الوجهة النفسية التي ينجح بها الساحر في إظهار سحره.

لذلك قال: إلقاء الخوف في نفس موسى ليكون ما سيلقيه هو في دوره عليه السلام عن خور النفس، لأنهم يعلمون - أي السحرة - أن العزيمة من أكبر أسباب نجاح السحر، وتأثيرها على الناظرين، وقد أفادت جملة: ﴿ ... إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ مفاد القسم، أي كأنهم يقسمون: أننا الغالبون بعزة فرعون؛ ليؤكدوا ذلك المعنى في قلب موسى عليه السلام.

وهذا إنما منه نستفيد عدم التأثر بهذه الخزعبلات التي يلقيها الكفرة وأمثالهم، والشعوذات والشبهات والأضاليل، والتطاول على الدين والإسلام، الذي يظنون، كل ذلك إنما هو من إلقاء الخوف وبث الرعب في قلوب المؤمنين ليقفوا هذا الموقف الهزيل الضعيف، ليقفوا هذا الموقف غير القوي في مواجهتهم، وفي الرد عليهم، وفي استيفاء الحق منهم، كما هو الواقع المر اليوم، انه كلما ضغط هؤلاء الكفرة من العلمانيين وأمثالهم إذا بالمسلمين ينكمشون، ويقفون موقف الدفاع، وموقف التأويل لنصوص القرآن والسنة، وموقف الضعف وخور العزيمة عندهم، كلا، أنتم الغالبون بالله تعالى، لذلك قال: ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الشعراء : ٤٥- ٤٦] ليس هذا سحرًا، أي عندما ألقى موسى عصاه كما يقول المولى سبحانه وتعالى: ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الشعراء : ٤٦ - ٤٧].

لا يأتي بذلك إلا الله سبحانه وتعالى، ولولا أن موسى وقف معتمدًا على ربه، متعززًا به في مقابل هؤلاء بعزة فرعون، لاختلف الموقف شيئا، ولتضعضع شيئا، ولتشكك شيئا، وهو ما ينبغي ألا يقع فيه المؤمنون اليوم من هذا التردد والضعف والتشكك فيما هم فيه، بل يجب أن يقفوا موقف القوة بالله تعالى، موقف النصر بالله، المنعة بالله سبحانه وتعالى، لا التخاذل ولا المداهنة، ولا التهاون في تلك الأمور، ولا أن يأخذ موقف الضعيف المتأول لدينه، ولا موقف الموافق على أقوالهم ليصل إلى مصلحة لا قيمة لها.

فإذا قالوا: ﴿ ... بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ ...﴾ يقول المؤمنون: بعزة الله نحن الغالبون قطعًا، وأن فرعون لا عزة له، وبالتالي لا غلبة ولا منعة، وقد أثبت الواقع والتاريخ أنه لم يكن يملك لنفسه - فضلاً عن غيره - شيئًا، أخرجه الله تعالى، وضرب موسى البحر بعصاه كما قال المولى: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الشعراء :٦٣ - ٦٨]

والملاحظ في النهاية أن هؤلاء الذين يتعززون بفرعون يطلبون منه الأجر، كيف يتعززون به ويطلبون منه الأجر على أن يقوما له بهذه الخدمة؟!!! أليس هو صاحب العزة وصاحب النصر والكلاءة والمنعة، وأنه هو الذي سيرفع رايتهم، أليس كذلك؟ كيف يطلبون منه الأجر؟!!! الآيات لها معان كثيرة، ولكن نحن نقف على الكلام على العزة فقط.

<u>نأتي إلى آخر آية:</u> وهي آية سورة ص في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ ﴾ [ص : ٢] لماذا إذن لم ينتصروا بتلك العزة؟ لأن الذين كفروا في عزة وشقاق! والكلام فيها طويل، ولكن ما نقصده أنهم كما يقول : ﴿ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ ﴾ [ص : ٢] .

فإذا نظرت إلى ترتيب الآيات ستجد من الصعوبة أن توفق هذه ا[illegible]ـاق مع بعضه، ونوضح ذلك، لأنه إذا قلنا: ﴿ صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ ﴾ [ص :١]، فلا بد أن يتذكر هؤلاء المشركون، بهذا القرآن الكريم، ولا بد وأن يكون للقرآن - طالما أنه صاحب الذكر - تأثيرا في سامعيه، لذلك عندما يتوهم من يتوهم فيقول: إذن لماذا لم يتذكر الكفار لما كان القرآن ذا الذكر، ولم ينجع القرآن في تذكيرهم، ولم يكن سببًا لرفع الغشاوة والأغلفة عن قلوبهم وأبصارهم؟ يقول(١) هنا: ليس ذلك لضعف في تذكير القرآن، ولكن لأن الكفار متعززون

---

(١) انظر: التحرير والتنوير– الطاهر بن عاشور– ج: ٢٣، ص: ٢٠٤ – الدار التونسية للنشر.

مشاقون، أي ليس امتناعهم من الإيمان بالقرآن لنقص في علوه ومجده ولكن لأنهم عجبوا أن جاءهم به رجل منهم كما قال تعالى: ﴿ قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۞ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ...﴾ [ق : ١ - ٢].

والقرآن المجيد أي المُمجد العالي، الذي من سمعه بغير أغراض يؤمن به، ومن سمعه بغير أغراض يتذكر ويتعظ بهذا السماع، الذي من سمعه بغير أي موانع لا بد وأن يقبل به على الله تعالى، ولكنهم امتنعوا عن هذا الذكر، ولم يفدهم هذا الذكر والتذكير، ولم يكن سببا في لين قلوبهم وإقبالهم؟ فذلك ليس لنقص في القرآن، بل لأنهم متعززون مشاقون.

ومعنى ذلك أن الكلام أخذ في الثناء على القرآن، ثم انقطع عن ذلك الثناء إلى ما هو مهم، وهو بيان سبب بيان إعراض المعرضين عنه، هو يثني على القرآن بقوله: ﴿ صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۞ ﴾ [ص :١] كان ينبغي أن يستكمل الثناء على القرآن، ولكنه انقطع بقوله ﴿ بَلِ ...﴾ [ص : ٢] وهي للإضراب، يعني: أضرب عن هذا الكلام ليبين سبب إعراض المعرضين؛ لأنهم معتزون بأنفسهم، وأن شقاقهم هو السبب أنهم يشاقون هذا القرآن، ويشاقون الرسول ، ويشاقون الله تعالى.

والعزة - كما ذكرنا - إطلاقاتها في الكلام حول معاني الغلبة والمنعة والتكبر؛ فإن كان ذلك جاريا على أسباب واقعة فهي العزة الحقيقية وإلا فهي غرور وإعجاب بالنفس، فهي عزة مزورة، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ ...﴾ [البقرة : ٢٠٦] أي أخذته الكبرياء والمنعة، وشدة العصيان بذلك الإثم، وهي العزة الباطلة.

يقول: الشقاق هو العناد والخصام، فكأنه يقول: إنما تركوا التذكر بالقرآن عزة منهم، وهي العزة الباطلة، وهي تصور الغلبة والمنعة الباطلين في مواجهة القرآن الكريم، والشقاق يعني مشاقتهم لله ورسوله بالشرك بالله وبالتكذيب لرسوله، والمعنى أن الحائل بينهم وبين التذكير بالقرآن ما هو في قرارة أنفسهم من العزة والشقاق، من التعزز الذي ذكرنا أنه غرور وإعجاب بالنفس، وليس له حقيقة، بل هو عزة مزورة، وشقاق أي مشاقتهم لله الشرك، ولرسوله بالتكذيب، وكذلك لهذا الكتاب بالرد وعدم السماع، وعدم التفهم والتدبر، وهي مسألة تهمنا

كذلك، أن المرء يمتنع حين يمتنع عن تفهم القرآن وتدبره ومعايشته وتعلمه وتعليمه والتحاكم إليه والاستشفاء به.

كل ذلك يمتنع منه إذا ما كان في قلبه شيء من هذه العزة، وشيء من هذه المشاقة، كأنه لا بد وأن يسلم للعزة الحقيقية وهي عزة الله، وأن يترك مشاقة الرسول أبدا ومشاقة الله أبدًا، لا يكون الرسول والرب في جانب وهو في جانب، بل عليه التسليم لله تعالى التسليم المطلق؛ لأن في ذلك التسليم العزة لله سبحانه وتعالى، والعزة للمؤمن عندما يسلم لربه سبحانه وتعالى، لا يشاققه، ولا يجانبه، ولا يقف منه موقف المتشكك، أو موقف المتباعد، أو موقف المرتاب في هذه الآيات والأحاديث: لأنه لم يفهمها، أو لأنها لا تدخل عقله، أو لأنها ليست على الواقع اليوم في شيء، أو لأنها كذا وكذا مما نسمع كلا.

المؤمن الذي يريد العزة الحقة هو ذلك المسلم لله تعالى، الذي ترك مشاقته جل وعلا، إذا قيل له: اتق الله، لم تأخذه العزة بالإثم: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ...﴾ [النور : ٥١] في أنفسهم وفي غيرهم، صغيرا كان أو كبيرا ﴿ ... أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ...﴾ [النور : ٥١] هذا هو حال المؤمنين الذين ينتظرون العزة، على غير ذلك لا ينتظر من الله تعالى عزة له ولا منعة له ولا نصرا له، وهو ما يجب أن يقف عليه المؤمنون اليوم، مهما كانت الظروف مع هؤلاء الموجودين اليوم من المشركين والمنافقين والمتصدرين والمتأولين والمتشككين والمبطلين، كل أولئك أن يقف لهم هذا الموقف المسلم لله تعالى ولرسوله، وأن يقف منهم ذلك الموقف المتعزز لله سبحانه وتعالى من خلال العزة للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ ... وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ...﴾ [المنافقون : ٨].

الفصل الثالث:

الشاكر والشكور سبحانه وتعالى

أولًا: المعنى اللغوي للشاكر والشكور

تكلم الإمام القرطبي[1] على اسمه تعالى الشاكر والشكور لأنهما من نفس الباب، فقال: ومنها الشاكر والشكور يعني من الأسماء الحسنى لله جل جلاله وتقدست أسماؤه، نطق بهما التنزيل، يعني : القرآن الكريم فقال: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٥٨] وقال تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ [النساء : ١٤٧] وقال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر : ٣٤].

وجاء شكور في عداد الأسماء الحسنى وأجمعت عليه الأمة ولا خلاف في إجرائه على العبد إذا كان وصفا منكرا، يدل عليه قوله تعالى قول الحق: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء : ٣] وقوله تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ : ١٣] فليس الوصف لواحد بعينه إنما المراد به الجنس.

واسم الفاعل من شكر هو "شاكر"، وصيغة المبالغة من شكر: شكور وشكّار بتشديد العين وقوله تعالى: ﴿ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾ [الإنسان : ٩]، يحتمل أن يكون مصدرًا مثل قعد قعودًا، ويحتمل أن يكون جمعا مثل بُرد وبرود، وكفر وكفور، أو وكَفر وكفور، والشكور من الدواب ما يكفيه العلف القليل، والشكور من النبات ما يكفيه يسير الماء حتى ينبت ويطلع، ومنه الحديث ذكر يأجوج ومأجوج فقال صلى الله عليه وسلم: **(إن طيور الماء ودواب الأرض تشكُر من لحومهم شكرًا)** (٢) فالأصل في شكر: الزيادة على وصف مخصوص كما جرى بيانه في هذه الألفاظ.

وتكلم الناس في الحمد والشكر هل هما بمعنى واحد أم بمعنيين ؟ فذهب الطبري والمُبرد إلى أنهما بمعنى واحد سواء، وهذا غير مُرضي، والصحيح أن الحمد أن تثني على الممدوح بأن

---

(١) انظر "الأسنى في شرح الأسماء الحسنى"، الإمام القرطبي – ج: ١ ، ص ٣٢١– دار الصحابة للتراث

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده (١١٣٢٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعا.

تمدحه بصفاته الحسنى، يعني نقول : حمده على شجاعته وعلى صدقه وكرمه، ولا نقول : شكره على شجاعته، تقول : شكره على ما أعطاه من مال ووقف جانبه في حالِك الأيام مثلا، أو بما أسدى إليه من معروف ، إنما الحمد كما يقول ثناء على الممدوح بصفاته من غير سبق إحسان، أما الشكر فثناء على المشكور بما أولى من الإحسان.

هذا قول علماء اللغة الزجاج وغيره، قال الفراء : فيه لغتان يقول المرء : شكرت الرجل وشكرت له، والوارد في حديث النبي صلى الله عليه وسلم : **(شكر الله له فغفر له)** [1]، **(شكر الله لها فغفر لها)** [2] وهكذا.

ثانيًا : معاني الشاكر والشكور في حق الله تعالى

قال الحليمي : الشاكر في أوصاف الله عز وجل معناه:

المعنى الأول : المادح لمن يطيعه والمثني عليه والمثيب له بطاعته فضلا من نعمته سبحانه وتعالى. فأما ثناؤه سبحانه وتعالى على خيار خلقه فإنه مدح نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] وقال : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٢٨] وقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] وقال في إسماعيل عليه السلام : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ ﴾ [مريم : ٥٤] وقال في لخليل : ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ [النجم : ٣٧] وفي الكليم موسى عليه السلام : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا ﴾ [مريم : ٥١] وقال : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾ [الفتح : ٢٩]

---

(١) رواه مسلم (١٩١٤) كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل إزالة الأذى.

(٢) رواه البخاري (٢٣٦٣) كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء، ومسلم (٢٢٤٤) كتاب السلام، باب فضل سقي البهائم المحترمة وإطعامها .

وقال تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] وقال تعالى: ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [المائدة : ٥٤] فخص النبيين وعم المؤمنين.

وإذا نظرت إلى معنى الثناء فالرب تعالى إذا أثنى على أعمال عباده فقد أثنى على فعل نفسه، فمعنى الثناء أنك قد أثنيت على غيرك أليس كذلك؟ وربنا عندما يشكرك ويشكر فعلك يكون في الحقيقة يشكر نفسه . أليس كذلك ؟ لماذا؟ لأن أعمالهم من خلقه هو الذي خلق أعمالهم سبحانه وتعالى فإن الذي أعطى فأثنى مشكورًا ، فالذي أعطى وأثنى على المعطي فهو أحق أن يكون شكورًا، أليس كذلك ؟

لو أعطاك أحد وهو الذي شكرك يكون أحق بالشكر أو ليس أحق؟ إذن يكون هذا الشكور على الحقيقة هو الله تعالى . إنما شكر فعل نفسه لأن فعل العبد من خلق الرب سبحانه وتعالى ، فثناء الله تعالى على عباده كقوله تعالى :﴿ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ ﴾ [الأحزاب : ٣٥] أو كقوله تعالى :﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص : ٣٠] .

وقد ذكرنا مثلها في قصة سيدنا موسى عليه السلام لما قال : يا ربي إن أنا صليت فمنك وإن أنا تصدقت فمنك وإن أنا بلغت رسالاتك فمنك، فكيف أشكرك؟ قال : الآن شكرتني.

فإن جعلتني أصلي -سبحانه وتعالى – فهذه نعمة عظيمة بدليل أن هذه النعمة قد حرمها غيرك أليس كذلك؟ وهذه النعم الباقية من العبادة والقرآن والذكر كل ذلك ألم يحرمها أناس آخرون؟ حرموها أم لم يحرموها؟ محروم منها كثير وأنت قد أعطيت هذه النعمة أين شكر هذه النعمة منك إذن ؟

فقد عرفت أنها من الله تعالى صليت فمنه هو -كما ذكرنا- سبحانه وتعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى : ١٣] فإن هو قد هداك إلى طريقه سبحانه وتعالى واصطفاك له أليست تلك نعمة عظمى من الله تبارك وتعالى؟ يمكن أن يكون معك النقود فتبخل بها، هو سبحانه وتعالى يعينك على إخراج شح نفسك وحرص نفسك ويجعلك

تبذل له وتنفق له سبحانه وتعالى فكان ذلك نعمة عظمى من الله سبحانه وتعالى وهذا معنى إن صليت فمنك وإن تصدقت فمنك.

يقول ابن القيم[1]: فهو أولى بصفة الشكر من كل شكور، بل هو الشكور على الحقيقة فإنه يعطي العبد ويوفقه لما يشكره عليه، ويشكر القليل من العمل والعطاء، فلا يَستقلّه بل يشكر الحسنة بعشر أمثالها إلى أضعاف مضاعفة، ومهما عمل المرء من عمل فإن الله تعالى يشكره له، يشكر الله له ذلك، وقد ذكرنا حديث النبي صلى الله عليه وسلم (البغي التي سقت الكلب فشكر الله لها، فغفر لها)[2]، وهذا الذي أزال أو (رفع هذا الجذع من طريق المؤمنين يؤذيهم شكر الله له فغفر له فأدخله الجنة)[3]، لهذا العمل القليل لأنه رفع هذا الجذع جذع الشجرة من طريق المسلمين .

ونذكر هذا الكلام حتى تحب ربك وحتى لا تحتقر شيئا من المعروف، وحتى تستكثر من هذا المعروف لتحصل هذا الشكر العظيم من الله تعالى، أنت في حاجة إلى أن يشكرك الله تعالى، يعني إلى أن يترتب على شكره هذا سبحانه وتعالى تلك الإثابة الضخمة منه سبحانه وتعالى، فهلا استكثرت مما يشكرك الله تعالى عليه ؟ وهلا كان همك أن تفعل ما يكون سببا لشكر الله لك ؟

ويشكر عبده بإعطاءه الحسنات والشكر الثاني بأن يثني عليه بين ملائكته وبين ملئه الأعلى ثم يلقي له الشكر بين عباده ويشكره بفعله

والشكر الثاني قد ذكرنا أنه الثناء، فمع أنه هو سبحانه الذي وفق للعمل الصالح، هو الذي يثني عليه كما أشرنا في الآية : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص : ٤٤]

---

(١) انظر: عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، ابن القيم ص: ٢٨١، طبعة مكتبة دار التراث– المدينة المنورة.

(٢) رواه البخاري (٢٣٦٣) كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء، ومسلم (٢٢٤٤) كتاب السلام، باب فضل سقي البهائم المحترمة وإطعامها .

(٣) رواه مسلم (١٩١٤) كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل إزالة الأذى عن الطريق .

يقال : أنت الذي أعطيته الصبر وأنت الذي منحته القوة على تحمل ذلك، وأنت الذي وهبت له، وأنت الذي أحسنت إليه ثم تشكره ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ [ص : ٤٤].

وإذا بذل له شيئا رده المولى عليه أضعافا مضاعفة و هو الذي وفقه للترك والبذل وشكره على هذا وذاك وانظر إلى المرء عندما يترك شيئا لله تعالى يعطيه سبحانه أفضل منه، وإذا بذل له شيئا رده عليه أضعافا مضاعفة حتى يتعلم المرء تصحيح أعماله، **وأنه لا يضيع له عند الله شيء**، وأنه مهما ترك راحته وبذل ماله وترك دعته وسكونه ونومه ليقوم لله تعالى إذا بالله يشكره فيرد له ذلك أحسن وأجزل وأكمل وأتم، يقول وهو الذي وفقه للترك والبذل، من الذي وفقه إلى أن يترك المعصية، أو أن يترك راحته ونومه من أجل أن يذكر الله، من الذي وفقه ليتصدق ويصلي وأن يقوم وأن يصوم وأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وأن يصبره على العلم النافع والعمل الصالح ؟

قال: ولما عقر نبيه سليمان الخيل غضبا له إذ شغلته عن ذكره عاضه عنها بالريح، يعني لما غضب سليمان عليه السلام من خيله التي شغلته عن ذكر الله تعالى فكرهها ماذا عوضه ربه ؟ أعطاه الريح بدلا من الخيل التي تجري بهذه السرعة البطيئة: ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [ص الآيتان: ٣٦، ٣٧] انظر ما رزقه الله تبارك وتعالى لما ترك لله جل وعلا وبذل له هذا الأمر.

ولما ترك الصحابة ديارهم وخرجوا منها في مرضاته سبحانه وتعالى أعاضهم عنها أن ملكهم الدنيا وفتحها عليهم، ، ولما احتمل يوسف الصديق عليه السلام ضيق السجن شكر الله له ذلك بأن مكن له في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء

نذكر هذه الأمور لنعلم شكر الله تعالى أو شيئا من شكره ؛ حتى يسارع الناس إلى فهم هذه القضية ويحاولون أن يشكروا الله تعالى، ولما بذل الشهداء أبدانهم له سبحانه وتعالى حين مزقها أعداؤه شكر لهم ذلك بأن عوضهم منها طيرا خضرا أقر أرواحهم فيها ترد أنهار الجنة وتاكل من ثمارها إلى يوم البعث، فيردها عليهم أكمل ما تكون وأجمله وأبهاه.

ولما بذل رسله أعراضهم لأعدائهم فنالوا منهم وسبوهم وآذوهم فعاضهم من ذلك بأن صلى عليهم هو ملائكته وجعل لهم أطيب الثناء في سماواته وبين خلقه فأخلصهم بخالصة ذكرى الدار.

كل منا يخاف على نفسه أنه يصلي وأنه يبذل وقته. وأنه يقوم لله تعالى ويقول أنه سوف يتعب، وأن الصلاة طويلة، ولا يتنعم بنعيم الله تعالى، ويقف له ويبذل وقته وجهده لله، فيعوضه الله تعالى عن هذا الوقت وعن هذا الجهد ببركة الجسم وببركة الوقت وببركة القوة، ويفتح أنواع الفتوح، لما أقبل على الله سبحانه وتعالى وترك له امرأته الحسنة. وترك له ولده ووقته وجهده وذهب إليه تراه سبحانه وتعالى لا يعوضه عن ذلك، انظر إلى هذه المعاملة القبيحة منا كما يقال: نعمي إليهم نازلة وشرهم إلي صاعد.

فهو سبحانه وتعالى يشكر العبد على إحسانه لنفسه والمخلوق إنما يشكر من أحسن إليه. الله يشكر العبد على إحسانه لمن؟ لنفسه. كما قال من أحسن فلنفسه ومن أساء فعلها، ومع ذلك لا يشكره على إحسانه لنفسه. والعبد يشكر العبد مثله على إحسانه لغيره، بأنه أحسن إليه فشكره. أما الله تعالى يشكرك على أنك تشكر لنفسك أليس كذلك؟ وأنت لا تريد أن تحسن لنفسك حتى يشكرك الله تعالى وتقصر في ذلك وتتكاسل عنه وتتوانى. وتتململ من أن تفعل لنفسك شيئا يكون مصدر شكر الله لك.

وأبلغ من ذلك أنه سبحانه هو الذي أعطى العبد ما يحسن به إلى نفسه، يعني من الذي أعطاك القوة التي تحسن بها إلى نفسك؟ هو الله تعالى، ثم شكرك على ذلك، ، أليس القوة التي أعطاك لتحسن بها أو المال الذي وهبك لتحسن به إلى نفسك، هو الذي أعطاك هذا المال فأحسنت منه لنفسك فشكر لك. قال لك : خذ هذا المال وقال : أحسن بهذا المال لنفسك، فلم تحسن فأحسنت فشكرك وهو الذي أعطاك ذلك. والمعنى المهم هنا أنك لا يصل من إحسانك إلى الله شيء، ولا نقص من ملكه في تقواهم شيء.

يقول : وكذلك شكر لصاحب ياسين مقامه ودعوته إليه، قال : ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [يس : ٢٠]، فنوه الله تعالى بذكره في

نهاية الآيات وأدخله جنته حتى قال : ﴿ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾ [يس: ٢٦، ٢٧].

المعنى الثاني : الذي يدوم شكره ويعم كل مطيع وكل صغير من الطاعة أو كبير

فقد جازى سبحانه وتعالى عباده في العاجل ووعدهم بحسن الجزاء في الآجل وأخبر أنه يضاعف الحسنات ويتجاوز عن السيئات فهو سبحانه وتعالى المتفرد بشكر الشاكرين وثواب المطيعين قال الله العظيم : ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴾، فهو سبحانه يجازي ويثيب ويعطي وهذا هو الفعل، فإن الفعل الذي يقوم به المولى سبحانه وتعالى لعباده والذي يدل على كونه شكورًا هو إثابتهم سبحانه وتعالى.

فعلى قول الحليمي يرجع مدلول هذا الاسم إلى ثنائه على المطيعين فيكون من صفات الذات؛ لأنه يرجع إلى صفة الكلام واختاره ابن العربي. ومن صرفه إلى جزائه سبحانه وتعالى على شكر الشاكرين فيرجع إلى فعل مخصوص ويكون من أسماء الأفعال يعين من صفات الأفعال.

لذلك فالشكور والشاكر ينطبق على كونه من صفات الذات، ومن صفات الأفعال ، فهو من صفات الذات لأن الله تعالى متصف به أزلاً وأبدًا، ومن صفات الأفعال لتعلقه بالمخلوقين الذين لم يوجدوا أزلا بل وجدوا بعد ذلك فتعلق الشكر بهم فصار من صفات الأفعال.

المعنى الثالث : أنه سبحانه شكور بمعنى مشكور:

فالله سبحانه وتعالى يحمد على ما وجب له من صفات الجلال والكمال ويشكر على ما أسداه من معروف. فلما نقول شكرت له ما أسداه من جميل سبحانه وتعالى فهو شكور بمعنى أنه مشكور على ما أسدى وعلى ما أعطى وعلى ما وهب وعلى ما أنعم وعلى ما تفضل وعلى ما أحسن وعلى ما جاد سبحانه وتعالى. فيكون وصفًا ذاتيًا بالنسبة إلى من يشكره، فهو سبحانه يشكر على ما أسداه وما أعطاه وأولاه من معروف لكل أحد، فيكون سبحانه وتعالى شكورًا على هذا بمعنى مشكور ، فمشكور تأتي في اللغة بمعنى مفعول أو فاعل أي عندما نقول أنه حميد يعني حامدا سبحانه وتعالى أو محمودا.

فلما أقول شكرت فلانا على فعل فهو شكور أي فلان هذا شكور بمعنى أنه مشكور؛ لأني شكرته فوقع عليه شكر الشاكرين فصار مشكورًا. من هذا المعنى يكون الله تعالى مشكورًا .

المعنى الرابع: الذي يجازي بكثير الدرجات على يسير الطاعات

ويعطي بالعمل في أيام معدودة نعيما غير محدود في الآخرة ، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ﴾ [هود : ١٠٨].

ومن جازى الحسنة بأضعافها يقال : إنه شكر تلك الحسنة فإذا أحسنت إلى أحد وأعطاك على هذه الحسنة عشر حسنات فقد شكر لك هذه الحسنة، ومن أثنى على المحسن أيضا يقال أنه شكره، فإذا نظرت إلى معنى الزيادة **لو أحسن إليك امرؤ بحسنة واحدة هل تستطيع أن تعطيه ألف حسنة ؟** أو لما أحسن لك حسنة واحدة هل تستطيع أن تعطيه كل يوم في مقابلها هذه الحسنة مائة حسنة إلى يوم يبعثون مثلاً ؟ أعطاك اليوم جنيها لك هل تستطيع أن تعطيه مائة جنيه إلى أن يموت أو تموت؟ أو أعطاك مائة جنيه هل تستطيع أن تعطيه ألف جنيه مقابلهم كل يوم أو أعطاك شيئا أكبر من ذلك وفعل لك هل تستطيع أن تكافئه بذلك بشكر غير محدود ؟ هو أصلاً عطاؤه محدود وعمره محدود وماله محدود ويمكن أن ينفد في أي وقت فكيف يعطي عطاء غير محدود ؟

لذلك ينبغي للعبد أن يكون عمله على الإخلاص والسنة ، فإذا بالله تعالى لما عمل له هذا العمل يبتغي به وجهه سبحانه وتعالى وهو عمل قليل، والله تعالى لا يضيع عنده لا قليل ولا كثير ؛ الكلمة فما دونها مثقال الذرة -كما قال- من خير يكافأ به العبد، فإذا كان يكافئه على مثقال الذرة، ويعطيه على هذا المثقال الدرجات الكثيرة والثواب الجزيل والعطايا الكبيرة منه سبحانه وتعالى دل ذلك على كونه شاكرًا وشكورًا .

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾ [الحاقة : ٢٤] " يعني قليل من الأيام قد قضيتموها في الدنيا في العبادة والطاعة لله تعالى إذا به يكافئهم هذه المكافأة العظيمة أن يعطيهم سعادة الأبد في جوار الله تعالى والنبيين والصديقين والشهداء والصالحين، شكر لهم ذلك سبحانه وتعالى ، وكذلك فإنه سبحانه وتعالى شكر لهذه المرأة البغي

كما ورد في الحديث : (**بَيْنَما كَلْبٌ يُطيف بِرَكِيَّةٍ قَدْ كَادَ يقْتُلُه الْعطَشُ إِذْ رأتْه بغِيٌّ مِنْ بَغَايا بَنِي إِسْرَائيلَ، فَنَزَعَتْ مُوقَهَا فاسْتَقت لَهُ بِهِ، فَسَقَتْهُ فَغُفِرَ لَهَا بِهِ**)[1] ، وشكر سبحانه لهذا الذي أخر جذع الشجرة عن الطريق ففي الحديث : (**بيْنَما رجُلٌ يمْشِي بِطريقٍ وجد غُصْن شَوْكٍ على الطَّرِيقِ، فأخَّرَه فشَكَر اللَّهُ لَهُ، فغَفرَ لَهُ**)[2] .

لذلك قال : إذا نظر المرء إلى هذه المجازاة إلى الزيادة **لم يكن الشكور المطلق إلا الله تعالى لأن زياداته سبحانه وتعالى في المجازاة غير محصورة ولا محدودة** فإن نعيم الجنة الذي هو لا حصر له ولا آخر له ولا حد له يكون على الحسنات القليلة في الأيام القليلة ، كما قال الله تعالى: ﴿ **كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ** ﴾ [الحاقة : ٢٤]. **لذلك لا يستحق الثناء على الحقيقة إلا لله سبحانه وتعالى.**

فإذا علمت أن الله تعالى شكور على اليسير من العمل فكيف لا تبذل اليسير والكبير والكثير من العمل لله تعالى ليتضاعف لك شكره وليتضاعف لك ثوابه و أجره وعطاؤه ووهبه في الدنيا والآخرة؟

يقول ابن القيم[3]: وأبلغ من ذلك شكره على القليل بالأضعاف المضاعفة التي لا نسبة لإحسان العبد إليها، فهو المحسن بإعطاء الإحسان وإعطاء الشكر، فمن أحق باسم الشكور منه سبحانه وتعالى.

---

(١) رواه البخاري (٢٣٦٣) كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء، ومسلم (٢٢٤٤) كتاب السلام، باب فضل سقي البهائم المحترمة وإطعامها .

(٢) رواه مسلم (١٩١٤) كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل إزالة الأذى.

(٣) انظر: عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، ابن القيم ص: ٢٨٢ ، طبعة مكتبة دار التراث– المدينة المنورة.

وتأمل قوله سبحانه : ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ [النساء : ١٤٧] .

وانظر كيف تجد في ضمن هذا الخطاب أن شكره تعالى، يأبى تعذيب عباده بغير جرم كما يأبي إضاعة سعيهم باطلا، فالشكور لا يضيع أجر محسن ولا يعذب غير مسيء سبحانه وتعالى، فشكره سبحانه وتعالى اقتضى ألا يعذب المؤمن الشكور وألا يضيع عمله، وذلك من لوازم هذه الصفة الجميلة .

ومن شكره سبحانه وتعالى أنه يخرج العبد من النار بأدنى مثقال ذرة من خير فلا يضيع عليه هذا القدر، كما جاء في الحديث: (أَخرِجُوا مِن النَّارِ مَن كَانَ فِي قَلبِه مِثقَال ذَرَّة مِن خير) [(1)] فهل أضاع عليه ذلك رغم أنه وفقه لهذه الذرة من الإيمان ؟ شكره عليها فأخرجه بها من النار سبحانه وتعالى.

"ومن شكره سبحانه وتعالى أن العبد من عباده يقوم له مقاما يرضيه بين الناس، فيشكره له وينوه بذكره بين عباده ، قال تعالى: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ [غافر: ٢٨]" ذكره المولى سبحانه وأثنى عليه ونوه به في الملأ الأعلى وبين المؤمنين إلى يوم الدين أليس كذلك؟ مع أنه قام مقامًا الذي أيده فيه بالقوة هو الله جل وعلا، والذي أرشده إليه هو الله تعالى والذي وفقه فيه وجعله لم يتلعثم، هو الله تعالى، والذي نصره بأن قام هو الله تعالى، فكل شيء من توفيقه سبحانه وتعالى ثم شكره بأن أثنى عليه ونوه بذكره إلى يوم يبعثون.

حظ العبد من اسم الله تعالى الشاكر والشكور

وإن من أحسن وجوه الشكر لنعم الله تعالى ألا يستعملها العبد في معاصيه بل أن يستعمل هذه النعم كلها في طاعته سبحانه وتعالى وهذا كلام جميل في معرفة الرب سبحانه

---

(1) رواه البخاري (٢٢) كتاب الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان في الأعمال.

وتعالى، إذن لما تجد لسانك يتحرك في غير ذكره وفي غير تعلم العلم أو في غير القيام بحقه والثناء عليه ومدحه تكون حولت هذه النعم من الشكر بها إلى عدم الشكر ولو استعملت النظر كذلك فيما حرم فقد كفرت شكر هذه النعمة، ليس الكفر الذي هو الكفر المخرج عن الملة بل كفران النعم.

لذلك كانت المسألة التالية: **أن الشكر يقتضي زيادة النعم** كما قال تعالى: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم : ٧] وعدمه يزيلها " أي عدم الشكر يزيل النعم كما قال القائل :

إذا كنت في نعمة فارعها فإن المعاصي تزيل النعم

وواظب عليها بشكر الإله فإن الإله سريع النقم

وانظر إلى أحوالنا لماذا تنزل علينا نقم الله تعالى والخطوب والبلايا ؟ لأن أقل شيء في الشكر لم يستعملوه وهو أنهم قد استعملوا ما أعطاهم من نعم في معاصيه سبحانه وتعالى فاستوجب ذلك محق هذه النعم، وفي نفس الوقت أن تنزل بدلها النقم، الله تعالى يصبر على عبده ويمهله ويعطيه ويفتح عليه، ثم إذا به لا يبالي بربه ولا يزال مبتعدًا في غيه بعيدًا عن أن يستعمل هذه النعم في مرضاته ، فتؤخذ هذه النعم، وربنا أعطاك نعمه وأعطاك إنعامًا وأفضالاً وإحسانا سبحانه وتعالى لكي تحاربه بها؟ وتعصيه بها؟!.

فهو سبحانه وتعالى مختص بالفضل الذي لا ينبغي لغيره فإنه يقبل اليسير الذي لا ينفعه من الطاعة ويبذل العظيم الذي ينتفع به كل من سواه، الله تعالى يقبل اليسير من الطاعة وهو سبحانه وتعالى لا ينتفع بهذه الطاعة لا القليل ولا الكثير، ومع ذلك يبذل العظيم على هذه الطاعة الذي ينتفع به كل من سواه.

على كل جارحة شكراً يخصها

والمسألة الجليلة_أن على كل جارحة شكرًا يخصها على كل جارحة من جوارحك شكر يخصها وعلى اللسان من ذلك مثل ما على سائر الجوارح، وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الأعضاء تقول للسان : **(اتق الله فإنما نحن بك فإن استقمت استقمنا وإن**

اعوججت اعوججنا) (١) .وشكر كل جارحة إنما هو باستعمالها بتقوى الله العظيم وذلك في امتثال ما يخصها من الطاعات وفي اجتناب ما يخصها من العصيان فشكر البدن ألا تستعمل جوارحه في غير طاعته سبحانه وتعالى ولكن شكرها باستعمالها في تقوى الله، وذلك في امتثال ما يخص هذه الجارحة من الطاعات وفي اجتناب ما يخصها من العصيان.

شكر القلب: وشكر القلب ألا تشغله بغير ذكر الله ومعرفته سبحانه وتعالى فلا تشغله بالصور ، تغمض عينك تجد القلب محشوا بصور الدنيا، المال والأماني والمناظر التي رأيتها والتي لم ترها وما تريده وتريد تعمل كذا في الدنيا وتكون كذا والوساوس والخطرات التي لا يعلمها إلا الله !

الذي يجب على المرء أن يتعلمه ، كيف يكون قلبه متحركا في طاعة الله تعالى ألا يشغله بغير ذكره ومعرفته، **وشكر اللسان ألا تستعمله في غير ثنائه ومدحه فتستعمل اللسان في الطاعات، ما يخصه من الذكر وقراءة القرآن والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقول** الصالح وكذلك الإصلاح بين المؤمنين، وقول العلم النافع، وقول الحق، شهادة الحق، أما ما يخصه من تجنب العصيان مثل الغيبة والنميمة والسخرية والكذب والاستهزاء وغير ذلك مما لا حصر له مما يقع فيه المؤمنون فضلا عن غيرهم.

وشكر المال ألا تنفقه في غير رضاه ومحبته ووراء ذلك تطوعات كثيرة للشاكر والشكور قام رسول الله صلى الله عليه وسلم من الليل حتى تورمت قدماه فقيل له : تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال: **(أفلا أكون عبدا شكورًا)** (٢) .

شكر من أسدى إليه معروفا من الناس

(١) رواه الترمذي (٢٤٠٧) كتاب الزهد، باب ما جاء في حفظ اللسان . وحسنه الشيخ الألباني في صحيح الترمذي (١٩٦٢) وفي صحيح الجامع (٣٥١) .

(٢) رواه البخاري (٤٨٣٧) كتاب تفسير القرآن، باب ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر.

ثم على المسلم أن يشكر من أسدى إليه معروفا من الناس قال صلى الله عليه وسلم :

(لا يشكر الله من لا يشكر الناس)[1] رواه أبو هريرة ، قال الخطابي : هذا الكلام يتأول على معنيين أحدهما : أن من كان طبعه كفران نعمة الناس وترك الشكر لمعروفهم كان من عادته كفران نعم الله تعالى وترك الشكر له .والوجه الآخر أن الله سبحانه وتعالى لا يقبل شكر العبد على إحسانه إليه إذا كان العبد لا يشكر إحسان الناس إليه ويكفر معروفهم لاتصال أحد الأمرين بالآخر.

وحديث (لا يشكر الله من لا يشكر الناس) حديث صحيح له معنيان . **المعنى الأول:** أن من كان طبعه كفران نعمة الناس وترك الشكر لمعروفهم كان من عادته كفران نعم الله تعالى وترك الشكر له، يعني من طبعه أنه لا يشكر الناس فهذا دليل على أنه لا يشكر ربنا، وأن هذه عادته مع الله تعالى، **والمعنى الثاني:** أن الله لا يقبل شكر العبد على إحسانه إن الله أحسن إليه طالما لا يشكر إحسان الناس إليه، يعني الناس قد أحسنوا إليه فلم يشكرهم، والله تعالى أحسن إليه شيئا فشكره قال : لا يقبل شكره حتى يشكر الناس أولا الذين أسدوا إليه هذا المعروف وقدموا له هذه الصنيعة.

ومثل هذا المعنى قوله الحق : ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [لقمان : ١٤] فأمر بشكر والديه، إذ كانا سبب وجوده وأمر بشكره سبحانه وتعالى إذ أوجده بعد أن لم يكن شيئا مذكورا وهداه إلى معرفته والإقرار بربوبيته ووحدانيته، فأبواه رباه إلى أن صار يقوم بنفسه فوجب شكرهما لذلك فإذا عقهما بالإساءة إليهما والمخالفة لأمرهما فكأنه لم يشكر لله الذي أوجده وهداه لارتباط أحد الإحسانين بالآخر فتحصل من هذا أن للشكر ثلاثة أركان الإقرار بالنعمة للمنعم، والاستعانة بها على طاعته، وشكر من أجرى النعمة له على يده تسخيرا منه إليه .

---

(١) رواه الترمذي (١٩٥٤) كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك، وقال : هذا حديث حسن صحيح.

هذا في كلام القرطبي وفي كلام بقية العلماء كابن القيم يقول : **أركان الشكر ثلاثة : الإقرار بها باطنًا، والتحدث بها ظاهرًا كما قال : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾** [الضحى : ١١]، **ثم تصريفها في مرضاة مسديها سبحانه وتعالى** . يقول هنا "وهذا الركن لم أره لأحد ممن تكلم عن الشكر فيما أعلم". فأتانا رحمه الله بركن ثالث لم يتكلم فيه أحد من قبل كأن الله تعالى هداه إليه كما يذكر هو رحمه الله تعالى ، وهوان تشكر من أجرى الله تعالى النعمة على يده وسخرها لك بسببه.

فمن أجرى لك نعمة المال، نعمة الهداية، نعمة البصر، نعمة الطاعة، نعمة التوفيق إلى الأعمال إلى غير ذلك أن تشكره. فهذا من أركان الشكر التي لا ينبغي التخلف عنها حتى يستكمل المرء شكر نعم الله عليه.

وسئل بعض الصلحاء عن الشكر لله فقال: ألاّ تتقوى بنعم الله على معاصيه. قلت: حقيقة الشكر ما ذكرناه وإن كان ما ذكره يتضمن معناه، وفي الحديث: (**من قال حين يصبح : اللهم ما أصبح بي من نعمة فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر فقد أدى شكر يومه، ومن قال ذلك حين يمسي فقد أدى شكر ليلته**)[1] وهذا الحديث في إسناده مقال، وإن كان كلامًا جميلا يشهد له كلام النبي صلى الله عليه وسلم .

الاعتراف بنعمة المنعم على سبيل الخضوع

وهذه هي الجملة يحفظها المؤمنون في معرفة الشكر وهو: **الاعتراف بنعمة المنعم على سبيل الخضوع** ، لأن الرجل قد يعترف بنعمة غيره على سبيل الاستهزاء به يعني ليس على سبيل الخضوع له غير معترف بنعمته ولكن لا يعيره التفاتا ولا يجعل له أي قيمة، ينظر إليه نظرة ضعيفة أو نظرة استهزاء أو نظرة قلة أو غيره ولكنه فعل له معروفًا.

---

(١) رواه أبو داود (٥٠٧٣) كتاب الأدب – باب ما يقول إذا أصبح. وسكت عنه.

مثل أن تقف في الطريق ويأتيك شخص مسكين وجدك لست قادرا على حمل الحقيبة فحمل لك الحقيبة وأوصلها لك فتقول له خذ مالا قال لك : لا شكرًا لا أريد شيئًا، هذا شخص مسكين فيكون شكرك الذي شكرته عليها ليس على سبيل الخضوع له.

العمل يكون على سبيل الشكر

ويبين هذا قول الله تعالى لآل داود : ﴿ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ﴾ [سبأ : ١٣] قال لهم : اعملوا شكرا، ، فماذا يعمل الناس ؟ يعني كل عملكم لله أن يكون على سبيل الشكر، لما تأتي لتصلي تقول له : يا رب هذا شكري لك على أنك وهبت الصلاة كما قال : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل : ٥٣] ولما تصوم تقول له : يا رب أنت الذي وفقت للصيام، وهكذا.

حقيقة الشكر الاعتراف بالعجز عن الشكر

لذلك قال تعالى : ﴿ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ﴾ [سبأ : ١٣] فقال داود عليه السلام : إلهي كيف أشكرك والشكر نعمة منك، فقال : الآن قد عرفتني وشكرتني إذ عرفت أن الشكر مني نعمة.

وهذه المسألة معناها مهم لأهل الإيمان، وهي: الاعتراف بالتقصير في شكر المنعم .قالوا : لماذا؟ قالوا : لأن شكرك نفسه لهذا المنعم هو نعمة منه ! بدليل أننا لم نفكر أن نجلس لنشكر ربنا ، فلما نجلس نشكر ربنا فهذا توفيق الله تعالى، أليس كذلك؟

لذلك تصل في النهاية أن شكر الله تعالى هو الاعتراف بالعجز عن شكر النعمة لماذا؟ لسببين :

الأول: أن النعم لن يحصيها أحد ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [النحل : ١٨]

الثاني: أن شكر نعمة الله .. نعمة من الله ، لأن الله تعالى قال : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل : ٥٣] .

والشكر هذا من أجلّ نعم الله تعالى عليك، لماذا؟ قال : لأنه بمجرد أن تشكر ربنا ستجيئك نعم أخرى ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم : ٧] لهذا كان شكر النعمة من أجلّ النعم ، لأن الله وفقك لهذا الشكر سبحانه وتعالى ولأنه لما وفقك للشكر دل ذلك على زيادة هذه النعم فالنعم ستجيئك زائدة، فالذي يشكر ربه على الصلاة والله تعالى وفقه لهذا الشكر وقبل منه ذلك الشكر إذا بالله يوفقه سبحانه إلى صلاة أكثر وأعظم، وفقه إلى الصدقة وشكر الله تعالى عليها إذا بالله تعالى يزيده من النعم التي أعطاه إياها فشكر بها.

لذلك نقول له : من أجل ذلك يكون الشكر هو الاعتراف بالعجز عن أداء هذا الشكر .

قال: **متى يعترف بالعجز ؟ قال : بعد أن بذل كل عمله شكرا لله تعالى**، إذن بذل ما في وسعه ليشكر الله تعالى حتى إذا لم يجد شيئا يبذله اعترف بعجزه عن هذا الشكر فهذا **قد وصل إلى حقيقة الشكر**.

الحذر من ترك الشكر

يقول ابن القيم[1]: ولما كان هو الشكور على الحقيقة كان أحب خلقه إليه من اتصف بصفة الشكر وأبغض خلقه إليه من اتصف بضد ذلك من الجحد والنكران

فأبغض الأشياء إليه الكفر وأهله وأحب الأشياء إليه الشكر وأهله قال تعالى : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان : ٣] وقال نبيه سليمان عليه السلام : ﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل : ٤٠] وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٧] وقال تعالى : ﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ

---

(١) انظر: عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، ابن القيم ص: ٢٨٢، طبعة مكتبة دار التراث- المدينة المنورة.

لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر : ٧]، وكل تلك الآيات في أن الله تعالى قد قسَّم الناس لشكور وكفور حتى يعلم المرء أنه ليس بين المرتبتين ثالثة يعني بين الشكور والكفور، إما أن تشكر وإما أن تكفر، يعني إمَّا أن تشكر، إمَّا أن تجحد نعم الله تعالى بترك الشكر أو بتصريف هذه النعم في غير مرضاته أو في غير معاصيه سبحانه وتعالى، وهذا كثير في القرآن يقابل سبحانه بين الشكر والكفر فهو ضده قال تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٤] فينقلب على عقبيه يعني يكفر ويرتد في مقابلها : وسيجزي الله الشاكرين، والشاكرون هنا هم الذين ثبتوا على الإيمان فلم ينقلبوا على أعقابهم.

فلا يهلك عليه بين شكره ومغفرته إلا هالك، وهذه هي المسألة، فكما ذكرنا في بداية القول أنه يغفر لهم إساءتهم ويشكر لهم إحسانهم، فإن هم أساؤوا ولم يشكروا فلا يهلك على الله إلا هالك، وهي النهاية التي ما منها بُدٌ في القول.

ولنحفظ هذا الكلام، فمن كان شاكرا سواء لله تعالى أو لعباده فإن ذلك يُعرضه لمحبة الله، والعكس، لأن هناك نفوسًا تعمل لها العمل والإحسان ولا يخرج منه كلمة شكر ! وهذه المسألة تحتاج إلى مجاهدة، لأن هناك أناس طبعهم هكذا تفعل مهما تفعل يقول لك : وماذا فعلت! نادرا ما تخرج منه كلمة شكرا لأحد، أو يجد أخاه في نعمة فيكون سعيدا أو لو عمل له شيئا يقول له : جزاكم الله خيرا أو زادك الله، أو إن شاء الله نجيئك في الأفراح وتخرج من قلبه فعلا أنه يريد ذلك لإخوانه فهذه مسألة في طباع الناس الخسيسة !

لأن بعض النفوس الخسيسة التي تقوم على سوء الطوية وخبث النية كما يقول العلماء، ولذلك يحتاج صاحب هذه النفس أن يجاهد نفسه، ألا يستصغر معروفًا من أحد حتى يشكره عليه وألا يستكثر على نفسه أن يقول جزاكم الله خيرًا، وأن يذهب إليه ليقول له ذلك وأن يتكلف عناء ذلك ولو كلفه وقتًا ومالا وجهدًا يذهب إليه ليشكره أو يثيبه على نعمه أو ليكافئه التحية بالتحية أو العمل الصالح بالعمل الصالح الذي أسداه إليه، لا يتأخر عن ذلك، يكافح نفسه على ذلك كلما يقول له شخص : السلام عليكم، يقول له : وعليكم السلام ورحمة

الله وبركاته وإحسانه ومغفرته، يعني كأنه يزيده في الرد الذي يثيبه عليه، ولا يحقر من المعروف شيئا كما ذكر حديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (لَا تَحقِرَنَّ مِنَ المَعرُوفِ شَيئا وَلَو أَن تُفرغَ مِن دَلوِكَ فِي إِنَاءِ المُستَسقِي وَلَو أَن تُعطِيَ صِلَةَ الحَبلِ....) [1] لو أراد أحد قطعة حبل صغيرة أعطه صلة الحبل، إلى غير ذلك من هذه النعم مهما كانت صغيرة وقليلة يعود لسانه حتى يأتلف اللسان والقلب على تذكر هذه النعم وشكرها وأن يقوم بحقها وأن يحقق في نفسه الركن الرابع الذي أشرنا إليه من أركان الشكر فيأخذ بذلك بحظه من هذا الاسم المشرف من أسماء الله تعالى .

وقد ذكرنا أن الله تعالى يشكر على اليسير من العمل من مثقال الذرة لو أنت عملت مثقال ذرة من خير الله تعالى يكافئك عليها، الله تعالى قال : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٧] يثيبه على هذا المثقال مثاقيل النر الذي لا قيمة لها في عين البشر إذا بها لا تضيع عند الله تعالى ويشكره عليها سبحانه وتعالى.

وعلى الجانب الآخر، فليس مقصود المرء أن ينتظر شكرًا من أحد، لأنك تعمل لله تعالى، وانتظار الشكر يخالف الإخلاص، كما قال تعالى في الآية : ﴿ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾ [الإنسان : ٩] يعني لا ثناء ولا عوضا، يعني لا تعطيني في مقابل ما أعطيتك شيئا ولا حتى أن تثني علي إن فعلت هذا الفعل. هذا هو معنى الجزاء والشكر، والشكور هو الإخلاص لا ينتظر من ذلك شيئا.

يقول: وكفران النعم الإجحاف في شكرها، بمعنى إما أن يترك شكرها ابتداء أو أنه يستخدم هذه النعم في معاصيه سبحانه وتعالى وهذا معنى جحد هذه النعم أو كفر هذه النعم، فالله تعالى يكره الجَحُود الكَنُود الذي يتصف بهذه الصفات وقد ذكرنا في أركان الشكر التي ذكرها الإمام القرطبي أن الركن الثالث هو أن تشكر من أجرى الله تعالى تلك النعم على يديه لك، فلا بد وأن ينشغل المرء بهذا المعنى .

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (٢٠١١٠) من حديث أبو جري الهجيمي رضي الله عنه مرفوعًا .

لذلك يقول : كما أن أبغض خلقه إليه من عطلها واتصف بضدها من تلك الصفة، يعني بضد الشكر، وهذا يثبت أن أحب خلقه إليه من اتصف بموجب أسماءه الحسنى كلها ؛ ، وأبغضهم إليه سبحانه وتعالى من اتصف بضدها.

ولهذا الله تعالى يبغض الكفور والظالم والجاهل والقاسي القلب والبخيل والجبان والمهين واللئيم كلها ؛ لأنها في مقابل تلك الأسماء الحسنى التي اتصف بها الله سبحانه وتعالى في كونه العليم وفي كونه العدل وفي كونه سبحانه وتعالى الكريم وفي كونه القهار إلى غير ذلك، وهو سبحانه جميل يحب الجمال، عليم يحب العلماء، رحيم يحب الراحمين، محسن يحب المحسنين، شكور يحب الشاكرين، صبور يحب الصابرين، جواد يحب أهل الجود، ستِّير يحب أهل الستر ، والمؤمن القوي -القوي الإيمان -أحب إليه من المؤمن الضعيف، عفو يحب العفو ، وتر يحب الوتر.

وكل ما يحب سبحانه وتعالى فهو من آثار أسمائه وصفاته وموجبها وكل ما يبغضه سبحانه وتعالى فهو مما يضادها فافهم هذا الكلام من أجل أن يخرج الناس الصفات السيئة والصفات الرذيلة التي هي فيها لأنها مما يبغضها الله تعالى . كل واحد يعرف الصفات التي توجد فيه من الجبن والخسة واللؤم والحقد والحسد والتكاسل وكل الأشياء التي يعلمها المرء من نفسه، ولو أظهرها سوف يكون سبب سقوطه في أعين الناس !

ثالثًا : الشرح الإجمالي لآيات الشكر في القرآن الكريم

بالنظر في آيات الله تعالى بالنسبة لاسم **الشكور في آيات الله** وجدنا عدة أمور:

أن الله تعالى هو الشاكر والشكور

وذلك في قوله تعالى: ﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ۝١٧﴾ [التغابن:١٧]، وفي آيتين من سورة فاطر: ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر:٣٠] و﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر:٣٤] والآية الرابعة في سورة الشورى: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الشورى:٢٣].

والاسم الثاني وهو الشاكر ورد في قوله تعالى: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ [النساء:١٤٧].

وهذه الآيات الأربعة في اسمه الشكور نراها قد اقترنت مع اسمه المكرم الغفور سبحانه وتعالى (غفور شكور) إلا في الآية الأولى: (إنه شكور حليم).

والمطالع لآيات القرآن إذا حاول أن يتدبرها يجد فيها أن الله سبحانه وتعالى بين لعباده كيفية الشكر وطريق الشكر فلما أمرهم بالشكر في هذه الآيات الكثيرة، لم يبخل عليهم كما هي عادته في كرمه سبحانه وتعالى على عباده أن يبين لهم بعض الطرق التي يشكرون الله تعالى بها سبحانه وتعالى، وهذا ما سوف نشير إليه بإذن الله تعالى.

وأول وصية وصى الله تعالى بها الإنسان بعدما عقل في هذه الحياة الدنيا هي أن يشكر لله قال تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [لقمان : ١٤] وأخبر أن رضاه سبحانه وتعالى في شكره فقال تعالى : ﴿ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر : ٧] وأثنى سبحانه وتعالى على خليله إبراهيم بأنه يشكر النعم فقال : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل الآيتان: ١٢٠، ١٢١] فأخبر عنه سبحانه بأنه أمّة، أي قدوة يؤتم به في الخير وأنه كان قانتا لله، والقانت في هذه هو المطيع المقيم على طاعته، والحنيف هو المائل إلى الله تعالى المعرض عن غيره، ثم ختم له بهذه الصفات بأنه شاكرا لأنعمه، فجعل الشكر غاية خليله سبحانه وتعالى.

وأخبر سبحانه وتعالى أن الشكر هو الغاية من خلقه ومن أمره كذلك، بل هو الغاية التي خلق عبيده لأجلها قال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل : ٧٨]، فقد ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قام حتى تفطرت قدماه من طول القيام، فقيل له في ذلك،

فقال : (**أَفَلا أَكُونُ عَبدًا شَكُورًا؟)** [(١)] وكما ثبت في المسند وسنن الترمذي أنه صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ: (**وَالله إِنّي لَأُحِبُّكَ، فَلا تَنسَ أَن تَقُولَ دُبُر كُل صَلَاة : اللَّهُمَّ أَعِنّي عَلى ذِكرِكَ وشُكرِكَ وحُسنِ عِبَادَتِك)** [(٢)] وقال صلى الله عليه وسلم : (**أَربَعٌ مَنْ أُعطِيَهُنَّ فَقَد أُعطِي خَيرَ الدُّنيَا وَالآخِرَة، قَلبًا شَاكرًا ، وَلِسَانًا ذَاكرًا، وبَدنًا عَلى البَلَاءِ صَابرًا، وَزَوجَة لَا تَبغِيه خَونًا فِي نَفسِها وَمَالِه)** [(٣)] ، وقد ثبت في صحيح مسلم، عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : **(إِنَّ اللهَ لَيرضَى عَن العَبدِ يَأكُلُ الأَكْلَة فَيَحمَدَهُ عَليهَا، وَيَشرَب الشَربَة فَيَحمَدَه عَليهَا)** [(٤)] فكان هذا الجزاء العظيم الذي هو أكبر أنواع الجزاء كما قال : ﴿ **وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ** ﴾ [التوبة : ٧٢] في مقابلة شكره بالحمد سبحانه وتعالى.

لعل أهل الإيمان، قد فهموا شيئًا عن هذه القضية ، فنحن عن هذا الشكر غافلون وإنه من **أعلى مقامات معرفة الرب سبحانه وتعالى التي لا يجوز للمرء أن يتخلف عنها،** لأنها ليس في مقابلها إلا الكفران بهذه النعم والله تعالى يبغض على هذا الحال السيئ والمرء يتمقت إلى الله تعالى بترك الشكر وهو لا يدري، ومن ثم كان واجب المؤمنين اليوم أن يسارعوا في تصحيح ما هم فيه من الأحوال السيئة وأن يدعوا الله تبارك وتعالى كما قال لمعاذ صلى الله عليه وسلم : **(اللَّهُمَّ أَعِنّي عَلى ذِكرِكَ وشُكرِكَ وحُسنِ عِبَادَتِك)** [(٥)] .

والمرء محتاج إلى أن يبتهل إلى الله تعالى أن يعينه على ذلك، وأن يوفقه إليه فمن أكرمه الله تعالى وفتح عليه باب الشكر فقد فتح عليه باب معرفته، وفتح عليه باب المزيد وفتح

---

(١) رواه البخاري (٤٨٣٧) كتاب تفسير القرآن، باب ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر.

(٢) رواه أبو داود (١٥٢٢) كتاب الصلاة، باب في الاستغفار، والنسائي (١٣٠٣) كتاب السهو.

(٣) أورده المنذري في الترغيب والترهيب (٣٢٩/٢) وقال : إسناده جيد.

(٤) رواه مسلم (٢٧٣٤) كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب .

(٥) صحيح : سبق تخريجه.

عليه باب عبادته وفتح عليه باب محبته، وفتح عليه باب زيادة النعم التي ذكرنا في الآيات والآثار التي أشرنا إليها .

حال الأنبياء مع الشكر

وذكر الله تعالى أن حالهم على ثلاثة أحوال في الشكر:

الأولى : الثناء عليهم بكونهم شاكرين، **والثاني** أنه سبحانه وتعالى ذكرهم بأمرهم بالشكر، **والثالث** بحالهم وهم يدعون الله تعالى أن يرزقهم الشكر.

وهذه المعاني معاني جميلة للمؤمنين قبل أن تكون للأنبياء لأن الأنبياء في الدرجة العليا وانتهت قضيتهم في الفردوس الأعلى وإنما لا زالت هذه الآيات باقيات للعبرة لأهل الإيمان كما ذكر الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف : ١١١]، فانظر إلى هذه المعاني الثلاثة التي بينها، ثم أكدها المولى سبحانه وتعالى بحال المؤمنين أنهم لا بد وأن يكونوا على هذا الحال، انظر إلى **الأولى** ذكر المولى سبحانه وتعالى نوحا فقال : ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝ ﴾ [الإسراء : ٣]

وفي تخصيص نوح عليه السلام هاهنا بالذكر وخطاب العباد بأنهم ذريته إشارة إلى الاقتداء به فإنه أبوهم الثاني، وإنهم من ذريته هو، لم يبق من ذرية آدم إلا من كان من ذرية نوح عليهما السلام كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ [الصافات : ٧٧]، لذلك كان في معنى الكلام أنه إشارة إلى أن يتصفوا بما اتصف به أبوهم نوح عليه السلام حيث إن الخلق كلهم من ذريته عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ، فأمر الذرية أن يتشبهوا بأبهم في الشكر فإنه كان عبدا شكورًا.

وقد أخبر سبحانه وتعالى أنما يعبده من شكره، فمن لم يشكره لم يكن من أهل عبادته: ﴿ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٢] وأمر عبده موسى أن يتلقى

هذا كله بالشكر فقال تعالى : ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٤٤].

وهذا الكلام متوجه لأهل الإيمان، فينبغي أن يقبلوا من ربهم ما يأتهم منه تبارك وتعالى، أن وأن يكونوا لذلك من الشاكرين.

والنقطة المهمة أن المولى سبحانه وتعالى إذا أثنى على نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم فإن الثناء الأول يكون لمن؟ للنبي صلى الله عليه وسلم، فأي ثناء حازه أحد من الأنبياء فالنبي في الدرجة العليا ؛ لأنه سيد ولد آدم ولا فخر صلى الله عليه وسلم. الثانية : في قوله تعالى :﴿ شَاكِرًا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝ ﴾ [النحل : ١٢١]

هذه في من ؟ في سيدنا إبراهيم عليه السلام، وهي كذلك تحت بند الثناء على عباده الخلص من الأنبياء علهم السلام.

الأمر الثاني أن الله تعالى أمر الأنبياء بالشكر وذلك في قوله لموسى عليه السلام :

﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝ ﴾ [الأعراف : ١٤٤]

وهذا قد أشرنا إلى إنه في مثل هذه الخطابات من الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم إنما يتوجه للأمة من وذلك في مثل قوله : ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝ ﴾ [الزمر : ٦٦] والأصل فيه أن يكون متوجها لأمة النبي صلى الله عليه وسلم . فمن يعبد هو صلى الله عليه وسلم ؟ وهو أول العابدين صلوات الله وسلامه عليه، وهو أول المؤمنين كما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم فيما ذكره الله تعالى عنه.

الأمر الثالث: وهو ما أثنى الله تعالى به على عباده الأنبياء لأنهم كانوا يدعون الله تعالى أن يبلغهم الشكر وأن يحملهم عليه جل وعلا فقال في حق سليمان :

﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

[النمل : ١٩]

وهذه الآيات في تلك الآية تحمل علاوة على طلب أن يحمله ربه على الشكر، وأن يزعه إليه وأن يحركه في كل أحواله أن يكون شاكرًا نرى فيها التواضع لله والإخبات له سبحانه وتعالى ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النمل : ١٩] إذا كان هذا دعاءهم وحالهم فما بال المؤمنين أن يدعوا ربهم، وما بال المؤمنين كذلك أن يكون حالهم مع الله تبارك وتعالى إذا كان سليمان عليه السلام يقول : ﴿ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النمل : ١٩] وهل هو ليس من عباده الصالحين حتى يطلب ذلك؟! ولكن هذا هو الانكسار لله والتواضع له سبحانه وتعالى، وقلنا في نهاية المطاف : إذا كان هذا هو حال الأنبياء تحت هذه البنود التي أشرنا فإن الله تعالى قد ذكر هذه الحال عن أهل الإيمان الخُلص الكُمَّل الذين قد تمثلوا بأحوال الأنبياء الأجلاء الذين ذكرهم الله تعالى عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين فإذا به يقول : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ ۖ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأحقاف : ١٥] وهذا ينبغي أن يكون حال المؤمنين في دعائهم المتواصل إلى الله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ﴾ [الأحقاف : ١٥] أن يزعه لهذه النعمة، أن يوزعه لشكرها وأن يحمله عليها وألا يتركه يفرط في شكر نعمة من نعمه بل أن يجعله شاكرًا لربه راجعا له كل نعمه سبحانه وتعالى يود أن يشكرها له سبحانه وتعالى ليثبتها عليه ويزيده منها كما ذكر الحق سبحانه وتعالى.

أسباب الشكر

وهي الأسباب التي بينها الله تعالى سببًا لشكره والنعم التي صرفها المولى سبحانه وتعالى لعباده حتى يتعرفوا إلى ربهم من خلالها وحتى إذا تعرفوا إلى ربهم بهذه النعم شكروه عليها.

والآيات التي أشارت إلى هذه النعم أكثر القرآن الكريم من ذكرها حتى تكون موعظة لهؤلاء الكسالى الذين قصروا في شكر نعمة الله تعالى عليهم ولم يحققوا أركان الشكر التي أشرنا إليها ولم يقوموا بشكر ربهم بالقلب واللسان والجوارح وأن يشكروا من أسدى إليهم معروفا ولننظر إلى هذه الآيات :

١. نعمة العفو

أولها ذكرها المولى سبحانه وتعالى في بني إسرائيل، وهي آيات عامة تدل على لزوم الشكر عند نزول مثل هذه النعم : ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة : ٥٢]، وجاءت بعد قوله ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [البقرة : ٥١] والقضية في بني إسرائيل هؤلاء والعبرة لأهل الإيمان من بعدهم في هذا القول، وهو أن **العفو من الله تعالى عن عباده يستحق الشكر** كما قال صلى الله عليه وسلم : (اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعف عنا) [(١)].

هذا العفو يستحق أن يشكروا الله تبارك وتعالى عليه ليثبت عفوه عليهم وليزيدهم من عفوه إذ هم أهل الخطأ وأهل النسيان وأهل الشهوات وأهل المعصية والغضب التي لا بد وأن يقع فيها المؤمنون ومن، ثم فهم يريدون عفو الله تعالى في كل آن في كل وقت!

والثانية : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة : ٥٦]، وهذه الآية لها شبيه في قوله تعالى : ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ

(١) رواه الترمذي (٣٥١٣) كتاب الدعوات، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح.

ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ ﴾ [البقرة : ٢٤٣] .

فلما قالوا : أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون، قال : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [البقرة : ٥٦] وهذه من أعظم النعم عليهم أن يبين لهم قدرته وقوته وبعد أن أفناهم وأهلكهم أحياهم سبحانه وتعالى مرة أخرى ليعودوا إلى التصديق به والإيمان به جل وعلا وليعودوا إلى طاعته سبحانه وتعالى وإلى التنعم بمعرفته، والإقبال عليه وتوحيده وذكره جل وعلا.

٣. نعمة الأمن

الآية التالية تبين أسبابا كثيرة من أسباب الشكر التي منحها الله تعالى للمؤمنين وبدل بها أحوالهم قال تعالى :

﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الأنفال : ٢٦]

فكان من أسباب الشكر التي ينبغي أن يتفكر فيها المرء أنه أصبح كما ذكر النبي في الحديث (**آمنًا في سربه معافى في جسده عنده قوت يومه فقد حيزت له الدنيا بحذافيرها**[(١)]) لذلك قال : ﴿ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ ﴾ [الأنفال : ٢٦] وهذه الآية جميلة في شرحها وفي بلاغتها وأسلوبها ﴿ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ﴾ [الأنفال : ٢٦]

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٤٦) كتاب الزهد، باب في التوكل على الله، وقال : حديث حسن.

وأنت أيها المسكين قد آواك الله وأمنك سبحانه وتعالى ورزقك من الطيبات وفعل بك كل ذلك من غير أن تبذل شيئًا له كما بذل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فمن أحق بالشكر إذن؟

من أحق بأن يشكر الله تعالى على هذه النعم وعلى تلك الأحوال التي لو لم يكن ربك سبحانه وتعالى هو الذي منحها للمؤمنين ووهبها إياهم ما كان ليهبها لهم أحد. من الذي يؤويك ومن الذي يحفظك ؟ من الذي يؤمنك ؟ أنت تؤمن نفسك؟ لا يُظَن بذلك ولا يؤمنك أحد لا يستطيع أحد أن يؤمن نفسه فضلاً عن أن يؤمن غيره لا في شدائد الدنيا ولا في شدائد الآخرة، ولذلك كان هذا الحال أولى بالمؤمنين في الشكر.

٤. تسخير البحر

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل : ١٤].

وهي في سورة النعم، ما سورة النعم هذه؟ هي سورة النحل، كلها نعم الله تعالى على المؤمنين وعلى الكافرين، لأن هناك آيات جاءت في الشكر ومعنى الشكر من الكافرين أن يؤمنوا بالله تعالى ، أن يعلموا نعمه فيؤمنوا بها ليشكروه على تلك النعم سبحانه وتعالى.

وكل هذه النعم تستحق شكرًا من المرء لله تعالى لو تفطن إليها في الزمان الماضي وفي الزمان الحالي كذلك . ترى لو وقفت هذه النعم ووقف البحر، ولم يستطع الناس لا أن يذهبوا ولا أن يأتوا ولا أن يكون البحر مصدر الفضل – الفضل هنا معناه الرزق ابتغوا فضلاً من ربكم، يعني رزقًا من الله تعالى يسوقه إليكم – انظروا لو وقفت هذه النعم ؟ كيف يكون الحال؟

يقول كذلك سبحانه وتعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الجاثية : ١٢]

فسخر البحر لتبتغوا من فضله، يعني لتبتغوا الرزق الذي سخره لكم لو انقلب البحر عليهم ما استطاعت الدنيا من أولها لآخرها من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة أن يسيروا في

البحر لو البحر هاج بطريقة لا يمكن لأحد أن يوقفه ، لا يستطيع أحد، لا القوة العالمية ولا الأمريكية ولا أي قوة في العالم بدليل أنه لو حدث فيضان في أمريكا تجد القتلى في الشوارع ملقين، وتجد الناس قد هجّرت وتجد الغابات وقد احترقت، وتجد البيوت وقد هجرت، وتجد كل معالم الأسى والحزن في فيضان صغير لا يستطيع أحد أن يسخره إلا بتسخير الله ولا يقوى على ذلك إلا الله جل وعلا.

٥. نعمة السمع والبصر والفؤاد

الآية الثانية من أسباب شكر النعم التي لا تحصى يقول :

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل : ٧٨]

فهذه الآية خصوصًا جاء قوله﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ مقابلها في الآيات التي يقرؤها المرء كلها في السمع والأبصار والأفئدة وخصوصًا يجد : ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ . فما السبب؟

فكان السؤال لماذا جعل لكم السمع والبصر والفؤاد ؟ قال لتشكروه. فهل يشكروه؟ قال : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٧٨]

من يطالع القرآن الكريم يجد في مقابل هذه الآيات يقول الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٧٨] ثم ذكرها مرة أخرى سبحانه وتعالى في سورة الملك فقال : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الملك : ٢٣] وهذا يدلنا على المعنى الذي ينبغي أن يفهمه المرء أن السمع والبصر والفؤاد لا يشكر به ربه إلا قليل، وأن المرء كثيرًا ما يخالف ربه في شكر هذه النعمة، نعمة السمع ونعمة البصر، ونعمة القلب فيصرف هذه النعم وهذه الجارحة فيما يغضب الله تعالى.

فشكر النعم بتصريفها في مرضاة الله ولا يشكر الله تعالى بهذه النعمة فيصرف هذه النعمة في مرضاته سبحانه وتعالى، وأن الذين يصرفون السمع والبصر والفؤاد في مرضاة ربهم قليل، ولذلك ذكر هذه الآيات المقابلة خصوصًا لأن حفظ السمع والبصر والفؤاد عند أهل الإيمان كما ذكر قليل وذلك دليل قلة شكرهم لله تعالى على هذه النعم.

انظر إلى السمع والبصر قليلا ما تحفظهم كأنه يقول: قليلا ما تحفظون هذه الجوارح، خاصة التي قد خلقها الله تعالى لكم لشكره فلم يشكروه بها وإنما قليلا ما شكرتم لهذه النعم حقها الذي أعطى الله تعالى، وهذا تهديد من الله تعالى للمؤمنين على عدم شكرهم، أو على قلة شكرهم لهذه النعم بأن يصرفوها في غير مرضاته أو أن يصرفوها في معصيته والغفلة عنه سبحانه وتعالى . فهددهم بهذه القلة لتكون سببًا قويًا كما في كيف يصرف المرء هذه النعم الثلاثة.

وهذه الثلاثة قد تكررت في القرآن خصوصًا من دون جوارح المرء السمع والبصر والفؤاد: لأن **سلامة القلب غالبًا ما تكون من سلامة السمع والبصر**. سلامة القلب تكون من سلامة السمع والبصر؛ لأن المرء إذا ترك سمعه وبصره للمعصية أثمرت في قلبه.

لو تركت بصرك للنظر المحرم انطبعت هذه الصورة في قلبك لا تخرج إلا برحمة الله بعد ذلك . وكذلك السمع أن يسمع كل هذه المسموعات المحرمة فيه أقرب الطرق إلى القلب لتدخل إليه لتنطبع فيه هذه الأمور .

وهذا مما يخيف ويحذر المرء حتى يحاول أن يشكر نعمة الله تعالى في سمعه وبصره وقلبه ليستقيم له هذا القلب **فإن شكر الله تعالى بهذه النعم هذه الجوارح فصرفها في مرضاة الله وحافظ عليها استقام له قلبه، وإن حافظ على قلبه فلم يدخل فيه ما ينافس فيه الدار الآخرة، وينافس فيه توحيد الله** : لأنك إذا أدخلت في هذا القلب هذه الشهوات وتلك الشبهات فإنها تنافس في محل معرفة الله وتوحيده والتعلق به والإقبال عليه سبحانه وتعالى ومحل الطمأنينة بذكره : فإذا ما أدخلت في هذا القلب ما ينافس هذه المحابّ وهذا التوحيد وتلك المعرفة زحزحت وزلزلت في قلبك التوحيد والتعلق بالله. والتوكل عليه والإنابة إليه زلزلت فيه الخشية والخوف من الله جل وعلا فإذا بك لا تبالي وصار قلبك مريضا وينتقل بعد ذلك هذا القلب إلى

أن يكون قلبا فاسدا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرًا قلبًا صلبًا من المعصية لا يتأثر بالموعظة ولا تنجع فيه هذه الأدوية من علاج القلب.

٦. تسخير الأنعام

﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الحج : ٣٦]

وهي نعمة لو يتخيل المرء الزمان الماضي في وجود النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة كم كانت نعمة عظيمة **أن يسخر لهم هذه البدن ليسيروا عليها وليحجوا عليها ولينحروها وليوزعوا منها، وليأكلوا وليطعموا القانع والمعتر**، وليحملوا منها إلى أهلهم وأولادهم إن كان مشروعًا شيء من ذلك إلى غيره من هذه الأمور التي أحلها الله تعالى لهم، وسخرها لهم سبحانه وتعالى وما كان لأحد أن يستطيع أن يسخر ذلك .

وانظر إليك لو انطلق جمل وشرد وجرى بنفسه ما يستطيع أحد أن يوقفه أبدا، هل يستطيع أن يوقفه أحد ؟ ولو تجمع عليه مائة لا يستطيعون جملاً واحدًا، انظر إذن إلى نعمة التسخير.

لذلك ذكّر الله تعالى بها المؤمنين في أكلهم وشربهم وصدقاتهم في حجهم وعمرتهم وفي سفرهم وسيرهم، وفي حملهم وركوبتهم كما ذكر الله تعالى بقية أحوال هذه النعم كما ذكر الله تعالى.

٧. السكون في الليل

ثم ذكّرهم بنعمة أخرى لا يستطيع أحد أن يسخرها لهم : ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [القصص : ٧٣]

وهذه نعم لا يدريها المرء أبدًا، وهي نعمة أن يجعل الليل لتسكنوا فيه ، و النهار لتبتغوا من فضله ، فالسكون في الليل هذه من المسائل العظيمة التي لا يتخيلها المرء أبدًا.

جاء شخص يقول لي، لا تتخيل نعمة الله علي المرء في أن ينام هادئًا مطمئنًا من غير حبوب منومة ولا مشاكل ، فلو أصاب أحد اضطراب أولم يحس بالأمان، لو أصابه قلق أو اضطراب أو خوف أو أرق أو ذهب النوم أو ابتلي بعدم النوم انظر إليه.

وشخص آخر جاء يقول لي : أنا لا أعرف أنام بالليل ، أوشك أن يُجَن ! انظر إلى هذه النعمة التي لا يتخيلها أحد بأنه ينام هكذا مطمئنًا ويغمض عينه ويصحو مستريحا من عناء ما كان فيه أو أن يرزقه الله بعض الرؤى الجميلة، لا تتخيل هذه النعم!

انظر إليك وقد حرمت النوم لخوف لأرق، أو قد حرمت النوم لمرض أو لعلة، وانظر إليك وأنت عليل لا تستطيع أن تنام وتقول : يا رب أريد أن أنام قليلاً. انظروا لي شيئًا ينومني، أريد أن أنام، خمس دقائق فقط أو نصف ساعة لأستريح ويبكي لأنه يريد أن ينام !

من أجل ذلك قال الله هذه المرة : ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ [القصص : ٧٣]. بخلاف تسخير الأنعام يقول فيها : ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم ﴾ [الحج : ٣٦] والتي قبلها : ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم ﴾ [النحل : ٧٨] ولكن في نعمة النوم هذه قال : ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ [القصص : ٧٣]، فهذه رحمته بالضعفاء والمساكين الذين لو لم يناموا قليلاً قد يصيبهم الجنون !

٨. التمكين في الأرض

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾

[الأعراف:١٠] وانظر إلى تمكين الله لعباده في الأرض . تخيل لو كانت هذه الشوارع على غير هذا الحال ولو كانت هذه الأرض على غير هذا التمهيد الذي مهّده الله تعالى لها ما استطاعوا أن يعيشوا فيها ولا أن يمشوا فيها ولا أن يمشوا في مناكبها كما ذكر الله تعالى وأمر ، وما استطاعوا أن تقوم فيها حياة صالحة ولا عبادة صالحة وما استطاعوا أن ينشئوا فيها حضارة ولا علمًا ولا تقدمًا ولا غيره ما استطاعوا أن يخرجوا من بيوتهم ، فلو كانت هذه الأرض محفورة ينزل المرء من بيته يقع في حفرة لا يستطيع أن يخرج منها ، وأنه لو وقع في حفرة ما استطاع الخروج فماذا

سيفعل الناس ؟ ستقف معايشهم وتقف عباداتهم وتقف أعمالهم وأشغالهم وينتظروا الموت ! يعني بعد التمكين فيها جعل لكم المعايش التي لولا التمكين ما استطعتم أن تسيروا لتحصيل هذه المعايش ولكنكم ﴿ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ !

٩. الماء العذب

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَـٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الواقعة الآيات: ٦٧- ٧٠]

والله تعالى قد جعل هذه الآية لبني إسرائيل، الضفادع والقمل والدم يأتي مفصلات كلما يرفع أحدهم ماء ليشربه يجده صار دمًا، حتى استغاثوا بموسى عليه السلام﴿ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [الأعراف : ١٣٤] انظر لو جعله سبحانه وتعالى أجاجًا ؟ ولكن النعم لما كانت كثيرة، ولا يلتفت إليها المؤمنون فضلاً عن غيرهم ليشكروا الله تعالى عليها فإذا بهم لا يتخيلون أنها نعم إلا أن يحرموا منها ، وقد حرم منها الناس ليبين الله تعالى قدرته، وليبين نعمته.

لما يحدث مجاعة أو يحدث قحط، أو يحدث تصحر لبعض البلاد كما حدث في القريب، أو يحدث زلزال أو غيره يحرموا نعمة الماء العذب فإذا بهم لا يجدونه، كل يوم لكل واحد منهم كوب ماء عذب فقط ، تجد الناس يقفون عرايا لا ماء ولا طعام ينتظرون من يعينهم أو يدفع عنهم شيئًا، ثم يقتتلون على كوب من الماء تراهم لو وُزع عليهم الماء المالح كانوا يشربونه!

١٠. إخراج الزرع

﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ [الأعراف : ٥٨] ، ودعوة إبراهيم عليه السلام :﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [إبراهيم : ٣٧]

انظر إلى ترتيب هذه الآيات، وإلى المعنى المطلوب فهمه منها وتأمل هذا الحال من أحوال الأنبياء، هذا الدعاء الجميل من إبراهيم عليه السلام لما ترك ذريته بوادٍ غير ذي زرع دعا الله تعالى أن يرزقهم من الثمرات، لماذا؟ قال لعلهم يشكرون.

أما آية يس في قوله :﴿ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [يس : ٣٥]

وقوله ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [يس : ٦٨- ٧٢] ، ثم جاء بعدها قوله تعالى:﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يس :٧٣] الآية التالية قال المولى تبارك وتعالى : ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الأنبياء : ٨٠]

وهي عامة في كل ما يدعو إلى الشكر قال : فهل أنتم شاكرون أم لا؟ ستشكرون فتؤمنون وتصرفون هذه النعم في مرضاة الله تعالى أم أنكم تنتظرون بترك الشكر محق هذه النعم وزوالها؟ وقد ذكر لهم سبحانه وتعالى كثيرا من النعم ومن الأفضال . نعمة الإيمان ﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ [الحجرات : ١٧] .

ومن قوله سبحانه وتعالى في رزقهم المحبة بينهم وبين إخوانهم : ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ [الأنفال : ٦٣] وقوله : ﴿ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ [آل عمران : ١٠٣] وغيرها من النعم كما قال المولى سبحانه وتعالى فقد تاب عليهم وغفر لهم وهيأ لهم هذه السبل من سبل الصلاح والتقوى والاستقامة كل ذلك من نعم الله تعالى على المؤمنين التي لا بد وأن يتفكروا فيها حتى يشكروا هذه النعم .

المراد إذن أن يفهم المرء قضيته هو مع النعمة، بمعني أنه **لا يعرف قدر النعمة إلا إذا حرمها** فإذا نظر إلى عينه ورأى الأعمى الذي لا يبصر أو هذا الذي قد طمست إحدى عينيه، لو نظر كم هو في نعمة لا يقدر قدرها ولا يستطيع شكرها، وكذلك لا يستطيع أن يحسب عظيم خطرها الذي هو فيه إلا أن تذهب منه النعمة.

فهل فينتظر حتى تذهب النعمة ؟ أم أنه يشكر تلك النعم، وأن يحمد الله تعالى أن رأى هذا المبتلى وأن الله تعالى قد فضله عليه ولم يبتله بهذا البلايا التي هو بها ويكون ذلك مصدرًا دائمًا لشكر الله تعالى.

١١. تخفيف كفارة اليمين

في قوله تعالى : ﴿ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَـٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [المائدة : ٨٩] وهذه الآية في المؤمنين ونزلت بعد قوله سبحانه وتعالى ﴿ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ ﴾ فأنزل الله تبارك وتعالى ذلك تخفيفًا لهم وتبيينًا لآياته سبحانه وتعالى، وإخراجًا لهم من الحنث الذي لم يكن له كفارة في الجاهلية: إما أن يفعل ما أمره الله تعالى به وإما أنه لا يزال حانثا يدخل النار فيها فجاء هذا التخفيف من الله تعالى ثم قال : ﴿ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَـٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [المائدة : ٨٩] .

والمؤمنون –إلا من رحم الله- لم يفكروا في أن هذه آية من آيات الله ونعمة قد أنعمها الله تعالى عليهم تخفيفا لم تكن من قبل والله جل وعلا أمرهم أن يكونوا فيها من أصحاب الشكر لله تعالى كذلك.

انقسام أحوال الناس في الشكر

لمّا بين الله تبارك وتعالى أسباب الشكر وجزاء الشكر، أمر الله سبحانه وتعالى الناس بالشكر . فهل شكر الناس . أم انقسموا؟ انقسم الناس إلى فريق يشكر، وفريق قليل ما يشكر.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [المؤمنون:٧٨] يعني حتى الذي يشكر الله تعالى يشكره قليلا ثم ينصرف يعني يتذكر هذا الدرس مثلا ثم يذكر الله ثم يتفكر قليلا في النعم فيقول الحمد لله والله هذه نعم كثيرة من الله ، الحمد لله ثم ينصرف وينسى هذه النعم مرة أخرى فهل هذا هو الشكر ؟ ذلك كالخوف تمامًا حيث يسمع الموعظة والحديث عن النار والميزان والصراط والكرب التي لا طاقة لأحد بها ويبكي قليلا ثم بعد ذلك يخرج فيضحك ويتكلم عن النساء والأموال والأولاد كأنه لم يبك من شيء ! هذا هو البكاء المذموم وهذا هو الشكر المذموم إن كان تَمَّ شكرًا أو أطلق عليه ذلك !

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة:٩]

وقد ذكرنا لماذا قلّ شكرهم مع نعمة السمع بالذات وانظر إليك قد علمت ذلك أيها المسكين أن السمع والبصر مما لا تتمكن من شكره وانظر إليك قد شكرت نعمة السمع أو نعمة البصر كيف وقع منك بصرك في اليوم والليلة كم مرة مع أن شكر هذه النعمة أولها أن يحفظ هذا البصر من أن يعصي الله تعالى وانظر كم عصيته به وانظر إلى السمع كم عصيته به من الذي حفظ سمعك أو بصرك يومًا كاملا ليرى كيف أنه لم يشكر نعمة الله تعالى لذلك قال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ ثم بين أن أكثر الناس لا يشكرون، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾ [البقرة:٢٤٣] هؤلاء هم الناس وهذه علاقتهم بالله تعالى فيما أنعم عليهم .

وقال في قصة يوسف عليه السلام: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [يوسف:٣٨].

وعندنا يقول المولى سبحانه وتعالى لك: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ لا تقول له : شكرًا وانتهت القصة ! إن هذه الآية موجهة إليك وخطاب المولى سبحانه وتعالى موجه إليك إن كل آية من آيات الله تعالى فيها حديث لك والله تعالى يتكلم به إليك ولك فيه حظ ولك فيه عبرة ولك فيه فائدة ولك فيه توجه الخطاب من الله تعالى ، فهذه الآيات لا تقال للتسالي وإنما ذكرت هذه القصص في القرآن الكريم كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف:١١١].

ثم قال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ كأنه يقول لك لا تكن من أكثر الناس الذين لا يشكرون ولكن كن من الشاكرين فافهم هذه الآية واعلم معنى الشكر فيها ثم اشكر الله تعالى إذا وفقك لشيء منها.

وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [يونس:٦٠]

الأولى بالتأكيد في أكثر الناس وكان يمكن أن يقول: ولكن أكثرهم لا يشكرون ولكن لتبيين أن الناس لا يشكرون. ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾﴾ [غافر:٦١] .

ثم قال في النهاية في حق المؤمنين: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣]

والشيطان لما علم ذلك قال لله تعالى: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف:١٦] إلى آخر الآية حتى قال: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٧] فيقف لهم الشيطان حتى يكون كل همه ألا يكون أكثر شاكرين أبدا وكأنك أيها المسكين عندما تسمع هذه الآية إنما اتبعت الشيطان وصدقت فيه قوله لله تعالى وصدقته في هذا القول يعني صرت

صديقًا له وصاحبًا له وإنما لما قال ذلك لله تعالى ، إذا بك تقول: نعم نعم أنا صديقك أيها الشيطان ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ لن أكون شاكرًا وسأتبع كلامك وأسمع قولك وأخرج عن معنى الشكر!

هل هذا هو معناه ؟ لا ، المعنى الحقيقي إذن للآية: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ لتقول: سأجاهد نفسي وأدافع شيطاني وسألزم طريق الشكر حتى لا ينطبق عليّ هذا المعنى ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ بل يدخل في القليل الذين ذكر الله في قوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾.

هل وقف الأمر عند هذا الحد ؟ أن لا تجد أكثرهم شاكرين ؟ وأكثرهم لا يشكرون ؟ وقليلا ما يشكرون ؟ لا لم يقفوا عند هذا الحد ، ولكن زاد الجحود بنعمة الله تعالى فقد صور الله تعالى هذه الحالات وبينها للمؤمنين ليتعظوا بها قال تعالى:

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنعام: ٦٣، ٦٤]

وفي سورة يونس: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ﴾ [يونس: ٢٢، ٢٣]

وقال تعالى: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٨٩]

وهذه الآيات تبين المعنيين المعنى المضاف ومعنى النعمة معنى الهلاك .

ومعنى النعمة والتي لا ينفك المرء منها عندما يصاب بمرض يصاب بمصيبة في نفسه في ولده في كذا وكذا يقول: والله لو أن الله نجاني من هذه المسألة لأفعلن كذا وكذا ، وأول ما ينجيه الله ينسى وهي في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [يونس:١٢] .

ومعنى هذا أن يصيبه الضر في المال في الولد في المرض في غيره ثم بعد ذلك قال: يدعو ربه قاعدًا وقائمًا وعلى جنبه ثم إذا كشف الضر عنه مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه !

ابن عمر رضي الله عنهما كان ماشيًا مع محمد بن سوقة ، من التابعين ، قال: لقد رأيتنا هذا العام الماضي وكنا نمشي من هنا وكنا في كرب شديد - كان ذلك أيام المختار والحجاج وكانت أيام قتل وسجن وتعذيب - والآن نمشي في هذا الأمان قال: هل دعوت الله تعالى عنده ؟﴿ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾ ارجع فادع واستغفر واشكر واذهب إلى هذا المكان الذي كنت فيه أو إلى هذا الحال الذي مر بك واشكر الله تعالى عليه وادع الله تعالى كما ذكر ﴿ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ ﴾.

وهذه الحال من الأحوال التي نحن فيها وقد ذكرت هذه الآيات كثيرًا ، والعكس ذكرتها الآية: ﴿ لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف:١٨٩] إذن فالآية الأولى في كشف الضر والآية الثانية في إرادة النفع وإرادة الخير من الولد والمال والجاه يعني لو أن الله رزقني الولد أو لو أن الله أعطاني كذا وكذا فإذا أعطاه نسي ما كان يدعو به من قبل كما ذكر الله تعالى: ﴿ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴾ [الشورى:٤٨] والآية الأولى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝ ﴾ [هود: ٩، ١٠] وهذه التالية في معنى نكران هذه النعم وعدم مقابلة هذه النعم بالشكر الذي أمر تبارك وتعالى به.

فائدة الشكر عائدة على الشاكر

قال تعالى:﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ﴾ [النمل:٤٠]

فإذا الله تعالى أمركم بالشكر فانقسمتم في هذا الشكر إلى (قليلا ما تشكرون) و(لكن أكثرهم لا يشكرون) وإلى جاحدي نعم الله تعالى ونسيانها قال تعالى: **﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾** [النمل:٤٠] والثانية: **﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾** [لقمان:١٢].

وهذا ليس معناه الإخبار فالناس بالفعل يعتقدون أن الذي يشكر فهو يشكر لنفسه والذي يكفر فإن ربنا غني حميد ! ولكن المعنى أن الله تبارك وتعالى يتهددهم بهذه الآية من ناحية ويحملهم على الشكر وترك الكفر من ناحية أخرى.

فالمعنى أن من شكر سوف يأتي ومن لم يشكر سوف يأتي ومن كفر سوف يأتي، وكل إنسان سوف يرى ما قدمه لنفسه ويحاسب عليه **فمن ترك الشكر فسوف يحاسب عليه** ، فلا يظن أحد أن ذلك سيمر ، لا بل إن من شكر سيجد آثار الشكر ومن كفر سيجد غُب ذلك ومصيبة ذلك وعذاب ذلك ونقمة ذلك وسخط ذلك من الله تبارك وتعالى.

ثم آيات أخرى في الشكر نشير إليها وهي قول الله تبارك وتعالى: **﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾** [النمل:٤٠]

فهذه النعم التي أعطاك الله تبارك وتعالى هي محض فضل الله تعالى، وأنت لا تستحق شيئًا من نعمه سبحانه وتعالى ولم تقدم شيئًا لله تعالى يعطيك عليها هذه النعم . من الذي وُلِد فقدم شيئًا لله تعالى فأعطاه الطاعة والعبادة والسمع والبصر والقوة والمال والأسرة ؟ من الذي فعل ذلك ؟ بل هو فضله ابتداءً وانتهاءً **﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾** [النحل:٥٣] إذن فالمسألة أن ذلك كله إنما هو اختبار الله لك أيها المسكين لتشكر أو تكفر لا ثالث لهما !

فمسألتك اليوم إذن **كيف تخرج من كفر هذه النعم** وكيف تخرج من هذا الابتلاء ناجحًا فيه لتشكر أو تكفر لتعدد هذه النعم وتحاول أن تشكر شيئًا منها عل الله تعالى أن يكون قد وفقك لشكر نعمه فيستحق سبحانه وتعالى بذلك شكرًا مزيدًا منك أو أن الله تبارك وتعالى قد اعتنى بهؤلاء المساكين لمّا رآهم حزانى على تركوا شكر نعمة الله تعالى ففكروا في هذا الشكر وحاولوا أن يشكروا نعمة الله فوفقهم إلى ذلك.

الإخلاص في الشكر

مسألة أخرى من مسائل الشكر، وهي مسألة من مسائل الإخلاص التي ينبغي أن يتعلمها المرء بأن لا ينتظر من أحد شكرًا على نعمة فقد قال تعالى:﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝﴾ [الإنسان:٩] فإذا كان المرء مأمورًا بالشكر فإنه في نفس الوقت **ليس مأموراً بانتظار شكر الشاكر ولا بثنائه ولا بمدحه ولا بتعويضه عما فعل له.**

المرء مأمور بأن يشكر من أسدى إليك معروفًا كما قال النبي صلَّى الله علَيه وسلَّم: (**لا يشكر الله من لا يشكر الناس**) [1]. ولكن إن أنت شكرت أحدًا أو أهديت له جميلاً أو صنعت له معروفًا هل من الإخلاص أن تنتظر أن يفعل لك معروفًا أو أن يقف إلى جوارك أو أن يعودك إذا مرضت أو أن يقف لك أو أن يواسيك في أحوالك كما فعلت له ؟ هذا خارج عن حد الإخلاص، لماذا ؟ لأنها لوجه الله ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ يكفيه أن الله تعالى سيشكره ومن ينتظر شكر الناس على خسة قدره بشكر الله تعالى ؟

فالذي يقول لوجه الله يعني ينتظر شكر الله تعالى فكيف يترك شكر الله تعالى ويستصغره لينتظر شكر المخلوق الزائل ؟ بل إذا لم يشكره المخلوق حزن منه وتضايق وتألم وشكى وبكى وقال وقفت له فلم يقف لي وواسيته فلم يواسني ومرضت فلم يعدني وأعطيته وحرمني وكذا وكذا مما نسمع اليوم.

---

(١) رواه الترمذي (١٩٥٤) كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك، وقال : هذا حديث حسن صحيح.

فإذا أردت وجه الله تعالى لا تنتظر شكر معروفك من أحد ولا تنتظر شكر العبد الفقير الزائل وتنسى شكر الله تعالى الذي ينتظرك في الأولى والآخرة وتستحقر شكر الله تعالى وتستعظم شكر المخلوق وتتضايق إن لم يشكرك المخلوق وتنسى ولا تفرح بشكر الله تعالى.

ونهاية القول أن الناس إذا فعلوا ذلك كان سعيهم مشكورًا، وقد ذكر الله تعالى وبين أن الله قد شكر سعيهم شكرًا لا ينتظرون بعده شيء لا مزيد عليه من شكر أحد ولا مزيد عليه من ثواب أو عطاء كما قال: ﴿ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الإنسان:٢٢].

جزاء الشكر

١. ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم ؟!

وأول هذه الآيات التي تبين جزاء الشكر قوله تعالى: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾ [النساء: ١٤٧]

والاستفهام هنا معناه أن الجواب بمعنى ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾ يعني لا يفعل الله بعذابكم شيئًا ﴿ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾.

وكأن الإيمان والشكر سبب لعدم العذاب، وخصَّ الله تبارك وتعالى الشكر بالذات من قضية الإيمان، فلماذا؟ يعني لو قال الله تبارك وتعالى : ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾ لكان كافٍ أن المؤمنين لا يعذبهم الله تعالى إلا ما وقع منه بسبب يستوجب التعذيب في الآخرة سبحانه وتعالى حتى إذا أخذوا قسطهم من مخالفة الله تعالى تعذيبًا خرجوا إلى الجنة بشفاعة الله تعالى في نهاية المطاف أليس كذلك في عقيدة أهل السنة؟ إذن لماذا خصص الشكر إذن في قوله : ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾، وقدَّم الشكر عن الإيمان ؟

قال : لأنه أهم شعبة من شعب الإيمان التي لا يعذب الله وتعالى بسببها؛ ولذلك قال المولي سبحانه وتعالى ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾يعني لأن صدقتم الشكر: سواء لم تشكر النعم التي أنعم الله به عليكم: **لأن الجحود والكفران لنعم الله تعالى بأمرين:**

إما بترك شكر هذه النعم كما هو الحال الغالب في أحوال الناس المؤمنين أن يترك شكر نعم الله تعالى فيكون كفرًا له أو **بأن يسخِّر ويصرِّف هذه النعم في معصية الله**. فيكون كفرًا له، ولكنه درجة أسوأ من درجة ترك الشكر عليه.

وهذا ملحوظ في أحوال المؤمنين ، الله تعالى ينعم علهم بالمال والولد والصحة والفضاء، ينعم علهم سبحانه وتعالى بالإيمان والعمل الصالح، والقيام والصيام والذكر وقراءة القرآن، وينعم علهم بالتوفيق إلى هذه الأعمال الصالحة، ويحفظهم سبحانه وتعالى من الوقوع في الزلل والمعصية والخطيئة: إذا بهم يتركوا شكر هذه النعم يترك شكر نعمة القيام، أو شكر نعمة الصيام، يترك شكر قراءة القرآن، أو الذكر أو الإقبال على الله، أو أن الله سبحانه وتعالى يحفظهم من الوقوع في المهالك والمآثم التي يقع فيه غيرهم إذا بهم يحرموا هذه النعم.

فبعد أن كان يجد حلاوة الإيمان وطعم الإيمان إذا به لا يجد ذلك، ويرى من قلبه النكران ويرى من قلبه الجفاء، ويرى من قلبه القسوة والبعد ويرى من نفسه الحزن على هذه الأحوال التي وصل إليها، وسببها المباشر ترك الشكر لأن الله تعالى لا يظلم أحدًا.

فإن عاد مرة أخرى إلى التوبة والعمل الصالح شكر لله تعالى له، ما كان واستدرك ما قصر في التوبة وما وقع فيه، ومحاسبة نفسه على أحواله التي أساء مع ربه سبحانه وتعالى، إذا بالله تعالى يكرمه مرة أخرى ويعود به إلى باب الله تعالى، وإلى الوقوف بين يديه، ويفتح عليه بأنواع الطاعات والقربات.

ومن معاني قوله تعالى ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾. أن المولى جل وعلى كأنه يقول إن لم تشكروا وتؤمنوا ستعذبوا، وهو القول ذاته في الآيات الأخرى.

و قوله ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ في جزاء الشكر وهو أن الله تبارك وتعالى يشكر عباده الشاكرين، وأن الله تعالى يشكرهم بأن يثبت ما هم فيه من نعم ويزيدهم عليه: لأنه لما

قال ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم : ٧] دل على النعم التي هم فيها فيثبتها لهم ويزيدهم منها؛ فإن الزيادة تدل على تثبيت الموجود، لا يمكن أبدًا أن تشكر الله تعالى يمنع عنك بعض النعم ويزيدك في الآخرة، لا وإنما يثبت هذه النعم الموجودة، ثم يزيدك سبحانه وتعالى منه أو من نعمة أخرى ليست على بالك؛ لأنك تفعل الأفعال الصالحة تشكر الله تعالى عليه باللسان والقول كما ذكرنا باللسان والقلب والجوارح؛ إذا بالله تبارك وتعالى يزيدك نعمًا، ويفتح لك بابًا من أبواب الخير لم تكن تعهده من قبل، ولم تكن تعرفه أنت تسير في حاجة تنظر تجد ربك فتح لك بابا آخر من أبواب الخير، ومن أبواب البر، ومن أبواب العمل الصالح.

ربما أنت بالذكر أو بقراءة القرآن، والتوبة والعمل الصالح إذا به مثلاً يفتح لك باب الحج أو باب الصدقة أو باب السعي على مصالح المسلمين، أو باب القيام على أرملة أو مسكين أو فقير، أو يفتح لك باب من أبواب بر الولدين، بأن تحج لهم ، أو ييسر لك طريقًا من طريق الإحسان والصلة إلى غير ذلك.

٢. عطاء الشاكرين لا يعلمه الا الله

في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٥]

وهذه الآية قد جاءت مع قوله تعالى :﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ (١٤٤) ﴾ [آل عمران: ١٤٤]

ومعنى الآية أن الثابتين على طاعة الله تعالى دليل شكرهم على هذه الطاعة أنهم ثابتون على إيمانهم؛ لأنه ذكرهم بقوله ومن ينقلب على عقبيه لا يضر إلا نفسه : لأن الله تعالى لا تضره معصية ولا تنفعه طاعة؛ لذلك قال ﴿ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ﴾، والذي لا ينقلب على عقبيه هو الذي يثبت في هذه الشدة.

وهذا ما حدث لمّا مات النبي صلى الله عليه وسلم منهم من انقلب على عقبيه وهذه دلالة الآية على هذا المعنى وهي من معاني أعلام النبوة، وهو الإنباء بالغيب قبل أن يقع.

وأمرهم بالثبات؛ لأن الثبات هو الشكر على هذه النعم، وهذا من نعمة الإيمان؛ لذلك في هذه الآية وصية إذًا للمؤمنين بأنهم لا بد أن يثبتوا على هذا الإيمان، وأن يثبتوا على تلك الطاعات، وأن ثباتهم ذلك هو شكرهم على هذه الطاعة.

أنت عندما تنقلب على عقبيك قد تَفسد وتُفسد ؛ لأنك تكون سببًا لإفساد غيرك بأن ينقلب كذلك على عقبيه، أما إن ثبتَّ على ذلك فثباتك صلاح لك في نفسك وإصلاح لغيرك بثباته، فدل على كونك قد شكرت الله تعالى على هذا النعم، واستمسكت بالشكر، فكان جزاء الأوفياء من الله تعالى في قوله ﴿ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ والثابتين هم الشاكرون الذين سيجزيهم الله تعالى.

ويلاحظ في الآية أن الله تعالى قال: ﴿ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ قد حذف المفعول به، يجزيهم بماذا ؟ قالوا: تخير ما شئت في ذلك، وهذا معنًى من معاني البلاغة، وهو أن الحذف يفيد العموم في هذه الآيات يعني ﴿ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ تخيل ما شئت من الجزاء فدل ذلك على أنه جزاء عظيم أبهمه الله تعالى لعظمته ولأنه لا يمكن أن يدركه أحد ، لأنه لما قام بهذا الثبات على دين الله كان صالحًا مصلحًا، ومنع الفساد والإفساد في دين الله تبارك وتعالى فكان هذا الجزاء الذي لا يعلمه إلا الله قال: (وسنجزي) يعني سنتولى نحن جزاء الشاكرين وهذا لا يعلمه إلا نحن فيما نقدمه لهم من عطاء ومن ثواب ومن آخرة لا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى.

﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٥] وهناك فارق بين من يرد ثواب الآخرة ومن يرد ثواب الدنيا ، فمن يرد ثواب الآخرة لابد له من الصبر الشديد .

والملاحظة الثانية أنه سبحانه وتعالى وقف كثيرا من الجزاء على المشيئة" كقوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ﴾ [التوبة : ٢٨] وكقوله تعالى في الإجابة : ﴿ فَيَكْشِفُ

﴿ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ ﴾ [الأنعام : ٤١] وقوله : ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ﴾ [النور : ٣٨]، إلا الشكر، فقد أطلق جزاء الشكر إطلاقا فلم يقدره بالمشيئة. فقال : ﴿ وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٥]، ﴿ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٤] ولم يقل : إن شاء، وقال كما ذكرنا : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم : ٧] ولم يقل : إن شئت، أو ما شاء الله.

وذكر الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع رجلاً يقول : اللهم اجعلني من الأقلين، فقال : ما هذه ؟ فقال : يا أمير المؤمنين، إن الله قال : ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود : ٤٠] وقال : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ : ١٣] وقال : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ [ص : ٢٤] فقال عمر : صدقت.

اقتران الشكر بالصبر

وورد ذلك في قوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [إبراهيم:٥]

والآية الثانية: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [لقمان:٣١] ، ثم بعد ذلك في سورة سبأ في قوله تعالى :

﴿ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [سبأ:١٩]

والآية الرابعة قوله سبحانه وتعالى :﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [الشورى: ٣٣]

وهذه المسألة قد ذكرها الإمام ابن القيم أيضًا في التفاضل بين الصبور والشكور فقال[1] : قال الشاكرون: لقد تعديتم دوركم وفضلتم مقامًا غيره أفضل منه وقدمتم الوسيلة على الغاية، الصبر وسيلة للشكر وقدمتم المطلوب لغيره على المطلوب لنفسه، والمطلوب لغيره هو الصبر والمطلوب لنفسه وهو الشكر، ، وقدتم العمل الكامل على العمل الأكمل وقدمتم الفاضل على المفضول، ولم تعرفوا للشكر حقه ولا وفيتموه مرتبته، لماذا؟"

قال : لأنكم قدمتم الوسيلة على الغاية فالصبر هو الوسيلة، تصبر حتى تستطيع أن تعبد الله من أجل أن تشكره سبحانه لا بد أن تصبر على هذا الشح والحرص ومنازعة النفس، مثلا لتدفع هذا المال وكذلك لتُصبر نفسك على الطاعة حتى تقوم شاكرا لله تعالى، لما قام صلى الله عليه وسلم حتى تشققت قدماه من طول القيام قال : (أَفَلَا أَكُونُ عَبدًا شَكُورًا؟)[2] ما الذي حمله على ذلك الصبر، إذن الصبر وسيلة لأن يشكر، ليس هو الغاية لذلك يقول لهم : قدمتم الوسيلة على الغاية وقدمتم المطلوب لغيره على المطلوب لنفسه لأن الصبر مطلوب لغيره لبقية المراتب.

والصبر ثلاثة: الصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية، والصبر على المحن والمصائب، وهذا مطلوب لغيره عندما يصبر على المحن والمصائب ليثاب، وهذا غير الشكر.

قال : قرن الله تعالى ذكره الذي هو المراد من الخلق وكلاهما هو المراد بالخلق، والأمر والصبر خادم لهما ووسيلة إليهما دعونا عليهما فاقترن اسمه باسم الشكر قال تعالى : ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴾ [البقرة : ١٥٢] وقرن سبحانه الشكر بالإيمان وأخبر أنه سبحانه وتعالى لا غرض له في عذاب خلقه إن شكروا وآمنوا ولم يقل إن صبروا وآمنوا فقال تعالى : ﴿ مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾

---

(١) انظر: عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، ابن القيم ص: ١١٦، طبعة مكتبة دار التراث– المدينة المنورة.

(٢) رواه البخاري (٤٨٣٧) كتاب تفسير القرآن، باب ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر.

[النساء : ١٤٧] شخص يقول لي : لماذا قدم الشكر على الإيمان؟ لا بد وأن يكون مؤمنًا أولاً، وهي أن الله تعالى عندما يذكر الإيمان فإن هذا الشكر من مفردات الإيمان، ومع أن الشكر نصف الإيمان، فقد قدم الشكر على الإيمان مع أن الإيمان هو الأول، وذلك لأهمية الشكر، فإفراد الشكر من الإيمان لأنه أهم عناصر الإيمان التي تأبى التعذيب من الله تعالى هي صفة الشكر، أفردها بالذكر وقدمها حتى يعلم المؤمنون أن **ما يمنع العذاب عنهم من صافت الإيمان بالذات هو الشكر.**

يقول : أي إن وفيتم ما خلقتم له وهو الشكر والإيمان، فما يصنع بعذابكم ؟ هذا وأخبر سبحانه أن أهل الشكر هم المخصوصون بمنته عليهم من بين عباده.

ومثل ذلك قوله : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ ﴾ [البقرة : ٩٧] وبعد ذلك ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ ﴾ [البقرة : ٩٨] فقال: جبريل وميكال وهما من ملائكته، فلمّا أفردهما وخصهما بالذكر من الملائكة، فذلك لأهمية هذين خاصة في السياق، وذلك في الرد على اليهود لما قيل له : من يأتيك من الملائكة قال : جبريل، قالوا : هذا عدونا، وإنما قال : وجبريل وميكال، بالذات من الملائكة الذين تنكرون هذا الكلام عليهم هم بالذات من الملائكة أهم ما يذكر في هذا السياق لأنهما المقصود بالمدح في هذا السياق.

ومثله أيضا قوله : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ ﴾ [يوسف : ٩٠] فمع أن التقوى تشمل الصبر، و الدليل على ذلك، قوله سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ﴾ [آل عمران : ١٥] من الذين اتقوا؟ قال : ﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ۝ ﴾ [آل عمران : ١٧]، فلما قال : يتق ويصبر، ولم يقل يتقي فقط، دل ذلك على أن أهم عناصر التقوى في هذا السياق هو الصبر فأفرده بالذكر.

وقد أخَّره في هذه الآية، بخلاف الآية أخرى :﴿ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم ﴾ [آل عمران : ١٢٥] فقدمه فيها، لأنه أهم صفة من صفات التقوى التي يريدها الله تعالى في هذا السياق ليتصف بها المؤمنون هي صفة الصبر فأفردها بالذكر ثم قدمها للاهتمام .

وقال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآ ﴾ [الأنعام : ٥٣]، فرد الله عليهم فقال : ﴿ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأنعام : ٥٣]، فالشاكرون هم أهل للمنة من الله تعالى وهم المخصوصون بتلك المنة من بين عباد الله.

بعد الإشارة إلى الإجمال في هذه المعاني نشرح إن شاء الله تعالى بعض الآيات بالتفصيل ، ولكن ينبغي أن يعرف كل أحد هذه القضية مجملة لتكون زاده الذي يتزوده به ، وليعلم به توفيق الله من عدمه له، وهو كيف يجلس ليعدد شيئًا من نعمه سبحانه وتعالى ؟

فإذا لم تجلس علمت أن الله لم يوفقك بعد ولم يسُقها سبحانه وتعالى إليك ولم يبصرك بمواضع النعم وتركك لا يريد منك شكرًا ، وهذه علامة ينبغي أن تتفكر فيها قبل استكمال معرفة شرح آيات الله تعالى.

رابعا : الشرح التفصيلي لبعض آيات الشكر في القرآن

وكما هو منهجنا أن نعود إلى بعض هذه الآيات الكريمات التي أجملناها في تفصيل الشكور لنفصل شيئًا منها حتى يكون ذلك توضيحًا للصورة، لتبين هذا الجمال القرآني، وهذه المعاني البديعة في هذه الآيات الكريمات وأن يكون كذلك تبيينًا لجوانب هذا الاسم المشرف من أسماء الله تعالى الحسنى.

والسبب الثاني لهذا التفصيل، أن **نعرف كيف نعبد الله تعالى بها، وكيف نأخذ بحظنا منها**، وكيف نتصف بهذه الأسماء الحسنى؛ لأن ذلك كما أشرنا يعتبر طريق الكُمَّل في هذا العالم، أولئك الذين يعبدون الله تعالى بهذه الأسماء الحسنى والصفات العليا كما ذكر الإمام ابن القيم.

الآية الأولى: إن تقرضوا الله.. يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم

﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [التغابن:١٧]، وقد بينت طريق الشكر وهو الإقراض لله تعالى قرضًا حسنًا. وبينت جزاء الشكر وهو يضاعفه لكم ويغفر لكم، وبينت سبب من أسباب الشكر، وهو مغفرة الله تعالى الذي غفر لهم على تقصيرهم وتفريطهم وتجاوزهم وسيئاتهم وذنوبهم.

إن القرض في هذه الآية بمعنى الإنفاق والبذل من المال، والله تعالى سماه قرضًا: لأن المال الذي ينفقه المرء يقع في يد الله قبل أن يقع في يد السائل، وأن الله تعالى يربي لأحدكم هذا الدرهم الذي أعطاه كما يربي أحدكم فلوه حتى يصير مثل جبل أحد [1]، هذا النزر اليسير الذي تنفقه لله تعالى، فمعنى قوله: ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ إن تنفقوا.

وقوله ﴿ إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾، بعد قوله:﴿ وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ يقول[2]: هذا يسمى "استئناف بيان"، بأن قال أن تقرضوا المولى سبحانه وتعالى قرضًا حسنًا، فإن مضاعفة الجزاء على الإنفاق مع المغفرة خيرٌ عظيمٌ، وبعد أن جعل الإنفاق خيرًا جعل الإنفاق سبب الفلاح والفلاح هو البقاء والظفر في الأولى والآخرة.

فالمولى عندما يقول: ﴿ وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ ﴾ فكيف يكون الإنفاق خيرًا لنا ؟ قال: يكون الإنفاق خير لكم لأنه يُضاعف لكم هذا الإنفاق ويُغفر لكم به.

---

(١) إشارة للحديث الذي رواه البخاري (١٤١٠) كتاب الزكاة –باب الصدقة من كسب طيب، ومسلم (١٠١٤) كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها .

(٢) انظر: التحرير والتنوير– الطاهر بن عاشور– ج: ٢٨، ص: ٢٩٠ – الدار التونسية للنشر.

وهذا هو المعنى الجميل الذي يفهمه المؤمنون وهو أن الإنفاق من المال الذي هم مستخلفون فيه وبذل المال للفقراء والمحتاجين والمُعسرين ولإخوانهم وأحبائهم وفي سبيل الله وفي الجهاد والبذل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، **فهذا القرض الذي تقرضه الله تعالى سيُضاعف لك** فإن أقرضت مبلغًا قليلاً، فأنت تخاف أن ينقص مالك؟ قال: لا ستعوض عنه بأكثر منه أضعافًا كثيرة كما قال المولى سبحانه وتعالى قبل ذلك في سورة البقرة: ﴿ **مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ** ﴾ [البقرة:٢٤٥].

فالقرض إذا يطلق على الإنفاق المأمور به إطلاقًا بالاستعارة والمقصود في هذه الآية هو الاعتناء بفضل الإنفاق المأمور به، والمقصود أن الشارع يعتني بقضية الإقراض، وإخراج شح النفس لأنه قال: ﴿ **وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ** ﴾ [الحشر:٩]، فعلق فوزهم وفلاحهم على إخراج هذا الشح وعلق المضاعفة لهم والمغفرة على هذا الإقراض.

ولما قال: ﴿ **إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا** ﴾ فكان الأمر مكررًا للاهتمام، فدل بهذا التكرار في الآية أنه يعتني بالإنفاق في سبيل الله، وأنه طريق من طرق المغفرة بل هو طريق من طرق الشكر لأن الله تعالى قال: ﴿ **لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ** ﴾ [إبراهيم:٧] **فإن أقرض الله تعالى فقد شكر هذا المال** وحينئذ ينتظر المزيد لذلك ينتظر شكر الله تعالى وشكر الله تعالى بالمزيد من هذا المال فإن بذلت مالاً كان شكر الله لك عليك بمزيد المال يعني بمزيد الخلف لك بمزيد العطاء بمزيد المضاعفة لما أنفقت إن أقرضت الله تعالى وقتًا وجهدًا وكذا وكذا مالاً وقتًا جهدًا صحةً سعيًا كل ذلك لا يضيع، بل يزداد كما أشار إليه المولى عز وجل حتى ذلك الماشي الذي قال الله تعالى فيه: ﴿ **وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾** ﴾ [التوبة:١٢١].

وذكر أنه قرض من العبد لربه، فقال: (إن تقرضوا) ولم يقل: (إن تنفقوا) ترغيبًا للعبد المسكين في الحث على البذل والإنفاق، **كأنك أنت أيها المسكين تقرض ربك سبحانه**

وتعالى وكفى بهذا ترغيبًا وتلطفًا في الطلب وإذا جعل المنفق كأنه يعطي الله تعالى مالاً فذلك من معنى الإحسان الذي هو (أَنْ تَعبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُن تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ) [1] وهو أنك أيها المسكين تعطي ربك على المراقبة، وأن تقرض الله تعالى وأنت مراقب لله تعالى والله تعالى مطلع عليك وأنت تعطي وأنت تنفق؛ فهذه الدرجة العالية في الإحسان إن كنت تعبده كأنك تراه.

وهي الدرجة الأولى أن يعبد الله على المشاهدة يعني كأنك تراه أي تشاهده، فإن لم تكن تراه فإنه يراك فتراقبه، فهذا المعنى كأنه يعطي الله تعالى مالاً على المراقبة، يعني كأنه يرى ربه حال إقراضه إياه أنت تقرض.

والمعنى الجميل هنا، في أنك تقرض الله تعالى هذا المال فأنت تخرج من مالك لتقرض ربك سبحانه وتعالى إياه فإذا بك إذا أقرضت أحدًا كان بينك وبينه هذه الرؤيا، وهذا الحساب والعد والمشاهدة والإشهاد وغير ذلك، ولله المثل الأعلى فإنك حينئذ تشاهد ربك أو تراقبه سبحانه وتعالى حال هذا العطاء.

فهذا يدخل تحت معنى عبادة الله تعالى عبادة من يراه والقرض يدخل تحت عبادة من يرى أن الله تعالى يراه وأن يستشعر المرء حالها امتثال أمر ربه سبحانه وتعالى بالإنفاق فكأنها معاملة بين مقرض ومستقبل وقد تقدم في قوله ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ ﴾ [البقرة:٢٤٥].

والمضاعفة هنا هي إعطاء الضعف والضعف يعني المثل وجعل الله تعالى الإنفاق سببًا للمغفرة كما قال: (وَالصَّدَقَة تُطفِئُ الخَطِيئَة كَمَا يُطفِئُ المَاءُ النَّار) [2].

---

(١) رواه مسلم (٨) كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان .

(٢) رواه الترمذي (٢٦١٦) كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، وقال : حديث حسن صحيح.

وقوله﴿ شَكُورٌ ﴾ أي كثير الشكر فهي صيغة مبالغة من فعول، وأطلق الشكر فيه على الجزاء بالخير على فعل الصالحات، فالله تعالى يشكر لعبده فيزيده جل وعلا مما أعطى منه فيعطي المرء النزر القليل فيثيبه المولى سبحانه وتعالى الثواب العظيم، وليس الثواب العظيم فقط لأن صيغة فعول هنا يعني كثير الشكر **فكأنه سبحانه وتعالى يعطيه ما لا حصر له وما لا مقارنة به بين ما أعطى** وبين الجزاء الذي أخذه من الله تعالى، وزادك الله تعالى من الجزاء فيه زيادة لم تكن تتخيلها أيها المسكين، فكان ذلك دليلاً على أن الله هو الشكور سبحانه وتعالى.

وأُطلق الشكر على : **الجزاء بالخير على فعل الصالحات**؛ تشبيهًا لفعل المتصدر بالجزاء لشكر المنعم عليه على نعمه، ولا نعمة على الله تعالى فيما يفعله عباده من الصالحات، فعندما يقول إن ربك سبحانه وتعالى شكور، تُرى هذا الشكر مقابل النعمة التي أسديت إليه؟ ولكن لا نعمة لأحد على الله تعالى! بل لله سبحانه وتعالى الفضل والنعمة وهو الذي خلقهم ورزقهم وأعطاهم ومنحهم وأعطاهم الإيمان والعمل وأعطاهم كل ذلك سبحانه وتعالى بغير سابقة منة منه ولا بسابق عمل وبسابق فضل ولا شيء، وما كانوا يستحقون لولا فضل الله تعالى عليهم ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ [النور:٢١]، فهي محض فضل الله تعالى لهم من ناحية ومن ناحية أخرى فإن نفع هذه الصالحات عائد لأنفسهم فكيف يشكرهم هم إن عملوا الصالحات؟

جزاء الصالحات يعود على الله أو يعود عليهم هم؟ يعود عليهم، فلا نفع لله تعالى في الصالحات التي يؤتوها حتى يشكرهم عليها ومع ذلك شكرهم سبحانه وتعالى تفضلاً منه وحثًا على صلاحهم.

فرتّب لهم الثواب بالنعيم على تزكية النفس، أنت تزكي نفسك بالعمل الصالح، ومع ذلك رتّب لك الثواب بالنعيم على هذه التزكية ولا نفع لله تعالى بتلك النعمة، وإنما يعود النفع عليك أنت لا على الله تعالى، لترى رحمة الله بك وعناية الله تعالى بعباده وتلطف لهم الذي سمى ذلك الثواب شكرًا وجعل نفسه شكورًا.

وأتبعها بصفة الحليم فقال﴿ حَلِيمٌ ﴾ في هذه الآية بالذات وقد أومأ الله تعالى إلى هذا المقصد بإتباع صفة شكور بصفة حليم؛ تنبيهًا على أن ذلك من حلمه سبحانه وتعالى بعباده فإن من حلم الله تعالى بعباده أن أثابهم على تزكيتهم لأنفسهم، وأثابهم على نفعهم لأنفسهم الذي لا يعود عليه سبحانه وتعالى منه نفع وأثابهم عليه قال ذلك إنما هو من حلمه سبحانه وتعالى ومن سعة رأفته جل وعلا ورحمته سبحانه وتعالى كما ذكرنا في اسمه الحليم.

وحظك من هذه الآية أن تتصف بالأمرين معًا:

الأمر الأول: وهو الإنفاق الذي ينبغي أن يسارع إليه المرء وأن يستكثر منه لأنه سيضاعف له هذا الخلف من الله تعالى أضعافًا كثيرة فيخرج بذلك شح النفس في العبادة وفي المعاملة وفي المال وأنت تجد نفسك كذلك شحيح النفس بالصلاة والعبادة ولا تتخيل أنك إن بذلت ذلك لله تعالى أن الله تعالى يزيدك من الصلاة ويزيدك من قراءة القرآن ويزيدك من الصيام ويزيدك من البر والإحسان، وإن بذلت مالاً وجدت الزيادة كذلك من الله تعالى في هذا المال.

وهذه من الأمور المهمة فلا ينبغي للمرء يستثقل أن يبذل نفسه في الصلاة ويستثقل أن يبذل وقته وصحته فيها ويستثقل أن يبذل لها ليله وجهده ويستثقل كذلك في ماله ويستثقل في صحته ويستثقل في أن يقضي حاجات المسلمين وأن يسير لهم، ويستثقل في أن يسعى بشدة ساقيه معهم أو أن يرفع بشدة ذراعيه لهم أو أن يبذل لهم المعروف القليل الذي أمر به النبي صلَّى الله علَيه وسلَّم.

الأمر الثاني: هو كيف يتصف المرء بهذه الصفة من صفات الله تعالى، بأن يكون شكورًا وقد علمنا هذا المعنى في الدروس الأولى كيف يكون شكورًا، وأن من لم يشكر الناس لم يشكر الله تعالى[1]، وأن هذه الطباع التي تستثقل أن ترى لغيرها فضلا أو أن تشهد له حقا أو أن

---

(١) رواه الترمذي (١٩٥٤) كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

ترى له عملاً وسعيًا قد بذله لها فتشكره عليه ، أما هذه نفوس المطبوعة على الخسة وعلى النذالة فلا ينبغي أن يكون عليها المؤمنون بل نفوس المؤمنين منشرحة بأن تشكر، وأن تسدي المعروف لمن أداه، ولا تبخل بذلك ولا تستكثر على نفسها شيئًا في أن تشكر؛ لأنه من لم يشكر الناس لم يشكر الله تعالى.

فالمرء يأخذ من هذه الآية في اسمه الشكور، ليتعلم كيف يكون شكورًا، فيبذل كافة الشكر لمن أدى إليه معروفًا خاصة إذا كان هذا المعروف فيما يقربه إلى الله تعالى ويرفع درجته عند الله ويكون سببا لمعرفته بربه وتقيره له وعبادته إياه، ثم إذا كان ذلك مع العبد الذي يسدي لك معروفا، فما بالك بربك جل وعلا، فأنت لم تعط ربك شيئًا فالله هو الذي أعطاك ثم هو الذي شكرك، فالعبد يعطيك لتشكره أما الرب سبحانه وتعالى يعطيك ليشكرك !

الآية الثانية : ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور

قوله تعالى: ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾ [فاطر:٣٠] وقبل هذه الآية قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾ [فاطر:٢٩].

من يتفهم في آيات الله تعالى يرى كأن الله سبحانه وتعالى يقول: الذين يتلون كتاب الله ويقيمون الصلاة وينفقون مما رزقناهم سرًّا وعلانيةً هؤلاء يرجون هذه التجارة الرابحة وسوف يوفيهم الله تعالى أجورهم ويزيدهم من فضله لماذا ؟ لأنه شكور وغفور؟ ولماذا غفور؟ لأنهم سيقصرون فيغفر لهم تقصيرهم ويزيدهم من فضله سبحانه وتعالى فلما غفر ذنوبهم التي وقعوا فيها وزادهم من فضله على قلة عملهم دل ذلك على كونه غفورًا شكورًا.

وقد دلت الآية على طريق من طرق الشكر وهو تلاوة كتاب الله وإقام الصلاة والإنفاق مما رزقهم سبحانه وتعالى وهو التجارة الرابحة .

ولكي نرى علاقة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ ﴾ [فاطر:٢٩] بما قبلها فالآية التي قبلها ﴿ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ

﴿وَٱلْأَنْعَـٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨]، فنقدم بهذه الآية لنفهم تراكيب هذه الآيات الكريمات لنصل منها إلى معنى الشكر الذي نريد ولنفهم منها طريق الشكر الذي يريد الشرع منّا، ولنرى أسباب الشكر التي كانت هي العمود الذي يسير وراءه المرء حتى يشكر الله تعالى.

وقوله ﴿كَذَٰلِكَ﴾ يقول[1]: الأظهر أنها تأتي بعد كلام يتنزل منزلة الإخبار بالنتيجة عقب ذكر الدليل ومعنى هذا الكلام إن الآية كلها تقول: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ﴾ فقال ﴿كَذَٰلِكَ ۗ﴾ يعني كذلك كما أن في الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه **فكذلك في البشر مختلف ألوانه ومن هؤلاء البشر الذين تختلف ألوانهم لا يخشاه منهم إلا العلماء**، وإذا علم ذلك دل الالتزام على أن غير العلماء لا تتأتى منهم خشية الله جل وعلا فدل على أن البشر في أحوال قلوبهم ومداركهم كذلك مختلفون.

وأوثر هذا الأسلوب﴿كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ۗ﴾ بالتنويه بأهل العلم والإيمان والقصد المستفاد من هذا اسمه "قصد إضافي" يعني أن الله لا يخشاه إلا العلماء، فكأنما قصر خشية الله على العلماء أي لا يخشاه الجهال الذين لا يعلمون عن الله ولا يعرفون ربهم سبحانه وتعالى، وإن العلماء أنفسهم مختلفون كذلك في مقدار الخشية وذلك على قدر العلم بالله تعالى فليس كل العلماء الذين يخشون الله تعالى متفقين في هذه الخشية بل هم متفاوتون فيها على قدر تفاوتهم في علمهم بربهم سبحانه وتعالى.

وهذه مسألة مهمة: لأنها تبين طريق الزيادة التي ينبغي أن يسلكها المرء حتى يزداد علمه بالله فتزداد خشيته لله تعالى فيكون أقرب إلى الله وأحب إلى الله وأكثر تحصيلا لصفة الشكور التي ستأتي بعد ذلك، وهي الزيادة التي ذكرها الله تعالى.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير– الطاهر بن عاشور– ج: ٢٢، ص: ٣٠٤ – الدار التونسية للنشر.

وتقديم مفعول﴿ يَخْشَى ﴾ في قوله تعالى: ﴿ يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ﴾ حيث لم يقل يخشى العلماء ربهم أو يخشى العلماء الله على ترتيب الجملة العادي في اللغة العربية؛ لأن المقصور فهم خشية الله هم العلماء فوجب تأخيره على سنة تأخير.

فمن هم هؤلاء العلماء؟ قال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ [فاطر:٢٩]، فالمراد بالعلماء، العلماء بالله وبالشريعة وعلى حسب مقدار العلم في ذلك تقوى وتزداد خشيتهم لله تعالى فأما العلماء بعلوم لا تتعلق بمعرفة الله وثوابه وعقابه معرفةً على وجهها فليست علومهم بِمُقَرِّبَة لهم من خشية الله، **فليس أي علم يولد الخشية** ،لا، ليس المقصود إلا العلماء بالله تعالى وبشريعته بدليل ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ ﴾ [فاطر:٢٩] فهؤلاء هم العلماء الذين وقعت في قلوبهم الخشية لله تعالى أما تلك العلوم التي لا تتعلق بمعرفة الله تعالى وثوابه وعقابه جل وعلا فلا تقوم بها خشية لله تعالى ومن تتأتى الخشية بها لله تعالى إذا لم تكن هذه المعرفة معرفة بالله تعالى ومعرفة بثوابه وعقابه مما يجعل القلب في خشية لله تعالى.

ذلك لأن العالم بالشريعة لا تلتبس عليه حقائق الأسماء الشرعية فهو يفهم الأشياء الشرعية التي ذكرها الله تعالى في كتابه يعني يفهم الإيمان والإسلام والإحسان والخشية والتقوى والبر والطاعة والمعصية والكفر والذنب والشرك والسيئات ويفهم الجنة والنار والميزان والبعث والحشر ويفهم الصلاة والزكاة، فهذه التي تسمى الأسماء الشرعية فالعالم يعرف هذه الأسماء الشرعية على حقيقتها سواء كانت في العبادة أو في العقيدة أو في اليوم الآخر أو في المعاملات أو في غير ذلك من الأخلاق والسلوك التي شرعها الله تعالى في كتابه فهؤلاء هم العلماء الذين يعلمون عن الله تعالى مراده جل وعلا، وعن النبي صلَّى الله علَيه وسلَّم مقصوده ويسيرون عليه بهذه الخشية له سبحانه وتعالى؛ فتستقيم قلوبه وأحوالهم إلى الله جل وعلا.

وهؤلاء العلماء يعلمون عواقب الأعمال من خير وشر فهم يأتون ويدعون من الأعمال ما فيه مراد الله ومقصد شرعه، وإن خالف أحد منهم ما دعت إليه الشريعة في بعض الأحوال أو بعض الأوقات، لأنه ليس ثم أحد معصوم نداء الشهوة أو الهوى أو لتعجل دنيوي مثلا علم أنه

متورط فيما لا تحمد عقباه، لا يلبث أن ينصرف عنه ويتوب ولا يسترسل معه بل يقلع ويتقلل من هذه الأمور ويتوب ويستغفر ويرعوي مرة أخرى إلى الله جل وعلا فهذه مرتبة العلماء.

ولكن ما هو الحال بالنسبة لهؤلاء الذين لم يصلوا إلى مرتبة العلماء وهذا الكلام الموجه إلينا اليوم؟ هذه المسألة المهمة التي ينبغي أن تكون حظ المرء من هذه الآيات .

فهل الله تعالى قصر الخشية على العلماء وانتهت، ولم يبق أحد يمكن أن يخشى الله تعالى، أو أن يستفيد خوفًا لله جل وعلا يكون سببًا لنجاته في الآخرة؟ لا إنما رحمة الله أوسع من ذلك، فغير العالم إن اقتدى بالعلماء فسعيه مثل سعي العلماء وخشيته متولدة من خشية العلماء.

والعلم دليل على الخيرات وقائد إليها وأقرب العلماء إلى الله أولاهم به وأكثر له خشية وفيما عنده سبحانه وتعالى رغبة.

وقوله﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ لماذا جاءت العزة مع المغفرة؟ فقوله ﴿ عَزِيزٌ ﴾ دلَّ على استغنائه تعالى عن إيمان المشركين، وقوله ﴿ غَفُورٌ ﴾ لفتح باب التوبة لكل أحد يريد أن يرجع إلى هذا الحال من الخشية، يعني إذا بين لهم أنه عزيز سبحانه وتعالى وأنه مستغن عنهم، فإن الله سبحانه وتعالى لا يريد عبادتهم ولا خشيتهم ولا ينفعه شيء من ذلك فلعل ذلك يكون سببًا في قنوطهم وبعدهم وبالتالي يقصرون في الدين وفي الصلاة وفي العبادة، فأُلِفت قلوبهم بإتباع وصف عزيز بوصف غفور لتفتح باب الرحمة لهم، فهو يقبل التوبة منهم إن تابوا إلى ما دعاهم الله إليه.

وفي وصف الغفور بالذات هنا في هذه المسألة معنى آخر جميل وهو متعلق بالعلماء، فقوله: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ يعني إن الله غفور للعلماء إذا وقع منهم شيء فلهم حظ عظيم من هذه المغفرة لذلك قد ذيلت الآية الكريمة بهذا الاسم تنبيهًا على هذا المعنى الذي يصل إلى هؤلاء العلماء إذا ما خالفوا أمر الشرع عن شهوة أو هوى أو نفع دنيوي أو غيره فإن الله تعالى ينعشهم بمغفرته جل وعلا ويتوب عليهم.

وبعد ذلك يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ۝ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ۝ ﴾ [فاطر: ٢٩، ٣٠].

هذا كذلك استئناف فعندما يقول ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ ﴾ طالما لم تعطف فهذا استئناف، يعني جملة جديدة مستأنفة ولكنها مستأنفة لتبين صفات العلماء في الشريعة أو شيئًا من صفاتهم التي تدل على أهمية هذه الصفات بالذات التي ذكرها الله تعالى لأن لهم صفات أخرى كثيرة أعم من هذه الصفات وأكثر منها ولكن هذه الصفات بالذات هي الدليل على الخوف والخشية لله تعالى وهي أخص هذه الصفات وأعلاها في الدرجة لأنها يعود نفعها إلى المرء ويعود نفعها إلى الغير فإن كانت في الصلاة يعود نفعها إلى المرء وفي الإنفاق يعود نفعه إلى الغير فيكون ذلك سببا لرفع درجته عند الله بسبب ما هو فيه من الحال الحسن وما تعدى من حال حسن بغيره فهذا هو الجزء الأول.

والجزء الثاني: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ ﴾ فليس تلاوتهم لكتاب الله تعالى إلا لما يكون سببا لمعرفتهم لربهم في تجددهم لهذه التلاوة يقع في قلوبهم من العلوم النافعة التي تقربهم من الله تعالى والفتوحات الإلهية التي تكون سببا لرفع درجتهم وعلو خشيتهم ورجائهم في الله تعالى.

وأجمل حسن ذكرهم سبحانه وتعالى بذكر صفة غفور ولذلك ختمت هذه الآية أيضا بقوله: ﴿ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر:٣٠] ، إذن قد ختمت الأولى ب(غفور) وختمت الثانية ب(غفور شكور).

لذلك فهناك ثلاثة مسائل نتعلمها من هذه الآيات: **الأولى: طريق الشكر**، وهو بتلاوة كتاب الله والصلاة والإنفاق مما رزقناهم، فهذا هو صفة العلماء وأنهم في الدرجة العالية من الشكر والمسألة الثانية: هي الدرجة العالية من ثناء الله تعالى عليهم وشكره لهم والمسألة الثالثة: أن الله تعالى غفر لهم في الآية الأولى وغفر لهم في الآية الثانية، ما يمكن أن يقع منهم

فقد ختمت الأولى بـ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ وختمت الثانية بـ﴿ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ لتأكيد هذا الثناء وبين الثناءين والمغفرة والشكر لهم بيَّن آثار هذا الثناء ومنافعه وطرقه التي وضحت في الآية.

والمراد من الذين يتلون كتاب الله، هم العلماء لأنهم اشتهروا بذلك وعرفوا به، والدليل على أن المراد به العلماء قوله تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ ﴾ [العنكبوت:٤٩] يعني هذا القرآن آيات بينات والذين يتلون كتاب الله يتلونه لأنهم هم العلماء لأن هذه الآيات الكريمات من كلام الله تحملها صدور هؤلاء العلماء.

وهو أيضًا كناية عن إيمانهم فلما قال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ ﴾ قلنا: هم المؤمنون به لماذا؟ قال: لأنه لا يتلو كتاب الله إلا المصدق به وإلا من آمن به والذي يتلوه محبة له وخشية لله وإقبالاً على هذا الكلام وأنسًا به وذكرًا للرب سبحانه وتعالى وتأدبًا لمأدبة القرآن الكريم واستشفاءً بشفائه وتعلمًا لعلمه إلى غير ذلك من معاني القرآن التي أشرنا إليها يومًا ما.

وأنهم يكتسبون العلم الشرعي من العقائد والأخلاق والتكاليف من التلاوة لكلام الله تعالى وهذا الفهم والتدبر لآيات الله جل وعلا.

وأشْعَرَ الفعل المضارع﴿ يَتْلُونَ ﴾ بتجدد التلاوة كلما نزل منه شيء تلقوه وتدارسوه وتعلموه وانتفعوا به ورأوا ذلك في سلوكهم وأخلاقهم، ولأن القرآن في كل مرة يتلوه كأنه لازال يتنزل ولأن في تلاوته كل مرة، يخرج بشيء جديد وبعلم جديد وبخشية جديدة وبفهم جديد وبفتح جديد من الله تعالى وهكذا لذلك عبر بالمضارع لتجدد ذلك.

وقوله ﴿ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ ﴾ فقد ورد الأمر بها قبل. لذلك فهم قائمون عليها مقيمون لها، وأما الإنفاق فقد آمن به وأمر به فهو ينفق لله تعالى على هذا الحال، وجيء بجانب إقامة الصلاة والإنفاق بالفعل الماضي لأن فضل الصلاة والصدقة قد تقرر وعملوا به فلا تجدد فيه.

وأتبع ما هو علامة قبول الإيمان والعلم به بعلامة أخرى، وهي إقامة الصلاة كما تقدم في سورة البقرة، فإنها ، أي الصلاة أعظم الأعمال البدنية التي يقوم بها المرء، ثم أتبعت بعمل

عظيم من الأعمال في المال، وهي الإنفاق فإذا أقام الصلاة كان ذلك بينه وبين ربه يرفع درجته، وإذا أنفق كان ذلك إحسانًا لغيره فتم له دينه وإيمانه بما كان منه من خير لنفسه وما تعدى من خير لغيره وهو في نفس الوقت يتلو كتاب الله ويتعلم أحكامه يتلو كتاب الله ليزداد خشية يتلو كتاب الله ليتدبر آياته يتلو كتاب الله ليفتح عليه يتلو كتاب الله ليستشفي من أمراضه وعلله يتلو كتاب الله لأن خيركم من تعلم القرآن وعلمه.

وسياق الآيات ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ ﴾ يسمى في البلاغة التفات من الغيبة إلى الحاضر فلو كانت خالية من البلاغة لقال: (إن الذين يتلون كتاب الله وينفقون مما رزقهم الله). فـ(وأنفقوا مما رزقناهم) دليل على إدماج الامتنان في الآية يعني لما قال: ﴿ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ ﴾ امتن عليهم بأن الرزق منه هو سبحانه وتعالى لا منهم فهذا يعني أنهم أنفقوا من رزق الله الذي رزقهم فهو يمتن عليهم بالرزق ويثني عليهم لأنهم ينفقون من رزق الله تعالى فهذا دليل امتنان الله تعالى عليهم فلما امتن عليهم بهذا الرزق الذي ينفقون منه كان مناسبًا أن يقول: ﴿ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ ﴾، وقوله: ﴿ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ يعني أنفقوا إنفاق سرٍ وأنفقوا إنفاق علانية.

ولكن ما الفائدة في أن يقول: ﴿ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ ﴾؟ المعنى أنهم لا يريدون من الإنفاق إلا مرضاة الله تعالى، فإن أنفقوا في السر أو العلانية لا يراءون أحدًا فهم ينفقون حيث لا يراهم أحد وهو السر وينفقون بمرءًا من الناس لا يراءونهم فلا يصدهم رؤية الناس عن الإنفاق.

وكما ذكرنا القول المأثور أو المشهور ترك العمل لأجل الناس رياء والعمل لأجل الناس شرك فالذي ينفق لأجل الناس هذا شرك، والذي يترك العمل لأجل الناس فهذا رياء، فلا يصدهم ذلك ولا ذلك عن الإنفاق وقدّم السر على العلانية ؛ لأنه أقرب إلى الإخلاص وأدعى إلى عدم مراءاة الناس حيث صدقة السر كما ذكرنا ﴿ إِن تُبْدُوا ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ ﴾ [البقرة:٢٧١] فقدم السر على العلانية في هذه الآية لأنه خير ولأنه أدعى إلى الإخلاص وترك الرياء وإن كان في العلانية كما ذكر الله تعالى ﴿ إِن تُبْدُوا

ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ﴾ لأنهم لا يصدهم رؤية الناس عن بذل وإنفاق لله تعالى لأنه لا يراءون أحدًا، ولا يهمهم أحدًا وفي السر؛ لأنه أخفى وأقرب إلى رؤية الله تعالى له فقط من أن يكون أحد يراه فيكون أدعى إلى إخلاصه وأحب إلى مولاه سبحانه وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿ يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾ هذه بشارة لهم ليس رجاء فقط وإنما يبشرهم الله تعالى بأن رجاءهم سيقع في محله وأن هذه التجارة لهم تجارة رابحة لن تهلك هذه التجارة ولن تذهب سدى وإنما تجارته تاجرة رابحة إن شاء الله تعالى.

﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ يقول: (ليوفيهم) بشرناهم بذلك وقدرناه لهم لنوفيهم أجورهم ووقع الالتفات من التكلم في قوله مما رزقناهم فننتبه هنا إلى أنه عندما يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ ﴾ تأتي الإجابة ﴿ يَرْجُونَ تِجَٰرَةً ﴾ فجاء السياق على نفس النمط الأول على غير السياق في قوله تعالى: ﴿ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ﴾ فلننتبه إلى ذلك.

والتوفية هي جعل الشيء وافيًا تامًّا لا ينقص، فمعني ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ ﴾ أي ليعطيهم أجورهم تامة غير منقوصة ولا غبن فيها وسجل عليهم الفضل سبحانه وتعالى؛ لأنه يزيدهم بعد ذلك يعطيهم هذه الأجور كاملة ثم يزيدهم من فضله سبحانه وتعالى، وهي الزيادة المضاعفة أضعافًا كثيرة كما في قوله: ﴿ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٦١].

وقوله:﴿ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ فقد ذيَّل هذا الوعد بما يحققه، وهو أن الغفران والشكران من شأنه سبحانه وتعالى فإن من صفاته الغفور الشكور أي الكثير المغفرة والشديد الشكر، فالمغفرة تأتي على تقصير العباد المطيعين، فإن طاعة الله تعالى الطاعة الحقة هي التي بالقلب والعمل والخواطر، ولا يبلغ حق الوفاء بها إلا المعصوم صلَّى الله علَيه وسلَّم ولكن الله تعالى تجاوز لهذه الأمة فيما حدثت أنفسها وفيما همت به ولم تفعله، وفي اللمم وفي محو

الذنوب الماضية بالتوبة كل ذلك تجاوز عنه سبحانه وتعالى؛ ليبين أنه هو الغفور، والشكر هنا كناية عن مضاعفة الحسنات على أعمالهم فهو شكر بالعمل، لأن الذي يجازي على عمل عمله المجزي بجزاء وافر يدل على جزاءه على أنه حمد للفاعل فعله، يعني الذي يجازي العامل على عمله وهو عمل قليل فجزاه بجزاء وافر دل على أنه قد حمد له هذا الفعل ودل على أنه قد شكره له سبحانه وتعالى مع أنه لا يستحق حينئذ إلا أن يخرج كفافا لا له ولا عليه.

والمرء قد يستحق العقاب بسيئاته فيكون حقه إذا غفر له أنه لا سيئات عليه فيخرج لا له ولا عليه فلو كان هو يستحق العقاب فغفرت سيئاته ومحيت وتجاوز الله تعالى عن ذنوبه فإنه يخرج لا له ولا عليه ويكفي ذلك من الله تعالى أن يكون غفورًا فلا يعذبه سبحانه وتعالى ولكن زاد على ذلك أنه شكور فإن كان حقه أنه يخرج لا له ولا عليه لأننا كما ذكرنا أنه صلى الله عليه وسلم قال: (لَن يَدخُلَ أَحَدٌ الَجنَّة بِعَمَلِه، قَالُوا: وَلَا أَنتَ قَالَ: وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحمَةٍ مِنهُ وَفَضل)[1] ، فلو غفرت للعبد سيئاته ما كان يستحق دخول الجنة ، فإذن يكفيه أن يخرج ما له ولا عليه فما من أحد يستحق دخول الجنة بعمله الصالح فضلا عن سيئاته وذنوبه وهنا تأتي قضية الشكر فذلك العمل الصالح القليل الذي عمله المرء، يزيدهم الله من فضله فيكون ذلك سببًا لدخولهم الجنة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين؛ فضلا منه سبحانه وتعالى وشكرًا لهم على هذا اليسير من العمل.

وفي الآية ما يشمل معنًى آخر وهو ثواب قرّاء القرآن فأصحاب القرآن وأصحاب تلاوة القرآن المدمنون لقراءته وتلاوته فهموا أو لم يفهموا فإنه يصدق عنهم أنهم من الذين يتلون كتاب الله ويقيمون الصلاة ولو لم يصاحبهم التدبر في القرآن فإن للتلاوة حظها من الثواب وحظها من التنور بأنوار كلام الله تعالى فالتلاوة فقط لها حظها من الثواب ولها حظها من النور الذي يأخذه المرء من أنوار كلام الله تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

---

(١) رواه مسلم (٢٨١٦) كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله .

عرف المؤمنون حظهم من ذلك أن يسلكوا طريق الشكر الذي بينه الله تبارك وتعالى، وأن يسيروا في طريق الخشية الذي وضحه القرآن الكريم، كيف يكون على هذا الحال من سلوك طريق الشكر ومن معرفة أسباب الشكر ومن تعداد ألوان الشكر ونعم الشكر ليشكر الله تعالى عليها من ناحية، ومن ناحية أخرى ليأخذ حظه من هذا الاسم المكرم فيكون له هذا الثناء من شكر الله له أو من أن يكون هو كذلك كما قال فيهم المولى: ﴿ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء:١٩].

الآية الثالثة: نجيناهم بسحر .. كذلك نجزي من شكر

قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ۝ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ۝ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ۝ ﴾ [القمر: ٣٣-٣٥]. وهذه الآية: ﴿ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ۝ ﴾ من يطالع في التفاسير لا يجد ما يشفي الغليل فيها.

وقصة لوط عليه السلام، بينتها آيات أُخر، وبينت الحالة الصعبة التي كان فيها عليه السلام، حتى إنه من شدة الضعف قال: ﴿ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ [هود: ٧٧] ،لما جاءه قومه ﴿ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ۚ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ۝ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ۝ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ۝ ﴾ [هود: ٧٨ - ٨٠]، قال له جبريل، وهو الذي كان قد نزل ساعتها في هؤلاء الأضياف: أنت تأوي إلى ركن شديد، بلى وهذا قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (بَلَى لَقد كَانَ يَأوِي إِلَى رُكن شَدِيد).[1] إلى الله

(١) رواه البخاري (٣٣٧٢) كتاب أحاديث الأنبياء، وسلم (١٥١) كتاب الإيمان.

تعالى، ﴿ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَ ﴾ [هود: ٨١]، فانظر في هذه الآية كيف كان الشكر سببا في ذلك.

فقوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ ۝٣٣ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ ﴾، يعني: الله تبارك وتعالى حصبهم بالحجارة وبالريح الشديدة التي تقلب الحجارة عليهم، وآل لوط هم قرابته وهم بناته فقط، ولوط داخل في هذا المعنى، وقد ذكر في آيات أخرى أن زوجة لوط لم ينجيها الله تعالى، الآية التي ذكرناها: ﴿ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ۝٦٠ ﴾ [الحجر: ٦٠] أو ﴿ قَدَّرۡنَٰهَا مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴾ [النمل: ٥٧] أو ﴿ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣٢]، وهنا لم يذكر استثناء امرأته وجعلها في ضمن الهالكين اكتفاء بمواقع الذكر، وقد ذكرت في مواقع أخر ذكرها الله تعالى وتنبهًا على أن من لا يؤمن بالرسول لا يعد من آله.

فهذه الآية الوحيدة التي لم يأت فيها ذكر امرأة لوط، وهي كما تعلمون كانت من الكفرة ، والله تعالى أصابها بما أصاب به قومها من الكفرة، في كل الآيات ذكرت سيرتها أنها أصيبت معهم إلا هذه الآية اكتفاء بتلك الآيات من ناحية، ومن ناحية أخرى حتى يتعلم المرء هذه المعاني الجميلة في القرآن، فلو سأل سائل لماذا: لم امرأته في هذه الآية ؟ لأنه من لا يؤمن بالرسول لا يعد من آله، كما قال تعالى: ﴿ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ ﴾ [هود: ٤٦]، وفي قراءة ورش: (إنه عَمِلَ غيرَ صالح).

وقوله تعالى: ﴿ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ ﴾ أي في وقت السحر، والإشارة في هذا الوقت بالذات لتدل على المعنى الجميل التالي في الآيات: أن الله تعالى نجّاهم قبل هلاك قومهم ليعتبروا بذلك وليروا هذا الحال الذي بين الله تعالى ، بدليل قوله بعد ذلك: ﴿ وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ ۝٣٨ ﴾ [القمر: ٣٨] فالعذاب المستقر أخذهم في الصباح، أما لوط وابنتاه فقد نجاهما الله تعالى في وقت السحر يعني قبل هلاك القوم، وذلك من عناية من الله جل وعلا بهؤلاء المكرمين من الأنبياء والصالحين.

وتشير الآية إلى أنه لم يؤمن بلوط عليه السلام أحد من العالمين من قومه هؤلاء المجرمين الكفرة، وهذا دليل على أن أهل الإيمان مأمورون بتبليغ رسالة الله تعالى، وما عليهم أن يؤمن أحد أو أن يكفر أحد، كما ذكر الله تبارك وتعالى.

﴿ نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ ﴾ يقول[1]: نعمة: منصوبة على الحال بمعنى: إنعاما منًّا، وقال: (من عندنا) تنويهًا بشأن هذه النعم العظيمة، لماذا؟ قال: ليعلم المرء بعد ذلك كيف أن هذه النعم العظيمة إنما تنزل على من شكر، وهي مقصودنا في هذه الآية الكريمة، أن قضية الشكر هذه هي أهم القضايا كما سنرى بعد ذلك في بقية الآيات، وهذه المعاني التي سنراها في القرآن الكريم، الذي يقرؤه المرء ولا يلتفت إلى هذه المعاني المعظمة في هذه الآيات.

فقوله: ﴿ نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ ﴾ تنويه بشأن هذه النعمة، وليرفع من قيمتها ويذكر من فضلها العظيم؛ لأنها كما قال: ﴿ مِّنۡ عِندِنَا ﴾ نحن الإله الرب الكريم القادر المنعم المتفضل سبحانه وتعالى إلى آخر الأسماء والأوصاف الحسنى العليا له سبحانه وتعالى لتدل على عظم هذه النعمة ورفعة شأنها وقيمتها وخطرها.

لمن هذه النعمة؟ قال: ﴿ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ ﴾ يعني بمثل هذا الإنجاء وبهذا الجزاء العظيم الذي حصل للوط عليه السلام وابنتيه نجزي من شكر، وهو إيماء وإشارة إلى أن إهلاك الكافرين كان بترك الشكر، سواء الشكر بتوحيد الله تعالى على إرسال رسله إليهم ونعمه التي لا تعد ولا تحصى لهم سبحانه وتعالى، أو بشارة للمؤمنين بإهلاك غيرهم بأنهم كفروا ، فكان ترك الشكر هو كفر بهذه النعم، ويستحق المرء أن تؤخذ وأن تمحق منه هذه النعم التي امتن الله تبارك وتعالى عليه بها ووهبه إياها وكانت من عنده.

ليأخذ المؤمنون حظهم إذن فالشكر منجاة عند حلول المصائب وليعلموا أنهم متى شكروا الله تعالى ينتظرون هذه النعمة العظيمة من الله، وهي النجاة عند حلول المصائب وعند وقوع الخطب العظيم والهلاك لغيرهم.. عندما يقع الهلاك كما نرى الآن في هذه الأيام من هلاك

---

(١) انظر: التحرير والتنوير– الطاهر بن عاشور– ج: ٢٧، ص: ٢٠٤ – الدار التونسية للنشر.

المؤمنين والمسلمين وغيرهم مما يحل بهم، هذا يدل أن هلاكهم كان لترك الشكر، وهذا إنذار للمؤمنين كذلك أن يلحق بهم ما لحق بغيرهم لتركهم الشكر، وهي بشارة لهم في نفس الوقت أن يعطهم الله تعالى وأن يهبهم تلك النعمة إن هم شكروا.

والمسئولية إذن على المؤمنين في هذه البشارة وتلك النذارة. هذا النذير لهم من الله تعالى وهذا البشير لهم من الله تعالى، إن هم شكروا فإن الله تعالى يرفع عنهم وعن غيرهم ما حل بهم، وإن هم تركوا الشكر، كما هو حال المؤمنين اليوم، فإنه يوشك أن ينزل بهم ما نزل بغيرهم قريبًا منه، كما ذكر الله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴾ من شكر ننجيه نعمة من عندنا، ومن كفر فقد علمتم ما أنزل الله به وما سحق الله تعالى به أرضهم وديارهم وجعل عاليها سافلها، ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ ﴾ [هود: ٨٢]، أو ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الحجر: ٧٤].

الآية الرابعة : فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم... لعلكم تشكرون

قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٦].

وتُصور هذه الآية كيف كان المؤمنون ساعتها في هذه الشدة من الضعف والقلة وشدة العيش والمؤونة. وهذه الآية جاءت في سياق قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤]، وقال هنا ليحذرهم: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ [الأنفال: ٢٥]. يعني: الاستجابة لله وللرسول فيما يفيد. وأن الأمر إذا كان في ظاهره الموت لهم أو كان في ظاهره خرابهم، أو كان في ظاهره ما يصيبهم من

شدة وألم، فإنه على الحقيقة ليس كذلك، بل في حقيقته الحياة ﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾.

والمعنى المهم هنا، لماذا ذَكَّرَهُم بهذه الآية بالذات في سياق القرآن؟ إن من يقرأ هذه السورة يجد هذا القول في قوله سبحانه وتعالى في أول السورة لما قال جل وعلا: ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ ﴾ [الأنفال: ٥،٦] يعني لما أمرهم بأن يخرجوا لملاقاة قريش إذا فريق منهم كأنهم يظنون أنهم خارجون يساقون إلى الموت وهم ينظرون، قال لهم لا، لما أمركم بذلك يجب أن تستجيبوا له، فإن في استجابتكم لله تعالى الحياة ليس الموت الذي تظنون، فليس في استجابتكم لأمره واتباعكم لتعاليمه وثباتكم على مواجهة الكفار أن في ذلك موتكم أو أنكم تساقون إلى الموت، بل العكس، حتى يتعلم المؤمنون حظهم من ذلك، أن في ثباتهم على أمر الله تعالى وطاعتهم لأمره، الحياة لهم، ليس الموت كما يظنون، فما بالك بما هو دونه، يعني: ليس في استجابتهم لأمر الله موت لهم، بل ولا ما دون الموت، يعني أصعب شيء يمكن أن يصيبهم أن يظنوا أن في استجابتهم لله تعالى الموت لهم بل على العكس في استجابتهم لله الحياة، وفي استجابتهم له سبحانه وتعالى تعالى النعيم والسرور في الأولى والآخرة؛ لأن الله تعالى لا يهلك جنده إذا ما استجابوا له، بل على العكس، ينجيهم كما قال: ﴿ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ۝ ﴾ [القمر: ٣٥] ويقويهم ويؤيدهم ويرفع رايتهم.

ونعود للتفسير في قوله: ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ ﴾ [الأنفال: ٢٦]، يقول(١): فهذا عطف على الأمر بالاستجابة لله تعالى فيما يدعوهم إليه وعلى إعلامهم بأن الله تعالى لا تخفى عليه نياتهم وعلى التحذير من فتنة الخلاف على الرسول صلى

(١) انظر: التحرير والتنوير- الطاهر بن عاشور- ج: ٩، ص: ٣١٨ - الدار التونسية للنشر.

الله علَيه وسلّم ، وتذكيرهم بنعمة الله عليهم بالعزة والنصر، بعد الضعف والقلة والخوف، ليذكروا كيف يسر الله لهم أسباب النصر من غير مظانها، حتى أوصلهم إلى مكافحة عدوهم وأن عدوهم خاف بأسهم بعد ذلك، حتى يتقي أعداؤهم بأسهم، كيف لا يستجيبون لله تعالى فيما بعد ذلك وقد كثروا وعزُّوا وانتصروا !

وقوله: ﴿ وَٱذۡكُرُوٓاْ ﴾: مشتق من الذُّكر بضم الذال، وهو التذكر لا ذكر اللسان، ففرق بين التذكر والذكر، فالذكر هو ذكر اللسان، فلم يطلب منهم بأن يقول: اذكروا، يعني تكلموا بهذا الأمر.. لا، وإنما (اذكروا) يعني تذكّروا إذ أنتم قليل مستضعفون، وعبر بالجملة الاسمية لما كانوا عليه من استدامة الحال التي هم فيها على ثبات وصف القلة والاستضعاف فيه، وكان السياق المتوقع: (واذكروا إذ كنتم قليل)، إنما جاءت الآية لتقول: ﴿ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ ﴾ ومع أنكم مستمرون في الاستضعاف والقلة والضعف فإن الله تعالى آواكم وأيدكم بنصره، يعني على قلتكم وضعفكم وعلى استمرار ذلك فيكم !

وهي موعظة للمؤمنين الآن على ضعفهم وقلتهم واستمرار ذلك فيهم وبقائهم على ما هم فيه من القلة والذلة والضعف والمهانة، فإن الله تعالى ينصرهم بالشكر.

وقوله تعالى:﴿ قَلِيلٞ ﴾ وهو مفرد عن ضمير الجماعة، وقوله :﴿ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ يراد بها الدنيا يعني في الدنيا كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا ﴾ [الأعراف: ٥٦]، أو أريد بالأرض ﴿ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يعني في مكة المكرمة.

والمعنى الذي تذكره الآية: تذكير للمؤمنين بأيام إقامتهم بمكة لمّا كانوا قليلا مستضعفين بين المشركين فإنهم كانوا حينئذ طائفة قليلة العدد قد جفاهم قومهم وعادوهم فصاروا أي هؤلاء المؤمنون لا قوم لهم، لأن قومهم صاروا ضدهم وصاروا عليهم وصاروا ينكلون بهم ويعذبونهم فتنة في دينهم، وكانوا على دين لا يعرفه أحد من أهل العالم، فلا يطمعون في نصر أحد آخر من خارج مكة، فهم قليل مستضعفون في الأرض، فآواهم الله تعالى بأن صرف أهل مكة عن استئصالهم، هذه الأولى.

ثم بأن قيض الأنصار أهل العقبة الأولى وأهل العقبة الثانية، فأسلموا وصاروا أنصارًا لهم بيثرب، المدينة المنورة، ثم إن الله أخرجهم من مكة إلى بلاد الحبشة، فآواهم بها، ثم أمرهم بالهجرة إلى يثرب، فآواهم بها أيضًا، ثم صار جميع المؤمنين بها أعداء للمشركين، فنصرهم هنالك على المشركين في غزوة بدر، فالله جل وعلا الذي يسر لهم ذلك كله قبل أن يكون لهم فيه كسب أو تعمد، لم يكن بكسبهم ولا بأيديهم أن هيأ لهم الحبشة وهيأ لهم الناس من يثرب ليؤمنوا وهيأ لهم في يثرب مكانًا آمنًا وهيأ لهم في بدر هذا الانتصار كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٣] وسنعود إليها إن شاء الله تعالى.

فإذا كان الله تعالى نصرهم وآواهم وأيدهم فعزوا وكثروا وارتفعوا أفلا يكون ناصرًا لهم بعد ذلك بعد أن ازدادوا وعزُّوا وسعوا للنصر بأسبابه؟ أفلا يستجيبون له إذا دعاهم لما يحييهم وحالهم أقرب إلى النصر منها يوم كانوا قليلا مستضعفين ؟

وقوله: ﴿ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ ﴾ التخطف هو شدة الخطف، والخطف الأخذ بسرعة، وهنا مستعار للغلبة السريعة، يعني مستعار للغلبة التي تسرع إلى المرء، ﴿ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ ﴾ يعني أن يغلبوكم وأن يأخذوكم بسهولة وبسرعة لا فيها مقاومة ولا فيها شيء، يعني: كنتم في أضعف الحالات التي لو أراد الناس أن يغلبوكم بأقصى سرعة وأن يأخذوكم وأن يأسروكم وأن يقتلوكم لكان ذلك في سرعة ويسر بدون مقاومة وبدون استبسال وبدون مكافحة ! فيأخذكم أعداؤكم بدون كبرى مشقة ولا طول محاربة إذا كنتم لقمة سائغة لهم، وكانوا أشد منكم قوة لولا أن الله صرفهم عنكم.

وقد كان المؤمنون خائفين في مكة، وكانوا خائفين في طرق هجرتهم، سواء إلى الحبشة أو إلى يثرب، وكانوا خائفين يوم بدر يظنون أنهم يساقون إلى الموت، حتى أذاقهم الله تعالى نعمة الأمن من بعد النصر في يوم بدر، ورزقهم من الطيبات، وهي الأموال التي غنموها من المشركين في يوم بدر.

وقوله: ﴿ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ ﴾ والتأييد هو التقوية، يعني: قواهم سبحانه وتعالى إذ جعلهم ذا أيد يعني جعلهم ذوي قوة، كما قال: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ﴾ [ص: ١٧] يعني ذا قوة على عبادة الله والقيام بالحق.

وانظر إلى الكلام الجميل الذي يؤدي إلى معانٍ كثيرة في قوله: ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ وهو إدماج بذكر نعمة توفير الرزق في خلال المنة بنعمة النصر وتوفير العدد بعد الضعف والقلة، فإن الأمن ووفرة العدد يجلبان سعة الرزق، يعني لما قال: ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ آواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات، فالرزق من الطيبات دليل على أمرين: الأمر الأول هو الأمن، والأمر الثاني هو وفرة العدد؛ لأن وفرة العدد والأمن هي التي تجلب الوفير من الرزق بعد ذلك، فإذا أمن الناس وكثر عددهم استطاعوا أن يعمروا الأرض، وأن يخرجوا ما فيها من خير، فيزداد حينئذ الرزق، وتتسع عليهم طيبات الله تبارك وتعالى، فدلت الآية على أن الله أمّنهم، يعني بهذه الكلمة القليلة.

ومقصودنا بعد هذه الإشارة هو أن مضمون هذه الآية صادق أيضًا على المسلمين في كل عصر من العصور وهو أن يكونوا قليلا مستضعفين فيأويهم وينصرهم ويؤيدهم ويرزقهم من الطيبات سبحانه وتعالى، فقد صدق في عصر النبوة، وفي عصر الخلافة الراشدة، فجماعة المسلمين لم تزل في ازدياد عزة ومنعة، ولم تزل منصورة على الأمم العظيمة التي كانوا يخافونها من قبل أن يؤمنوا، فقد نصرهم الله على هوازن يوم حنين، ونصرهم على الروم يوم تبوك، ونصرهم على الفرس يوم القادسية، وعلى الروم في مصر وفي برقة وفي إفريقيا وفي بلاد الفرنجة في أوروبا، فلما زاغ المسلمون وتفرقوا أخذ أمرهم يقف، ثم ينقبض ابتداءً من ظهور الدعوة العباسية وهو أعظم تفرق وقع في دولة الإسلام.

وقد نبههم الله تعالى بقوله: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾، وهو مربط الفرس، فإنهم لما أعطوا الشكر حقه دام أمرهم في تصاعد، وحين نسوا الشكر أخذ أمرهم في تراجع ولله عاقبة الأمور. وهذه هي القضية، كيف كان أمرهم حين آواهم الله تعالى وأيدهم ونصرهم.. كانوا في حال الشكر التي أمرهم بها الله تبارك وتعالى، فازدادت عليهم النعم من الله تعالى وتوسعت دولتهم وانتصروا

على من كانوا يخافونهم، من الكفار والمشركين والروم والفرس وفتحت لهم بلاد إفريقيا وأوروبا وغيرها كما يذكر أهل السير.

وسبب ذلك، قال: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ يعني لعل هذا الشكر أن يكون هو ما تدوم به هذه النعم وتلك الأفضال وهذه الرفعة وتلك المنعة والعزة التي أعطاهم الله تبارك وتعالى وتفضل عليهم بها مردها إلى الشكر، لذلك قال: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ رجاء أن تشكروا، فإن شكرتم زادت هذه النعم، وكما يقول: ما داموا أعطوا حق الشكر دام أمرهم في ازدياد عزة ومنعة، وإذا ما نسوا الشكر انقبض أمرهم وبدأ في الرجوع والانهيار كما هو الحال، وكأن الحال التي نحن فيها إنما مردها إلى نسيان الشكر وترك الشكر الذي وصل به حالنا إلى هذا التراجع.

ولم يزل النبي صلَّى الله علَيه وسلَّم ينبه المسلمين بالموعظة ألا يحيدوا عن أسباب بقاء عزهم، ففي حديث حذيفة بن اليمان: (**قُلتُ يَا رَسُول الله: إنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِّية وَشَر فَجَاءَنَا اللَّه بِهَذَا الخَير، فَهلْ بَعدَ هَذَا الخَيرِ مِن شَر؟ قَالَ: نَعَم. قُلْتُ: هَل بَعدَ ذَلِكَ الشَّر مِنْ خَير؟ قَالَ: نَعَم وَفِيه دَخَن**) [1] إلى آخر الحديث، ينبههم صلَّى الله علَيه وسلَّم ويتخولهم بالموعظة ويوقعهم على أسباب الداء الذي يمكن أن يصلوا إليها حتى لا يُقعوا أنفسهم والمسلمين فيه، والمقصود بذلك الشكر كما قال: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.

وكان يمكن أن يكون ختام الآية غير هذا، (ورزقكم من الطيبات لعلكم تتقون)، ولكن الله جل وعلا بين أن الشكر أهم أسباب بقاء هذه العزة وذلك السلطان وذلك التأييد من الله تعالى وذلك الإيواء من الله تعالى، وإذا كان الله تعالى قد آواهم وأيدهم وذلك في عموم أهل الإيمان، فإن في خصوصهم كذلك ما يستوجب الشكر، فلو كان هذا الجمع المكرم يشتغلون بالشكر ليلة واحدة لرفع بلاء كثير عن أمة الإسلام، يعني لا يتخيل هؤلاء أن القيام بعمل من أعمال الشكر، كيف يكون ذلك سببا في أن يرفع الله تعالى البلاء وكيف ينزل الرحمة وكيف يكون سببًا من أسباب النجاة العظيمة، ولرأينا العجب من فضل الله تعالى، ولرأينا الفتح المبين من الله تعالى، ولكن كان أمر الله قدرًا مقدورا.

---

(١) رواه البخاري (٣٦٠٦) كتاب المناقب، ومسلم (١٨٤٧) كتاب الإمارة .

وحظ أهل الإيمان بعد أن علموا كيف أن الله تبارك وتعالى بين هذه الأحوال التي تصور حال المؤمنين من عهد النبوة الراشدة إلى أن وصلنا إلى ما وصلنا إليه، أن يعلموا أن ذلك ليس إلا على سبيل الموعظة لهم، أن يفهموا هذه القضايا التي تعود بهم إلى سابق عهدهم أمَّا ألا نفكر في هذه القضية من أصلها فإن ذلك الحال هو حال عدم المبالاة ، فلا يحس المرء بمسئوليته تجاه الله تعالى وتجاه نفسه فيصلحها ولا يحس كذلك بمسئوليته تجاه المؤمنين ليرفع عنهم البلاء النازل، ولا يحس بمسئوليته تجاه البلاء الذي يوشك أن ينزل عليهم كما نزل على غيرهم، وقد وصلنا إلى هذه الحالة من البلادة ولا حل فيها إلا أن يعاود الناس هذه المعاني في الأسماء الحسنى لتكون سببًا لرجوعهم إلى توحيد الله تعالى ومعرفته ومحبته والتخلق بآثار أسمائه وصفاته سبحانه وتعالى، التخلق والاتصاف الذي يكون سببًا في أن يكونوا أهلا لنصر الله تعالى وإيوائه وتأييده مرة أخرى.

الآية الخامسة : وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة... لعلكم تشكرون

فإذا كانت الآيات السابقة في عامة المؤمنين، فهذه في خاصتهم، وهي في قوله تعالى في سورة السجدة: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [السجدة: ٧- ٩].

وهذه المشكلة التي نحن فيها وهي أنه لما آواهم وأيدهم بنصره تركوا الشكر فوصلنا إلى ما نحن فيه وقد تركنا الشكر ومستمرون على الحال نفسها ورزقهم هذه النعم العظيمة في أنفسهم ليشكروا.. وهذه المرة لم يقل (لعلكم تشكرون) إنما قال: (قليلا ما تشكرون).

وجاء ذلك بعد التذكير بهذه النعم العظيمة : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ﴾ [السجدة: ٧، ٨] وهذه من آيات الإعجاز في القرآن الكريم.

وقوله: ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ﴾، يقول[1]:التسوية هي التقويم، كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ﴾ [التين: ٤]، وسواه عائد إلى نسله فـ﴿ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾ ثم ﴿ سَوَّىٰهُ ﴾ أي هذا النسل، وإن كان الكلام على الإنسان، فهو أقرب مذكور كما قال الله تعالى، وإن كان الكلام على آدم، فقد وقع عليه ذلك أيضًا، فقد سواه الله تعالى ونفخ فيه من روحه وخلقه من طين كما قال: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ ﴾ [الحجر: ٢٩] أي: على آدم عليه السلام،﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٢٩]، فذكر التسوية ونفخ الروح في جانب النسل ينذر بأنه كذلك، فالكلام فيه إيجاز جميل، وإضافة الروح إلى الله، يعني: ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ يكون إلى ضمير الجلالة للتنويه بذلك السر العجيب، فإن فيها سرًّا عجيبًا.. ذلك السر العجيب الذي لا يعلم تكوينه إلا الله.. وأضافه إليه لأن الروح ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء: ٨٥] لا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى، فالإضافة في روحي ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ تفيد إلى أنه من أشد المخلوقات اختصاصًا بالله تعالى، وإلا فالمخلوقات كلها لله جل وعلا.

والنفس تمثيل لسريان اللطيفة الروحانية في الكثيفة الجسدية مع سرعة الإيداع كما قال تعالى: ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾، يعني تمثيل لسريان هذه الروح في الإنسان، أي اللطيفة الروحانية التي من الله تعالى والتي لا يعلمها إلا هو جل وعلا، ولذلك أضافها إليه اختصاصًا، لكونها من أشد المخلوقات اختصاصًا به ، فالجسد كثيف والروح لطيفة، فلو خرجت من الجسد لا يحس بها أحد ولا يراها أحد ولا يمكن أن يمسكها أحد أو يقبض عليها أحد.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير– الطاهر بن عاشور– ج: ٢١، ص: ٢١٦ – الدار التونسية للنشر.

ولو تنبه القارئ في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝ ﴾ قال: ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ﴾ فيكون سياق الآية: ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل له السمع والبصر، أليس كذلك؟ ولكن الله تعالى عدل السياق هنا من الغيبة إلى الخطاب. فسواه وفعل له كذا وكذا يتكلم عن الغائب، ثم انتقل من صفات الغائب إلى صفات المخاطب نفسه، وجعل لكم، فهذا الانتقال يسمى التفات كما يقول أهل البلاغة، لأن المخاطب هنا من أفراد الناس، وجعل السمع والأبصار والأفئدة للناس كلهم غير خاص بالمخاطبين فلما انتهض الاستدلال على عظيم القدرة وإتقان المراد من المصنوعات المتحدثة عنها بطريق الغيبة الشامل المخاطبين ناسب أن يلتفت الخطاب إلى المخاطبين.

إذن فلم الالتفات في قوله: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ﴾؟ الجواب: ليميز لهم المنة العظيمة فيما يعلمون هم من أنفسهم، فهذه المنة تشمل الجمع المخاطب وغير المخاطب في التسوية وتبين القدرة العظيمة لله تعالى، ولكن لا تشمل المنة، فلما انتقل إلى مخاطبتهم خاطبهم بما منّ عليهم به سبحانه وتعالى فكان أليق بالخطاب.. فلو قال: وسواه ونفخ فيه من روحه وجعل له السمع والأبصار لم يكن للمخاطبين في ذلك مِنَّة من الله تعالى عليهم تبين لهم حقيقة ما ينبغي أن يشكروه، إنما لما كان يتكلم عن القدرة تكلم بضمير الغائب، ثم لما أراد أن يميز المنن ويبينها لهم حتى يشكروا خاطبهم بما أعطاهم من النعم الظاهرة عليهم التي لا يمكن أن ينكروها والتي هي فيهم بحيث تكون سببًا لشكر المولى سبحانه وتعالى وتصريف هذه النعم في مرضاة الله جل وعلا.

والامتنان بقوى الحواس وقوى العقل أقوى من الامتنان بالخلق وتسويته.. لما يمتن عليهم بالعقل الذي أعطاهم وبالسمع وبالبصر الذي منحهم سبحانه وتعالى أقوى من أن يمتن عليهم بسوَّاه ونفخ فيه من روحه، فالكل مستوٍ في سوّاه ونفخ فيه من روحه، وهذه قدرة الله وقوته، فليس فيها امتنان عليه، أو إذا كان ثمة امتنان فهو في الخلق فقط، أما إعطاؤه العقل وأما إعطاؤه السمع وأما إعطاؤه البصر فهذه التي تظهر فيها المنة على تمامها وكمالها، بحيث لو لم يكن فيه هذه القوى وتلك الحواس وذلك العقل لعلم كم هي منة الله تعالى عليه ولعلم كم فقد من نعمة الله تعالى التي لو أعطاه إياها لكان خلقًا آخر يستوجب ذلك منه أن يشكر ربه سبحانه وتعالى وأن يصرف هذه النعم وأن يوجهها لشكر الخالق سبحانه وتعالى وألا يستعملها في معصيته جل وعلا.

وكان يمكن أن يقول بدلا من: ﴿ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ ﴾ يقول: وجعلكم سامعين مبصرين، ولكنه عدل عن ذلك إلى: جعل لكم السمع والأبصار؛ لتبيين المنة، فجعلكم سامعين ، غير جعل لكم ، يعني أعطاكم لفائدتكم، أعطاكم نعمة منه، أعطى لكم أنتم هذه النعم وتلك المنن، وذلك أعرق في الفصاحة، واللام في (لَكُمُ) يعني أعطاكم من زيادة المنة؛ إذ جعل ذلك لفائدتهم ولأجلهم، فلما قال: أعطى لكم السمع والبصر، يعني لكم أنتم ولفائدتكم فإنه حينئذٍ أعطاهم كذلك فيها روعة التصرف في هذه الحواس، ما كانوا يستطيعون أن يتصرفوا فيها لولا منة الله تعالى عليهم بها أن يتصرفوا في هذا السمع وفي هذا البصر بما يكون سببًا لفائدتهم وسببًا لهدايتهم أو سببًا لتشريفهم وتعظيمهم أو سببًا لعصيانهم وكفرهم وظلمهم وبقية الأمور.. فلما كان ذلك إعطاء لهم تحت أيديهم يتصرفون فيه كيف يشاء زاد معنى المنة فيما لو قال: سامعين مبصرين.

ولو قال القائل: فلماذا أفرد السمع، وجمع الأبصار في قوله: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ ﴾؟ وذلك لأن السمع هذا مصدر، والأبصار جمع بصر اسم؛ فالأبصار تجمع لأنها اسم، والسمع مصدر لا يجمع، وجمع الأبصار والأفئدة باعتبار تعدد الناس، أما السمع فإن السمع لما كان مصدرًا لم يجمع.

وقد يسأل السائل: كل آيات القرآن قدم فيها السمع على البصر، لم نسمع الأبصار والأسماع والأفئدة ؟

في تقديم السمع على البصر دليل على أهمية المقدَّم، ولذلك ذهب جمهور العلماء وذكر الإمام ابن القيم أنه مذهب الإمام ابن تيمية أيضًا، أن السمع أفضل من البصر.

ففي تقديم السمع على البصر في موقعه من القرآن الكريم دليل على أنه أفضل فائدة من البصر، فإن التقديم مؤذن بأهمية المقدم وذلك لأن السمع آلة لتلقي المعارف التي بها كمال العقل، ولأن السمع ترد إليه الأصوات المسموعة من الجهات الست بدون توجه، بخلاف البصر فإنه يحتاج إلى التوجه بالالتفات إلى الجهات غير المقابلة، ولأن السمع هو وسيلة بلوغ دعوة الأنبياء إلى أفهام الأمم على وجه أكمل من بلوغها بواسطة البصر لو فقد السمع، وكان مبصرًا لا

يفهم دعوة الأنبياء، ولم يكن يقام عليه الحجة بها ولم تكتمل بها هذه الكمالات الموصلة للعقل لمعرفة الرب والرسالة واليوم الآخر وغير ذلك من علوم التوحيد وعلوم الشرع ولذلك هو غير محاسب ويحاسب في الآخرة، يمتحن كما ذكر النبي صلَّى الله علَيه وسلَّم في الخمسة الذين يمتحنون يوم القيامة أو في عرصات القيامة.

فقوله: ﴿ قَلِيلاً ﴾: وهي اسم فعل منتصب على الحال من ضمير لكم، جعل لكم السمع، يعني جعل لكم أنتم السمع، وأنتم قليلا ما تشكرون، وهي في تأويل المصدر، قليلا: يعني أنعم عليكم بهذه النعم الجليلة وحالكم قلة الشكر، والمعني أنعم عليكم بهذه النعم الجليلة العظيمة وحالكم مع هذا كله قلة الشكر.

ثم يجوز أن يكون قليلا مستعملا في حقيقته وهي كون الشيء حاصلا ولكنه غير كثير، فهذا حقيقة قليلا ما تشكرون ، يعني وقع الشكر ولكنه قليل، ويجوز أن يكون كناية عن العدم، يعني: وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ولكن لا تشكرون.

وذلك كقوله تعالى: ﴿ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ [النساء: ٤٦]، يعني: لا قليلا ولا كثيرًا، فلا يوجد قليلا وكثيرًا في الإيمان، وعلى هذين الوجهين، يعني سواء كان شكرهم قليلا أو لا شكر لهم، يحصل التوبيخ، لأن النعم المستحقة للشكر وافرة دائمة فالتقصير في شكرها وعدم الشكر سواء.

وهذا هو التوبيخ الذي ينبغي أن يصل إلينا بعد هذا المعنى ليسارع المؤمنون إلى رفع هذا العتب من الله تعالى عليهم، أن يرفعوا عن أنفسهم ما يوبخهم الله تبارك وتعالى به، يقول لكم أعطيكم وكذا وكذا وأنتم لا تشكرون! كان حقكم أن تشكروا.. كان حقكم أن تداوموا الشكر.. كان حقكم ألاَّ تشكروا شكرًا قليلا بل أن تشكروا شكرًا كثيرًا، لأن نعم الله تعالى لا تعد ولا تحصى كيف تقصرون في شكرها وكيف تفرطون في القيام بحقها، ومرد الشكر إليكم، وفائدته لكم !

إذن فعندما يقرأ المرء يتعلم شيئًا فشيئًا لماذا يعدل السياق في بعض المعاني عن هذه الألفاظ إلى غيرها ليرى إعجاز القرآن وبلاغته وجماله والفوائد الجمة التي تتعلق باختيار هذه الألفاظ لتدل في النهاية على أنها من الله تعالى، ولتدل كذلك على المعاني المقصودة التي يغيب

عنها ذهن المرء، ويحاول حينئذ أن يتفكر فيها وأن يتدبر معناها وألا يمر عليه كلام الله تبارك وتعالى بغير هذا التدبر الذي يجعله يحب ربه ويحب كلامه ويدمن قراءة هذا الكلام ويشتد إقباله عليه.

الآية السادسة: الحكمة.. أن اشكر لله

وانظر إلى هذه الآية لتبين قيمة الشكر؛ لأن الشكر هو الحكمة التي آتاها الله تبارك وتعالى عباده الذين يسرهم لهذا الأمر، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [لقمان: ١٢].

ولقمان على رأي جمهور العلماء كان حكيمًا ولم يكن نبيًّا، وذكر أهل التاريخ والتفسير أنه كان في زمن داود عليه السلام، وذكروا أنه كان راعيًا للغنم، وقيل: كان نجارًا أو خياطًا أو غير ذلك.. وحكمة لقمان مأثورة في أقواله الناطقة عن حقائق الأحوال والمقربة للخفيات بأحسن الأمثال، وكان معروفًا عند العرب كذلك بلقمان الحكيم، وكانوا يحفظون من حكمه التي سارت مسير الأمثال وضرب بها المثل..

وقوله تعالى: ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ وهو من بلاغة القرآن وبديع إيجازه، أن كان قوله: ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ جامعًا لمبدأ الحكمة التي أوتيها لقمان ولأمره بالشكر على ذلك.

فإذا قلنا: ما الحكمة التي أوتيها لقمان؟ يكون الجواب: ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ فهي اللفظة الجامعة التي جمع الله تعالى فيها معنى الحكمة .

وحكيمًا هذه درجة عالية من الدرجات التي قد علت مرتبة النبوة ليس في لقمان ولا غيره، ولكن مقصدنا في لفظ الحكمة.

نشير إلى معنى الحكمة، في قوله: ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة: ٢٦٩] هذه الآية جاءت بعد ماذا؟ هذه الآية كما يقول المفسرون المحققون اعتراضية: فالآيات قبلها ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ

﴿ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، والآيات قبل ذلك كلها جاءت في المواعظ والآداب والأخلاق والأحكام.. آيات الطلاق والمواعظ والأحكام والإنفاق والبذل والجهاد وجهاد النفس.. ثم جاءت هذه الآية اعتراضية، يعني السياق لا يساعد على أن تأتي هذه الآية بين هذه الآيات التي تتكلم عن الموعظة والأدب والأخلاق والأحكام، فكان السياق يقول: ﴿ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ فيأتي بعدها مباشرة قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ﴾ [البقرة: ٢٧٠] ولا يشعر أحد بأن الآية سقطت! فجاءت الآية اعتراضية، ولتذييل لما تضمنته آيات الإنفاق من المواعظ والآداب وتلقين الأخلاق الكريمة مما يكسب العاملين بها رجاحة العقل واستقامة العمل.

والمقصود أنهم قد أصبحوا بهذه المواعظ والآداب التي وعظهم الله بها وتحلوا بأخلاقها وسلكوا في سلوكها صاروا حكماء بعد أن كانوا في جاهلية جهلاء.. وكأنه يقول: من تخلق بهذه الأخلاق وارتفع بنفسه إلى هذه المصاف كان من هؤلاء الحكماء، وهذه الحكمة التي أعطاهم الله تعالى لا يعطيها إلا من يشاء، يعني: من يستحق أن يكون من هؤلاء ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ ﴾.

يقول[1]: والحكمة إتقان العلم وإجراء الفعل على وفق ذلك العلم.. ونزلت الحكمة كما قيل على ألسنة العرب وعقول اليونان وأيدي الصينيين هذا هو الكلام التاريخي الخاص بالحكمة التي كتب فيها القدماء.

والحكمة فسرت كذلك بأنها معرفة الحقائق، أي: حقائق الأشياء على ما هي عليه بما تبلغه الطاقة بحيث لا تلتبس الحقائق المتشابهة بعضها مع بعض ولا يغلط في العلل والأسباب.

وفي الشرع، فالحكمة تشمل النبوة والرسالة وغيرها.. علماء المفسرين من السلف في علم التفسير بالمأثور يقول: الحكمة هي سنة النبي صلَّى الله علَيه وسلَّم كما ذكر في الآية

---

(١) انظر: التحرير والتنوير- الطاهر بن عاشور- ج: ٢١، ص: ١٥٠ - الدار التونسية للنشر.

الكريمة: ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾ [الأحزاب: ٣٤] يعني السنة، وقيل الحكمة: هي القرآن الكريم، وقيل: الحكمة الفقه في دين الله تعالى، وقيل: الحكمة هي النبوة، كما ذكر الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [القصص: ١٤]، ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٢٢]، فالحكمة هنا بمعنى النبوة، وقيل: الحكمة أشمل من النبوة، وأعلى درجات الحكمة هي النبوة، ولأتباع الأنبياء من هذه الحكمة الخير الكثير الذي ذكر الله تعالى: ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة: ٢٦٩] فمن يؤتى أعلى درجاتها كمن يؤتى درجة النبوة فهؤلاء لا أعلى منهم في الحكمة ومعناها، وأتباعهم لهم فيها حظ وهو الخير الكثير من معنى الحكمة الذي أوتيها أنبياؤهم.

وعليه فأعلى درجات الحكمة التي يؤتاها المؤمنون من النبي صلَّى الله علَيه وسلَّم، يعني من اتباعه والتزام سنته، أن يكونوا حكماء فيحصلوا هذا الخير العظيم اتباعًا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ وهذا الخير الكثير قد جمعه الله تعالى في قوله : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ فالحكمة أن اشكر، ومعنى الكلام: أنه لا يكون حكيمًا أوتي خيرًا كثيرًا من الله تعالى باتباع النبي ووصل إلى هذه الدرجة المفعمة بالخير، والدرجة الراجحة في العقل والفهم، والدرجة الراجحة في العلم والفقه، والدرجة الراجحة في العمل والسير إلى الله تعالى، إلا هؤلاء الحكماء، وما هؤلاء الحكماء إلا الشاكرون لله تعالى.

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ ، كان أول ما لقنه لقمان من الحكمة ما أمره الله تعالى أن يشكره به على ما هو محفوف به من نعم الله جل وعلا، ولها درجات أخرى بعد ذلك. فمن يشاء الله تعالى إيتاءه الحكمة هو الذي يخلقه مستعدا إلى ذلك من سلامة عقله واعتدال قواه حتى يكون قابلا لفهم الحقائق منقادًا إلى الحق إذا لاح له، لا يصده عنه أي عن الحق هوًى ولا عصبية ولا مكابرة ولا أنفة. ثم ييسر المولى له أسباب ذلك من حضور الدعاة وسلامة البقعة من العتاة، ممن يحضر الداعين إلى ذلك العاملين به وأن يسلم

مكانه الذي هو فيه ممن هو خارج عن ذلك، فإذا انضم إلى ذلك -ما سبق- توجهه إلى الله تعالى بأن يزيد أسبابه تيسيرًا ويمنع عنه ما يحجب الفهم فقد كمل له التيسير من الله.

وكان أول ما لقنه لقمان من الحكمة هو الحكمة في نفسه، يعني أمره الله تعالى بشكره على ما هو محفوف به من نعم الله تعالى.. منها نعمة الاصطفاء لإعطائه الحكمة وإعداده لذلك بقابليته لها وهذا رأس الحكمة لتضمنه النظر في دلائل نفسه وحقيقته قبل أن ينظر في حقائق الأشياء وقبل أن يتصدى لإرشاد غيره، ومن أهم النظر في حقيقته هو الشعور بوجوده على حالة كاملة والشعور بموجده سبحانه وتعالى الذي أفاض الكمال عليه، وكل ذلك مقتض لشكره سبحانه وتعالى.

وأيضًا فإن شكر الله تعالى من الحكمة، إذ الحكمة تدعو إلى معرفة الأشياء على ما هي عليه لقصد العمل بمقتضى العلم، ولا يكون الأمر من الحكمة إلا أن يكون العمل موافقًا للعلم، فيعلم حقائق الأشياء على ما هي عليه قصدًا للقيام بحق العمل بهذا العلم، فالحكيم يبث في الناس تلك الحقائق بطريقة التشجيع والموعظة والتعليم، وذلك العمل كله من الشكر؛ إذ الشكر قد عرف بأنه صرف العبد لجميع ما أنعم الله به عليه من موارد ونعم فيما خلقه لأجله سبحانه وتعالى، فكان شكر الله تعالى هو أهم الأعمال المستقيمة، لذلك كان رأس الحكمة، لأن من الحكمة تقديم العلم الأنفع على العلم بما هو دونه، فالشكر هو مبدأ الكمالات علمًا، وهو غايتها عملا.. مبدأ الكمالات الشكر في العلم، ومبدأ الكمالات والغاية في هذه الكمالات هو الشكر عملا.

وللتنبيه على هذا المعنى، وهو أن يشكر المرء ربه والقيام بحقه وأن العلم بها مبدؤها والعمل غايتها أعقب الله الشكر المأمور به ببيان أن فائدة للنفس يعني لنفس الشاكر لا للمشكور بقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ﴾ لأن آثار شكر الله تعالى كمالات حاصلة للشاكر ولا تنفع المشكور شيئًا لغناه سبحانه عن شكر الشاكرين.. وجيء بصيغة الحصر، يعني حصر نفع الشكر في الثبوت للشاكر بقوله: ﴿ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ﴾ يعني ما يشكر إلا لفائدة نفسه لا لغيره، ولام التعليل هنا ﴿ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ﴾ مؤذنة بالفائدة أي بفائدة نفسه لا بفائدة غيره لا مشكورًا ولا غير مشكور.. وبدليل الضد ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ

حَمِيدٌ ﴾، وجيء بفعل يشكر، ومن يشكر هنا جيء بصيغة المضارع للإيماء إلى جدارة الشكر بالتجديد، يعني أن الشكر ينبغي أن يتكرر من المرء وأن يتجدد في كل حال لتجدد النعم ولكثرتها ولعدم إحصائها وعدها.. (ومن يشكر) يعني ومن يتجدد شكره ويتكرر ويستمر على هذا الشكر دليل على أنه كلما تجددت نعمة شكرها وأنه يشكر كلما عرف نعمة لم يكن قد عرفها من قبل وهكذا، وهو دائم الشكر لله يدل على هذه الحكمة التي تكلم فيها.

وحتى يأخذ المرء حظه من تلك الحكمة يكون ذلك بشكره لله والفضيل بن عياض كان يقول: متى بتَّ ليلة شاكرًا لله تعالى، متى بتَّ ليلة تعد نعم الله تعالى لتشكرها ؟ فلنجرب ليلة مع الله تعالى بالشكر لنجعلها قيامًا، لنجعلها ذكرًا، لنجعلها تعديدًا للنعم، لنجعلها توبة لله تعالى ومحاسبة، لنجعلها خروجًا من المظالم، ويرى المرء حينئذ كيف سيأخذ الله تعالى بيده ويربط على قلبه، ويرفع درجته، ويعطيه الخير الكثير.

الآية السابعة : فاتقوا الله لعلكم تشكرون

وآخر آية نُذَكِّر بها في قضية الشكر وهي قوله تعالى الذي أشار إليه في قصة بدر: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

فبينت هذه الكلمات الجميلة طريق الشكر لله تعالى وهو تقوى الله تعالى، يعني الالتزام بتقوى الله جل وعلا والثبات على مواجهة الكفرة ، والتأدب بآداب الشرع الشريف.

وفي قصة بدر بالذات حدث النصر للمسلمين وآواهم الرب جل وعلا ورزقهم من الطيبات وامتن عليهم بهذا النصر العظيم قال: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ والمعنى: أن تجعلوا تقوى الله تعالى شكرًا لهذا النصر العظيم، وكذلك أن تكون تقوى الله تعالى شكرًا لثبات هذا النصر وشكرًا للمزيد من هذا النصر، فلما تركت التقوى وتناساها الناس وصلوا إلى هذا الحال السيئ وهو أنهم تركوا شكر الله تعالى فكان سببًا لهزيمتهم وانتقاص دولتهم وسببًا لذلتهم ومهانتهم بعد أن كانوا أذلة أتقياء نصرهم، صاروا أذلة بغير تقوى هزمهم.

فكيف يثبت المرء على التقوى، وكيف يزداد منها حتى يكون ذلك سببًا لشكر هذه النعم فتثبت هذه النعم ولا تضيع ويكون كذلك سببًا للزيادة ؟

ونقول ذلك ليتفكر المرء في حظه من ذلك فالمؤمنون اليوم مخاطبون بهذه الآية الكريمة كيف يترقون في قضية التقوى، كيف يقومون بتقوى الله تعالى حق تقاته، ليعود لهم في أنفسهم سبب نجاتهم، وليعود على المؤمنين سبب نصرهم وارتفاع كلمتهم، وسبب هزيمة عدوهم وإزالتهم له فآواكم ﴿ وَٱذْكُرُوٓا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٦].

فليضع المرء قضية التقوى التي هي سبب الشكر ليضعها نصب عينيه من هذه اللحظة ليكون بها شاكرًا، ليحقق بها ثبات النعم عليه، ليزداد بها من نعم الله، ليرفع بها البلاء، ليسارع بها.. فلو اجتمع أهل الإيمان على شيء من هذه التقوى وعلى أمر من أمور الشكر لتغيرت أحوال كثيرة فيهم وفي أمتهم وفي دينهم وفي أحيائهم وفي عباداتهم ومعاملاتهم وأخلاقهم وأولادهم وفي كل شيء لو اجتمعوا على شيء من تقوى الله تعالى أو على شيء يدل على الشكر الذي التقوى طريقه كما ذكرت.

الفصل الرابع:

السميع سبحانه وتعالى

أولًا: المعنى اللغوي للسميع:

السمع للإنسان وغيره هو حس الأذن، أو ما وقر في الأذن من شيء. ورجل سميع أي: سامع، ولكن سميع صيغة مبالغة، إذا كان كثير الاستماع لما يقال وينطق، كقوله تعالى: ﴿ ... سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ ...﴾ [المائدة : ٤١] وسميع على وزن فعيل من أبنية المبالغة كما يقول علماء العربية. قال الزجاج: ويجيء في كلامهم اسم السميع بمعنى المجيب، أي: سمع بمعنى أجاب.

وقد ورد هذا الاسم المشرف في الكتاب العزيز خمسا وأربعين مرة، منها قوله تعالى: ﴿ ... رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [البقرة : ١٢٧] وقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ ﴾ [المائدة : ٧٦] وقال تعالى:﴿ ... إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الحج : ٧٥] وكذلك ورد قوله: (إنه سميع قريب) وقوله تعالى: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ﴾ [المجادلة : ١].

واسم الله تعالى السميع من أهم الأسماء التي تدخل في معنى المراقبة لله تعالى، والمجاهدة للنفس على ألا يخرج من المرء لله تعالى إلا ما يقع من الله تعالى الموقع الحسن، الذي يود المرء أن تكون له عاقبته الحسنى في الآخرة وفي الدنيا كذلك. وهو من أهم الأسماء التي تعين المرء على تلك الحالة من مجاهدة النفس على أحسن التصرفات التي يود أن تصعد إلى الله تعالى. فإذا ما تعبد به المرء ربه، ودعا به المولى سبحانه وتعالى، تحسنت أعمال وأقوال جوارحه. واسمه البصير كذلك.

ثانيًا: معاني السميع في حق الله تعالى

ونذكر هذه المعاني؛ حتى نرى ما يتعلق فيها بالله جل وعلا، وما يمكن أن يتعبد المرء بها ربه ويوحده به، ويدعوه به، وتظهر به -كما ذكرنا في معنى الأسماء- آثار هذا الاسم على المرء

في سيره مع الله وسيره مع الخلق، وكيف تهذب أخلاق المرء، وعبادته في الظاهر والباطن بمعرفة هذه الأسماء الحسنى، وكيف يتقرب إلى الله تعالى بها، وكيف يحب ربه سبحانه وتعالى عندما يعرف تلك المعاني في حق الله، ثم كيف يكون في أدبه وعبادته وغير ذلك بما يظهر من آثار على هذا المرء الذي قد عرف ربه بتلك الأسماء.

يقول ابن جرير الطبري في تفسيره[1]: وقوله: ﴿ ... وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝ ﴾ [الشورى : ١١] يقول جل ثناؤه واصفا نفسه بما هو به، وهو يعني نفسه: السميع لما تنطق به خلقه من قول. فالله تعالى يسمع ما ينطق به خلقه جميعا.

وقال الخطابي رحمه الله تعالى في هذا المعنى: السميع بمعنى السامع، أي السامع لأقوال خلقه، أو السامع لأصوات خلقه جميعا: الإنسان والجان وغير ذلك من الأصوات، كلها مسموعة للرب تعالى. وسنبين هذا المعنى الجميل في هذا الاسم المشرف. إلا أن السميع أبلغ من السامع، كما ذكرنا أن القدير أبلغ من القادر، فسميع من صيغ المبالغة في العربية، كقولهم: عليم فهو أبلغ من عالم، وقدير أبلغ من قادر.

والسميع هو الذي يسمع السر والنجوى، وسواء عنده الجهر والخفوت، والنطق والسكوت وقد يكون السماع -كما ذكرنا- بمعنى القبول والإجابة، كقول النبي صلى الله عليه وسلم: **"اللهم إني أعوذ بك من قول لا يُسمع"**[2] أي: من قول لا يستجاب له، كما قال: **"ومن دعوة لا يستجاب لها"**[3] تفسيرا لهذا المعنى. فيكون قوله: **"الله إني أعوذ بك من قول لا**

---

(١) انظر: جامع البيان، ابن جرير الطبري ج: ٢١ ص: ٥١٠، طبعة مؤسسة الرسالة.

(٢) أخرجه أحمد (١٣٠٣٤) وأبو يَعْلَى (٢٨٤٥) وابن أبي شيْبَة (٢٩١١٩) وصححه ابن حبان (٨٣) ، ولفظه: (عَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ قَوْلٍ لَا يُسْمَعُ وَعَمَلٍ لَا يُرْفَعُ وَقَلْبٍ لَا يَخْشَعُ وَعِلْمٍ لَا يَنْفَعُ)

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٢٢) ولفظه (عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ قَالَ لاَ أَقُولُ لَكُمْ إِلاَّ كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ كَانَ يَقُولُ « اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ وَالْهَرَمِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ اللَّهُمَّ آتِ

يسمع" أي: أعوذ بك من دعاء لا يستجاب. ومن هذا قول المصلي إذا رفع من الركوع: سمع الله لمن حمده، أي: قبل الله تعالى حمد من حمده. فيكون السمع هنا بمعنى القبول والإجابة.

وابن القيم ذكر للسمع أربعة معانٍ، يقول[1]: فعل السمع يراد به أربعة معان: أحدها: سمع إدراك ومتعلقه الأصوات. والثاني: سمع فهم وعقل، ومتعلقه المعاني. والثالث: سمع إجابة وإعطاء ما سئل. والرابع: سمع قبول وانقياد.

والمعنى الأول الذي أشار إليه ابن القيم، يقول: فمن الأول الذي هو سمع الإدراك، الذي هو متعلق بالأصوات ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة : ١] فهذا سمع إدراك للصوت، وقوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُۘ ...﴾ [آل عمران : ١٨١].

ومن الثاني -سمع فهم وعقل- قوله تعالى: ﴿ ... لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ ...﴾ [البقرة : ١٤] أي: افهموا واعقلوا. فليس المراد هنا سمع مجرد الكلام، بل سمع الفهم والعقل.

ومنه: ﴿ ... سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ ...﴾ [البقرة : ٢٨٥] إذا كان سمعنا بمعنى أطعنا أو بمعنى فهمنا، فإن كانت بمعنى أطعنا فهو تكرار للتوكيد، أي: أطعنا وأطعنا: ﴿ إِنَّمَا كَانَ

نَفْسِي تَقْوَاهَا وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا ».).

(١) انظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ج: ١ ص ٤٨٠- دار الكتاب العربي.

قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ...﴾ [النور : ٥١] أي: أجبنا وأطعنا، أو فهمنا وأطعنا.

ومن الثالث، وهو سمع الإجابة والإعطاء قوله صلى الله عليه وسلم: **"سمع الله لمن حمده"**[١] وكذلك الحديث الذي ذكرنا: **"أعوذ بك من قول لا يُسمع"**[٢]، والحديث الآخر وهو وارد في الدعاء المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم: **"اللهم اسمع"**[٣] أي: اللهم أجب وأعط ما سألتك يا رب.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٦٣) ، ومسلم (٤٠٩) .

(٢) أخرجه أحمد (١٣٠٣٤) وأبو يَعْلى (٢٨٤٥) وابن أبي شَيْبَة (٢٩١١٩) وصححه ابن حبان (٨٣) ، ولفظه: (عَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كَانَ يَقُولُ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ قَوْلٍ لَا يُسْمَعُ وَعَمَلٍ لَا يُرْفَعُ وَقَلْبٍ لَا يَخْشَعُ وَعِلْمٍ لَا يَنْفَعُ)

(٣) أخرجه بهذا اللفظ ابن السني في عمل اليوم والليلة (١١٤)، و أخرجه بنحوه أحمد (٣٦٩/٤) وأبو داود (١٥٠٨) والنسائي في عمل اليوم والليلة (١٠١) ولفظ ابن السني: (عن زيد بن أرقم قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يدعوا دبر الصلاة يقول (اللهم ربنا ورب كل شيء أنا أشهد أن محمدا عبدك ورسولك اللهم ربنا ورب كل شيء أنا أشهد أن العباد كلهم إخوة اللهم ربنا ورب كل شيء اجعلني مخلصا لك في كل ساعة وأهلي في الدنيا والآخرة يا ذا الجلال والإكرام اللهم اسمع واستجب الله أكبر الله الأكبر الله نور السموات والأرض الله أكبر الله أكبر حسبي الله ونعم الوكيل الله أكبر الله أكبر).

واللفظ الآخر (زيد بن أرقم – رضي الله عنه – : قال : «سَمِعْتُ نَبِيَّ اللهِ –صلى الله عليه وسلم– – وفي رواية: كان رسولُ الله –صلى الله عليه وسلم– يقول : – في دُبُرِ كلِّ صلاةٍ : اللّهم ربَّنا وَرَبَّ كلِّ شيءٍ ، أنا شهيدٌ أنّك أنتَ الرَّبُّ وحدَكَ لا شريكَ لك ، اللهمَّ رَبَّنا وَرَبَّ كُلِّ شيء ، أنا شهيدٌ أنَّ محمدا عبدُكَ ورسولُك ، اللّهُمَّ رَبَّنا ورَبَّ كلِّ شيء أنا شهيدٌ أنَّ العِبادَ كلَّهم إخْوَةٌ ، اللهمَّ ربَّنا وربَّ كلِّ شيء ، اجعلني مُخْلصا لَكَ وأهلي في كل ساعةٍ

والرابع منه قوله تعالى: ﴿ ... سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ ...﴾ [المائدة : ٤١] فسماعون هنا أي: قابلون للكذب ومنقادون له غير منكرين. وكذلك على أصح القولين في تفسير قوله سبحانه وتعالى: ﴿ ... وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ...﴾ [التوبة : ٤٧] أي: فيكم ناس يقبلون قولهم وينقادون له، أي: قابلون ومنقادون لأقوال الكفرة.

ومن معاني السميع: المستجيب لعباده إذا توجهوا إليه بالدعاء، وتضرعوا له أجابهم سبحانه وتعالى.

ونحن نذكر هذه المعاني حتى إذا جئنا لآثار هذه المعاني على ما ينبغي أن يكون المرء في علاقته بالله تعالى يعلم المرء كيف تكون علاقتك بالله تعالى، علاقة الدعاء والتضرع إذا أردت الإجابة، وإذا أردت العطاء من الله تبارك وتعالى، إلى آخر ما سنذكر إن شاء الله تعالى.

وقد ورد اسم الله تعالى السميع مع البصير ومع العليم ومع القريب، وهي تدل في مجموعها على تلك القوة لهذه المعاني إذا اجتمعت.

فإذا قلنا: سميع عليم، فهي أشد في معرفة الرب سبحانه وتعالى، وفي قوة المعنى، وفي ظهور آثار ذلك على العبد - من قولنا: السميع وحده، أو البصير وحده، أو العليم وحده، أو القريب وحده.

لذلك يقول: وهي تدل على الإحاطة بالمخلوقات كلها، سمعا لها، ونظرا إياها، وعلما بها، وقربا منها.

فلذلك يقول: وأن الله محيط بها، لا يفوته شيء منها، ولا يخفى عليه، بل الجميع تحت سمعه وبصره وعلمه وقربه سبحانه وتعالى. وفي ذلك تنبيه للعاقل وتذكير كي يراقب نفسه وما يصدر عنها من أقوال وأفعال؛ لأن خالقه وربه لا يخفى عليه شيء منها سبحانه وتعالى، وأنه سبحانه محصيها عليه، ثم يجازيه بها في الدنيا والآخرة كذلك، إن خيرا فخير وإن شرا فشر.

من الدنيا والآخرة ، يا ذا الجلال والإكرام ، اسْمعْ واستجبْ ، اللهُ أكبرُ الأكبرُ ، اللهمّ نُور السموات والأرض – وفي روايةٍ : رَبَّ السمواتِ والأرضِ – الله أكبرُ الأكبرُ ، حسبيَ اللهُ ونعمَ الْوكيلُ ، الله أكبرُ الأكبرُ»

آثار معنى السمع لله تعالى

فسمع الله تبارك وتعالى ليس كسمع أحد من البشر، وإذا أثبتنا لله تعالى الصفات فالقول: ﴿ ... لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] والإشارة إلى هذا؛ لأن من نفى صفات الرب سبحانه وتعالى وفسرها أو أولها ينفي هذه المعاني. والأصل أن عقيدة أهل السنة أن هذه الأسماء نؤمن بها كما جاءت عن الله تعالى بغير تحريف ولا تأويل، وبغير تشبيه ولا تمثيل.

لذلك يقول هنا: قد نفى الرب سبحانه وتعالى المشابهة عن نفسه بقوله: ﴿ ... لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] لأن سمع الله تعالى وبصره مستغرق لجميع المسموعات والمرئيات، لا يعزب عن سمعه مسموع وإن دق وخفي، سرا كان أو جهرا.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: "الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النبي صلى الله عليه وسلم تكلمه وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول، فأنزل الله تعالى: ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة : ١]" [(١)] وفي رواية: "تبارك الذي وسع سمعه كل شيء" سبحانه وتعالى.

فالسيدة عائشة رضي الله عنها تقول: جاءت المجادلة، وهي المرأة التي تشتكي زوجها إلى الله تعالى، وتشرح حالها للنبي صلى الله عليه وسلم؛ ليفصل لها فيما وقع من زوجها إليها.

---

(١) أخرجه البخاري تعليقاً، بَاب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى {وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا} ووصله النسائي (٣٦٤٠)، وصححه الحافظ في ((التغليق)) (٣٣٩/٥) ، ولفظه: (عَنْ عَائِشَةَ ، قَالَتْ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الأَصْوَاتَ ، لَقَدْ جَاءَتِ الْمُجَادِلَةُ تَشْتَكِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ، وأنا في ناحية الْبَيْتِ ما أَسْمَعُ مَا تَقُولُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا) الآية)..

فتقول السيد عائشة: وأنا في جانب البيت أي جانب الحجرة، وهي قريبة، تراها وتنظر إليها، وتسمع الكلام، فتقول: أنا ما كنت أتبين كلامها، وتقول: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، فأنا في البيت ولم أسمع، وإذا بقول الله ينزل: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝ ﴾ [المجادلة : ١].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: "كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر، فكنا إذا علونا كبرنا، فقال: أربعوا على أنفسكم؛ فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا، تدعون سميعا بصيرا قريبا"[(١)] سبحانه وتعالى. فلما أحسن النبي صلى الله عليه وسلم أن الناس ترفع أصواتها لتصل إلى الله تعالى قال لهم: أربعوا على أنفسكم، أي: خففوا؛ فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا أو بعيدا غير قريب، لا، إنكم تدعون سميعا بصيرا قريبا، سبحانه وتعالى.

وفي بيان الفرق بين سمع الخالق وسمع المخلوق؛ يقول أبو القاسم الأصبهاني: خلق الإنسان صغير لا يسمع، فإن سمع لا يعقل ما يسمع، فإذا عقل ميز بين المسموعات، فأجاب عن الألفاظ بما يستحق، وميز الكلام المستحسن من المستقبح، ثم كان لسمعه مدى، إذا جاوزه لم يسمع، ثم إن كلمه جماعة في وقت واحد عجز عن استماع كلامهم، وعن إدراك إجابتهم.

فكأنه يقول لك: الله تعالى على غير ذلك، يقول: والله عز وجل السميع لدعاء الخلق وألفاظهم عند تفرقهم واجتماعهم، مع اختلاف ألسنتهم ولغاتهم، يعلم ما في قلب القائل قبل أن يقول، ويعلم ما يريد أن يقول لو عجز عن أن يقول، ويعجز القائل عن التعبير عن مراده ويعلم الله تعالى فيعطيه الذي في قلبه.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٣٠)، ومسلم (٢٧٠٤)، ولفظه: (عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ لَمَّا غَزَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْبَرَ أَوْ قَالَ لَمَّا تَوَجَّهَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَشْرَفَ النَّاسُ عَلَى وَادٍ فَرَفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ بِالتَّكْبِيرِ اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ إِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا وَهُوَ مَعَكُمْ).

والمخلوق يزول عنه السمع بالموت، وبغير ذلك من الآفات، والله تعالى لم يزل ولا يزال يفني الخلق، ويرثهم سبحانه وتعالى، فإذا لم يبق أحد قال: ﴿ ... لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ...﴾ [غافر: ١٦] فلا يكون من يرد أو يسمع، فيقول: ﴿ ... لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ [غافر: ١٦].

وقضية سمع الله تعالى، تظهر في مشهد من مشاهد الحج، وهو مشهد سمع الله تعالى، وكان مشهدا مستغربا، فمن ذهب إلى الحج أو العمرة، أو رأى هذه الملايين التي تقف هنالك يفهم هذا المعنى الجميل؛ لكونه يأخذ بقلب المرء إلى الله تعالى، ويطلعه على هذه المعاني الضخمة في أسمائه الحسنى وصفاته العليا.

فالمرء ينظر إلى الناس جميعا في الحج وهم يرفعون أيديهم إلى الله تعالى بالدعاء، فهذه الملايين تدعو في نفس الوقت، وتدعو بألسنة مختلفة، وبمختلف الأدعية، فهذا يدعوه بالصحة، بالمال، بالمغفرة، بطول العمر، بشفاء المريض، بتفريج الكربات، بإعطاء كذا، أو كذا.

والله سبحانه وتعالى يسمع في نفس الوقت كل هذه الأدعية المختلفة، بكل هذه الألسنة المختلفة، بكل هذه الأصوات المختلفة، الذي يجهر والذي يسر والذي يخافت والذي يقول بقلبه ما يطلب، الكل يسمعه الله تبارك وتعالى! والمعنى الأهم في ذلك المشهد العظيم هو: أن كل أحد يظن أن الله تعالى يسمعه هو فقط! فكل داع من هؤلاء يدعو الله تعالى وكأن الله لا يسمع غيره، وكأنه يسمعه هو ويقبل عليه هو، وكأنه يدعوه وحده، ويرفع إليه يديه، ويتضرع إليه بكل هذه الأنواع من أنواع الحوائج والطلبات والأسئلة والذكر والقول والقرآن. فكل هذه الأمور فضلا عن أمور الدنيا والكلام والشراء والبيع وغير ذلك، كل ذلك في سمع الله تعالى، سبحانه لا يغلقه سمع عن سمع.

فكل هذه الأصوات سرا وجهرا ولغة وكلاما تضرعا وبكاء، كل ذلك في سمع الله، على نفس المستوى، في نفس اللحظة، على ذلك الحال الذي يراه الناس.

والله تعالى يعطي هذا، ويجيب هذا، ويمنع هذا، ويرد هذا، ويوسع على هذا، كل ذلك في نفس الوقت، وكل يظن إنما هو مختص بربه وحده سبحانه وتعالى، يدعوه، وأنه يظن أن هذه الأدعية لله تعالى هو الذي يدعوه وحده !

وقد ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي: "**لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم اجتمعوا في صعيد واحد، وسأل كل واحد مسألته ما نقص ذلك من ملك الله شيئا**"(١) بل كل ذلك في نفس اللحظة يسمعه الرب، بكل هذه اللغات، ويعطي ويجيب في نفس اللحظة، أو يؤخر هذا ومعلوم عنده التأخير، أو يرفع هذا ومعلوم عنده الرفع، كل ذلك في نفس اللحظة.

وكأن هذا الحال إذا نقلته إلى القيامة رأيت هذا المعنى الغريب: فالخلق ليس أولئك الواقفين فقط في المسجد الحرام أو المسجد النبوي أو في عرفات، بل: إنسكم وجنكم، وكل شيء يوم القيامة من أول خلق الله تعالى إلى آخرهم، والملائكة واقفون، والله تعالى سامع لهؤلاء جميعا، بمختلف لغاتهم.

هذا المعنى ينبغي أن يكون من مهمات المؤمنين، وهو أن الله تبارك وتعالى قد سمع ذلك كله منك، وأن الله تعالى يسمع منك كل شيء، ويسمع سرك ونجواك، ويسمع منك ما تريد أن تعبر به فلا تستطيع التعبير، ويسمع دعاءك وقولك، وقراءاتك، ومناقشتك، ويعلم كل ذلك منك سبحانه وتعالى.

وكان الأثر المطلوب حينئذ أن المؤمن كيف يراقب ربه؛ إذ قد علمت أن الله تعالى يسمع كل ذلك وقد ظننت أن الله مختص بك في سمعك، فعندما ترفع يديك تظن أن الله يسمعك أنت وحدك دون غيرك، وهذا الذي كنا نشير إليه في معنى أن هذا الاسم المعظم من الأسماء التي تبعث على المراقبة.

لذلك كانت هذه المسألة من أعظم المسائل، لها شقان: شق المراقبة، وشق المجاهدة.

فالمراقبة بمعنى: أنه يسمعك فيما تقول، وما يخرج منك، وما تسر وما تعلن، وما يكون من ظاهر القول مخلصا له، كل ذلك إنما هو معلوم مسموع لله تعالى في كل أحوالك،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) ، ولفظه: (يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ ما زاد ذلكَ في ملكي شيْئًا يا عبادي لَوْ أنّ أوّلَكُمْ وآخركُمْ وإنْسكُمْ وجنّكُمْ كانُوا على أفْجرِ قلْب رجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَص ذَلِكَ مِنْ ملكي شَيْئًا).

وهذا الذي يعلم المرء كيف يستحي من ربه، كيف يراقب ربه جل وعلا؛ حتى لا يخرج منه لله تعالى من كلام وغيره إلا ويقع الموقع الحسن من سمع الله تعالى، وهذه هي المسألة التي يتربى بها المرء، وهي من أعظم مسائل التربية التي أشار إليها العلماء، وهي كيف يضبط المرء لسانه وقوله، ولا يقول قولا إلا لله تعالى، في ظاهره مخلصا له، وفي باطنه كذلك.

ألا يقول قولا إلا ويرجو أن يقع عند الله تعالى، في سمع الله تعالى، لا تسمع ربك سبحانه وتعالى منك إلا ما يكون عند الله تبارك وتعالى مدخرا لك على معنى الحسن، على معنى الجمال، على معنى الإجلال لله تعالى، على معنى الاستحياء من الله تعالى، على معنى إصابة الحق والقول به عند الله تعالى، على معنى أن ترى ذلك كما قال: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [ق : ١٨] وكما قال: ﴿ ... أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ... ﴾ [المجادلة : ٦] فكل ذلك مسموع له.

فيراقب المرء نفسه على ألا يصعد منه إلى الله إلا الكلم الطيب، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا"[1]، ولا يرتفع إليه إلا الطيب ﴿ ... إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ... ﴾ [فاطر: ١٠].

فعندما يعرف المرء هذه الحالة، وأن الله سامع له، تراه ماذا ينطق: هل يتكلم بهذه الطريقة التي نسمعها؟! أو أنه يبدأ في مجاهدة نفسه على أن لا يقول إلا خيرا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت**"[1].

---

(١) أخرجه مسلم (١٠١٥) ، ولفظه: (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّبًا وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) وَقَالَ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) ». ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِىَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ ».).

فلا ينبغي لك أبدا أن تتكلم إلا أن يكون الكلام المسموع لله تعالى كلاما تجده في ميزانك عند الله تعالى يوم لا ينفع مال ولا بنون.

ولا يتحقق ذلك إلا بالمراقبة. كيف يأخذ المرء بلسانه؟ لأنه من كثر كلامه لا شك سيكثر خطؤه، وأنه كلما كثر كلامه كثر سقطه، وكلما كثر كلامه في غير ما يؤجر عليه إنما يوشك أن يقع فيما يحاسب ويجازى عليه، وجدت نفسك حينئذ لا تتكلم إلا بأن يكون كلامك المسموع عند الله تبارك وتعالى في صحيفتك البيضاء عند الله سبحانه وتعالى ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ...﴾ [آل عمران : ١٠٦].

فكان هذا معنى من معاني التزكية التي كان يأخذ بها الصحابة أنفسهم رضوان الله تعالى عليهم، فقد كان أبو بكر الصديق يمسك لسانه ويقول: "هذا الذي أوردني المهالك" مع أنه هو الصديق، الذي ندعو في صلاتنا ونقول: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ...﴾ [الفاتحة : ٧] لنكون منهم فهو أولهم رضي الله عنه، كما قال تعالى: ﴿ ... فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ ...﴾ [النساء : ٦٩] هو أولهم رضي الله عنه بعد الأنبياء، وكان يقول هذا عن نفسه!

وكانت آفات اللسان -كما تعلمون- سببا من الأسباب المشئومة على المرء من هذه الوجهة، من وجهة أنه يسمع ربه سبحانه وتعالى ما لا يليق بالله جل وعلا أن يسمعه من عبده.

انظر إليك وأنت تكلم أباك أو أحد إخوانك بهذه الألفاظ التي لا تليق، وانظر إليهم كيف يكون فعلهم وحالهم معك، وكيف يكون رد فعلهم على مثل هذه الأقوال المسيئة السيئة التي تخرج، خاصة لو كانت أقولا حسنة وهم لا يدرون نيتك بها، أما في مسموع الله تعالى فهي معلومة، وكثير منا يتكلم الكلام يظن أنه يريد به وجه الله وهو يعلم من نفسه حقيقية ما يريد،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠١٨) ، ومسلم (٤٧) ، ولفظه: (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ).

وما يخفيه من نوايا لهذه الكلمات التي يظن أن ظاهرها يمكن أن ينطلي على الناس، لا ينطلي على الله تعالى.

والشق الثاني هو المجاهدة، ومن أصعب المجاهدات على النفس هي مجاهدة اللسان، فكل الأعضاء تصبح تكفر اللسان، وتقول له: "إن استقمت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا"[(١)] إذا استقام لسان المرء استقام قلبه، كما روي في الأثر **"لا يستقيم قلب امرئ حتى يستقيم لسانه"**[(٢)]

ومعنى المجاهدة، أن نفسك وشيطانك وهواك سيأبى عليك إلا أن تعصي الله سبحانه وتعالى، لن يتركك حتى تتكلم الكلام الذي لا تأخذ منه فائدة أو أن تذم وتأثم عليه، فيلزم لذلك المجاهدة.

فعندما يعلم أن كلامه الذي يتكلم مسموع عند الله تعالى علم مرضه الذي هو مصاب به في هذا الكلام، سواء في نيته بالكلام أو سواء في الكلام نفسه، فعندما يعلم ذلك عرف مرتبته، وعرف منزلته من سمع الله تعالى إياه، فعرف هذه الدرجة عند الله تعالى التي هو فيها، فعرف مرضه، ونسبة هذا المرض، أنه يخرج منه إلى الله تعالى مثلا خمسون بالمائة كلاما طيبا، إذن فهو مريض بخمسين في المائة من الكلام الذي يؤذي الله تعالى، والذي ينبغي ألا يسمعه الرب جل وعلا منه.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٠٧) ، وحسنه، ولفظه: (عَنْ أبي سَعيدٍ الْخُدْريِّ رضيَ اللهُ عَنْهُ رَفَعَهُ قَال :«إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدمَ فَإِنَّ الأَعْضَاء كلّها تُكَفِّرُ(١)اللِّسَانَ فَتقُولُ : اتَّقِ اللهَ فِينا فَإِنَّما نَحْنُ بكَ فَإِنِ اسْتَقَمْت اسْتَقَمْنا وَإِنْ اعْوججْت اعْوَجَجْنا»).

(٢) أخرجه أحمد (١٣٠٧١) . قال الهيثمي (١/٥٣) : في إسناده على بن مسعدة وثقه جماعة وضعفه آخرون . وأخرجه أيضا : القضاعى (٢/٦٢ ، رقم ٨٨٧) . قال المنذري (٣/٢٤٠) : رواه أحمد ، وابن أبى الدنيا في الصمت كلاهما من رواية على بن مسعدة ، وحسنه، ولفظه: (لا يَسْتَقِيمُ دِين عبْدٍ حتَّى يَسْتقيم لسَانُهُ، وَلا يَسْتَقيمُ لِسَانُهُ حتَّى يَسْتَقِيم قلْبُهُ، وَلا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوائِقَهُ).

حينئذ عرفت داءك، وبادرت في المجاهدة، وساعدك على هذه المجاهدة أنه يراقبك ويسمعك سبحانه وتعالى، فلا تتكلم حينئذ في سرك وعلانيتك، أو في جهرك إلا بما يكون سبب قبول الله تعالى لهذه الكلمات، وأن يكون هذا الكلام الذي تتكلمه سببا في إصلاحك، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ... ﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١] فمن يتكلم الكلام الحسن يصلح الله له عمله.

فلو نظرنا إلى سوء العمل تجده مبنيا على سوء الكلام، فهذه آفة عظيمة جدا يعلمها المرء في نفسه، وهي أن سوء عمله من أهم أسبابه سوء لفظه ومنطقه وكلامه. فكان إصلاح المنطق على ما في القلب مما يرضي الرب سبحانه وتعالى سببا في إصلاح العمل والنفس، والسير إلى الله تعالى.

ولذلك فالعلماء ذكروا أن المرء كلما تكلم بشيء أو بكلمة ألقى في بيته حجرا سوف يمتلئ البيت بعد عدة أيام من الحجارة. ولكن ذلك مستور عليك من الله تعالى ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ۝ ﴾ [القمر: ٥٣] أي: مكتوب عند الله تعالى.

فيجب أن يفهم المرء هذه المسالة المهمة، وهي أن صلاح اللسان صلاح للعمل، وسبب للمغفرة، وما يترتب على ذلك من أن يحسن الكلام عليه حينها إن شاء الله تعالى.

وهذه إذن تدعونا إلى المجاهدة على هذا المعنى، وهي تأخذ وجهتين:

الوجهة الأولى: أن يكون حينما يتكلم بما يحب أن يراه في صحيفته، أي أن يتكلم بالقرآن والكلام النافع، والكلام المستحب، وغير ذلك.

الوجهة الثانية: أن يجاهد نفسه على ألا يتكلم بغير ذلك.

فلا يمكن للمرء أن يصمت فقط، وإن صمت فقط فإن فكره في غالب الحال لا يكون كما دعا النبي صلى الله عليه وسلم أن يكون صمته فكرا، فدعاء المخبتين الأولياء أن يكون صمتهم فكرا ونطقهم ذكرا. لذلك لا يستقيم اللسان بالصمت فقط، وإنما بأن يكون الصمت مع الفكر الحسن في الله تعالى، في أسمائه وصفاته، في معاشك ومعادك، فيما تصلح به نفسك،

وتصلح به أحوالك، وفيما يقربك إلى الله، وتدعو به إلى الله تعالى. هذه مسألة مهمة، وإنما الصمت لا يكون كذلك فقط مستحبا إلى الله تعالى إلا أن يلازمه الفكر.

فبدلا من أن تصمت، تعوض هذا الصمت بالذكر. فهذه الحالة إذا يمكن أن تجاهد نفسك عليها، وذلك ما يسميه العلماء: حظ المرء من اسمه السميع سبحانه وتعالى. ألا يقع في سمع الله تعالى إلا ما يكون منك محبوبا أن يسمعه الله جل وعلا.

والأمر الثاني من حظ المرء في هذا الاسم المشرف كذلك حظه هو من السمع، أي: ألا يسمع كذلك إلا ما يرضي الله سبحانه وتعالى. إنما أنت مهتم بإصلاح نفسك، وإصلاح أحوالك، وما يصدر منك إلى الله أن يكون في سمع الله تعالى شيئا يقبله الرب جل وعلا، أو على أقل تقدير ألا يؤاخذك عليه سبحانه وتعالى.

وفي نفس الوقت ألا يكون سمعك كذلك محل سماع الخنا، وسماع المخالفة، وسماع ما تضيع به قلبك، ويشرد به ذهنك، وتتفرق به عن الله تعالى، وتبعد به عن الذكر والفكر، ويكون مشغلة للقلب، مضيعة للوقت. لا، وإنما كيف تجاهد نفسك على تحقيق هذا الحظ الثاني. إذا تحققت هذه الأمور في المرء يوشك أن يسير في سكة الأولياء.

والمعنى الأخير أن الله تعالى هو السميع، بمعنى أنه يجيب الدعاء، وهي مسألة متعلقة بما نحن فيه الآن، أن يرتفع منك إلى الله تعالى الدعاء، فإن الله تعالى يجب سماع الدعاء من عبده، مع التضرع، فلذلك قد دعا الأنبياء والصالحون ربهم سبحانه وتعالى، ودعوه باسمه السميع؛ ليستجيب لهم.

وعندما يقول المرء: كيف يدعو المرء ربه سبحانه وتعالى باسمه؛ ليكون سببا للإجابة؟

قال: ادعه باسمه السميع، فالسميع سبب لاستجابة الدعاء، كما قال: ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها، أي: ادعوه بهذه الأسماء المناسبة لما تريدون من الدعاء.

فإن كنت تريد التوبة والمغفرة تدعو وتقول: ﴿ ... وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [البقرة : ١٢٨] وغير ذلك تأخذ من الأسماء الحسنى ما يناسب دعاءك؛ ليكون توسلا إلى الله تعالى بأسمائه الحسنى لاستجابة هذا الدعاء، ومن ذلك دعاء الصالحين: ﴿ ...

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [البقرة : ١٢٧] وذلك دعاء إبراهيم وإسماعيل كما هو معلوم وهما يرفعان قواعد البيت الحرام.

وكذلك امرأة عمران عندما نذرت ما في بطنها خالصا لله تعالى لعبادته وخدمة بيته، قالت: ﴿ ... إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ ﴾ [آل عمران : ٣٥] يسمع الدعاء، ويعلم ما وراءه من إخلاص الحال لله تعالى، وإرادة وجه الله تعالى بهذا الدعاء مما يتوسل به إلى الله تعالى. فهي تقول: ﴿ ... مُحَرَّرًا ...﴾ [آل عمران : ٣٥] أي: تريد أن يرزقها الله تعالى ولدا، تستخلصه لعباده الله تعالى، وأن يقوم بخدمة بيت المقدس، وتقول له: فأجب؛ لأنك سميع أي مجيب، وعليم بأنني أريد وجهك بهذا الحال، وتتوسل إلى الله تعالى بذلك الاسم المكرم؛ حتى يجيب، فأجاب سبحانه وتعالى ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ...﴾ [آل عمران : ٣٧].

ودعا زكريا ربه كذلك أن يرزقه ذرية صالحة: ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ ﴾ [آل عمران : ٣٨] ونذكر ذلك ليتعلم المؤمنون أن يدعوا الله تعالى باسمه السميع العليم سبحانه وتعالى؛ ليستجب لهم.

ومما ينبغي أن يكون من دعاء المرء عامة وخاصة في نفسه أن يدعو الله تعالى بأن ينجيه من نزغ الشيطان، وأن يحفظه منه؛ لذلك يقول في دعائه: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [الأعراف : ٢٠٠] فذلك مما يدعو به المرء ربه ليدفع عنه نزغ الشيطان.

وكذلك مما يدعو به هؤلاء الشباب؛ ليدفع عنهم مصائب النظر إلى النساء وغير ذلك، قوله سبحانه وتعالى: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴾ [يوسف : ٣٤] سبحانه وتعالى.

ثالثًا: الشرح الإجمالي لآيات السميع في القرآن

وكما تعودنا نعود إلى المنهج الذي فتح به ، أن نتعرف إلى الله تعالى بما ذكر عن نفسه سبحانه وتعالى في كتابه، وبما عرفنا به صلى الله عليه وآله وسلم.

وهذا البحث -بحث اسمه السميع جل وعلا- من أشق الأبحاث التي صادفت المرء في الأسماء الحسنى؛ لأنك لن تجد من يقول في تفسير: ﴿ ... وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝٦١ ﴾ [الحج : ٦١] ﴿ ... وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ۝١٤٨ ﴾ [النساء : ١٤٨] ﴿ ... إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١٧ ﴾ [الأنفال : ١٧] ما يثلج الصدر، وهذا مبلغ المشكلة في هذه القضية. إنما نحن في هذا الحال نرتكن إلى الله تعالى في أن يفتح علينا في فهم ما يعرفنا به نفسه سبحانه وتعالى؛ لأنه هو الذي يسر ذلك سبحانه وتعالى.

وأول ما صادفناه أن هذا الاسم من الأسماء التي جاءت مقترنة بالعليم والبصير والقريب، وهو الوحيد فيها الذي لم يأت منفردا، فلن تجد السميع يأتي منفردا، وعثرت في القراءة على اسم الفاعل، وهو قوله تعالى: ﴿ ... إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ۝١٥ ﴾ [الشعراء : ١٥] هذه الوحيدة فقط التي جاءت عن الله تعالى بغير وصف العلم أو وصف القرب أو وصف البصر. أما الباقي فكقوله: ﴿ ... أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦ ﴾ [طه : ٤٦] وغيره من الأفعال.

ولأن هذا الاسم لم يأت منفردا، فبالتالي عندما يوصف سبحانه بأنه سميع بصير، أو سميع عليم، أو سميع قريب، نلاحظ أننا لو رفعنا اسم السميع من السياق لتغير السياق، فلو قلنا مثلا: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝٢٨ ﴾ [لقمان : ٢٨] فلو حذفت كلمة سميع فسوف يتغير السياق، فماذا تعني بقولك: ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله بصير؟! أو: إن الله خالق قدير، أو قوي عزيز، أو غير ذلك مما يبين معاني القدرة لا يستقيم المعنى، مما يدل على أن «سميع» لها معناها الذي لا بد أن توجد به هنا. فهذه الملحوظة حتى يتفحص الناس وهم يقرؤون، ويتدبرون؛ لأن قضيتنا -كما ذكرنا- هي قضية التدبر في كلام الله تعالى.

فالله تعالى عنما يقول ﴿ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [الأنعام : ١٣] ذكرها بالذات في هذا الموضع فلا بد أن يكون لها معنى، يستفيد منه السامع في التدبر، ويفهم المعنى عن الله تعالى، وهذا الفهم والتدبر يعينه على التقرب إلى الله ومعرفة الرب سبحانه وتعالى، لا شك.

وقد جاء اسم السميع مع البصير والعليم ، إلا في موضع واحد فقط لم يأت لا مع البصير ولا مع العليم، وهي في قوله: ﴿ قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ ﴾ [سبأ : ٥٠] فلو قلت: سميع عليم أو سميع بصير، لم يستقم المعنى على الوجه المراد.

فينظر المرء في كل معاني آيات القرآن الكريم؛ ليتدبر فيها، وهذا التدبر يعينه لتكون هذه الآيات لها وقعها على نفسه، ولها أثرها على قلبه وعمله، وأن يزن بها نفسه.

والملحوظة التالية: كان يمكن أن نضع أي اسم من أسماء الله تعالى بدل هذا الاسم، فبدلا من أن تقول في هذه الآية: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ ...﴾ [العنكبوت : ٦٠] فالسياق إذا لم تكن متدبرا أثناء القراءة قد يقتضي أن تقول: وهو الرزاق المتين، أو: وهو الرزاق العزيز. إنما السياق هنا جاء بقوله تعالى: ﴿ ... وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [العنكبوت : ٦٠] فلا بد وأن يكون السياق هنا له معناه، وهذا يؤدي إلى المعنى الذي نتكلم فيه، فلا بد وأن ينظر المرء في هذه المعاني وهو يقرأ ويتدبر، حتى يتفتح ذهن المرء وقلبه على التعامل مع أسماء الله الحسنى عندما يرى مواضعها، ويفهم عن الله تعالى هذه المعاني، وبالتالي يفهم كذلك التدبر في هذه المعاني، وكيف ينزل هذه المعاني على نفسه وعلى قلبه وعلى عمله؛ ليرى موقعه منها، وليأخذ حظه منها.

والملحوظة التالية: إن الله تبارك وتعالى عندما أراد أن ينزه نفسه عن مشابهة المخلوقين، ويبين للمؤمنين أنه لا يشبه شيئا ولا يشبهه شيء قال: ﴿ ... لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ ...﴾ [الشورى : ١١] فكان من الممكن أن يقول: وهو القوي العزيز، أو: وهو الحكيم الخبير. ولكنه

قال: ﴿ ... وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] فهذا معنى جديد. وهذه ملحوظة مهمة في أن الله تبارك وتعالى أثبت لنا السمع والبصر له سبحانه وتعالى في تنزيه نفسه عن مشابهة الخلق، أو أن يشبهه الخلق؛ لأنه السميع البصير.

كيف «السميع البصير» هي التي دلتنا على أن شيئا من الخلق لا يشبه الرب سبحانه وتعالى؟ أثبت لنفسه السمع والبصر مع مخالفة المخلوقين، أو عدم مشابهتهم، وأنه ليس كمثله شيء سبحانه وتعالى؛ لوجود السمع والبصر لله تعالى.

فلو نظرنا إلى السمع نجد أنه لا يشبهه شيء، وهذا صحيح، بدليل مثل الحج الذي ضربنا آنفا. فمن ذا الذي يستطيع أن يسمع كل هؤلاء؟! بل من يستطيع أن يسمع ثلاثة متجاورين يتكلمون معا؟! فما بالك بمن يسمع هؤلاء جميعا في نفس الوقت من يوم أن خلقهم إلى يوم القيامة، هو الله تبارك وتعالى يسمع الجميع.

والبصر كذلك، فهو سبحانه يرى النملة السوداء، في الليلة الظلماء، على الصخرة الصماء ، بل هو يرى ظاهرك وباطنك، فالغيب والشهادة عنده واحد سبحانه وتعالى، فمن يوم أن خلق الخلق وهو يراهم سبحانه وتعالى، فكل شيء مرئي لله تعالى، وتحت بصره جل وعلا، لا أظن أن أحدا يرى ذلك إلا شيئا لا يمكن مشابهة الخلق فيه.

وفي القرآن الكريم فقد تعرف إلينا الرب سبحانه وتعالى، وتقدست أسماؤه، بأنه سميع على أوجه كثيرة، فعرف الله تعالى بها نفسه: كرب سبحانه وتعالى، وخالق جل وعلا، ورازق ومحيي ومميت ومحاسب، سبحانه وتعالى، ومن ثم يجب أن يكون هو الإله المعبود، ومن ثم يجب أن يتوكل عليه الناس، ومن ثم يحاسبهم ويفصل بينهم: ﴿ وَٱللَّهُ يَقْضِي بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [غافر : ٢٠]. ونبين هذه المعاني إجمالا كما تعودنا في منهجنا في الأسماء الحسنى؛ لنتعرف على هذا الاسم، أو بمعنى أدق: لنرى كيف أن الله تعالى تعرف إلينا به سبحانه وتعالى، تعرف إلينا بكونه السميع جل وعلا.

أولها: أنه سبحانه وتعالى تعرف إلينا بكونه الرب السميع البصير سبحانه وتعالى ، فالرب هو الخالق الرازق المحي المميت، الذي له ما سكن في الليل والنهار، فتعرف إلينا من خلال هذه الأفعال والصفات له سبحانه وتعالى.

حيث إنه خلق الإنسان، وأرسل إليه الرسل، وأنزل إليه الكتب، ورزقه، وهداه، وزكاه، ويميته، ويحيه، ويحاسبه، ويقضي بالحق، كل ذلك من كونه السميع، سواء أن كان البصير أو العليم. وأحيط ذلك كله بأنه يعلم القول في السماء والأرض، وأنه يسمع التحاور، وأنه يسمعكم حين تتكلمون وحين تسكتون، لأنه هو السميع العليم سبحانه وتعالى.

وأول هذه الآيات قوله سبحانه وتعالى: ﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى : ١١] فهو سبحانه وتعالى خالق السماوات والأرض، وأنه خلق لكم من أنفسكم أزواجا، ﴿ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ﴾، أي: يكون سببا لكثرتكم ونسلكم وبقائكم واستمراركم، وكذلك من الأنعام ﴿ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ﴾ ، ولكنه ذكر يذرؤكم مرة واحدة؛ استغناء عن أن يذكرها مرة ثانية، وكذلك في الأنعام؛ لأنه من المعلوم أن قوله: ﴿ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ﴾ بالنسبة الأنعام أي: تأخذون من نسلها، ومن لبنها، ومما يكون من خيرها الذي جعله الله لكم. وهو السميع البصير سبحانه وتعالى.

فبينت الآية الخلق، وبينت تناسل هذا الخلق، وبقاءه، واتساعه الذي لا يكون إلا للرب سبحانه وتعالى، الخالق جل وعلا، الرازق جل وعلا. هذا الخالق الرازق تعرف إلينا في نهاية الخلق والرزق بأنه السميع البصير سبحانه وتعالى.

والآية التالية كذلك، يقول: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [لقمان : ٢٨] فالخلق والبعث كنفس واحدة.

ثم يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝ ﴾ [العنكبوت : ٦٠] فتعرف إلينا سبحانه وتعالى بأنه يرزق الدواب التي لا تستطيع بسبب ضعفها، كيف هداها لهذا الرزق، وكيف ساق لها هذا الرزق سبحانه وتعالى، وكيف رزقها وإياكم سبحانه وتعالى، وهو السميع العليم، ولم يقل مثلا: وهو الرزاق العليم، بل قال: ﴿ ... وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝ ﴾ فدل على أن السمع هنا مع أن الله تعالى يدلل به على معنى الرزق، إلا أن السمع هنا له معناه الذي يتوائم مع سياق الرزاق الذي يرزق سبحانه وتعالى. وهو من المعاني المهمة من معان الرزق وإيصاله إلى من لا يستطيع بكونه السميع العليم سبحانه وتعالى.

والآية التالية هي قوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝ ﴾ [الحج : ٦١] فبعد الخلق والرزق هو يقلب الليل، ويدخل الليل في النهار، ويدخل النهار في الليل، وبين معنى آخر: ﴿ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝ ﴾ [الأنعام : ١٣] فكأن الله تعالى يتعرف إلينا بمعنى الربوبية التي تستلزم الإلهية، فله ما سكن في الليل والنهار، وهو يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، وهو السميع العليم، كما ذكر سبحانه تعالى.

وقد أمر الله سبحانه وتعالى الخلق بالتوكل عليه؛ لأنه هو السميع العليم، ونعى سبحانه وتعالى على أولئك الذين يعبدون غيره ، أو يظنون أنهم ينفعونهم أو يضرونهم، فقال في ذلك: ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝ ﴾ [المائدة : ٧٦] فكيف يعبدون من لا يملك لهم ضرا ولا نفعا، والله هو السميع العليم. فكان السياق يحتمل أن يقال: وهو الملك المقتدر العزيز الجبار، الذي يضر وينفع. بل قال: ﴿ ... وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝ ﴾ [المائدة : ٧٦].

وقال تعالى أيضا منكرا عليهم، ناعيا عليهم هذا الكلام في قوله: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الزخرف : ٨٠].

بعد ذلك بيّن أمرا تعرف به إلينا الرب سبحانه وتعالى لربوبيته، وتمام نعمته، وكمال عنايته بالخلق، وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾ ﴾ [الدخان: ٣- ٦] فبين إنزال الكتب، وإرسال الرسول، رحمة منه سبحانه وتعالى بالخلق: وذلك لأنه هو السميع العليم.

وأكدها بعد ذلك بمعنى آخر ساقه بكون السميع العليم أيضا في قوله: ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ۚ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ ﴾ [الأنعام: ١١٤ - ١١٥]

ثم قال الله تعالى في الهداية: ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ۖ وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ۚ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [سبأ : ٥٠]. فإن ضل فمن نفسه بعد ذلك، وإن اهتدى فبما يوحي إليه ربه إنه سميع سبحانه وتعالى وقريب.

وفي تلك الهداية آية أخرى جميلة في نفس السياق تدل على الرب سبحانه وتعالى بكونه السميع العليم، وهي آية التزكية، فبعد أن هداهم إذا به سبحانه وتعالى يقول: ﴿ ... وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [النور : ٢١].

ثم بين لهم سبحانه وتعالى مسألة أخرى مهمة بعد الهداية والتزكية، فقد يريد المرء الدنيا، فقال تعالى: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ﴾ [النساء : ١٣٤] سبحانه وتعالى. فثواب الدنيا والآخرة عند الله، فمن أراد ثواب الدنيا فعليه بالآخرة، فيحصل ثواب الدنيا والآخرة.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾ [الأنفال : ٦١] وقد جاءت بعد قوله: ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ...﴾ [الأنفال : ٦٠] فالتوكل يكون بعد الأخذ بالأسباب، فهذا شيء زائد على الأخذ بالأسباب. ففي هذه الآية تعرف إلينا الرب بأننا نتوكل عليه بأنه هو سميع عليم سبحانه وتعالى.

ولأنه سوف يصادفه صلى الله عليه وسلم ما يكون سبب ضيقه وحزنه، فبين الله تعالى له هذا المعنى الجديد؛ حيث قال جل وعلا: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ ﴾ [يونس : ٦٥].

ونهاية الدنيا والمرء والإنسان قال فيها تعالى: ﴿ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَـَٔاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ ﴾ [العنكبوت : ٥] وبعد هذا الأجل الذي يأتي، وتقف الدنيا لله تعالى لتحاسب، قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ﴾ [غافر : ٢٠].

الثاني: تعرف الله تعالى إلينا باسمه السميع بأنه سبحانه وتعالى سميع الدعاء، وأنه سبحانه وتعالى يحفظ المؤمنين بكونه يسمع ويرى.

قال سبحانه وتعالى: ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ [طه: ٤٥ - ٤٦] فنهاهما عن أن يخافا لأنه يسمع ويرى جل وعلا.

وتعرف إلينا كذلك بقوله: ﴿ ... إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الشعراء : ١٥] لما قال: ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الشعراء: ١٤ - ١٥] فعندما خاف القتل كذلك، قال له المولى: لا تخف.

والتالية قصة امرأة عمران: ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ ﴾ [آل عمران : ٣٥]، فتعرف إلينا سبحانه وتعالى بكونه السميع بقبول الأعمال، فهو الذي يقبل الدعاء سبحانه وتعالى بكونه سميعا عليما جل وعلا.

المعنى التالي: ﴿ ... قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ ﴾ [آل عمران : ٣٨] فتعرف إليك الرب سبحانه وتعالى بكونه سميع الدعاء فيما تطلب من الذرية الصالحة، فإذا أردت أن تدعو ربك بأن يهبك الذرية الصالحة تقول: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ ﴾ [آل عمران : ٣٨] فتكون على قدر عظمته وجلاله وكماله سبحانه وتعالى.

نأتي لمعنى آخر: ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴾ [يوسف : ٣٤] والناس عامة والشباب خصوصا في هذه الأيام، يحتاج أن يكفيه ربه سبحانه وتعالى هذا الكيد، وهذه المصائب، وهذه الفتن الموجودة في النساء، فقد بين له الله تبارك وتعالى طريقا يسلكه إلى الله تعالى يحفظه من هذا الكيد، وهو أن يدعو ربه بأنه السميع العليم سبحانه وتعالى، فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن؛ لأنه هو السميع العليم. فكأن الدعاء بهذا المعنى الحسن من أسمائه الحسنى يمكن أن يكون حرزا وحصنا للمرء، وأن يقيس نفسه به، وأن يُنزل هذه الآيات على نفسه، ويعرف منزلته منها.

ثم شكر إبراهيم ربه على استجابة الدعاء فقال: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ [إبراهيم : ٣٩] وهناك آيات كثيرة في هذا السياق.

فالله تعرف إلينا بكونه السميع بكونه يسمع الدعاء، وبكونه يهب ما لا يمكن أن يكون إلا منه، كأن يهب الولد مثلا، وأنه يكفي عباده المؤمنين، وأنه يسمع ويرى بمعنى الحفظ والرعاية والعناية والكلأ لعباده، كل ذلك ليتعلم المرء كيف يدعو ربه بكونه السميع البصير، وهذا هو الدعاء بأسمائه الحسنى، وتوحيد الله تعالى بها.

الثالث: أنه تعرف إلينا سبحانه وتعالى بأنه السميع البصير بالكفاية وبالإعاذة من الشيطان، فهو سبحانه يكفي الخلق بكونه السميع العليم، ويعيذهم من الشيطان بكونه السميع العليم سبحانه وتعالى.

في الاستعاذة من الشيطان، قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف : ٢٠٠] فكان يمكن أن يكون السياق: فاستعذ بالله إنه قوي متين، يعيذك من الشيطان ويحفظك منه، إذا لجأت إليه، لجأت إلى ركن ركين متين، وإنما كان التعليل بكونه سميعا عليما، فيعلل لك طلبك من الله ودعاءك من الله أن يعيذك من الشيطان بكون ربك سبحانه وتعالى سميعا عليما.

والآية الأخرى في فصلت:﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [فصلت : ٣٦] وسنذكر ما قاله ابن القيم الفارق بين المعنيين - بالتعريف وبدون التعريف- لمن يقرأ القرآن؛ ليتدبر هذه المعاني عن الله تعالى. فسميع عليم لها معنى في هذا السياق غير كونه السميع العليم.

وفي آية غافر: ﴿ ... فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [غافر : ٥٦] ودعاء الأنبياء كذلك، قال: ﴿ ... رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٧] في

قصة إبراهيم وإسماعيل في إقامة البيت، عليهما السلام ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) ﴾ [البقرة : ١٢٧].

والمعنى التالي هو الكفاية، لما قال المولى سبحانه وتعالى: ﴿ ... فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧) ﴾ [البقرة : ١٣٧]، فتعرف إلينا بأنه يكفي عباده - والنبي صلى الله عليه وسلم على رأسهم - من شقاق الكفرة وأذاهم وغير ذلك بكونه السميع العليم سبحانه وتعالى. كل ذلك ليتعلم المرء هذه المعاني، فإن أراد المرء الكفاية من الله تعالى، وأن يكفيه فيما وقع به أو حل عليه أو فيما يمكن أن يخاف منه، سواء كان الخوف في الدعوة إلى الله تعالى كما قال: ﴿ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (٤٤) قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (٤٦) ﴾ [طه: ٤٣ - ٤٦] وسوف نشير إلى معنى الآية: لأنه لا يليق بالأنبياء أن يخافوا، فالخوف هنا له معناه الصحيح في حق الأنبياء؛ لأنه قد أعد نفسه على أنه لو قتل في سبيل الله ما كان شيئا كبيرا، بل هو شيء هين.

الرابع: أنه تعرف به إلينا سبحانه وتعالى بأنه خلق السمع للمرء، وجاءت هذه الآيات في سياقات كثيرة، سننظر فيها إن شاء الله تعالى. فهو خلق للخلق السمع والأبصار والأفئدة لعلهم يشكرون، ولا يكونوا كالذين قالوا: سمعنا وهم لا يسمعون.

لذلك أمرهم بما يلائم هذه النعمة، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ ... وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ...﴾ [النحل : ٧٨] فالأولى: ﴿ ... لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) ﴾ [النحل : ٧٨] فلا شك أنه خلق لهم السمع ليشكروا الله تعالى، وخلق لهم البصر كذلك في سياق الآية، وإنما مقصودنا هنا السمع.

ثم بين هذه المعاني في حق المؤمنين، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [المؤمنون : ٧٨] وهذا للأسف، فهو خلقهم لعلهم يشكرون، ومع ذلك فقليلا ما تشكرون.

ومنها: ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [السجدة : ٩] فلو نظرنا إلى هذه الآية على معنى التفسير ومعنى التدبر وحظ النفس في هذا التدبر، وحظه من الله - لا بد وأن يتغير معنى ذلك الحال في عقل المرء وذهنه وقلبه. فعندما تقول: ﴿ ... وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل : ٧٨] فنقيس الآية على معنى التدبر بأن ينزل المرء هذه الآية على نفسه، فيرى أثرها على قلبه وعمله، ويرى موقعها من حيث الائتمار بها أو الانتهاء عنها، ومن حيث تطبيقها أو عدمه، بحيث تكون هذه الآية قياسا للمرء، أي: أن يعرف منزلته من هذه الآية بالضبط.

فننزل هذا الكلام وهذه المعاني على هذه الآية: ﴿ ... وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل : ٧٨] ونقول له: التدبر أن تنزل هذه الآية على قلبك وترى أثرها، وعلى عملك، وانظر موقعك ومرتبتك منها.

خلق لك السمع لعلك تشكر الله تعالى، بأن يتحقق قلبك بهذا الشكر الذي خلق له السمع، وأن يكون عملك متحقق فيه الشكر الذي خلق الله تعالى السمع له، فهل حدث الشكر أو لا؟ وما منزلتك من هذا الشكر الذي حدث؟ وما هي الدرجة التي أخذتها في الشكر؟

والآية التالية قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ [الأعراف : ٢٠٤] فلما خلق لك السمع أمرك بما يلائم هذا السمع؛ حتى تتحقق بهذا الشكر، فمن أجل أن تشكر السمع كما طلب الله تعالى فلا بد وأن يكون السمع الذي أعطاك يمكن أن تشكر الله تعالى به، ومما تشكر الله تعالى به أن تستمع به القرآن كما أمرك؛ لأنه هو

الذي وجهك لهذا المعنى، وهو قوله: ﴿ ... فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ ... ﴾ [الأعراف : ٢٤]، فتعرف منزلتك من هذه الآية أيضا بعد أن تنزلها على قلبك.

ثم قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [السجدة : ٩] فيجب عليك أن تكون من الشاكرين القلائل كما قال تعالى: ﴿ ... وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ : ١٣] وفي هذه الحالة أمامك طريق طويل، تكون به متحققا بهذا المعنى من معاني الشكر.

ومما أمرهم بما يلائم هذا السمع، قوله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ ... ﴾ [التغابن : ١٦] بين لهم الطريق الذي يكون السمع فيه متحققا بمعنى الشكر، وبين لهم كذلك هذا الحال الذي ينبغي أن يسيروا فيه ليحققوا هذا الشكر، فقال: ﴿ ... وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [المائدة : ١٨] ﴿ ... وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الحجرات : ١].

فالملاحظ في هذه الآيات بالذات أن طريق تحقق الشكر في السمع، أو طريق أن يتعبد المرء ربه بكونه السميع هو التقوى ﴿ ... وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [المائدة : ١٨] ﴿ ... وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الحجرات : ١] إلى آخر هذه الآيات، وهي كثيرة جدا.

وبين ذلك سبحانه وتعالى بعده فقال لهذا الحال الحسن: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق : ٣٧] إما أن يكون له قلب حي، وإذا لم يصل لهذه المرتبة فلا بد أن يتحقق بإلقاء السمع مع الشهادة؛ حتى يكون له ذلك الحال من الذكرى الحسنة التي تعمر قلبه، وتأخذ بيده إلى ربه، وتكون سبب فلاحه.

وعلى العكس نعى على من لا يفعل ذلك، ووبخه، فقال تعالى: ﴿ ... وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْئِدَتُهُم مِّن شَىْءٍ ...﴾ [الأحقاف : ٢٦] وهذه أيضا لو تدبرها المرء عرف منها معنى التدبر على نفسه، بمعنى: عرفت أن الله لما جعل لك ذلك وامتن عليك به إذا بك في هذه الحالة ترى نفسك ودرجتك كما قال: ﴿ ... فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ ...﴾ [الأحقاف : ٢٦].

فبالتدبر تعرف كيف استخدمت هذا السمع ليتحقق لك هذا المراد من الله تعالى، وما هي نسبة ذلك السمع الذي ألقيته إلى الله تعالى لتفهم عنه.

الخامس: آداب المؤمنين عند السمع: وهي آداب أمر الله تعالى بها المؤمنين عندما يسمعون عنه شيئا أو منه شيئا أو من رسالته ورسوله شيئا، وهذه الآداب علمهم الله تعالى إياها، ورباهم عليها عندما يسمعون، فعندما يسمعون أي شيء ينظرون فيه فإن كان مما يغضب الله تعالى فقد أدبهم بآداب، وإن كان مما يحب الله تعالى فقد أدبهم بآداب أخر

فينبغي على المؤمنين أن يسمعوا ويطيعوا، وأن يتقوا الله ويسمعوا، إلى آخر معنى السمع في اسمه السميع سبحانه وتعالى .

وأول ما نشير إليه من الآيات قوله تعالى: ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ...﴾ [النور : ١٢]، وقوله تعالى : ﴿ ... إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ...﴾ [النساء : ١٤٠].

ولما خلق لك السمع، وأمرك بالشكر، بين لك أدبا عند السمع المحرم، قال: ﴿ ... أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ... ﴾ [النساء : ١٤٠]. هذا من الأدب عند سماع ما لا يحب الرب في هذه الحالة، أو على هذا النحو ﴿ ... حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ... ﴾ [النساء : ١٤٠] لأنها مما يكفر به ويستهزأ.

والأقل من ذلك قال فيه: ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ [النور : ١٢] فإذا سمعت سمعا مما يحرمه الله تبارك وتعالى على إخوانك أو على المؤمنين فينبغي حسن الظن، ولذلك أدبهم عند السماع بحسن الظن. ليس بحسن الظن فقط بل بأن يقولوا إفك مبين.

وكذلك في قوله: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور : ١٦] فقس نفسك، وتأمل في أحوالك، وأنزل الآية على قلبك متدبرا، وانظر في أثرها؛ لترى درجتك منها، ومرتبتك فيها.

والآية التالية قوله تعالى: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ ...﴾ [آل عمران : ١٩٣] فكانت الإجابة كما قال تعالى: ﴿ ... فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ... ﴾ [آل عمران : ١٩٣] إلى آخر هذه المعاني. فانظر فيها كما بينا حال التدبر؛ لترى ما ينبغي أن تكون عليه في سماعك لهذه الآيات.

والآية التالية: ﴿ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ ...﴾ [الأحقاف: ٣٠ - ٣١] فلما سمعوا الكتاب كان الانطلاق الذي ينبغي أن ينطلقوا إليه هو: ﴿ ... أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ ... ﴾ [الأحقاف : ٣١] فهذا الأدب الذي سمعت منه الكتاب، فالجن لما سمعوا كلام الله تعالى قالوا ذلك القول: ﴿ ... أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ ... ﴾ [الأحقاف : ٣١].

وأَدَبٌ آخر أَدَّبَ به المؤمنين عند سماع الكلام: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ...﴾ [المائدة : ٨٣] قس نفسك عليها فهذه الآية التدبر فيها بأن تنزلها على قلبك وعلى عملك، وأن ترى أثرها على قلبك وعملك، وأن ترى موقعك منها، ومنزلتك منها.

ونهاهم سبحانه وتعالى قائلا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأنفال : ٢٠] وهو نفس المعنى في الآية السابقة؛ لأنه ذكر سيرة المؤمنين وحسن سماعهم فقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ ... ﴾ [الزمر : ١٨] فلما نهاهم بين لهم ما ينبغي عليهم.

والآيات كثيرة في هذه الحال، ومنها قوله سبحانه وتعالى: ﴿ ... إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [يونس : ٦٧] فهؤلاء لا بد وأن يكون لهم تلك الآيات من الله، وأنهم هم المتحققون بها، الفاهمون لها، العاقلون عن الله منها ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [يونس : ٦٧].

ولذلك قال: ﴿ ۞ إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأنعام : ٣٦] فالذين لا يسمعون موتى. وقد بين الله تبارك وتعالى للمؤمنين بحسن السمع حسن الجزاء في الآخرة؛ لذلك قال تعالى في الجنة: ﴿ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبٗا ﴿٣٥﴾ ﴾ [النبأ : ٣٥] كأن اللغو والكذاب الذي في الدنيا من المؤمنين إن قاموا به في الدنيا فإنهم لا يقومون به في الآخرة.

السادس: أن الفلاح في السمع والطاعة، كما قال: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [النور : ٥١] ومن آيات الفلاح بسبب السماع الحسن: ﴿ ... وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ ... ﴾ [النساء : ٤٦] وذكر المؤمنين بقوله: ﴿ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ ... ﴾ [المائدة : ٧].

السابع: صفات غير المؤمنين عند سماع الرسول

وذلك ليفهم المؤمنون هذه الصفات ويتجنبوها، وليروا قيمتهم ومنزلتهم كذلك من الصفات المذمومة: حتى يجاهدوا أنفسهم على التخلص منها، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿ ... قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ... ﴾ [البقرة : ٩٣] وهذه قد نزلت في اليهود، ولكن كما يقال: هذه الآيات التي نزلت في غير المؤمنين تنسحب بذيلها على المؤمنين العصاة في تلك المعاني.

وعليه كان معنى التدبر في قيمتك في السمع والطاعة، ومنزلتك في السمع والعصيان. فعصيانك ليس قولا، وإنما حالا وفعلا، وما يقوم به المرء من مخالفة ما سمع من الله تعالى من أوامر، وما لم يستجب له في طاعة وتقوى.

فالكفرة قالوا: ﴿ ... مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [القصص : ٣٦] وآيات كثيرة في هذا الحال من سماع غير المؤمنين، نذكرها للاتعاظ، وفهم ما نحن فيه من واقع، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [فصلت : ٢٦] ولا حول ولا قوة إلا بالله ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾ [لقمان : ٧] وهي قريبة منها في سورة الجاثية ﴿ يَسْمَعُ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ ﴾ [الجاثية : ٨] وقال تعالى: ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُواْ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ ﴾ [الأعراف : ١٩٨] وقال تعالى: ﴿ ... خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ ۖ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ...﴾ [البقرة : ٩٣] إلى آخر أن قال سبحانه وتعالى: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الفرقان : ٤٤].

وينبغي أن يحذر المرء من عاقبة عدم السمع، فمن لا يسمع ويعصي بحاله، فالله تعالى بين ذلك؛ حيث قال: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا

وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [السجدة : ١٢] وهذه عاقبة عدم السمع.

فمن لم يسمع في الدنيا ولم يعمل الصالحات سوف يود ذلك في الآخرة؛ لذلك قالوا: ﴿ ... لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الملك : ١٠] فالذين لم يكونوا يسمعون في الدنيا إذا بهم في الآخرة كذلك، فعذاب الآخرة لهم على هذا الحال: ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [الأنبياء : ١٠٠] وإن جادل يوم القيامة في أنه لم يعرف ولم يسمع قيل له: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [فصلت : ٢٠].

ثم بين سبحانه وتعالى عاقبة عدم السمع، بأن يختم على سمعهم وأبصارهم، في قوله: ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ ... ﴾ [البقرة : ٧].وأن سمعهم يشهد عليهم، قال سبحانه: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النور : ٢٤] . والآية المخوفة للمؤمنين وغيرهم: ﴿ ... وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [الأعراف : ١٠٠].

الثامن: أن الله تبارك وتعالى لا يغير النعمة على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم بكونه سميعا عليما: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأنفال : ٥٣] فهذا معنى من هذه المعاني التي يظهر فيها السمع له جل وعلا، مع العلم الذي يبين ذلك الحال، وآيات أخرى كثيرة.

تلك هي البنود التي سيقت إلينا؛ لتبين كيف تعرف الرب سبحانه وتعالى إلى المؤمنين بكونه السميع العليم، أو بكونه السميع البصير، أو بكونه السميع القريب. أو أي سياق من هذه الصفات التي وصف الله جل وعلا بها نفسه فيها.

رابعًا: الشرح التفصيلي لبعض آيات السميع في القرآن

ونبدأ كما هي عادتنا أن نشرح بالتفصيل شيئا ما من هذه الآيات لتبين تلك المعاني المقصودة من معرفة الرب بكونه سميعا سبحانه وتعالى، وهي قضيتنا في الأسماء الحسنى؛ حيث إن كل هذه القضية هي أن نرى ما يتعرف الله تعالى به إلينا من أسمائه الحسنى وصفاته العليا في القرآن الكريم، وفي سنة النبي صلى الله عليه وسلم: إذ ذلك - أي القرآن والسنة - هما ما يبين على أدق التبيين أسماء الله تعالى وصفاته، ويبين أحسن التبيين هذه المعاني لله جل وعلا.

والقضية الجديدة التي نتعرض إليها في فهم القرآن الكريم، بعد أن نفهم هذه المعاني تفسيرا ومعرفة للمقاصد والدلالات لهذه الآيات هي قضية التدبر في معاني هذه الآيات، وقد أشرنا لمعنى التدبر، وذكرنا آيات الفاتحة نموذجا للتدبر القرآني[1]، وذكرنا شيئًا من آيات الدعوة إلى الله تعالى: تفسيرا وتدبرا لهذه المعاني، كما قال: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ص : ٢٩]

وذلك لأن التدبر هو السبب في تحصيل الربانية بعد التعلم كما جاء في قول الله تعالى: ﴿ ... كُونُواْ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [آل عمران : ٧٩]، وهذه الربانية بينها النبي صلى الله عليه وسلم نفسه فيما منَّ الله تعالى به في قوله: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [آل عمران : ١٦٤]، فكان تعليمه صلى الله عليه وسلم لهم الكتاب والحكمة الذي يكونون به ربانيين كما ذكرت الآية الأولى على هذا النحو الذي يصل بهم إلى التزكية.

---

(١) برجاء الاطلاع على رسالة (العودة إلى الربانية–نظرات في فاتحة الكتاب) للمؤلف.

فالربانية في هذا المعنى هي سيرة النبي صلى الله عليه وسلم نفسه في تزكية الناس بتلاوة الكتاب، وتعليمه إياهم مع الحكمة، وهي قوله: ﴿ ... كُونُوا رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران : ٧٩] فتعلم الكتاب ودراسته هو معرفة المقاصد والدلالات والغايات من هذه الآيات التي تتلى، ومعرفة ذلك إنما يأخذ بنا إلى هذا الحال من التدبر الذي علم النبي صلى الله عليه وسلم الصحابة به؛ حتى يكون ذلك المعنى هو طريق التزكية.

والنبي صلى الله عليه وسلم لما قال ذلك لم يكن للصحابة فقط، فقد ذكر ذلك المولى مرة أخرى في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ [الجمعة: ١ - ٣]، فهم أيضا يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم؛ حيث يقوم مقامه صلى الله عليه وسلم هؤلاء الربانيون الذين ذكر الله تعالى.

وقضية التدبر منبنية على التعلم والمدارسة، فالله تعالى لما أمرهم بالتدبر في الزمان السابق إنما كان لعلمهم بلغة القرآن النازلة، فما كانوا يحتاجون إلى من يفهمهم معاني هذه الكلمات، فكان التدبر بالنسبة إليهم شيئا يسيرا، أما نحن فقد تغير الحال واضطر الناس إلى معرفة وتعلم وتدارس القرآن ليترتب عليه هذا المعنى وهو التدبر؛ ولذلك أمر الله تعالى المشركين أنفسهم بتدبر القرآن؛ لأنه يعلم أن هؤلاء ما يقال لهم من كلام الله تعالى؛ لذا قال: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد : ٢٤].

حتى الكفرة لهم في ذلك الزمان حظ كبير في تدبر القرآن حتى يكون عونا لهم على الإيمان بالله تعالى، وتوحيد الرب سبحانه وتعالى، واتباع النبي صلى الله عليه وسلم.

الآية الأولى: ليس كمثله شيء وهو السميع البصير

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ ... لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] يقول ابن عاشور[1]: خبر ثالث أو رابع لقوله سبحانه وتعالى في الآية السابقة قبلها: ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى : ٩]، ثم بعدها قال: ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [الشورى : ١٠]، ثم ﴿ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ...﴾ [الشورى : ١١] ثم ﴿ ... جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ...﴾ [الشورى : ١١] ثم قال المولى سبحانه وتعالى: ﴿ ... لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ...﴾، فتكون خبرًا رابعًا في سياق هذه الآيات الكريمة، كما يقول عن الضمير في قوله: ﴿ ... وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى : ٩].

وموقع هذه الجملة ﴿ ... لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ...﴾ كالنتيجة للدليل، فكأنها نتيجة تلك الأدلة السابقة التي بينها الله تعالى، فبين لهم فيما قدم سبحانه وتعالى نعما عظيمة، تبين أنه سبحانه وتعالى لا يماثله شيء، فهو فاطر السماوات والأرض، وجعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا، يذرؤكم فيه، وقبلها آيات كثيرة كما ذكرنا في قوله: ﴿ ... وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ ...﴾ [الشورى : ٥]، فهذا من نعم المولى سبحانه وتعالى عليهم، وقال: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ [الشورى : ٦]، ثم قال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ

(١) انظر: التحرير والتنوير– الطاهر بن عاشور– ج: ٢٥، ص: ٤٥ – الدار التونسية للنشر.

﴿ ... ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ ﴾ [الشورى : ٧] وهي نعمة جديدة، بل هي أعظم النعم.

ثم قال: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ...﴾ [الشورى : ٨] فهذه من نعم الله تعالى كذلك، ثم بين لهم نعمة عظمة أيضًا فقال: ﴿ ... فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ ...﴾ [الشورى : ٩] أي هو الولي والناصر والمعين والمؤيد والمحبوب لأهل الإيمان سبحانه وتعالى، إلى آخر هذه النعم التي سيقت في هذا المساق.

قال: فكانت هذه الجملة، وهي قوله: ﴿ ... لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ ...﴾ نتيجة لتلك الأدلة. فمن الذي يستطيع ذلك، جعل لكم من أنفسكم أزواجا، وكذلك هو سبحانه وتعالى يدخل من يشاء في رحمته، وهو الولي سبحانه وتعالى، وهو الذي أنزل هذا الكتاب رحمة لهم، وأنزل هذا الكتاب لإنجائهم، ولتحقيق سعادتهم في الأولى والآخرة. فقطعا كل ذلك لا يستطيعه أحد إلا الله، ولا يفعله أحد على هذه المعاني التي تدل على الرحمة بخلقه، وتدل على القدرة، وتدل على العلم، وتدل على الإحاطة منه سبحانه وتعالى، وتدل على نفع الناس، وأنه يريد لهم سبحانه وتعالى الخير، ويريد لهم جل وعلا سعادة الدنيا والآخرة؛ لذلك قال: ﴿ ... يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ ﴾ [الشورى : ٨].

تلك الآيات ينبغي أن نقف عندها بعد أن عرفنا النعم، فعندما يقول المولى سبحانه وتعالى في هذه الآيات: والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض، فهل هذا المعنى على سبيل الإخبار فقط؟ بل الله تعالى يخبر بذلك على المعاني التي ينبغي أن يتدبر فيها المؤمنون، فالملائكة يسبحون بحمد ربهم، فأنت عندما تنظر في هذا المعنى فكأن الله تعالى يقول لك: الملائكة يسبحون بحمدي ويستغفرون لكم، فما بالكم أنتم؟! وكأن الخطاب ليس على سبيل الخبر فقط، بل أنتم مطلوب منكم كذلك أن تسبحوا بحمد ربكم سبحانه وتعالى، وفي نفس الوقت أن تقوموا بهذا الاستغفار الذي ينبغي. فهذا معنى من معاني التدبر، الذي دائما ما نتكلم عليه.

فالله تعالى يعلم خائنة الأعين، وكذلك ما تخفيه الصدور؛ ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث: **"ما كان لنبي أن يكون له خائنة الأعين"**[1] وذلك عندما جاء عثمان بن عفان رضي الله عنه بعبد الله بن أبي السرح؛ ليستأمن له من النبي صلى الله عليه وسلم، وكان قد آمن ثم ارتد، فجاء به عثمان بعد الفتح، وكان أخا لعثمان من الرضاعة، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم قد أهدر دمه، وكان من كتاب الوحي، وكان يفتري ويكذب في الكتابة، فيكتب مثلا "سميعا بصيرا" بدلا من "عليما حكيما" وهكذا، فقال له الصحابة : **"هلا أشرت إلي بطرف عينك! فقال له: "ما كان لنبي أن تكون له خائنة عين"** فهو صلى الله عليه وسلم يقول: ليس لنبي أن يفعل ذلك، فالنبي لا يكون أبدا على هذا الحال صلى الله عليه وسلم.

يقول: كان مقتضى الظاهر أن يقول: يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ويقضي بالحق، لكن قال: يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور وتعلم منها أن كل نظراتك تحت سمع الله تعالى وبصره، وكذلك ما تخفيه الصدور.

﴿ وَٱللَّهُ يَقْضِي بِٱلْحَقِّ ۖ ﴾ فكان مقتضى الظاهر أن يأتي بجملة "يقضي بالحق" على جملة "يعلم خائنة الأعين" فيقال: ويقضي بالحق. ولكن عدل عن ذلك لما في الاسم العلم لله تعالى من الإشعار بما يقتضيه المسمى به من صفات الكمال التي من العدل في القضاء.

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٦٨٣) ، والنسائي (٤٠٦٧) ، والحاكم (٤٣٦٠)، وقال : صحيح على شرط مسلم . ووافقه الذهبي، ولفظه: (عن سعد بن أبي وقاص – رضي الله عنه – : قال : «لما كان يومُ فَتْحِ مكةَ أمَّن رسولُ الله –صلى الله عليه وسلم– الناسَ إلا أربعة نَفر ، وامرأتين ، فسماهم ، وابنَ أبي سرح... فذكر الحديث، قال : وأمّا ابنُ أبي سَرْح ، فإنه اخْتبأ عند عثمان ، فلما دعا رسولُ الله –صلى الله عليه وسلم– الناس إلى البَيْعَةِ ، جاء به حتى أوْقَفَه على النبيِّ –صلى الله عليه وسلم– ، فقال : يا نبيَّ الله ، بَايِعْ عبد الله ، فرفع رأسَه ، فنظر إليه ثلاثا ، كلُّ ذلك يأبى ، فبايَعه بعدَ ثلاث، ثم أقبلَ على أصحابه ، فقال : ما كان فيكم رجل رشيد ، يقومُ إلى هذا حيث رآني كَفَفْتُ يدي عن بيعته فيَقْتله ، قالوا : ما ندري يا رسول الله ما في نفسكَ ، ألا أوْمأت إلينا بعينك ؟ قال : إنَّهُ لا ينبغي لنبيٍّ أن تكون له خائِنَةُ الأعين»).

فقال: والله يقضي بالحق؛ ليشعر بأن الله تعالى مسمى بكل هذه الصفات من صفات الكمال التي منها القضاء بالعدل سبحانه وتعالى؛ ليؤكد هذا المعنى ويستشعره أكثر مما لو قال: ويقضي بالحق.

وقد يقول القائل: كان ينبغي أن يكون السياق: والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو القوي العزيز؛ وذلك لأن موقف القضاء يوم القيامة بالقوة والقدرة والعظمة والكبرياء والعزة. ونحن نتكلم عن هذه المعاني حتى تكون وسيلة من وسائل التدبر في فهم كلام الله تعالى.

والآية الثانية التي على هذا المعنى: قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ...﴾ [الرعد : ٤١] فالسياق يقتضي أن يقال: ونحكم لا معقب لحكمنا، إنما قال تعالى: ﴿ ... وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ...﴾ [الرعد : ٤١] وذلك لسببين: الإظهار في مقام الإضمار، والالتفات، فالتفت من الغيبة إلى المخاطبة.

فكذلك في هذه الآية: ﴿ ... وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ...﴾ [الرعد : ٤١] وذلك لإشعار هذا المعنى، وهو أن المسمى به متصف بهذه الصفات من صفات الكمال، ومنها الحكم، فهو سبحانه وتعالى لا معقب لحكمه.

وعندما تقرأ الإضمار فلا يمكن أن يساوي الإظهار في معنى البلاغة، ولا معنى فهم القرآن، ولا معنى ما تعرض على الأذن من هذه الكلمات. فلو قلت: ونقضي بالحق لا تأتي أبدا مثل قوله: ﴿ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ...﴾ [غافر: ٢٠]. والمعنى الثاني من إظهار اللفظ هنا: ليحصل تقوي المعنى من تقديم المسند إليه على المسند، فقدم الفاعل على الفعل لتقوية المعنى.

والآيات تقول: ﴿ ... مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ ﴾ [غافر: ١٨] وذلك لأن الظالمين الذين يتكلمون عن شفعاء لهم، هؤلاء الشفعاء لا يعلمون خائنة الأعين ولا ما تخفي الصدور، وبذلك استكمل الكلام قائلا: ﴿ ... وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ...﴾ [غافر: ٢٠] ولكن الله تعالى يقضي بالحق.

سبهم، في مكرهم، في قولهم، في جمعهم، في سرهم، فيما بينهم وبين الناس، فيما بينهم وبين أنفسهم، بمختلف اللغات، وبمختلف الحاجات، وبمختلف الطلبات، كل ذلك الله تعالى يسمعه، ولا يغلطه صوت عن صوت، ولا دعاء عن دعاء، كما ذكرنا في موقف الحج قبل ذلك.

فهو سبحانه وتعالى يسمع هذه المخلوقات، على مختلف هذه الحالات، على مختلف اللغات، إلى آخره، من يوم أن خلقهم. ومن ثم كان هذا المعنى لله: ﴿... لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ...﴾ [الشورى : ١١] سبحانه وتعالى.

وكذلك صفة البصر: من الذي يبصر من في قاع البحر، ومن فوق السماء، وما كان، وما يكون؟ لا يستطيع أحد. فإن رأى شيئا كيف يرى بقية الخلق، وإن رأى الدنيا كيف يرى الملكوت الأعلى، وإن رأى شيئا لا يرى غيره. كل ذلك لم يوجد ولن يوجد إلا لله تعالى ﴿... لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١].

فلو قلت: قويا أو ملكا أو غير ذلك من الصفات فلا تعبر هذا التعبير في هذا السياق من عدم المثلية لله تعالى، من عدم التشبيه لله تعالى في أي شيء، جل وعلا في ذاته، في صفاته، في أفعاله، جل وعلا.

ويسوقنا هذا المعنى لأجل أن يعلم المرء حظه من هذا الكلام: الحظ الأول من سمع الله له أن الله تعالى يسمعه؛ فلا يسمع منه ما يكره. فهذا المعنى يكون تربية للمؤمنين من معاني الأسماء الحسنى، فهو تعالى يسمعك، إذن أنت ترى نفسك ومرتبتك فيما يسمع الله تعالى منك.

وانظر إلى ما يسمع المولى منك سبحانه وتعالى، يسمع منك جل وعلا ما يكره أو ما يحب، أو ما يكره وما يحب، فما منزلتك إذن فيما يسمعه الله تعالى منك. وهذا يربي المرء على هذا المعنى من المراقبة التي بينا، وهي أنك قد علمت منزلتك مما يسمعه الله تعالى منك، وحظك أن يسمع منك سبحانه وتعالى ما يحب، وهو ما يكون في ميزانك عند الله تعالى، وإلا أضعت عمرك وخسرت أخرتك. فهذا هو الحظ الأول.

والحظ الثاني: أنك نفسك لا تسمع إلا ما يحب الرب جل وعلا، فنزهت سمعك كما نزهت لسانك أن سمع الرب منك كذا وكذا إلا ما يحب، كذلك نزهت سمعك عن أن تسمع إلا

ما يحب؛ لذلك قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٤] أي: جعل مما يحب الرب سبحانه وتعالى أن تأخذك حظك من الاستماع له هو القرآن الكريم.

ونزيد على هذين الحظين اللذين ذكرناهما ما أشرنا إليه في آداب السمع التي أدب الله تعالى بها المؤمنين، فهو سبحانه لم يتركهم كذلك، بل ذكر لهم حظوظا في السمع، أنه كما قال المولى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٠]، كأنه يقول: إذا سمعت شيئا من الله تعالى ومن رسوله لا تتولى عنه إلا وقد أجبت له، إلا وقد أطعته ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [الأنفال : ٢١] وتلك حال عموم أهل الإيمان، ... إذ هم سمعوا ولم يستجيبوا، أو سمعوا ولم يطيعوا.

فنحن الذين قالوا سمعنا بالفعل، وهم لا يسمعون، وهذه حالة عموم المؤمنين –نحن جميعا- أنه يسمع ما يصلحه، وما يكون في ميزانه، وما يكون سببا لقربه من الله تعالى، وإذا به يسمع سماع الشيطان، ويقدم سماعه على سماع ما يحب الرب سبحانه وتعالى، ويكون حظه من هذا أنه قال: ﴿ ... سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [الأنفال : ٢١].

وانظر إلى معنى آخر يقول فيها المولى سبحانه وتعالى ذاكرا أدب السماع الذي ينبغي أن يسمعه المرء: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ ...﴾ [المائدة : ٨٣] وهذه تبين مقياس هذا السماع الذي سمعته، ونرى حالنا الذي لا يخفى على أحد في سماع ما أنزل إلى الرسول، وفي فيض الدمع من العيون، والبكاء، والخوف، والوجل، بمقياس قلوبنا القاسية المتحجرة التي لا نرى فيها هذا الحال الذي مدح الله تعالى أصحابه، بل وأمر المؤمنين بذلك الحال الذي ذكره ﴿ ... وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ...﴾ [الأنفال : ٢]، وقال أيضا: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ...﴾ [الزمر : ١٨] فهو لا يستمع القول فقط، وإنما هنا يستمع بمعنى الإنصات باهتمام، ليس بمعنى سمع السماع العارض، ولكن استمع يعني أنصت مهتما لأن يسمع، فجلس متعمدا السماع، ولو تدبرنا هذه الآية لتغيرت كل

الأحوال، فلو سمعوا القول فاتبعوا أحسنه، فسترى هذا الحسن في أقوالهم وأفعالهم وما يسمعه المولى منهم.

الآية الثانية : رحمة من ربك إنه هو السميع العليم

قوله تعالى: ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦ ﴾ [الدخان : ٦] ولا بد من قراءة السياق حتى يكتمل المعنى. يقول سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ فِيهَا ۝٣ يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ أَمْرًا ۝٤ مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦ ﴾ [الدخان: ٣ - ٦] وملخص هذه الآيات السابقة أن الله جل وعلا أنزل هذا الكتاب المبين في ليلة مباركة، مع الاختلاف في تحديدها، على اتفاق في أنها ليلة القدر، وكل ذلك رحمة من ربك.

قوله تعالى:﴿ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ [الدخان: ٥]، أي: مرسلين للرسل، وإن أعظم الإرسال هو إرسال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأعظم الإنزال هو إنزال هذا القرآن الكريم المبين، كما بين الله تعالى.

ولماذا هي ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [الدخان : ٦]: علماء النحو يقولون: هو مفعول لأجله، يقول[1]: أنزلنا هذا الكتاب من أجل رحمة ربك، أي: كنا مرسلين لأجل رحمتنا بالعباد المرسل إليهم؛ لأن الإرسال بالإنذار رحمة بالناس: لينجوا من مهاوي العذاب والهلكة؛ فعندما ينذرهم ويسمعون هذا الإنذار إنما يكون سماعهم لهذا الإنذار سببا لنجاتهم. لذلك يقول: وفي ذلك حتى يكتسبوا الثواب الذي يكون سبب نجاتهم. قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧ ﴾ [الأنبياء : ١٧].

(١) انظر: التحرير والتنوير– الطاهر بن عاشور– ج: ٢٥، ص: ٢٨١ – الدار التونسية للنشر.

وهناك تفسير آخر للآية: فيجوز أن تكون هذه الرحمة حالا من الضمير المنصوب في أنزلناه، أي: أنزلناه في حالة الرحمة. والمعنى يحتمل الأمرين طالما أن السياق يقبل الأمرين من غير تعسف، وهذا من إعجاز القرآن، أن يكون اللفظ القليل محتملا لتلك المعاني، وهذا معنى من معاني إعجاز القرآن الكريم.

وقوله: ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ...﴾ فيه إظهار في مقام الإضمار، أي: أظهر ﴿ ... مِّن رَّبِّكَ ...﴾ وكان السياق يحتمل أن يكون: رحمة منا. ولكنه قال: ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ...﴾ لأن تغير الأسلوب لمعنى جديد إضافته للنبي صلى الله عليه وسلم؛ لذلك يقول فيه: فائدة إظهار لفظ الرب في مقام الإضمار هو الإشعار بأن معنى الربوبية يستدعي الرحمة، ومن ثم يفهم المرء هذا المعنى من معاني الربوبية.

يقول: ثم إضافة رب إلى النبي صلى الله عليه وسلم؛ ليبين التنويه بشأن النبي صلى الله عليه وسلم ورفعته وعظيم قدره . وبشأن الكتاب الذي جاء به. فلما عظم النبي صلى الله عليه وسلم بإضافة الرب إليه في اللفظ؛ ليدل على عظم النبي، وبالتالي على عظم الكتاب الذي جاء به صلى الله عليه وسلم.

وليتوصل إلى حظ له في خلال هذه التشريعات، بأن ذلك كله من ربه، فكل شيء من النبي صلى الله عليه وسلم في تشريعاته وما بلغه عنه إنما هو من الله، وهذا المعنى الجميل الجديد تسوقه لنا الآية الشريفة.

وأن ذلك بواسطته المشرفة صلى الله عليه وسلم، فإنه إذا كان الإرسال رحمة كان الرسول صلى الله عليه وسلم رحمة، وهذا المعنى أكدته الآية ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء : ١٧].

ويفهم المعنى الثالث من هذا السياق: وهو أن رب الرسول صلى الله عليه وسلم رب الناس كلهم، وأنه هؤلاء المشركين الذين يدعوهم لا أرباب ولا شيء، بل هي أصنامهم التي يشركون بها الرب، بل هو ربهم سبحانه وتعالى، ورب الرسول، ورب كل الناس جل وعلا؛ إذ لا يكون الرب رب بعض الناس دون بعض، فأغنى أن يقول: رحمة من ربك وربهم.

وهذا بدليل قوله سبحانه وتعالى: ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الشعراء : ٢٦] وهو مقام آخر جاء السياق فيه في مخاطبة فرعون وموسى عليه السلام؛ لأنه لما قال: ﴿ ... أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات : ٢٤] قال له موسى عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الشعراء : ٢٦] فذكر أنه رب آبائهم الأولين؛ حتى يفحم فرعون الذي يقول: أنا ربكم الأعلى، فكأنه أعجزه بالسؤال: من رب آبائهم الأولين؟!

يقول: وجملة: ﴿ ... إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ تعليل لكل ما سبق من الآيات أنه هو السميع العليم. تعليل لجملة: ﴿ ... إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ...﴾ [الدخان: ٥ - ٦] أي: كنا مرسلين رحمة بالناس؛ لأنه هو سبحانه وتعالى سميع، سمع كل ذلك منهم، فسمع منهم ما يكون سبب شركهم وهلاكهم، فأرسل ذلك رحمة لما سمعه مما يكون سببا لهلاكهم ورداهم وتعذيبهم. لما سمع ذلك كله منهم سبحانه وتعالى أرسل إليهم تلك الرحمة، وذلك الكتاب، مع هذا الرسول صلى الله عليه وسلم.

لذلك يقول: ﴿ ... إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ...﴾ [الدخان: ٥ - ٦] رحمة بالناس هؤلاء: لأن الله تعالى سمع عبادة المشركين للأصنام، وسمع إغواء أئمة الكفر للأمم، وسمع ضجيج الناس من الظلم، قويهم وضعيفهم، وسمع ما سوى ذلك من الأقوال التي كانت تصعد إليه سبحانه وتعالى بما يؤذي الناس، ويؤذي الرب، وبما يكون سبب هلاك الأرض، وهلاك الدنيا وما عليها، إنما هو سبب إيذاء الرب سبحانه وتعالى من الشرك والظلم وترك عبادة الله تعالى؛ لذلك أرسل الرسل لتقويمهم.

هذه الجزئية الأولى التي تختص بالسمع، وأما الجزئية التي تختص بالعلم ﴿... إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ فقد علم سبحانه وتعالى نوايا الناس، وأفعالهم، وعلم إفسادهم، وعلم سوء اعتقاداتهم، وسوء ما ينتوون من أعمال وأقوال، وسوء ما يفعلون، وما يرتبون، فأحاط بذلك كله علما، فأرسل الرسل بالشرائع لكف الناس عن الفساد، وإصلاح العقائد والأعمال،

وتعريف الناس بالرب جل وعلا، وطريقه وسبيله؛ ليكون سبب هدايتهم، وسبب سعادتهم في الأولى والآخرة.

فإلى النوع الأول وهو السمع أشار بقوله السميع، وإلى الثاني من علمه بالنوايا والأفعال والإفساد والعقائد وغير ذلك أشار بقوله العليم سبحانه وتعالى، الذي يعلم ما يخفى وما يسر، والنوايا، وما يقصد، وما يعزم، وما يكون بعد ذلك من أفعال تقع بين الناس خرابا لا صلاحا، وفسادا لا قياما بالمصالح. وقدم السميع؛ لأن السمع هو المقدم؛ وذلك لأن أصل الكفر هو دعاء المشركين لأصنامهم.

وقد أشار الشيخ إلى معنى آخر: يقول: واعلم أن السميع والعليم تعليلان لجملة: ﴿ ... إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝ ﴾ [الدخان: ٥] بطريق الكناية الرمزية؛ لأن علة الإرسال في الحقيقة هي إرادة الصلاح، ورحمة الخلق، وأما العلم فهو الصفة التي تجري الإرادة على وفقها. فالتعليل بصفة العلم والسمع بناء على مقدمة أخرى، وهي أن الله تعالى حكيم لا يحب الفساد، فإذا كان لا يحب ذلك سبحانه وتعالى، وكان سميعا عليما بتصرفات الناس كان علمه وسمعه وحكمته يقتضي أن يرسل للناس رسلا.

بعد أن تكلمنا عن التعلم والتدارس في هذه الآية، نتحول للتدبر في معاني الآية. والتدبر أن ينظر المرء في دبر الشيء وعاقبته، فينظر في عاقبة هذه الآية عليه، وبوقع الآية على نفسه، ويرى أثرها على قلبه وعمله. بمعنى: كيف يتزل هذه الآية على قلبه فيعرف متزلته منها، فحينئذ إذا علم مرتبته علم داءه وفي نفس الوقت علم شفاءه، فأخذ من هذه الآية ما يكون سبب شفائه بدوائها هي ووصفتها التي يصح بها عمله وقلبه.

فالله تعالى يقول: ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ... ﴾ [الدخان : ٦] أي أنه سبحانه وتعالى أرسل الرسل وأنزل الكتاب؛ رحمة من ربك. وقلنا: الآية فيها معنيان: أن الكتاب هو الرحمة من ربك، أو أن المرسل هو الموسوم بالرحمة فهو رحمة صلى الله عليه وسلم ، وتلك الآية على المعنيين في قوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝ ﴾ [الأنبياء : ١٧].

والتدبر في هذه الآية أن تنزلها على قلب، وتعرف منزلتك منها، فالله تعالى أنزل القرآن وأرسل الرسول رحمة، فمعناها أن ترى منزلتك من هذه الرحمة التي أرسلها الله إليك متمثلة في الرسول والقرآن. بمعنى: ما مرتبتك من هذه الرحمة التي أرسلها إليك الرب سبحانه وتعالى؟ أي: ما درجتك التي أخذتها من الرحمة؟

والمعنى التالي: هذه الرحمة قد جاءتك أيها المسكين وقصرت في تحصيلها، ودفعتها ولم تقبلها، أو قبلت منها شيئا لا تكون بسببه مرحوما إلى الدرجة التي تودها في الدنيا ولا في الآخرة. فبذلك يعرف الإنسان داءه، ودواؤه في أن يعرف كيف يحصل هذه الرحمة الناقصة التي لم يحصلها.

فالرحمة أتت من الرسول صلى الله عليه وسلم، وكذلك من القرآن الذي أنزله، فبذلك يكون تحصيل الرحمة من كلام الله تعالى، ومن اتباع النبي صلى الله عليه وسلم، وعلى قدر اتباعك للنبي صلى الله عليه وسلم، ومحبتك له، والتزام هديه ظاهرا وباطنا، والقيام بذلك في العسر واليسر والمنشط والمكره، والدعوة إليه، بقدر ما تحصل من رحمة.

فبذلك تعرف أن قدر تقصيرك في هذا المعنى هو قدر نقصان تلك الرحمة، وبقدر ما تستعيد تلك الروح وتجتهد في أن تحصل تلك الدرجة من اتباع النبي صلى الله عليه وسلم ظاهرا وباطنا محبة واتباعا وهديا ودعوة إلى آخره بقدر ما تزداد رحمتك من تلك الرحمة التي أرسل الله تعالى.

وكذلك الحال في القرآن الكريم، فقد ذكر الله تعالى أن القرآن هدى ورحمة لقوم يؤمنون، إلى آخر الآيات التي ذكرت أن القرآن رحمة الله تعالى بهؤلاء جميعا. وبقدر أخذك من القرآن تلاوة وحفظا وتدبرا وعملا ودعوة وتعلما وتعليما وحكما وتحاكما وشفاء واستشفاء بكل ذلك، بقدر ما تحصل من رحمة القرآن الكريم. وبذلك تعرف درجتك التي بها قدَّرتك داءك، وعرفت موطن الداء، وعرفت سكة الشفاء.

يعزم المرء حينئذ على أن يأخذ أقصى ما يتمكن من كلام الله تعالى على هذه المعاني كلها، وأقصى ما يتمكن من محبة النبي صلى الله عليه وسلم، واتباعه ظاهرا وباطنا، والدعوة إليه، وكل ما يتعلق بسنته صلى الله عليه وسلم وهديه وجهاده، وأمره بالمعروف، ونهيه عن

المنكر، وأخلاقه، وسيرته في الظاهر والباطن، وعباداته، وسلوكه، وأخلاقه، وكل ما يتعلق بهذه الأمور من أحواله المشرفة صلى الله عليه وسلم.

الآية الثالثة: والله يقضي بالحق... إن الله هو السميع البصير

قوله وتعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ﴾ [غافر: ٢٠]، فتعرف الله تعالى إلينا في هذه الآية بأنه يقضي بالحق يوم القيامة؛ لأنه هو السميع البصير.

وهذه الآية قد جاءت بعد قوله سبحانه وتعالى:﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ ﴾ [غافر: ١٩] وقبلها قوله جل وعلا: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ﴾ [غافر: ١٨ - ٢٠].

خائنة العين: هي اختلاس النظر إلى المنظور إليه بما يسوءه؛ فلذلك سميت خائنة. فأنت تكلم من أمامك وتختلس نظرة إلى من بجوارك كأنه تغمز له بعينك بما يسوء الذي تتكلم معه. وسميت خائنة؛ لأن الحديث بينك وبين غيرك إنما هو أمانة، لا ينبغي أن يكون فيه خيانة له وأنت تكلمه، فإذا اختلست هذه النظرة إلى من بجوارك لتبين له أنه لا يفهم فهذه تسمى خائنة. وقد أضيفت إلى الأعين من باب إضافة الشيء إلى آلته، فكان السياق يحتمل أن يقول: يعلم نظرة الأعين الخائنة، فهي كما تقول: ضرب السيف.

فيجب أن يرى الإنسان موقع الآية التي يقرؤها من نفسه، وكذلك أثرها على قلبه وعمله، ثم يرى الأثر على القلب والعمل في التطبيق من العدم، فيعرف حينئذ مرتبته منها، ومنزلته فيها، ويعرف داءه ودواءه.

فإن قلنا: يسبح بحمد ربه، فهذه آية، فينزلها على قلبه، ويتدبر هذا المعنى؛ ليرى أثر التدبر على قلبه وعمله، هل عنده تسبيح وتنزيه لله تعالى، سواء كان في ذكره أو في اعتقاده لله تعالى بتنزيه الرب جل وعلا، أو في التسبيح بمعنى الصلاة والذكر لله تعالى، وأثر هذا التسبيح على القلب، ومنزلته هو من تسبيح الرب؛ لأنهم يسبحون بحمد ربهم لا يفترون ولا يسأمون.

عرف حينئذ مرتبته هو فيقضي في تسبيح الرب سبحانه وتعالى في يومه وليلته ٢٠% أو ٣٠% أو ٥٠%، فصارت تلك منزلته، وعرف بذلك داءه، وعرف دواءه.

وكذلك الاستغفار وبقية المعاني في هذه الآيات، يأخذ حينئذ من الآية دواءه الذي يداوي به قلبه: ليستغفر به ربه، ويسبحه به، ويزيد هذه المعاني، ويصلح بها قلبه وعمله. فلا يقرأ آية إلا على هذا الحال الذي نقول، وأن يعلم هذا المعنى من معاني التدبر لتلك الآيات. ونحن نشير إلى هذا المعنى: لأنه أصل الذي لا بد ألا يتخلى عنه المؤمنون في قراءة القرآن: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ص : ٢٩].

فأنت مطالب بالتدبر في تلك النعم، والتدبر في النعم يعني أن ينظر المرء في نعم الله تعالى، ويرى أثر هذه النعم على قلبه وعمله، ويرى شكر هذه النعم، ومدى شكره لها؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ ... وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ...﴾ [إبراهيم : ٣٤]، فعلمت مدى ما أنت فيه من الظلم ومن الجحود لنعمة الله تعالى بمقياس شكرك لها، بأن تتحدث بها، بأن تذكرها بلسانك وتعتقدها بقلبك، وأن تصرفها في مرضاة الله تعالى. فهذا معنى الشكر، وحينئذ تستطيع أن تقيس مدى شكرك لله تعالى، خاصة وأن الشكور قليل، كما ذكر الله تعالى: ﴿... وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾ [سبأ : ١٣].

ونرجع إلى الآية الكريمة: ﴿ ... لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۭ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ فبعد أن ذكر الخلق سبحانه وتعالى: ﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۭ ۖ ...﴾ [الشورى : ١١] فكان يمكن أن يأتي في السياق معنى آخر يناسب الخلق والنعم -حسب فهمنا- من القدرة أو القوة أو العظمة، أو غير ذلك مما يمكن أن يكون مع هذا السياق.

والنظر القاصر في هذه الآية: عندما يسوق المولى سبحانه وتعالى هذه المعاني من معاني أنه هو الخالق، وأنه هو الرازق، وأنه يذرؤكم فيه، وأنه هو الذي نزل الكتاب، وأن الملائكة يستغفرون - لا يشك قطعًا أن الله تعالى هو الخالق، وأنه خلق بعلمه، وأن له قدرة سبحانه وتعالى يخلق بها، وقوة يستطيع بها أن يتحكم في ذلك كله. فهذه صارت كأنها لا خلاف فيها، ثم يأتي بعد ذلك ليقول: ﴿ ... وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى : ١١]، لماذا؟

فالإنسان يمكن أن ينسب القوة والعظمة والملك والقدرة للبشر، بل الله تعالى نسب ذلك لهم، ففرعون قال: ﴿ ... وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [الأعراف : ١٢٧] ووصف الله عرش بلقيس ملكة سبأ قائلا: ﴿ ... وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [النمل : ٢٣] وقال: ﴿ ... إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا...﴾ [النمل : ٣٤]، وقال في الملوك: ﴿ ... وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ ﴾ [النساء : ٥٤]. فيمكن أن يدعي أحد أن له ملكا، وأن له عظمة، وأن له كبرياء تكبر به على الخلق، وأن له مِلكا كذلك، وقدرة وقوة وبطش، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [الشعراء : ١٣٠].

كل ذلك يمكن أن يدعيه الناس، ويدعيه أحد لهم، إن امتلكوا أسبابه في أنفسهم، أو أسبابه في غير أنفسهم، بأن يكون قويا في نفسه، أو عالما، أو يكون ملكا، أو يكون عظيما. كل ذلك يمكن أن يدعيه بما له من أسباب في ذاته، أو بما يملك من أسباب في الخارج.

إلا تلك الصفتين: السمع والبصر، لا يستطيع ولم ولن يكون ذلك إلا لله وحده سبحانه وتعالى، فالله تعالى -كما بينا- يسمع هذا الخلق كله، في دعائهم، في تضرعهم، في كلامهم، في

يقول: وجملة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ مقررة لجملة ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ۝ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ ... وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ...﴾ [غافر: ٢٠].

فجملة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ تقرّر مضمون كل الكلمات التي قبلها، وهذا هو معنى السميع البصير في هذا السياق، والذي لا يصلح له أي وصف آخر غير هذا الوصف. فهذا أنسب سياق في الإعجاز القرآني والبلاغي لهذا المعنى الذي ينبغي أن يفهم.

فلأنه هو السميع البصير، فهو سبحانه وتعالى يراهم ويطلع عليهم؛ لذلك يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. واسم البصير هنا أنسب من اسم العليم. فالسميع البصير مقرر لهذا المعنى الأول، وكذلك مقررة لقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ...﴾ [غافر: ٢٠]. فالقضاء إنما يقضي فيه بما يسمع ويرى، لا بما يعلم ولا بقوته.

يقول: والله يقضي بالحق؛ لأن القضاء يستلزم السمع والبص، رأي: أن كل أطراف القضية من مدع ومدعى عليه وشهود، كل هؤلاء تحت سمعه وبصره سبحانه وتعالى؛ لذلك يستطيع أن يقضي حينئذ بالحق. فأي اسم آخر من أسمائه سبحانه وتعالى لا يقوم مقام السمع والبصر في القضاء مطلقا. ولذلك فلما قضى سبحانه وتعالى بسمعه وبصره قضى بالحق، فسمعه وبصره محيطان الإحاطة التي ذكرنا في قوله تعالى: ﴿... لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝ ﴾ [الشورى: ١١]، فعندما نفى عن نفسه المثلية سبحانه وتعالى أثبت لنفسه أنه هو السميع البصير لا أي صفة أخرى من صفاته سبحانه وتعالى.

فقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ مقررة للمعاني السابقة عليها، فهو سبحانه وتعالى يقضي بالحق لكونه هو السميع الذي قد أحاط سمعه بكل شيء، والبصير الذي قد أحاط بصره بكل شيء، وبالتالي لا يقضي بالحق إلا هو.

وكذلك كل سميع وبصير لا يستطيع أن يقضي بالحق، فكل سميع وبصير يريد أن يقضي لا بد وأن يقضي بما يسمع وبما يرى أمامه عندما يتحاكم إليه المتحاكمون. أما الله تعالى فهو يقضي بالحق؛ لأنه يسمعه البشر منذ أن خلقهم إلى أبد الأبدين في الجنة والنار، وكذلك يعلمهم ويبصرهم، لا ينتظر أن يأتي إليه أحد، أو أن يرفع إليه أحد دعوى، أو غير ذلك، بل كل شيء تحت سمعه وبصره، ولذلك يقضي بما يكون حقا لا تردد ولا شية فيه.

ونذكر كلمة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ ... إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ﴾ [غافر: ٢٠] فأهل اللغة يقولون: "هو" هنا تسمى ضمير الفصل، وضمير الفصل معناه: قصر السمع والبصر على الله تعالى، فالله هو فقط السميع البصير، لا ما يدعون من آلهتهم، ولا أي أحد آخر.

فتوسط ضمير الفصل مفيد للقصر، فلو قلت: "إن الله سميع بصير" لا تفيد هذا المعنى الذي أفاده قوله تعالى: ﴿ ... إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ﴾ وفي ذلك تعريض بآلهتهم أنهم لا يسمعون ولا يبصرون ﴿ ... وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ... ﴾ وذلك لأنهم لا يسمعون ولا يبصرون، ولكن الله تعالى هو السميع البصير. وكذلك هو سبحانه وتعالى يقضي بالحق؛ لأن العالم بكل شيء سبحانه وتعالى تتعلق حكمته به، ولا تخطئ أحكامه في الباطل.

أما معاني التدبر في هذه الآية:

فعندما علمت أن الله هو السميع في علمه بخائنة الأعين وما تخفي الصدور، وفي سمعه لذلك وبصره به، وفي قضائه بالحق سبحانه وتعالى، فالتدبر يقتضي منك أن تنزل هذه الآية على قلبك وعملك؛ لتعرف منزلتك منها.

فهو سبحانه وتعالى يسمعك في خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وهذا الحال قد علَّمك المراقبة لما أخفيت في صدرك، وما خنت بنظرك، وما تكلمت بلسانك، وأنه سبحانه وتعالى يسمع كل ذلك منك. وقد علمت أن هذه الآية تقدر قيمتك عند الله تعالى في هذا المعنى، وما مرتبتك مما يسمعه ربك منك في هذه الأحوال، وما قيمة ما يسمعه منك مما يكون في محل

الرضا عنده سبحانه وتعالى، ومما يكون من النوايا السيئة وغيرها في كلامك وحديثك وعلاقاتك ، أو في قولك وتلفظك مما يقع من الله تعالى موقع السخط والغضب.

قد علمت إذن ما تتفوه وتنوي، وكل ذلك مما يكون سبب الرضا وسبب الغضب، وعلمت منزلتك فيها، فعلمت دواءك وعلمت داءك، واستشفيت بالمراقبة، بالسميع البصير سبحانه وتعالى أن يراك أو أن يطلع على نواياك أو أن يسمع منك ما يكون سبب ذلك، وبدأت تصحح نفسك على هذا الحال وتلك المراقبة.

فهذه الآية من الآيات المخيفة للمرء، فيجب عليه ألا يأتي شيئا إلا وهو متعرض لأن يقضي الله تعالى فيه قضاء لا هزل فيه، مما يستوجب خوف المرء ومراقبته لله، وضبطه لأخلاقه ولسانه ونظره ونواياه.

الآية الرابعة : فاستعذ بالله انه هو السميع العليم

نشير الآن إلي الآيات المتعلقة بنزغ الشيطان: وهي آيات ثلاث في القرآن لا رابع لها كما يقول الإمام ابن كثير، في قوله: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [الأعراف : ٢٠٠] والثانية في نفس المعنى في الاستعاذة من الشيطان ولكن في سياق آخر، فإذا به يقول: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾ [فصلت : ٣٦] والآية الثالثة في سورة المؤمنون في قوله: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ وَأَعُوذُ ﴿٩٧﴾ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ ﴾ [المؤمنون: ٩٦ - ٩٧] في نفس السياق وهو قوله: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [المؤمنون : ٩٦].

وقد ذكر ابن كثير[1] ذلك : بمعنى إن شيطان الإنس يمكن أن تكلمه أو أن تهديه شيئا، أو أن تعطيه شيئا فينصرف عنك. أما شيطان الجن فلا تستطيع أن تصرفه، وإنما الذي يصرفه عنك هو الرب سبحانه وتعالى الذي خلقه، والذي يتمكن من ذلك، ومن ثم وجهك الله تبارك وتعالى عندما ينزغك نزغ الشيطان للهوى، والمعصية، والنظر المحرم، والكلام المحرم، والكسل، والنوم، والتكاسل عن الطاعات، وغير ذلك من الوقوع في المنكرات الظاهرة والباطنة، فإنه لا يعيذك من ذلك ولا يجيرك ولا يمنعك ولا يحفظك إلا الله سبحانه وتعالى، ومن ثم أمرك جل وعلا حينئذ بالاستعاذة، أي اللجوء إلى الله من الشيطان؛ حتى يجيرك هو جل وعلا بقدرته وقوته، بل بكونه السميع العليم سبحانه وتعالى.

وقوله: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف : ٢٠٠] وهذا الأمر مراد به رسول الله صلى الله عليه وسلم ابتداء، وهو شامل لأمته.

فعندما يأمره المولى سبحانه وتعالى بمثل ذلك، أو يقول له: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ ...﴾ [الأحزاب : ١] فهذه السياقات التي تأتي بمثل هذه الآيات الكريمات إنما المقصود بها الأمة في شخص النبي صلى الله عليه وسلم. فهو أتقى الأتقياء لله تعالى، وهو في هذه الآية: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف : ٢٠٠] فهذا الأمر للأمة، وإن كان متجها إلى النبي صلى الله عليه وسلم؛ وذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم -كما هو معلوم- معصوم من الشيطان، ليس للشيطان عليه سبيل، فالله تعالى يقول كما بينا شيئا من معاني عصمة الله تعالى لأنبيائه في قوله: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ...﴾ [الحجر : ٤٢].

---

(١) يقول ابن كثير: "لأنهم لا تنفع معهم الحيل ولا ينقادون بالمعروف، وقد قدمنا عند الاستعاذة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه» انظر: تفسير ابن كثير– ج: ٥، ص: ٤٢٨ – طبعة دار الكتب العلمية.

والنبي صلى الله عليه وسلم هو أول عباده المقدمين إلى الله تعالى، ليس قبله أحد صلى الله عليه وسلم، وهو صاحب الدرجة العليا، الوسيلة التي لا يعطاها إلا عبد في الجنة، وهو النبي صلى الله عليه وسلم، وهو سيد ولد آدم ولا فخر.

فعندما يقال هذا الأمر نعلم أنه صلى الله عليه وسلم معصوم من كيد الشيطان ولا شك، فكان السياق هنا يقتضي هذا المعنى، وكذلك قوله تعالى: ﴿ .. ٱتَّقِ ٱللَّهَ ...﴾ [الأحزاب : ١].

وعندما يقول له كما ذكرنها في قوله: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ...﴾ [هود : ١١٢] فقد أمر صلى الله عليه وسلم، والمعنى هنا أن تعالى يأمره بالازدياد من الاستقامة.

والحال الرابع قوله تعالى: ﴿ ... لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ...﴾ [الزمر : ٦٥] إنما الصيغة لهؤلاء؛ لأنه إذا كان معصوما من المعصية فقضية الشرك إنما هي متعلقة بالمكلفين عموما، ليس الخطاب إليه، وإنما الخطاب متوجه إلى عموم الناس؛ لكونه معصوما صلى الله عليه وسلم.

فإذا جئنا هنا في هذه الآية ليقول ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [الأعراف : ٢٠٠] فُهِمَ هذا الحال: فهو لا ينزغ صلى الله عليه وسلم؛ لأنه في الحديث قد ذكر صلى الله عليه وسلم: **"ما منكم من أحد إلا وكل به قرينه من الجن، وقرينه من الملائكة. قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: وأنا، ولكن الله أعانني عليه فأسلم، وفي رواية أخرى يقول: فلا يأمر إلا بخير"**.[1]

وأسلم هنا إما أن تكون على معنى الإسلام، أي دخل في الإسلام فصار مسلما، أو فأسلم له صلى الله عليه وسلم فلا يأمره بما يخالف الشرع الشريف. فالخطاب هنا متوجه إلى

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨١٤) ، ولفظه: (عنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ ». قَالُوا وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ « وَإِيَّاىَ إِلاَّ أَنَّ اللَّهَ أَعَانَنِى عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ فَلاَ يَأْمُرُنِى إِلاَّ بِخَيْرٍ »).

الأمة، وما يتعلق فيه بالرسول سنشير إليه؛ ليفهم هذا المعنى الجميل في هذا السياق من كلام الله تعالى.

ومعنى الآية: إن ألقى إليك الشيطان ما يخالف هذا الأمر - وهو قوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ...﴾ [الأعراف : ١٩٩ - ٢٠٠] وفي فصلت نفس المعنى في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾ [فصلت :٣٤ - ٣٦].

والنزغ في اللغة هو النخس والغرز، فكأنه شبه حدوث الوسوسة الشيطانية في النفس بنزغ الإبرة ونحوها في الجسم، بجامع التأثير الخفي، وشاعت هذه الاستعارة في القرآن حتى سارت كالحقيقة.

والاستعاذة بالله تعينك على تحمل الأذى، وبذل الندى، وكف الأذى، وأن تدفع بالتي هي أحسن السيئة، فسوف يأتي الشيطان ويقول لك: لا تدفع السيئة بالحسنة، بل ادفع السيئة بالسيئة، ليس أحد أفضل منك! كيف يشتمك ولا ترد عليه؟! فقال: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ...﴾ [الأعراف : ٢٠٠] فالله تعالى يدفع عنك. وفي الأولى: ﴿ ... فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فصلت : ٣٤] وأنت مقصودك هداية الناس لا المعركة معهم؛ لأنه صلى الله عليه وسلم كان ذلك حاله المشرف صلى الله عليه وسلم، لم يأت ليرد الإساءة بالإساءة، كلا، بل يتحمل ويصبر؛ لأنه في موقع الهادي له، الذي يأخذ بأيديهم إلى الله تعالى، لا في موقع المنتصر لنفسه، الذي يدافع عن نفسه، ويتعارك عن نفسه، وإنما موقف الداعي إلى الله تعالى، أن يأخذ بيد الناس وقلوبهم إلى الله جل وعلا، لا أن يسيئوا إليه فيسيء إليهم، وإنما إذا أساءوا إليه أن يرد الإساءة بالحسنة، وإن حمله الشيطان ونزغ له على أن يرد الإساءة بالإساءة، فليستعذ بالله من ذلك.

يقول ابن عاشور[1] في شرح الآية: والمعنى: إذا ألقى إليك الشيطان ما يخالف هذا الأمر وهو ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [الأعراف : ١٩٩] بأن سول لك الأخذ بالمعاقبة، أو سول لك ترك أمرهم بالمعروف غضبا عليهم، أو يأسا من هداهم، أو غير ذلك مما نرى في أحوالنا، قال:﴿ ... فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ...﴾ [الأعراف : ٢٠٠] ليدفع عنك حرجه، ويسرح لك صدرك، لمحبة العمل بما أمرت به؛ ليدفع الله تعالى عنك هذه الوسوسة، ويشرح صدرك للائتمار بأوامر الله تعالى، وحتى لا تجد في صدرك تلك الغضاضة التي يمكن أن تقع من الشيطان؛ ليمنعك أن تدفع هذه الإساءة بالحسنة كما ذكر الله تعالى.

والاستعاذة مصدر طلب العوذ، أي: أن يطلب الالتجاء إلى الله تعالى، أي: فالتجئ إلى الله تعالى يدفع هذا المكروه عنك، فيدفع المكروه عن الملتجئ إليه سبحانه وتعالى إذا عاذ به المرء، أو التجأ به جل وعلا.

فأمر الله جل وعلا بدفع وسوسة الشيطان بالالتجاء إلى الله تعالى، بالعوذ بالله تعالى. والالتجاء إليه سبحانه وتعالى بالدعاء بالعصمة من وسوسة الشيطان، أن يعصمه منه، وأن يمنعه من هذه الوسوسة، وأن يدفع عنه سبحانه وتعالى، لا يدفعها إلا الله جل وعلا.

وهذا أمر لرسول الله على المعنى الذي بينا من العصمة: أن يلتجأ النبي صلى الله عليه وسلم في كل أموره، وما يتعسر عليه من أمور إلى الله جل وعلا. ومن باب أولى بقية المؤمنين في ذلك.

وأمر الله له باللجوء إلى الله تعالى للاستعاذة من كيد الشيطان إنما هو شكر على نعمة الرسالة والعصمة التي هو فيها. أن يشكر الله تعالى على ذلك، وهذا مثل استغفار النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: **"إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم أكثر من سبعين**

---

(١) انظر: التحرير والتنوير- الطاهر بن عاشور- ج: ٩، ص: ٢٣٠ – الدار التونسية للنشر.

مرة"[1] فكأنه يقول: فاستعذ بالله، أي: الجأ إليه فيما تعسر عليك؛ لأن ذلك كله إنما يكون منك شكرا لله تعالى على تلك الرسالة والعصمة، هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى كما يقول ابن عاشور: إنما هي على معنى التأدب مع الله تعالى، وإظهار الضعف والمسكنة لله جل وعلا في اللجوء إليه سبحانه وتعالى، مهما كان على هذه الحال من العصمة حتى يكون قدوة للمؤمنين وأسوة لهم صلى الله عليه وسلم.

لذلك يقول: فإن الشيطان لا ييأس من إلقاء الوساوس للأنبياء؛ لأنها تنبعث بطبعه، وقد علمنا حديث النبي صلى الله عليه وسلم ذلك الشيطان الذي حاول أن يفسد عليه صلاته، قال: "**فأمسكت به حتى أربطه في سارية المسجد؛ ليلعب به صبيان المدينة، إلا أني تذكرت قول سليمان: ﴿ ... وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ...﴾** [ص : ٣٥] فأطلقه صلى الله عليه وسلم.[2]

فهذه الشياطين لا شك -مع أنهم معصومون منهم- إلا أنه يوسوس بطبعه، وينزغ بطبعه، فكان من شكر نعمة العصمة أن يلتجأ إلى الله تعالى. لذلك يقول: إنه يشكر الله تعالى بإظهار الحاجة إليه سبحانه وتعالى لإدامتها عليه، يظهر ذلك لأنه يظهر لربه أنه محتاج إليه صلى الله عليه وسلم، وهذا من باب الأولى للمؤمنين المتقين، هذه الاستعاذة التي ينبغي أن تكون ديدنهم، فإن الشيطان إذا كان لا يكف عن أن يوسوس للمعصومين مع علمه بما هم عليه من حال العصمة من الله تعالى والمنع والدفع، فإنه لا شك واقف للمؤمنين، كما قال الله تعالى: ﴿

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٢) ولفظه: (عَنِ الأَغَرِّ الْمُزَنِيِّ – وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ – أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– قَالَ « إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي وَإِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ ».).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦١) ، ومسلم (٥٤١) ولفظه: (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنَّ عِفْرِيتًا مِنْ الْجِنِّ تَفَلَّتَ عَلَيَّ الْبَارِحَةَ أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا لِيَقْطَعَ عَلَيَّ الصَّلَاةَ فَأَمْكَنَنِي اللَّهُ مِنْهُ فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ إِلَى سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ حَتَّى تُصْبِحُوا وَتَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلُّكُمْ فَذَكَرْتُ قَوْلَ أَخِي سُلَيْمَانَ رَبِّ{هَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي} قَالَ رَوْحٌ فَرَدَّهُ خَاسِئًا).

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ...﴾ [فاطر : ٦] يعني: هو عدو لكم ليلا ونهارا، لا يفتر عن محاربتكم كما ذكر المولى سبحانه وتعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ...﴾ [الإسراء : ٦٤] فهي حرب فيها المشاة وفيها الفرسان، يوسوسون للمؤمنين إلى أن يصدوهم عن سبيل الله تعالى، وعن الصلاة، وعن ذكر الله؛ حتى يخرجوهم عن عبادة الله تعالى ﴿... فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝﴾ [فاطر : ٦].

وهذا الأمر شامل للمؤمنين كما بينا، وحظ المؤمنين منه أقوى؛ لأن نزغ الشيطان إياهم أكثر، فإن النبي مؤيد بالعصمة، فليس للشيطان عليه سبيل، وإنما هي تظهر أدب النبي صلى الله عليه وسلم ، وتأدبه مع ربه، ولجوئه إليه جل وعلا، ودوام شكره على ما هو فيه، سبحانه وتعالى ليتأسى به بقية المؤمنين.

ثم ذلك جاءت خاتمة الآية: ﴿... فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝﴾ [الأعراف : ٢٠٠] سبحانه وتعالى. فوجود حرف إن للتعليل، يقول: موقع العلة للأمر بالاستعاذة، أي: استعذ بالله لأن الله سميع عليم سبحانه وتعالى. يسمع ما ينزغ به الشيطان، ويعلمه جيدا سبحانه وتعالى، ويسمع منك هذه الاستعاذة، فإن استعذت به سبحانه وتعالى على معنى الإخلاص له والصدق، على معنى اللجوء إلى الله تعالى أنك تفر إليه، أنك تفر إليه، لاجئا إليه، مستعيذا به، مستجيرا به من الشيطان - يسمع ذلك منك، ويعلم -لأنه عليم- صدقك في هذا الطلب، وأنك تطلب فعلا هذه الاستعاذة، وهذا اللجوء من كيد الشيطان، وتريد من ربك جل وعلا أن يدفعه عنك، وأن يمنع عنك هذه الوسوسة، وأن يجيرك، وأن يضعك في جواره: حتى لا يتمكن منك الشيطان.

فاستعذ بالله: لأنه يسمع ذلك، فهو يسمع تلك الاستعاذة سماع الإجابة. استعذ به هو وحده في دفع كيد الشيطان: لأنه سبحانه وتعالى يجيبك حينئذ عندما تلجأ إليه. فعندما تلجأ إلى ربك ليدفع عنك اعلم أنه سميع، أي بمعنى مجيب. أي: هو سميع لمن دعاه ولجأ إليه حقيقة، سميع له مجيب أن يحقق له هذا الطلب، وأن يجيره، وأن يمنعه من كيد الشيطان، وأن يحفظه من وسوسته. بل إن وسوس إليه، وأوقعه في شيء، فإن الله تعالى يدفع عنه،

ويحمله جل وعلا على التوبة والرجوع؛ حتى يندم الشيطان أنه قد أوقعه في هذا الذنب بهذه الوسوسة.

و"العليم" جل وعلا، زيادة في الإخبار بعموم علمه، أنه عليم بهذه الوساوس التي لا يمكن لك أن تتصدى لها، فإن كنت تعلم شيئا مما وسوس لك به الشيطان، فإنك لا تعلم بقية مداخله، ولا تعلم بقية وسوسته، وما يمكن أن يدخل لك به، وما يمكن أن يضايقك فيه، وما يمكن أن يؤذيك به. كل ذلك لا يعلمه على الإحاطة إلا الله جل وعلا، ومن ثم ختمها بكونه العليم سبحانه وتعالى، فإن كان يسمعك ويسمع الشيطان وما ينزغ به، ويسمع لجوئك وتضرعك إليه أن يقيك منه، فإنه كذلك عليم إذا استعذت به من الشيطان، عليم بكل ما ينزغ لك به الشيطان ، وما لا تعلمه من نزغ الشيطان، فيحفظك من ذلك. فسميع دل على أنه يسمع استعاذ النبي صلى الله عليه وسلم، وأتبعه بعموم علمه بكل ذلك جل وعلا.

لذلك يقول: وهو كناية عن الحفظ والدفع، فكأنه يقول سبحانه وتعالى: استجر بي فأنا أحفظك وأمنعك، وأدفع عنك هذا الكيد.

ونختم هذه الجملة: وهذا كناية عن دفاع الله تعالى عن النبي صلى الله عليه وسلم، وعن المؤمنين؛ إذ يلتجئون إلى الله تعالى، فإنه يدافع عنهم سبحانه وتعالى، كما في قوله: ﴿ ... فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ... ﴾ [الطور : ٤٨] فإذا كان ذلك في السمع فكذلك في البصر. وأمر الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم وقوف عند الأدب والشكر وإظهار الحاجة لله تعالى، والمؤمنون من باب الأولى مطالبون بذلك كله: لأنهم محل النزغ من الشيطان كما ذكر المولى سبحانه وتعالى.

الفارق بين الآيتين:

في الآية الأولى قال: ﴿ ...إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف : ٢٠٠] وفي الآية الثانية قال: ﴿ ... إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [فصلت : ٣٦] وسر ذلك والله أعلم كما قال الإمام ابن القيم في كتابه: إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان[1]:

يقول: ثم قال: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [فصلت : ٣٦] فاكد بإن وبضمير الفصل، وأتي باللام في السميع العليم. وقال في الأعراف: ﴿ ... إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف : ٢٠٠] فلم يأت بضمير الفصل ولم يعرف السميع العليم.

وسر ذلك والله أعلم أنه حيث اقتصر على مجرد الاسم ولم يؤكده أريد إثبات مجرد الوصف الكافي في الاستعاذة، والإخبار بأنه سبحانه وتعالى يسمع ويعلم، فيسمع استعاذتك فيجيبك، ويعلم ما تستعيذ منه فيدفعه عنك. فالسمع لكلام المستعيذ، والعلم بالفعل المستعاذ به.

وبذلك يحصل مقصود الاستعاذة، وهذا المعنى شامل للموضعين -الآية الأولى والثانية- وامتاز المذكور في سورة فصلت: ﴿ ... إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [فصلت : ٣٦] بمزيد التأكيد والتعريف والتخصيص؛ لأن سياق ذلك هو الفارق في الآيتين.

فالسياق في الآية الأولى: ﴿ ... إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف : ٢٠٠] أن الله تعالى نعى على المشركين وآلهتهم، قال: ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ ...﴾ [الأعراف : ١٩٥] ثم ذكر أن الله

---

(١) انظر: إغاثة اللهفان– ابن القيم– ج: ١، ص: ٩٦ — مكتبة المعارف– الرياض.

سميع عليم، فلا يحتاج ذلك إلى تأكيد. فهؤلاء وآلهتهم كلهم من لا شيء، فلم يحتج أن يؤكد ها هنا.

أما في آية فصلت احتاج للتاكيد، قال المولى سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [فصلت : ٢٢] وحديث ابن مسعود في الصحيحين قال: "اجتمع عند البيت ثلاثة نفر قرشيان وثقفي أو ثقفيان وقرشي، كثير شحم بطونهم، قليل فقه قلوبهم، فقالوا: أترون الله يسمع ما نقول؟ فقال أحدهم: يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا، فقال الآخر: إن سمع بعضه سمع كله، فنزل قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ ... ﴾ [فصلت : ٢٢]" (١) فكان هذا السياق، كما قال تعالى: ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [فصلت : ٢٣] فجاء التوكيد لهؤلاء الذين يظنون هذا الظن السيئ بالله، فجاء التوكيد بأنه: نعم، يسمع ، بل هو الذي يسمع فقط، فهو السميع فقط، ليس هناك من يسمع مثله جل وعلا.

لذلك قال: في سياق هذا الإنكار جاء قوله: ﴿ ... إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾ [فصلت : ٣٦] بالتاكيد، وه وحده سبحانه وتعالى له كمال قوة السمع، وكمال إحاطة العلم، لا كما يظن أعداؤه الجاهلون أنه لا يسمع إن أخفوا، وأنه لا يعلم كثيرا مما يعملون، وحثنا ذلك أيضا أن المأمور به في سورة فصلت دفع إساءتهم إليه بإحسانه إليهم، وذلك أشق على النفوس من مجرد الإعراض عنهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨١٧) ، ومسلم (٢٧٧٥) ولفظه: (عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ اجْتَمَعَ عِنْدَ الْبَيْتِ قُرَشِيَّانِ وَثَقَفِيٌّ أَوْ ثَقَفِيَّانِ وَقُرَشِيٌّ كَثِيرَةٌ شَحْمُ بُطُونِهِمْ قَلِيلَةٌ فِقْهُ قُلُوبِهِمْ فَقَالَ أَحَدُهُمْ أَتُرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ مَا نَقُولُ قَالَ الْآخَرُ يَسْمَعُ إِنْ جَهَرْنَا وَلَا يَسْمَعُ إِنْ أَخْفَيْنَا وَقَالَ الْآخَرُ إِنْ كَانَ يَسْمَعُ إِذَا جَهَرْنَا فَإِنَّهُ يَسْمَعُ إِذَا أَخْفَيْنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ {وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ} الْآيَةَ).

فهنا أمره بالإعراض، وهناك أمره بدفع السيئة، فلما أمر بدفع السيئة كان التأكيد أولى؛ لأن دفع السيئة أعلى من الإعراض فقط، أن يدفع السيئة بالحسنة أعلى في الخلق من أن تعرض عنه. فلما أمره بالأشق شدد وأكد سبحانه وتعالى.

ولذلك عقباها بقوله في الأولى: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [فصلت : ٣٥] فحسن التأكيد هنا لحاجة المستعيذ إلى هذه المعاني ليقوى قلبه فيها، وليقوم بحق الله الذي أمره في هذه الآيات.

ونشير الآن إلى معنى التدبر: فعندما يقول لك المولى سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [الأعراف : ٢٠٠] أي: عندما يوسوس لك الشيطان وينزغك بهذه النزغات الخفية من الوسوسة بكل المصائب التي يريد أن يوقعك فيها، فاستعذ بالله والجأ إليه جل وعلا؛ لأنه يدفع عنك إذا لجأت إليه. إذا لجأت إليه بصدق، واستعذت به جل وعلا بصدق، دفع عنك هذا الشيطان؛ إذ لا يدفع شيطان الجن إلا القوي القادر سبحانه وتعالى.

فالتدبر أن يرى المرء موقع الآية على نفسه، وأثرها على قلبه وعمله، بمعنى أن يرى منزلته من هذه الآية تطبيقا وعدما. حينئذ عرف داءه فيها وعرف دواءه منها، وهذا هو الذي ينبغي أن ينزل المرء القرآن الكريم عليه.

فالمعنى التي تشير إليه هذه الآية هو: التعوذ من كيد الشيطان، وكذلك أن الله يدفع كيد الشيطان عن اللاجئ إليه. فتتدبر الآية لترى منزلتك من دفاع الله تعالى عنك عند وسوسة الشيطان إليك، فهذا هو المطلوب الأول. وحينئذ تعرف مقدار دفاع الله تعالى عنك، وتعرف ما هي الدرجة التي تأخذها لنفسك، والمنزلة التي تقيس نفسك بها من دفاع الله تعالى عنك.

وكذلك في المعنى الأول وهو الاستعاذة، هل صحت الاستعاذة منك إلى الدرجة التي بها يدفع الله بها تعالى عنك دفعا كبيرا للشيطان ووسوسته؟ أو أنه يدفع عنك بقدر قيمته استعاذتك بالله ولجوءك إليه، التي هي مبنية على إيمانك بالله تعالى، وعملك إليه، وقربك منه؟

فالله تعالى هو الملك، والملك يدفع عن جنوده أعداءهم، وتسأل نفسك هذا السؤال: كم يدفع الله عنك؟ هل أنت من جنود الله؟ وما هي درجة دفعه سبحانه وتعالى عنك؟ وهي قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات : ١٧٣] هل أنت من جند الله تعالى، فيدفع عنك وسوسة الأعداء، وأولهم الشيطان والنفس والهوى. ولتسأل نفسك: هل أنت جندي عند الله تعالى من جنوده الذين يدفع عنهم دفعا على قدر هذه الولاية لهم، أي على قدر من هم من أهله وخاصته وجنوده أو أنه يدفع عنك هذا الدفع الذي على قدر قيمة كونك جنديا مهملا، ضعيفا، مفرطا، مقصرا. قد تركت نفسك لأعدائه، فكيف يدفع عنك سبحانه وتعالى، وأنت المفرط في سلاحك الذي تدفع به، وفي قوتك التي تتقوى بها من الله جل وعلا.

وحينئذ عرفت دواءك، وعلمت كيف تكون استعاذتك بالله استعاذة صادقة قوية، عندما تطلع إلى الله تعالى ينزل منها مدد من الله على قدرها يدفع به عنك كيد الشيطان، ولا ترتفع هذه الأمور إلا بكونك على هذا الحال الحسن من الإيمان والعمل الصالح، والقرب من الله، والوقوف ببابه، والاشتغال بخدمته، وكونك واقفا على حدوده سبحانه وتعالى.

علم المرء ذلك فراجع نفسه، وعرف منزلته، وسارع إلى التنصل مما هو فيه — نحن جميعا - من الضعف، والقلة في الخدمة، والقيام لله تعالى، والعمل له، والقوة به، وانتظار المدد العظيم من الله تعالى؛ ليدفع عنه، وعلى قدر ما يرتفع العمل الصالح على قدر ما ينزل من المدد، وعلى قدر ما تنزل من عصمة الله للشيطان.

علمنا قلة البضاعة، وضعف القوة عن مقاومة الشيطان والنفس والشهوة، فيحاول المرء حينئذ أن يستعين بالله تعالى مرة أخرى، وأن يبدأ السير في تقوية القلب لدفع هذه المعاني، فكأن الدفع في هذه القضايا إنما يكون بقوة القلب والإخلاص لله تعالى. فعندما يقوى قلب المرء لا يستطيع الشيطان أن يكون له عليه سبيل.

الآية الخامسة: فاستجاب له ربه.. إنه هو السميع العليم

وننتقل إلى تكملة لهذه الآية، وهي مهمة أيضا: فالله تعالى كذلك تعرف إلينا -نحن المساكين- بأنه يحفظ المرء من كيد النساء بكونه السميع العليم سبحانه وتعالى، فنقرأ هذه الآية:﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ

وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [يوسف: ٣٣ - ٣٤] فالمعنى عنا هو: أنه صرف عنه كيد النساء مطلقا، وقد كان في حال من أصعب الأحوال؛ لكونه عبدا وغريبا، لا يملك لنفسه شيئا، وينبغي أن يأتمر بأوامر سيده أو سيدته، وفي نفس الوقت هذه المرأة سيد جميلة وامرأة العزيز، والأمر الأخير أنهما في خلوة، وهي التي طلبت ذلك، وهي التي راودته عن نفسه، فصرف سبحانه وتعالى ذلك الكيد كله عنه سبحانه وتعالى، فما بالك بكيد ضعيف يمر به الشباب أو الرجال أو الناس في هذه الفتن التي نحن فيها اليوم؟! لا شك أن الدفع أسهل، والاستعاذة بالله تعالى في هذه المسألة نتيجتها لا شك تكون أوضح: لذلك لما جاء هذا المثل في القرآن جاء ليمثل لنا بأصعب حالة، وبين أن الله دفع فيها، وأن الله سبحانه وتعالى عصم فيها، وأن الله سبحانه وتعالى حفظ عبده فيها. فما بالك بما دونها من الأحوال التي تعرض للناس، وللشباب بالذات، في هذه الأيام حتى يتعود المرء كيف يحفظ نفسه بالله تعالى من هذه الفتن.

ونبدأ الآيات من أولها: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ...﴾ [يوسف : ٣٣]، يقول[1]: هذا استئناف بياني لما سبق، وهو استئناف يبين به حاله عند ورود ذلك الأمر؛ لأن ما حكي قبل هذه الكلمات مقام الشدة، عندما أتت امرأة العزيز بهؤلاء النسوة، وجلسن، وأخرجت يوسف، ووضعته في هذا الحال، ورأت النسوة يوسف على هيئته، وقطعن أيديهن، فكان المقام مقام شدة؛ حيث تمالأ هؤلاء كلهن على يوسف عليه السلام؛ ليقع في هذه الفاحشة، وليسمع كلام سيدته وألا يعصها في هذا الطلب الذي تطلب: فسياق الآية يقول: ﴿ ... وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ ...﴾ [يوسف : ٣٣] لا كيدها وحدها، فأول أن رأينه اجتمع كيدهن جميعا عليه، عليه السلام.

فذلك مقام شدة، من شأنه أن يسأل سامعه عن حال يوسف: ماذا فعل يوسف عندما وضع في هذا الموقف؟ كانت تصرفه أن قال: ﴿ ... رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ

---

(١) انظر: التحرير والتنوير- الطاهر بن عاشور- ج: ١٢، ص: ٢٦٥ - الدار التونسية للنشر.

﴿... إِلَيْهِ ...﴾ [يوسف: ٣٣] فكان موقفه في هذا الحال موقف مناجاة الرب سبحانه وتعالى ليدفع عنه. فموقفنا يجب أن يكون مناجاة الرب لدفع الكيد عن الرب عندما يقع في مثل هذا الكيد، وفي غيره من أي كيد، وهو موقف المناجاة.

وهذا الكلام مناجاة لربهم الذي هو شاهدهم، فالظاهر أنه جهر بهذا القول في هذا الملأ ليجعلهم ييأسن من موقفه. فهي قبل ذلك قد راودته وواصلت الكيد ولم تيأس، ونجاه الله تعالى وعصمه؛ لاعتصامه بالله، ثم جاء الموقف التالي، فقال لهم: ﴿... ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ ...﴾ وافهم هذا المعنى الذي كان من سببه أن استجاب الله تعالى لهذه المناجاة، حيث قال: السجن أحب إلي وأفضل، وقد فضل السجن -عليه السلام- على ما فيه من الألم والشدة وضيق النفس على ما يدعونه إليه من الاستمتاع بالمرأة الحسنة النفيسة، وعلى ما في ذلك من اللذة، ولكن كُرْهَهُ لفعل الحرام فضَّل عنده مقاساة السجن، فلما علم أنه لا محيص له من أحد الأمرين: إما أن يواقع الذنب وإما أن يسجن، صار السجن محبوبا إليه، باعتبار أنه يخلصه من الوقوع في الحرام، فهي محبة ناشئة عن ملائمة ما يفكر فيه من غضب الله، وما يرجوه من رحمته، ومن الاعتصام به.

والإخبار بأن السجن أحب إليه من الاستمتاع بالمرأة مستعمل في إنشاء الرضي بالسجن في مرضاة الله تعالى؛ كأنه يقول: أنه راض بالسجن في مرضاة الله تعالى، والتباعد عن محارمه، ولا يمكن له أن يقع فيما يغضبه.

فلما عبر بالمحبة؛ دل على الرضا، أنه يرضى ذلك، ويقدمه على أن يقع في المحرم، أو فيما يغضب الله تعالى، أو فيما لا يرضى عنه الله جل وعلا، وذلك موقف أولئك الذين يحفظهم الله تعالى. أما من يقول: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، والشيطان معه طوال الوقت، فلا يتحقق له ذلك !

فكل الأدعية التي ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم سواء كانت من القرآن الكريم أو من الأذكار النبوية المشرفة ينبغي أن يكون القائل لها في ستر من الشيطان وحفظ من الشيطان حتى يمسي، ومع ذلك تجده طوال وقته مع الشيطان، فلم يتحقق له هذه النتيجة، مع أن هذه النتيجة من الله لا بد وأن تتحقق، فلما لم تتحقق دل ذلك على أن الشخص لم يتحقق

بأسباب هذه النتيجة، أي لم يقم بالأسباب التي يعينه الله تبارك وتعالى فيحقق له هذه النتيجة بسببها، فتخلفت أسباب القبول، أو وجدت موانع من أن يقبل اله تعالى كلامه ذلك، فيرفع عنه هذا الكيد، ويحفظه سبحانه وتعالى من ذلك البلاء النازل عليه، وذلك الحال الذي ينبغي أن يتغير ليستجيب الله لك فورا بأعظم الاستجابة أن تقدم هذه الشدائد والآلام والمقاساة على غضبه سبحانه وتعالى، والوقوع في محارمه.

وأسند فعل يدعونني إليهن كما في الآية؛ لأن النسوة اللائي جمعتهن امرأة العزيز لما سمعن كلامها تمالأن على لوم يوسف عليه السلام، فاجتمعن كلهن على أن يلمن يوسف عليه السلام، وعلى أمره بأن يفعل ما أمرته به تلك المرأة.

والأمر الثاني في قوله: ﴿ ... وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ ...﴾ أنه خبر مستعمل في التخوف والتوقع: التجاء إلى الله تعالى، وملازمة للأدب نحو ربه في الدعاء بالتبرؤ من الحول والقوة، فهو لا حول له ولا قوة، ويتبرأ كذلك ويخاف من تقلب القلب، أن يتقلب قلبه إلى الوقوع في المعصية، وهو الميل كما قال: ﴿ ... أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ ....﴾ [يوسف : ٣٣] أي أميل إليهن، فهو خائف أن يقع في هذه المعصية، فيلجأ إلى الله تعالى بالتبرؤ من الحول والقوة والطول والخوف من أن يتقلب القلب إلى المعصية. فالله تعالى هو مقلب القلوب، إن شاء أقامها وإن شاء أزاغها.

وهذا هو الموقف التالي الذي ينبغي أن يقفه المرء عندما يعرض له هذا الحال من تلك الأحوال الموقعة في غضب الله تعالى، أن يقف مؤدبا متأدبا مع الله تعالى، يخشى وقوع نفسه في هذا المحرم، ويتبرأ إلى الله من الحول والقوة والطول، وأنه لا يملك قلبه، ولا يستطيع أن يتحول عن المعصية إلى الطاعة، ولا من الطاعة إلى المعصية، إلا بأن يحوله الله تبارك وتعالى، فهو لا حول له ولا قوة على شيء، ولا تحول عن معصيته إلا بقوته، ولا قدرة على طاعته إلا بقوته. لذلك يقول الشيخ: فالخبر حينئذ مستعمل في الدعاء، كأنه يقول: رب اصرف عني كيدهن، لا قوة لي إلا بك، ولا حول لي إلا بك، قلبي بيدك، تحوله كيف تشاء، وأنا أخاف من الفتنة، وأخاف من الوقوع فيما يغضبك.

﴿ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ ...﴾ [يوسف : ٣٤] بفاء التعقيب؛ إشارة إلى أن الله تعالى عجل إجابة دعائه، واستجاب مبالغة في أجاب، كما تقدم في قوله "فاستعصم" أي: اشتد في

الاعتصام. وهنا قال: "فاستجاب" أي: فاستجاب إجابة عظيمة له سبحانه وتعالى، فصرف عنه كيدهن، وصرف الله تعالى عن قلبه أي أثر للميل أو للفتنة. وهذا ما يستفده المؤمنون اليوم.

وقوله تعالى: ﴿ ... وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ الجهل هنا هو عدم الحلم والسفاهة، وليس المقصود به عدم العلم، فالجهل في لغة العرب بمعنى السفاهة:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وقوله: "وأكن من الجاهلين" أبلغ من قوله: "وأكن جاهلا" أي: يكون من الجاهلين السفهاء، المعلوم حالهم السيئ عند الناس وعند الله تعالى.

ونأتي إلى موقع السبب في تلك الاستجابة السريعة، وهو كونه سبحانه وتعالى السميع العليم. فلأن الله تعالى هو السميع العليم استجاب له. فكأن المرء لو دعا الله تعالى بكونه السميع العليم، وأنه يسمع ويعلم ما هو فيه من الحال، وما يرجوه من ربه، ويعلم صدقه مع الله تعالى في طلب ذلك، ويعلم صدقه كذلك فيما ينطق به من أن الله تعالى يسمع منه فعلا، وأن السجن أحب إليه من غضب الله تعالى، ومن الوقوع في محارمه فإنه سبحانه وتعالى هو السميع العليم.

يقول: وجملة: "إنه هو السميع العليم" في موضع العلة، أي: العلة في الاستجابة. فالله تعالى استجاب له؛ لأنه هو السميع العليم، و"استجاب" المعطوف بفاء التعقيب أي: أجاب دعائه بدون مهلة؛ لأنه سريع الإجابة؛ لذلك قال: ﴿... إِنَّهُۥ هُوَ ...﴾ بضمير الفصل، أي سريع الإجابة، كما قلنا في قوله: "سمع الله لمن حمده" أي: أجاب الله تعالى لمن حمده. وكما قلنا في قوله: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾ [فصلت : ٣٦] أي هو فقط السميع العليم. فضمير الفصل يستخدم في معنى التأكيد، ويستخدم كذلك في معنى الحصر.

فهذه كناية عن استخدام هذا التعبير عن حفظ الله تعالى، أنه مستخدم في الحفظ بالله تعالى عن المرء عندما يستجير به جل وعلا أو يستغيث به؛ لأنه هو السميع العليم

سبحانه وتعالى، فالسمع هنا مستعمل في إجابة المطلوب، فإن كان لك مطلوب إذن يمكن أن تلجأ إلى الله تعالى بكونه السميع العليم.

ولكونه السميع العليم لا بد أن يتحقق سمع الله تعالى منك بما يكون حقا يجيبك عليه فورا، وأن يسمع منك سبحانه وتعالى الكلام الذي يجيب عليه، الكلام الذي يدل على حالة هي تستحق من الله الإجابة.

فإذا ما انتقلنا إلى التدبر في معنى هذه الآية نقول:

إن الله تعالى قد استجاب له لكونه السميع العليم، استجاب له على الفور استجابة عظيمة. ولا بد أن تنزل هذه الآية على نفسك، وترى أثرها على قلبك وعملك. بمعنى أن ترى في هذه الآية منزلتك من هذه الآية. وتعرف بها داءك ودواءك. وتعرف: هل استجاب الله لك عند وقوعك في مثل ذلك الموقف الذي وقع فيه سيدنا يوسف؟

فالتدبر من هذه الآية أن تعرف قدر استجابة الله لك في مثل هذا الموقف، فعلى قدر إجابة الله لك تكون منزلتك من هذه الآية. فإذا كانت الإجابة قليلة فعليك أن تراجع نفسك مع هذه الآية؛ حتى يستجيب الله لك كما استجاب ليوسف عليه السلام.

ويكون ذلك بتقديم هذه الآيات، بأن يكون السجن -وهو مقر الحبس والتعذيب- أحب إليك مما تقع فيه من الحرام، ومما يغضب الله تعالى فيه. وعلى قدر هذا الحال من لجوئك إلى الله تعالى، وتبرئك من الحول والقوة والطول إليه، وأنه بيده القلوب يقلبها ويصرفها، كل ذلك، بقدر منزلتك منها بقدر استجابة الله لك. وتعرف لماذا يستجيب الله أو لا يستجيب لك.

سارعت حينئذ عندما تسمع هذا الكلام إلى التوبة والافتقار إلى الله، وأن تعلم حينئذ أن الفتنة إليك أقرب مما تتصور، طالما أنك قد فرطت في قلبك، وفرطت في افتقارك إليه، ودعائك. لا حجة لأحد، إلا حجة واحدة، وهي: ضعف الإيمان واليقين والتوكل، إلا ضعفه فيما وصل إليه من حالنا بحيث لم يعد المرء في موضع كرامة الله له.

ويستدعي هذا كله التوبة، والنظر في الأحوال السيئة، واللجوء إلى الله، والتبرؤ من الحول والقوة إلى الله جل وعلا أن يرفع عنا، وأن يدفع عنا، وأن يحول هذه القلوب إلى الطاعة، وأن يثبتها عليها، كما كان النبي يدعو صلى الله عليه وسلم.

الآية السادسة : من كان يريد ثواب الدني والآخرة فهو عند السميع

والآية التالية في سياق ما نحن فيه من تعرف الرب إلينا باسمه تعالى السميع الذي نحن بصدد الكلام عليه هي قوله تعالى: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ﴾ [النساء : ١٣٤].

هذه الآية من الآيات التي تعرف الله تعالى إلينا بها بكونه السميع البصير، ومختصرها أن من يرد ثواب الدنيا فليطلب ما عند الله من عمل الآخرة، فيعطيه الله ثواب الدنيا والآخرة. أو: من أراد ثواب الدنيا فقط فهو ملوم موبخ؛ لأن ثواب الدنيا والآخرة عند الله. أو: من يرد ثواب الدنيا فقط فهو جاهل غبي؛ لأن ثواب الدنيا والآخرة عند الله تعالى، فلماذا يأخذ ثواب الدنيا فقط؟!

يقول الشيخ[١]: من كان يريد ثواب الدنيا كالمجاهد يريد بجهاده الغنيمة فعند الله ثواب الدنيا والآخرة. فمن كان يريد ثواب الدنيا فأخبره أن عند الله تعالى ثواب الدارين، فما له لا يطلب ذلك؟!

وفي آخر الآية يقول: ﴿ ... وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ﴾ [النساء : ١٣٤] وذلك لمعنى التوبيخ، فالله تعالى يوبخ من يريد ثواب الدنيا. لماذا لا تأخذ الثوابين؟! فعليك أن تطلب الأعلى وسيأتيك الأدنى قطعا!

يقول: فأعلمه وأخبره أن عند الله تعالى ثواب الدارين، فما له لا يطلب ذلك، كمن يقول: ﴿ ... وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [

---

(١) انظر: التحرير والتنوير- الطاهر بن عاشور- ج: ٥، ص: ٢٢٤ - الدار التونسية للنشر.

الشورى : ٢٠] وقوله: ﴿... رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة : ٢١] فليكن همه الآخرة ويطلب الأشرف، وهو ثواب الآخرة؛ لأن ثواب الدنيا زائل، فليطلب الأشرف الأجل الأعلى وهو ثواب الآخرة، فإن من جاهد خالصا لوجهه تعالى لن تخطئه منافع الدنيا مع ما عند الله تعالى من الثواب الأعظم في الآخرة.

لذلك يقول: لن تخطئه المنافع الدنيوية، وله في الآخرة ما هي في جنبه كلا شيء. أي: له من المنافع في الأخرى ما منافع الدنيا في جنبه - أي في جنب منافع الآخرة - كلَا شيء. فليطلب الأشرف، فإنه إن طلبه لا تخطئه الدنيا، بل سيأخذها، ولكن يأخذها على أحسن حال من طلب الآخرة.

لذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "من كان همه الآخرة جمع الله تعالى عليه شمله، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة"[1].

فمن يقصر في الآخرة يقصر في كل شيء. فمن كان يطلب الدنيا لا يستطيع أن يقول: السجن أحب إلي مما يدعونني إليه. لكن سيقول: الدنيا أحب إلي. فلا ينتظر في الأولى جزاء ولا في الأخرى هنا في الآية الثانية. وإن أخذ شيئا من ذلك في الدنيا فقد ضاعت عليه الدنيا؛ لأنه يموت ويتركها، وضاعت عليه الآخرة؛ لأنه ضيعها في طلب الدنيا.

يقول: من كان همه الآخرة جمع الله عليه شمله، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة. ومن كانت نيته الدنيا: فرق الله عليه شمله، وجعل فقره بين عينيه، ولم يؤته من الدنيا إلا ما كتب له.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٦٥)، وقال الدمياطي في المتجر الرابح (٣٣٤): إسناده صحيح، وقال المنذري في الترغيب (١٣٠/٤): إسناده لا بأس به، ولفظه (عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال : قال رسولُ الله –صلى الله عليه وسلم– : «مَنْ كانت الآخرةُ همَّهُ ، جعل الله غناه في قلبه ، وجمع عليه شَمْلَهُ ، وأتَتْهُ الدنيا وهي راغمَة ، وَمَنْ كانت الدنيا هَمَّه ، جعل الله فَقْرَه بين عينيه ، وفرَّق عليه شَمْلَهُ ، ولم يأتِه من الدنيا إلا ما قُدِّر له»).

وهذه المسائل ينبغي أن تقع موقعها من قلوب المؤمنين في التحقق بها، أو في الدعاء إلى الله تعالى أن يرزقنا إياها، وأن يستعمل قلوبنا في الوصول إليها، أو أن يشرح صدورنا للقيام بمعانيها سبحانه وتعالى.

والشيخ ذكر معنى آخر يؤيد ما سبق في سياق الآية، يقول: وجُوِّزَ أن يقدر الجزاء من جنس الخسران، بمعنى: من كان يريد ثواب الدنيا فقط فقد خسر وهلك؛ لأن عند الله تعالى ثواب الدنيا والآخرة له إن أرداه، واستدل عليه بحديث النبي صلى الله عليه وسلم: "**أول من تُسَعَّرُ بهم النار ثلاثة. منهم من جاهد في سبيل الله حتى قُتل، فيؤتى به فيعرفه الله تعالى نعمه، فيعرفها فيقول: ماذا فعلت فيها؟ فيقول: قاتلت فيك حتى استشهدت، فيقال: كذبت** ..." [1] إلى آخر الحديث المعلوم، في النفقة والعلم والجهاد.

قوله: ﴿ ... وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ﴾ تزييل لمعنى التوبيخ. أي: كيف يطلب الدنيا هذا الشخص، فالله تعالى يوبخه على طلب الدنيا توبيخا شديدا، ويلومه لوما شديدا، يمكن أن يتعرض به إلى الهلاك؛ لكونه طلب الدنيا ولم يطلب الآخرة، أو لم يطلب الدنيا والآخرة معا، وذلك لأن الله تعالى سميع بما يهجس في خاطره، وما تأمره به دواعيه. فالله تعالى سميع لكل ما يدور في داخلك، ومطلع على كل ذلك جل وعلا، بصير بأحواله كلها، ظاهرها وباطنها، فيجازيه على ذلك.

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٠٥)، ولفظه (عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ قَالَ تَفَرَّقَ النَّاسُ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ فَقَالَ لَهُ نَاتِلُ أَهْلِ الشَّامِ أَيُّهَا الشَّيْخُ حَدِّثْنَا حَدِيثًا سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ نَعَمْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ « إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِىَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ. قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لأَنْ يُقَالَ جَرِىءٌ. فَقَدْ قِيلَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِىَ فِى النَّارِ وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأُتِىَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ. قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ. وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ. فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِىَ فِى النَّارِ. وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ فَأُتِىَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلاَّ أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ. فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِىَ فِى النَّارِ »).

وقد يقال: زَيَّل ذلك؛ لأن إرادة الثواب إما بالدعاء وإما بالسعي، والأول مسموع والثاني مبصر، وهذا يدل على هذا المعنى ﴿ ... وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ فمن كان يريد الدنيا يعطيه إياها إن أراد الآخرة، ومن كان يريد الدنيا فقط ويقدم الزائل الفاني على الباقي الدائم فهو يسمع ذلك كله ويراه، وسيجازي كل أحد بما أتى من ذلك ﴿ ... وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى : ٢٠].

هذه الآية ينبغي أن يكون فيها معنى من معاني التدبر التي يرى المرء فيها نفسه، ويرى درجته من طلب الآخرة، ويرى درجته في طلب الدنيا، أو يرى درجته في نية الآخرة ونية الدنيا، فهو خائف من ضياع الدنيا، فهو في مصيبتين: مصيبة الحرص على جمع الدنيا، والنية الثانية الخوف من أن يفقدها. فهو معذب بالأمرين معا.

لذلك كان المعنى في التدبر هنا مطلوبا من المؤمن أن يبدأ بنيته في طلب الآخرة، وأن يكون عمله وهمه تلك الآخرة، حينئذ جعل الله غناه في قلبه، وجمع الله عليه شمله، وأتته الدنيا؛ لأنه لن تفوته الدنيا، فإن الرزق والأجل يتعاقبان المرء حتى يدركانه، ولن يخرج من الدنيا إلى وقد استوفى أقصى رزقه وأقصى أجله.

فالمسألة متوجهة إلينا بهذا الحال، وهو: كيف يكون همه الآخرة، وكيف يكون سعيه لها، كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء : ١٩] في الدنيا والآخرة. فكل إنسان يقيس نفسه، ويعرف نيته، وسعيه، ويعرف داءه ودواءه، وقد علم ذلك في الآية؛ ليقوم ذلك كله في إصلاح النفس والإقبال على الآخرة.

وليس ذلك معناه ترك طلب الدنيا، وإنما فارق بين أن تكون الدنيا همة وبين أن يطلب الدنيا لإقامة معاشه، ولتكون تيسيرا له في طلب الآخرة؛ لذلك قال: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص : ٨٣].

الآية السابعة: إنك سميع الدعاء

نختم هذه الآيات التي نفصل في الكلام عليها بكونه سبحانه وتعالى سميع -مجيب- الدعاء فيما لا يمكن إلا أن يكون من عند الله تعالى، وهي هذه الآية: ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ ﴾ [آل عمران : ٣٨] وهي آية جميلة، ومقصدنا في الكلام عليها أن يتعلم المرء كيف يدعو ربه بما لا يخطر على باله، فيستجيب له لأنه هو السميع العليم. كما دعا زكريا ربه بأنه سمع الدعاء، بما لا يدخل في عقل البشر.

قبل هذه الآية، جاء قول الله تبارك وتعالى في قصة مريم عليها السلام: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ...﴾ [آل عمران : ٣٥ - ٣٦]

يقول: ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ ﴾ [آل عمران : ٣٨] دعا ربه ليرزقه الذرية الصالحة الطيبة، التي ترثه وترث من آل يعقوب، أي ترثه في الصلاح والنبوة، ليس في المال والدنيا؛ لأنه قال: ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى ...﴾ [مريم : ٥] يمكن ألا يحافظوا على دعوة الله ودينه، وألا يرفعوا رايته، وألا يقوموا بما يجب عليهم من حفظ دين الله تعالى، خاف على دين ربه فدعا ربه لذلك، فقال هنا: ﴿ ... كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [آل عمران : ٣٧]، هذا ما ذكره بالدعاء، وهذا هو اليقين الذي يجب أن نتعوده في هذه القضايا.

كان زكريا يدخل على مريم لأنه كفلها، وكان يقوم برعايتها من طعام وشراب، فكان يدخل ويراها محفوظة من عند الله، ويجد عندها رزقا لا يتخيله، فكما يقول العلماء: كان يرى

عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف، حتى أنه -وهو النبي المرسل- قال: ﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، الذي إن قال لشيء كن فيكون.

وهنا خرجنا من حسابات العقل والبشر، وحسابات المادة التي يتعامل بها الناس، إلى حسابات الله التي لا حدود لها، فلا توجد حسابات عند الله سبحانه وتعالى: لذلك قالت: ﴿ ... إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [آل عمران : ٣٧] فلذلك دعا زكريا ربه بأن يرزقه ذرية طيبة كما رزق مريم الرزق بغير حساب ، فزكريا كان لا ينجب، وكانت امرأته عاقر، فقال: ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ ﴾ [مريم : ٥] فيقول: إن امرأتي عاقر فهب لي من لدنك وليا !

ففي ذلك المكان الذي شاهد فيه زكريا بركات الرب سبحانه وتعالى، ورأى فيه هذه الخوارق لنواميس الكون، فهنا تنبه زكريا إلى الدعاء إلى الله، ما الذي يمنع حينئذ أن يعطيه فاكهة الصيف في الشتاء، أن يعطيه ولد من غير أن يكون هناك محل للإنجاب، فامرأته لا تستطيع أن تنجب لأنها عاقر، وهو كذلك قد بلغ من الكبر عتيا. فالآية قد نبهته إلى أن يدعو ربه، وإلى أن الله تعالى يفعل ما يشاء.

يقول الشيخ(١): أي في ذلك المكان الذي شاهد فيه هذه المعجزات، فهنالك في هذا المكان قبل أن يخرج، وقد نبّه زكرياء إلى الدعاء مشاهدة خوارق العادة، فقد شاهد الأمور الخارقة للعادة التي لا يمكن أن يأتيها أحد فيه هذه الدنيا، مع قول مريم: ﴿ ... إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [آل عمران : ٣٧].

---

(١) انظر: التحرير والتنوير– الطاهر بن عاشور– ج: ٣، ص: ٢٣٨ – الدار التونسية للنشر.

يقول: والحكمة ضالة المؤمن، وأهل النفوس الصافية يعتبرون بما يرون ويسمعون. فعندما يرى شيئا أو يسمع شيئا يعتبر منه؛ لأنه من أصحاب النفوس الزكية، فزكريا ما إن رأى هذا الحال الحسن حتى جاءته العبرة: لماذا لا تدعو ربك وهو القادر القوي أن يرزقك الذرية الصالحة الطيبة؟!

لذلك يقول: فلذلك عند عليه السلام إلى الدعاء يطلب الولد في غير إبانه -أي في غير وقته- فهنالك تنبه إلى أنه يمكن أن يطلب الذي لا يخطر على البال أن يحدث أو أن يقع أو أن يستجاب له، فهنالك عمد وقصد أن يدعو الله تعالى بطلب ولد ليس في مجاله ولا في إبانه ولا في وقته، وقد كان -كما حكى المولى عنه في سورة مريم- متحسرا من عدم الولد، الذي يريده ليحافظ على دين الله تعالى، فكان يخشى الموالي من ورائه.

وأيضا فقد كان حينئذ في مكان شهد فيضًا إلهيا من الله تعالى، فقد رأى فيه هذا الفضل الإلهي، الذي ينبغي لأهل الخير أن يتوخون الأماكن بما يحدث فيها من خير، بأن يتوخى ويقصد المكان الذي يكون فيه الخير. والأزمنة الصالحة كذلك.

وهذا أمر مهم: أن يتوخى المرء تلك الأماكن التي فيها الخير: الأماكن المشرفة والأزمنة المشرفة، فما هذه الأماكن والأزمنة المشرفة إلا كالذوات الصالحة الذين يظهر فيهم آثار رحمة الله تعالى، فآثار الرحمة تظهر في المكان كما تظهر في الزمان؛ لأنها تظهر على الأشخاص رحمة الله تعالى من الأنبياء والصالحين وكذا وكذا، كما قال سبحانه وتعالى في قصة عيسى: ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ...﴾ [مريم : ٣١].

ونذكر قصة زكريا كما جاءت في سورة مريم لارتباطها بهذه المعاني، يقول: ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝ ﴾ [مريم : ٢] أي: هذا ذكر رحمة ربك بعبده زكريا، عندما نادى ربه نداء خفيا.

وسبب استجابة الله تعالى لهذا الدعاء الخفي هو الإخلاص والتضرع بينه وبين الله سبحانه وتعالى. وبعد هذا الإخلاص والتضرع ذكر الهيئة التي يتودد بها إلى الله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝ ﴾ [مريم : ٤]

فلم أشق أبدا بدعائك، ففي كل مرة كنت تجيبني وتعطيني، فأعلم أنك ستجيبني في هذا السؤال الصعب الذي لا يعطيه إلا أنت.

﴿ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى ...﴾ [مريم : ٥] من ورائي من الموالي لا آمنهم على دينك يا الله، ولا على دعوتك وعبادتك، ولا أن يسيروا في الناس بحفظ التوحيد لك، وإقامة الشعائر لك. وكذلك فامرأتي عاقر، فهب -من أجل ذلك كله- وليا.

كيف يتعلم المرء هذه الأمور، يتودد إلى الله ويتمسكن إليه، ثم يبين له أن المقصود من هذا الطلب هو إقامة دينه، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ ....﴾ [إبراهيم : ٣٧] فتودد إلى الله تعالى بما يحبه ربه ويجيبه عليه، فالله تعالى يحب الصلاة من الناس.

﴿ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ...﴾ [مريم: ٥ – ٧] وكما نقول: عندما يدعو لم يطلب أي طلب وإنما قال: ﴿ ... هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ...﴾ [آل عمران : ٣٨] .

وقوله: ﴿ مِن لَّدُنكَ ﴾ أي من عندك أنت سبحانك، فجنابك العالي يعطي ذلك كله، وهذا يدل على عناية الله تعالى به، وأنه لا يقصد سواه سبحانه وتعالى، يقول الشيخ: وسأل الذرية الطيبة: لأنها التي يرجى منها خير الدنيا والآخرة، وهو الذي يحب الله تبارك وتعالى أن يدعى به، بحصول الآثار النافعة الصالحة، ومشاهدة خوارق العادات خولت زكريا الدعاء، خولت له أن يدعو بما هو من خوارق العادة، أو من المستبعدات: لأنه رأى نفسه في هذه اللحظة غير بعيد عن عناية الله تعالى.

فزكريا عندما رأى أنه يمكن أن يستجاب له دعا ربه؛ لأنه رأى نفسه غير بعيد عن عناية الله تعالى، لا سيما في زمن الفيض أو في مكانه، في فيض الله تعالى ونعمه التي تنزل في ذلك المكان أو في هذا الزمان. حينئذ لا يعد دعاؤه تجاوزا للأدب مع الله تعالى.

فزكريا دعا ربه أن يرزق ذرية طيبة، وهذا هو مشكلة المؤمنين اليوم ألا يملوا من دعاء الله تعالى أن يرزقهم في هذه الأيام العصيبة الذرية الطيبة، أو أن يحافظ على ذرياتهم وأبنائهم سبحانه وتعالى، وليس ذلك على الله ببعيد.

وهذه الآيات يأتي معها السمع -كما ذكرنا- بمعنى الإجابة، فالسميع هنا بمعنى المجيب،أي: "إنك مجيب الدعاء" فكأن شأن الرب إجابة الدعاء سبحانه وتعالى.

ومقصدنا من هذه الآيات هذه المعاني التي ينبغي أن يدعو المرء ربه بأسمائه الحسنى: ليستجيب له، وكيف يتحقق المرء في دعائه وفي نفسه بما يستجيب الله تعالى له به، أي: أن يحقق في نفسه ما يستجيب الله له به، وأن يحقق ذلك في دعائه أيضا، وأن يستغل الأماكن المشرفة والأزمنة المشرفة: ليعتبر كما اعتبر أهل النفوس الزكية بدعاء الله بما لا يخطر على بالهم، ولا يكبر على الله تعالى شيء، وهذا ما نحتاجه في هذه الأيام، أن يفهم المرء كيف يُرفع الدعاء، وبما يرفع، وبما يستجب الله تعالى له، وكيف يتوخى الأماكن والأزمنة المشرفة ليدعو الله فيها، وكيف يكون على هذه الحالة من عناية الله به؛ ليستجيب له سبحانه وتعالى.

وفي آخر الآية التالية قال: ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ...﴾ [آل عمران : ٣٩] الفاء فيها للتعقيب، فهو بعد أن دعا الله تعالى وقف يصلي في المحراب، فهو إما أنه كان يدعو الله وهو يصلي وإما أنه كان دعا الله وقام يصلي ﴿ ... وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ ...﴾ [آل عمران : ٣٩] استجيب الدعاء ﴿ ... مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ ...﴾ [آل عمران : ٣٩] أي مصدقا بما كان من كلام الأنبياء، أو بكلمة من الله وهو المسيح عليه السلام، وكانا مترامنين ﴿ ... وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ ﴾ [آل عمران : ٣٩].

يقول: ﴿ ... ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزًاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴾ [آل عمران : ٤١] ففي الأولى دعا ثم قام يصلي لربه، مستكملا ما يرتفع به الدعاء إلى الله تعالى من العمل الصالح، ثم جاءته البشرى فإذا به يُقال له: ﴿ ... وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴾ [آل عمران : ٤١] فهذه صورة الكر التي أمره الله تعالى أن يكون عليها بعد استجابة الدعاء، فبعد استجابة الدعاء لا بد أن يذكر ربه كثيرا، ويسبح -أي يصلي- بالعشي والإبكار، كصلاة بني إسرائيل، فقد كانت لهم صلاتان في اليوم والليلة في العشي والإبكار.

الآية الثامنة: إنني معكما أسمع وأرى

والآية الأخيرة في اسمه السميع: هي آية سيدنا موسى، وهي متعلقة بالدعوة إلى الله تعالى، وهي في قصة موسى عليه السلام مع فرعون، وهي قوله تعالى: ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ۝ قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه : ٤٥ - ٤٦] والآية قبلها: ﴿ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ۝ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ۝ قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه : ٤٣- ٤٦].

انظر كيف تعرف الله تعالى إلينا بكونه يسمع في هذا السياق، يقول: ﴿ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴾ [طه: ٤٣ - ٤٤]

يقول ابن عاشور[1]: والقول اللين هو الكلام الدال على معاني الترغيب والعرض واستدعاء الامتثال، فالقول اللين هو الذي يحمل في طياته ترغيب من أمامك فيما تريد، ويحمل معنى الامتثال، وذلك بأن يظهر المتكلم للمخاطب أن له من سداد الرأي ما يتقبل به الحق، وأن له من سداد الرأي ما يميز به بين الحق والباطل، مع تجنب أن يشتمل الكلام على تسفيه رأي المخاطب أو على تجهيله.

واللين من شعار الدعوة إلى الحق، وهو الرفق، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "ما كان الرفق في شيء إلا زانه ولا نزع من شيء إلا شانه" [2] وكما قال تعالى: ﴿ ... وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ...﴾ [النحل: ١٢٥] وكما قال: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ ....﴾ [آل عمران : ١٥٩] ومن اللين في دعوة موسى لفرعون قوله تعالى: ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ [النازعات: ١٨ - ١٩].

لما قال المولى سبحانه وتعالى: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ ﴾ [طه : ٤٧] علمنا أن المقصود من دعوة الرسل حصول الاهتداء، فإذا ما حصلت الهداية بالكلام اللين كان هذا هو المطلوب، والهداية إذا حصلت بهذا الكلام فلا يجوز للمرء أن يتعدى هذا الكلام إلى ما يُنفر ويصد عن سبيل الله سبحانه وتعالى.

لذلك يقول: إذ المقصود من دعوة الرسل حصول الاهتداء، لا إظهار العظمة وغلظ القول دون جدوى، فإذا لم ينفع اللين مع المدعو وأعرض واستكبر عن الموعظة فهذا شيء

---

(١) انظر: التحرير والتنوير– الطاهر بن عاشور– ج: ١٦، ص: ٢٢٥ – الدار التونسية للنشر.

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٩٤) ولفظه (عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِىِّ –صلى الله عليه وسلم– عَنِ النَّبِىِّ –صلى الله عليه وسلم– قَالَ « إِنَّ الرِّفْقَ لاَ يَكُونُ فِى شَىْءٍ إِلاَّ زَانَهُ وَلاَ يُنْزَعُ مِنْ شَىْءٍ إِلاَّ شَانَهُ »).

آخر، قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ ...﴾ [العنكبوت : ٤٦] فمن يظلم إما أن تتركه وتنصرف، وإما إن كان إغلاظ القول له سيوقفه عند حده، فهذه مسألة أخرى.

ولذلك بعد أن قال له: ﴿ ... وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ ﴾ [طه : ٤٧] قال لفرعون: ﴿ إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾ [طه : ٤٨] يقول: والترجي المستفاد هنا في قوله: ﴿ ... لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه : ٤٤] تمثيل لشأن هذا الحال.

قوله: ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ﴿٤٥﴾ ﴾ [طه : ٤٥] يفرط أي يعجل ويسبق، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: **"أنا فرطكم على الحوض"**[1] أي والمعنى: نخاف أن يعجل بعقابنا بالقتل أو غيره من العقوبات قبل أن نبلغه حجة الله تعالى ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ ...﴾ وموسى كان خائفا لأنه كان قتل منهم نفسا ﴿ وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الشعراء: ١٤ - ١٥]. ولم يخف موسى عليه السلام من القتل هلعا من القتل، لأنه لما أصبح موسى عليه السلام في مقام الرسالة ما كان بالذي يعبأ بالموت في سبيل الله، ولكن خاف أن يقتل قبل أن يبلغ كلام الله إليه؛ لذلك قال: ﴿ ... نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ﴿٤٥﴾ ﴾ أي: يسبق بالقتل قبل أن نبلغه هذه الرسالة، فقال له تعالى: ﴿ ... لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ [طه : ٤٦].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٧٦) ومسلم (٢٢٩٧) ولفظه (عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ وَلَيُرْفَعَنَّ مَعِي رِجَالٌ مِنْكُمْ ثُمَّ لَيُخْتَلَجُنَّ دُونِي فَأَقُولُ يَا رَبِّ أَصْحَابِي فَيُقَالُ إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ).

يقول: ولكنه خشي العائق من إتمام ما عُهد إليه به من إبلاغ رسالات الله تعالى، يود أن يبلغ رسالات الله ثم إن قتل فليس شيء.

وفي الآية الأخرى: ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ [طه: ٤٣] أي: نخاف أن يخامره كبره، فيجعل ذكرنا إلها دونه تنقيصا له، وطعنا في دعواه الألوهية، فيطغى، ويصدر منه علينا أثر الكبر من التحقير أو الإهانة، أو غير ذلك مما يمكن أن يعمله فينا .

قال الله تعالى: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ ...﴾ أي: لا تخافا حصول شيء من الأمرين: أي يفرط علينا أو أن يطغى، لا هذه ولا هذه، وهو نهي مُكنى به عن نفي وقوع المنهي عنه. والمنهي عنه هو الخوف. والمعنى أنه ليس عليكما خوف، وأنه لن يقع ما تخافان منه.

والعلة في ذلك قوله تعالى: ﴿ ... إِنَّنِى مَعَكُمَآ ...﴾ ومن كان الله معه فلا يكون عليه أحد، فمعه الحارث الذي لا ينام، والهادي الذي لا يضل سبحانه وتعالى، ومعنى: ﴿ ... أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ أي: لا تخافا، فأنا حافظكما من كل ما تخافان منه، فالمعنى أنه تعالى يحفظهما ويمنعهما. فالمترتب على السمع والرؤية أنه جل وعلا يحفظهما، ولا يمكن لهؤلاء الكفرة منهما، وأنه معهما، وإذا كان معهما كان معهما الحفظ، وكان سبحانه وتعالى حافظا لهما، وكان سبحانه وتعالى مؤيدا لهما، ووليا لهما، وناصرا لهما، ومعينا لهما؛ لأن المعية من الله تعالى تقتضي ذلك كله.

والمعية نؤمن بها كما اعتقاد أهل السنة الصحيح، ولكن مقتضى المعية هو الذي نفكر فيها، ومقتضاها أن الله تعالى حافظهما. فمقتضى المعية هنا ومقتضى أنه يسمع ويرى أن يحفظهم؛ لأنهم كما قال في شغل لله تعالى، في دعوة الله تعالى، في رفع راية الله تعالى، في التمكين لدين الله تعالى. حينئذ يكون الرب معهم على هذا الحال أنه لا يمكن أن يقع شيء مما يخافون منه إلا أن يشاء الله تعالى شيئا.

ويسمع ما يحدث ويراه، فهو سبحانه وتعالى يسمع ذلك ويراه، وهو كفيل بما يسمع ويرى منهم أن يكون سبحانه وتعالى معهما، حافظا لهما جل وعلا. وهذا ما يجب أن يعرفه المرء، وهل هو يستحق أن يكون الله معه أو لا يستحق ذلك. وهذا ما يجب أن يعرف المرء به المرء

منزلته من هذه الآية، ودرجته فيها، ثم يعرف أسباب رفع البلاء أو رفع الداء، وشفاء هذا المرض من نفسه، كيف يكون ذلك.

ومقصودنا أن موسى عليه السلام وهارون كانا في شغل الله تعالى ودعوته، وكانا يخافان أن يحدثا لهما ذلك الذي تكلمنا عليه، من الإفراط والطغيان، وإذا بالله تعالى لما كانا له كان هو سبحانه وتعالى حافظا لهما، يسمع ويرى، يكف عنهما ما يمكن أن يصدر من فرعون وطغيانه وبأسه وقتله، وأن ما يمكن أن يصدر منهما لا يمكن أن يصل إليهما، كما قال المولى سبحانه وتعالى: ﴿ ... بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [القصص: ٣٥].

فهذا هو المعنى الذي نقصد إليه في كيف يتحقق المرء بأن يكون الله معه يسمع ويرى، أي يدفع ويحفظ سبحانه وتعالى، كيف يكون في شغل ربه الشغل الذي بينته الآيات في هذه الحالة. لما دعا موسى ربه سبحانه وتعالى، قال: ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ [طه : ٤٣]

﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾ [طه: ٢٥ - ٣٦].

يقول في التفسير: والله تعالى أخذ يستمع لهما هذا الدعاء الطويل، ثم كان في نهايته أن قال: ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾ [طه : ٣٦] في كلمة واحدة.

الفصل الخامس:

العفو سبحانه وتعالى

أولا: المعنى اللغوي للعفو

للعفو عدة معانٍ في اللغة[1]: منها:

- «العَفْوُ» أصلُه: من المَحْو والطَّمْس. «يعفو الله» ﷻ يعني: يمحو السيئات ﷺ ويَمْحَقُها ولا يعاتِب المُسِيءَ عليها، ويترك معاقبتَه عليها. وهو مأخوذٌ من قولهم: «عَفَتِ الرياحُ الآثارَ» يعني: إذا دَرَسَتْها ومَحَتْها، يعني: إذا كان للناس آثارٌ في مَشْيهم على الرمال مثلًا فتأتي الرياحُ فتَمْحُوها وتَطْمِسها، فلا يَتبيَّنها أحد.
- وأيضًا: «عَفَا، يَعْفُو، عَفْوًا»: إذا سمح وأَسْقَط، فهو «عَفُوٌّ».

فإذا سَمَحْتَ وأَسْقَطْتَ المعاقبةَ على الذنب أو الجناية يقال عنك: «عَفُوّ».

- وكذلك «العَفْو» يكون معناه: التَّرْك.

يعني: إذا ترك المرءُ شيئًا تَوْسِعةً على الآخرين فقد عَفَا؛ قال تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [المائدة: ١٠١]. يعني: تركها المولى ﷻ توسِعةً على عباده.

- ويكون «العَفْو» أيضًا بمعنى: البَذْل، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ﴾ [البقرة: ١٧٨] يعني: مَن بُذل له من أخيه شيءٌ، يعني: من أعطاه أخوه شيئًا.
- ويكون «العَفْو» أيضًا بمعنى: السِّتْر والتَّغْطية.
- ويكون «العَفْو» بمعنى: كَثُرَ. «عفا الشيءُ» يعني: كثُر، و«عفا الشَّعر» يعني: طال، و«عفا النبات» يعني: طال وكثُر كذلك. قال ﷻ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ

---

[1] انظر – بتصرف كثير: «الكتاب الأسنى» للإمام القرطبي رحمه الله (ج١/ ١٤٤– ١٤٧) الطبعة الأولى. ومعاجم «لسان العرب، والقاموس المحيط»، مادة: [ع ف و].

﴿حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٤، ٩٥]، ﴿عَفَوا﴾ يعني: كَثُروا[1].

- و«العَفْو» أيضًا هو: الفَضْلُ. قال الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩] أي: الفَضْلَ.
- و«العَفْو» هو: المعروف.
- و«العَفْو»: خِيارُ الشيءِ وأجودُه.
- و«العَفْو»: ما أَتَى بغير مسألةٍ، و«العافي»: هو الذي يعطي بغير مسألة.

وإننا نذكر هذه المعاني كلَّها لِترى كيف وُصِف الله تعالى بها، سواء في التوسعة على العباد، أم في محو السيئات، وفي بذل الفضل - وغير ذلك من المعاني التي يشير إليها لفظ «العَفْو» مما يجوز وصف الله تعالى بها.

---

(1) هذه الآية معناها جميل، يقول الله ﷻ: (وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ) أي: يلجأون إلى الله. ثم بعد ذلك يقول المولى ﷻ: (ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ) يعني: بعد أن أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون إلى الله تعالى ويرجعون إليه ويتوبون، بَدَّلْنا مكان السيئات حسنات استدراجًا لهم. (حَتَّىٰ عَفَوا) أي: حتى كثُروا وزاد مالُهم، فإذا بهم بدلًا مِن أن يرجعوا إلى الله تعالى، قالوا: (قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ) يعني: ليس هناك في السراء إلهٌ يُسبِّبُ هذه السراء ولا هذه الضراء، وإنما هو ترتيب الدنيا فقط، وليس هناك عبرةٌ في ذلك ولا عِظَةٌ ولا ما يدل على صِدْق النبي ولا كَذِبه، وإنما جاءت الضراءُ والسراء ولا علاقة لها بأمر الله جل وعلا. لذلك يكون لهم من الله تعالى: (فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ).

الدليل على اسم الله تعالى «العفو»

«العَفُوُّ» من أسماء الله تعالى، ورد في القرآن والسنة:

قال الله تعالى: ﴿فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٤٣].

وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ۝ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٨، ٩٩].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [المجادلة: ٢].

وقال تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩].

والمتأمِّل في الآيات السابقة يرى أن اسم الله «العفوّ» ورد في القرآن خمس مرات: أربعٌ منها اقترن فيها اسم الله «العفو» مع اسم الله «الغفور»، والخامسة اقترن فيها باسم الله «القدير».

وقد ورد أيضًا في السُّنة الشريفة، ففي حديث السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ عَلِمْتُ أَيُّ لَيْلَةٍ لَيْلَةُ القَدْرِ مَا أَقُولُ فِيهَا؟». قَالَ: «**قُولِي: اللهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ كَرِيمٌ تُحِبُّ العَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي**»[1].

ثانيًا: معنى «العَفُوّ» في حق الله تعالى

المعنى الأول: «العَفُوُّ» من أسماء الله تعالى، وهو على صيغة «فَعُول» من صِيَغ المبالغة، يعني: كثيرُ العَفْوِ ﷻ، يعني: يعفو ﷻ عَفْوًا عظيمًا متزايدًا متناسبًا مع مقدار عظمته وجلاله وكبريائه ﷻ. و«العَفُوُّ»: التجاوز عن الذنب وتركُ العقاب عليه؛ مشتقٌّ من «العَفْوِ»، أي: المَحْوِ والطَّمْس، ومعناه: أنه ﷻ يمحو سيئاتهم ويَطْمِسها.

فهو ﷻ يتجاوز عن سيئات المسيئين، ويترك مساءاتهم - وبالتالي يترك عقابهم - مع استحقاقهم لهذا العقاب ﷻ.

إنَّ من آثار اسم الله تعالى «العَفُوّ» أنه جل وعلا يَضَع عن عباده خطاياهم وآثامهم في الظاهر والباطن، وهذه الخطايا والآثامُ لا يَسْتوفيها ﷻ منهم، فلا يعاقبهم عليها، لماذا؟ الجواب: لهذه الأسباب التي سنذكرها إن شاء الله تعالى:

أول هذه الأسباب: التوبة والاستغفار، فإذا تابوا إلى الله تعالى واستغفروه، فإنه يعفو عنهم، بمحو هذه السيئات، وترك عقابهم عليها، فلا يستوفي منهم تلك الخطايا والآثامَ جل وعلا.

والثاني: الحسنات الماحية، فيتجاوز الله تبارك وتعالى لعباده الصالحين إذا كانت لهم حسناتٌ عظيمة ماحية، فيعفو ﷻ عنهم ما اقترفوا من السيئات والذنوب بسبب هذه الحسنات الماحية، واللهُ تعالى من فضله وكرمه جَعَل أبواب تلك الحسنات الماحية كثيرة جدًّا، لذلك من استكثر في الحسنات وزاد في الأعمال الصالحة والقُرُبات، فإنه يوشك أن يمحو الله تعالى عنه

---

(1) رواه الترمذي (٣٥١٣) وقال: «حديث حسن صحيح». ورواه أيضًا بنحوه الإمامُ أحمد في عدة مواضع بدون لفظ «كريم»، منها حديث رقم (١٧١/٦) ط. ميمنية، وقال الشيخ شعيب في التحقيق: «إسناده صحيح، رجاله ثقات، رجال الشيخين».

السيئات والذنوب والخطايا؛ لكثرة هذه الحسنات. ومن أعظم هذه الحسنات الماحية حسنة التوبة، كما قال جل وعلا: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠].

والثالث: الشفاعة، فإن الله تبارك وتعالى يعفو عنهم بشفاعة الشافعين، فهؤلاء الشافعون يُشَفِّعهم اللهُ تبارك وتعالى في أولئك الذين استَّحَقوا العقابَ واستحقوا أن يُؤخَذوا بالذنب، ويَقبل شفاعتهم فيغفر لهؤلاء المذنبين.

والرابع: الإكرام، وذلك بأن يمحو اللهُ ﷻ سيئاتهم ويعفو عن ذنوبهم وآثامِهم وخطاياهم فلا يستوفيها كرامةً لبعضهم، وقد ورد ذلك في حديث الحَجِيج: أن الله تبارك وتعالى يغفر للحجيج كرامةً منه لبعض إخوانهم المحسنين فهب مسيئهم لمحسنهم[1]. وجاء في الحديث: «**فَيَقُولُ: وَلَهُ غَفَرْتُ، هُمُ الْقَوْمُ لا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ**»[2] فيأتي أحدهم إلى المجلس ليس منهم

---

(١) عَنْ بِلَالِ بْنِ رباحٍ ﷺ أنّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم قال لَهُ غَداةَ جمْعٍ: «يا بِلَالُ أَسْكِت النّاسَ»، أوْ: «أنْصت النّاس». ثُمّ قال: «إنّ اللهَ تطوّل عليْكُمْ في جمْعكُمْ هذا، فوهب مُسيئكُمْ لِمُحْسنِكُمْ، وأعْطى مُحْسِنكُمْ ما سأل، ادْفعُوا باسْمِ اللهِ». أخرجه ابن ماجه (٣٠٢٤)، وصححه الشيخ الألباني (صحيح ابن ماجه: ٢٤٦٨).

(٢) رواه الإمام البخاري (٦٤٨٣)، والإمام مسلم في صحيحهما (٢٦٨٩)، واللفظُ لمسلم من حديث أبي هريرة ﷺ. ونذكر تمام الحديث للفائدة: قال صلى الله عليه وسلم: «إنّ للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَلَائِكَةً سَيَّارَةً فُضُلًا يَتَتَبَّعُونَ مَجَالِسَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا مَجْلِسًا فِيهِ ذِكْرٌ قَعَدُوا مَعَهُمْ، وَحَفَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِأَجْنِحَتِهِمْ حَتَّى يَمْلَئُوا مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَإِذَا تَفَرَّقُوا عَرَجُوا وَصَعِدُوا إِلَى السَّمَاءِ – قَالَ: – فَيَسْأَلُهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: مِنْ أَيْنَ جِئْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: جِئْنَا مِنْ عِنْدِ عِبَادٍ لَكَ فِي الْأَرْضِ يُسَبِّحُونَكَ وَيُكَبِّرُونَكَ وَيُهَلِّلُونَكَ وَيَحْمَدُونَكَ وَيَسْأَلُونَكَ. قَالَ: وَمَاذَا يَسْأَلُونِي؟ قَالُوا: يَسْأَلُونَكَ جَنَّتَكَ. قَالَ: وَهَلْ رَأَوْا جَنَّتِي؟ قَالُوا: لَا أَيْ رَبِّ. قَالَ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْا جَنَّتِي؟! قَالُوا: وَيَسْتَجِيرُونَكَ. قَالَ: وَمِمَّ يَسْتَجِيرُونَنِي؟ قَالُوا: مِنْ نَارِكَ يَا رَبِّ. قَالَ: وَهَلْ رَأَوْا نَارِي؟ قَالُوا: لَا. قَالَ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْا نَارِي؟! قَالُوا: وَيَسْتَغْفِرُونَكَ – قَالَ: – فَيَقُولُ: قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ فَأَعْطَيْتُهُمْ مَا سَأَلُوا وَأَجَرْتُهُمْ مِمَّا

فيُغفر له، فيعفو الله تبارك وتعالى عنه كرامةً لهم، أو قبولًا لعملهم الصالح كما ذكر الله جل وعلا في الحديث الذي أشرنا إليه.

قال الإمام الغزالي رحمه الله[1]: «العَفُوّ هو الذي يمحو السيئات ويتجاوز عن المعاصي، وهو قريب من الغفور، ولكنه أبلغ منه»، فـ«العَفُوّ» أبلغ من «الغفور»؛ «فإن الغفران يُنْبِئ عن السِّتْر، والعَفْوُ يُنبِئ عن المحو، والمحو أبلغ من السِّتْر».

اسْتَجَارُوا – قَالَ: – فَيَقُولُونَ: رَبِّ فِيهِمْ فُلَانٌ، عَبْدٌ، خَطَّاءٌ، إِنَّمَا مَرَّ فَجَلَسَ مَعَهُمْ! قَالَ: فَيَقُولُ: وَلَهُ غَفَرْتُ، هُمُ الْقَوْمُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ».

(1) انظر – بتصرف كثير: «المقصد الأسنى» للإمام الغزالي، (ص١١٧)، مطبعة الصباح – دمشق – ط.١ – ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م. وقد جعلنا كلام الإمام الغزالي بين قوسَيْ تنصيص هكذا: «...». وكلام الإمام الغزالي بأن العَفُو أبلغ من الغفور...إلخ، نقلَهُ عنه كثير من العلماء. وقال صاحب «سبل الهدى والرشاد» (١/ ٤٩٢): [«الغفور» أخصُّ مطلقا من «العَفُوّ»، لأن «الغفور» يستر مع التجاوز، لأنه مأخوذ من «الغفْر» وهو: السَّتْر، ومِن لازمه التجاوزُ في الجملة، لأن عدمهُ – أي: عدم التجاوز – يُعَدُّ مؤاخذةً. و«العَفُوّ»: يتجاوز ولا يَسْتُر، لأنه مأخوذ من «العَفْو» وهو: المَحْو، وذلك بترك المؤاخذة بالذنب بعد ألا يستره] اهـ. وقال أبو هلال العسكري رحمه الله في «الفروق اللغوية» ما حاصِلُه: [«العَفْو»: تركُ العقاب على الذنب. و«المغفرةُ»: تغطيةُ الذنب بإيجاب المثوبة. ولذلك كثُرت المغفرة من صفات الله تعالى دون صفاتِ العباد، فلا يقال: «الغُفْران: يقتضي إسقاطَ العقاب» فقط، فإن إسقاط العقاب هو إيجابُ الثواب، فلا يستحق الغفرانَ إلا المؤمنُ المستحِقُّ للثواب، وهذا لا يستعمل إلا في الله... والعَفْو: يقتضي إسقاط اللوم والذم ولا يقتضي إيجاب الثواب ولهذا يُستعمل في العبد فيقال: عفا زيدٌ عن عمرو»]. انتهى – بتصرف كثير. وقال شيخ الإسلام رحمه الله في شرحه لقوله تعالى: ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦]: [ثم سألوه العفو والمغفرة والرحمة والنصر على الأعداء، فإن بهذه الأربعة تتم لهم النعمةُ المطلقة ولا يصفو عيشٌ في الدنيا والآخرة إلا بها، وعليها مدار السعادة والفلاح. فـ«العَفْو» متضمِّنٌ لإسقاطِ حقِّه ﷻ قِبَلَهم ومسامحتهم به، و«المغفرة» متضمِّنة لوقايتهم شرَّ ذنوبهم وإقباله عليهم ورضاه عنهم، بخلاف العفو المجرد، فإنّ العافي قد يعفو ولا يُقْبِل على من عفا عنه ولا يرضى عنهم. فـ«العَفْو»: تركٌ محض، و«المغفرة»: إحسان وفضل وجُود، و«الرحمة» متضمنة للأمرين مع زيادة الإحسان والعطف والبر؛ فالثلاثة

المعنى الثاني لـ«العَفُوّ»: هو المُفضِل، الذي يعطي الجزيلَ من الفَضْل، وهو مشتق من المعنى الثاني للعَفو بمعنى «الفَضْل». فهو ﷻ العَفُوّ، ذو الفضل العظيم[1].

الفرق بين «العفو» و«العافية» و«المعافاة»

ورد في الحديث الشريف السؤالُ بالعَفْو والعافية والمعافاة:

عن معاذ بن رِفاعةَ عن أبيه قال: «قام أبو بكر الصديق على المنبر ثم بكى، فقال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الأول على المنبر ثم بكى فقال: «سَلُوا اللهَ العَفْوَ وَالعَافِيَةَ فَإِنَّ أحَدًا لَمْ يُعْطَ بَعْدَ اليَقِينِ خَيْرًا مِنَ العَافِيَةِ»»[2].

وقال صلى الله عليه وسلم: «مَا مِنْ دَعْوَةٍ يَدْعُو بِهَا العَبْدُ أَفْضَلَ مِن: اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ المُعَافَاةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ»[3].

والعفو - كما ذكرنا - هو: أن يمحو اللهُ تبارك وتعالى ذنوبَ عبده.

أما العافية: فأن يُعافيه الله تبارك وتعالى من سُقْمٍ أو بَلِيَّة[4]. وهي - أي العافية - الصحة التي هي ضد المرض.

تتضمن النجاة من الشر والفوز بالخير...] انتهى – بتصرف يسير – من «مجموع الفتاوى – التفسير». وللمزيد من المعاني المتعلقة بالمغفرة وبأسماء الله تعالى «الغافر» و«الغفور» و«الغفار»، فارجع إلى شرح هذه الأسماء للمؤلف وهي متوافرة في صورة صوتية على مواقع الشبكة العنكبوتية للمعلومات (الإنترنت).

(1) قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥]، والآيات في ذلك كثيرة.

(2) أخرجه الترمذي وقال: «حديث حسن غريب من هذا الوجه» (٣٥٥٨). وأخرجه الإمام أحمد بنحوه في مسنده، قال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح».

(3) أخرجه ابن ماجه عن أبي هريرة ﷺ (٣٩٨٣)، وصححه الشيخ الألباني في صحيح ابن ماجه.

(4) (البلاء، والبلوى، والبلية): المِحْنة تنْزِل بالمرء. انظر «المعجم الوجيز»، مادة: [ب ل ي].

أما المعافاة: فأن يُعافِيَك اللهُ تبارك وتعالى من الناس وأن يعافيَ الناسَ منك، وأن يُغْنِيَهم عنك وأن يُغْنِيَك عنهم ﷻ، وأن يَصْرِفَ أذاهم عنكَ وأن يصرف كذلك أذاكَ عنهم؛ هذه المعافاة. وهي مطلوب أهل الإيمان كما ذكرنا في شرح اسمه «السلام» جل وعلا.

ذلك هو الفرق بين العفو والعافية والمعافاة التي يطلبها المرء من الله جل وعلا، والتي ورد فيها أحاديث كثيرة.

فإذا علم المرء أن الله تبارك تعالى مُتَّصف بالعَفْو، وأنه ﷻ كثير العَفْو، وأنه جل وعلا يعفو عن الناس إذا تابوا واستغفروا، ويعفو عنهم إذا كان لهم حسنات كثيرة، بل يعفو عنهم بشفاعة الشافعين، ويعفو عنهم تكرُّمًا وفضلًا منه ﷻ، بل يعفو عنهم لأجل بعضهم كرامةً لهم لصلاحهم ولدعائهم ولأعمالهم المقربة لهم منه سبحانه؛ أفلا يدل ذلك على عظيم عفوه، وعلى أن يسارع المرء إلى هذا العَفْو ليكون له منه حظ عظيم.

حظ المرء من اسمه تعالى «العَفُوّ»

الحظ الأول: أن يَعْظُم طمعُ المرء في عَفْوِ الله تعالى

يعني: أن يعظم طمعُك في عفو الله تعالى مهما كثرت الذنوب والخطايا ومهما كثرت السيئات والآثام؛ لأن الله جل وعلا لما كان كثيرَ العفو لا يعظم على عَفْوِه شيءٌ، كما قال الصحابة رضي الله عنهم: «إِذًا نُكْثِرُ؟». قَالَ صلى الله عليه وسلم: «اللهُ أَكْثَرُ»[1] ﷻ، الله أعظم وأجلُّ. لذلك فإن الله تبارك وتعالى لما أمرَ المرءَ بالعفو فقد وعد بأن يعفو ويصفح؛ لذلك وردت

---

(1) رواه الإمام الترمذي بنحوه (٣٥٧٣)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب»، يرويه من حديث عبادة بن الصامت ﷺ. وتمام لفظ الحديث للفائدة: عن رَسُول اللهِ صلى الله عليه وسلم قالَ: «مَا عَلَى الأَرْضِ مُسْلِمٌ يَدْعُو اللهَ بِدَعْوَةٍ إِلَّا آتَاهُ اللهُ إِيَّاهَا أَوْ صَرَفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا مَا لَمْ يَدْعُ بِمَأْثَمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ. فَقَالَ رَجُلٌ مِن القَوْمِ: إِذًا نُكْثِرَ؟ قَالَ: اللهُ أَكْثَرُ». قال في «تحفة الأحوذي»: [«اللهُ أَكْثَرُ» قَالَ الطِّيبِيُّ: أَيِ: اللهُ أَكْثَرُ إِجَابَةً مِنْ دُعَائِكُمْ. وَقِيلَ: إِنَّ مَعْنَاهُ: فَضْلُ اللهِ أَكْثَرُ، أَيْ: مَا يُعْطِيهِ مِنْ فَضْلِهِ وَسَعَةِ كَرَمِهِ أَكْثَرُ مِمَّا يُعْطِيكُمْ فِي مُقَابَلَةِ دُعَائِكُمْ. وَقِيلَ: اللهُ أَغْلَبُ فِي الكَثْرَةِ فَلَا تُعْجِزُونَهُ فِي الِاسْتِكْثَارِ فَإِنَّ خَزَائِنَهُ لَا تَنْفَدُ وَعطاياهُ لا تفنى. وَقِيلَ: اللهُ أَكْثَرُ ثَوَابًا وَعَطَاءً مِمَّا فِي نُفُوسِكُمْ فَأَكْثِرُوا مَا شِئْتُمْ فَإِنَّهُ تَعَالَى يُقَابِلُ أَدْعِيَتَكُمْ بِمَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْهَا وَأَجَلُّ].

آيات كثيرة في عفوه ﷻ، وسَعَة كرمه بمحو سيئات عباده وذنوبهم وخطاياهم وآثامهم حتى يجاهدوا أنفسهم لأن يتصفوا بما يليق بهم من عفو الله تعالى.

قد علمت أن من الطرق التي تتأهل بها لِعفو الله تعالى: التوبةَ والاستغفار، والحسناتِ الماحية، وكذلك شفاعة الشافعين، وحضور مجالس أهل العلم المتقين، وكثرة الدعاء إلى الله تعالى بالعفو والعافية كما أمر النبيُّ صلى الله عليه وسلم عائشة: «**قُولِي: اللهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ كَرِيمٌ تُحِبُّ العَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي**»(¹).

(¹) سبق تخريجه قريبًا. وفي مغْزى الجمْع بين اسم الله «العفُوّ» و«الكريم» في الدعاء في هذا الحديث الشريف يقول الحافظ الكلاباذي رحمه الله: «اللهُ تعالى كريمٌ مُتفضّلٌ عَفُوٌّ غفورٌ جوادٌ وشكورٌ، فإذا رفع إليه العبدُ سائلًا مَنَّهُ وطالبا فضْله، يتكرَّمُ جل وعلا عن أن يَحْرِمه، ويتعالى عن أن يرُدّه، وإنْ كان العبدُ لا يَستوجبُ العطاء ولا يَسْتأهل العفْوَ وكان جل وعز ساخطًا عليه غير راضٍ عنه! فهو تعالى يتفضّل من عنده فيُعطي مَنْ يستوجب الحرمان، ويعفو عن العقوبة كرَمًا منه وتفضُّلًا؛ لأنه جل وعز لا يرضى حرمان عبده وقد مَدَّ إليه يده سائلا منه مفتقِرًا إليه متعرِّضًا بفضله مما لا يَنْقُصه ولا يَؤُوده، ويعْفو عن مَن يستوجب العقوبة وهو غير راضٍ عنه ولا قابلٍ منه. وهو يفعل ذلك عمن تَجلَّى عنده قَدْرُه ويَعْظُم لديه خَطرُه؛ وهو المؤمنُ به المصدِّقُ له المُقرُّ له بالوحدانية المُذْعِنُ له بالعبودية، وإن كان يأتي من العصيان ما يستوجب به العقوبةَ ومن الفعلِ ما يَسْتحِقُّ به الحرمان، فهو جل وعز يُجِلُّ قَدْرَ عبده المؤمن أن يرد يديه صِفْرًا خائبتين وقد رفعهما إليه. وهو جل وعز قد يعطي الكافر به والجاحدَ له والمشرك معه غيره بعضَ ما يسأله، كَرما منه وفضلًا، ويؤخِّر عقوبته ولا يعاجله بها إذا رفع إليه يديه، وهو ساخط عليه مُبْغضٌ له معرض عنه؛ اسْتدْراجًا له وإرادةَ السوء به، لا لإجلاله ولا لِقدْره عنده وكرامته عليه، بل لأنه جوادٌ كريم متفضِّل حليم؛ قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ۝ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٥٣، ٥٤]، ومثله كثير. فإذا كان الله تعالى لا يرُدُّ يَدَ من يرفعها إليه صِفرًا، وهو له عاصٍ ولأمره تاركٌ وعن أداء حقوقه مُعْرضٌ؛ فما ظنُّك بمن يرفع إليه يديه مفتقرا إليه، متذلِّلا له، معتذِرًا إليه، مقبلًا عليه، يسأله سؤال المُضْطرِّين، ويدعوه دعاء الغريق، ويتعرض لعفوه تعرُّضَ مَن لا يستأهل لنفسه حالًا، ولا يرى لنفسه، لا يرجو إلا فضله، ولا يعتمد إلا على كرمه، سبحان الكريم ذي الفضل العظيم». انتهى من «بحر الفوائد» للحافظ محمد بن أبي إسحاق الكلاباذي المتوفى في ٣٨٤هـ، شرح حديث: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَى كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي إِذَا رَفَعَ إِلَيْهِ العَبْدُ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا حَتَّى يَضَعَ فِيهِمَا خَيْرًا**».

وهذه الأدعية ينبغي أن تكون من ذِكْر أهلِ الإيمان، إذ كلما سمعوا هذا الاسم المشرف «العفوّ»، كانت وظيفتَهم التي يُوظِّفون أنفسهم عليها، وذِكْرَهم الذي يُدَنْدِنون به: أن يقولوا: «اللهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ العَفْوَ فَاعْفُ عَنَّا». وينبغي على المرء ألا يخلو مجلسُه من ذكر الله تعالى، فلْيبادر إلى ذكر لا يغفل عنه حتى يُكتب من هؤلاء الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات.

مَن سَمِعَ اسمه «العَفُوّ» بادر إذًا إلى الاتصاف بهذا العفو، ودعا الله تعالى باسمه «العفو»، وتعلق به جل وعلا. وقد علمت أيها المسكين أن ذنوبك التي تريد أن يمحوها الله لك كثيرة، ولو اطلع عليها الناس لكان ذلك سبب فضيحتك في الدنيا والآخرة، ولولا عفو الله عنك بمحوه هذه الذنوب، وطمس هذه الذنوب - لكانت سببًا في افتضاحك في الأولى، وعلى رءوس الأشهاد في الآخرة، وأنت تعلم ذلك من نفسك في الظاهر والباطن، وأنت تُغمض عينيك عما تأتي من الأفعال، والأقوال، والوساوس، وعما تقترف من الذنوب والمعاصي التي تخشى أن يطلع عليها أحد وتستحي أن يطلع عليها الناس، واللهُ تعالى مطلع عليها كما تعلم، ومراقب لها، وشهيد عليها كما بينًا في شرح اسمه «الشهيد» ﷻ؛ لذلك أنت محتاج إلى أن تأخذ حظك من اسم الله تعالى «العفو».

الحظ الثاني: الافتقار إلى عفو الله تعالى

إذا نظر المرء في أعماله وأقواله، وجد أنه ليس إلا عفو الله تعالى، أو الهلاك! فإذا وازنتَ بين سيئاتك وحسناتك، ووازنتَ بين ما يخرج منك إلى الله تعالى، وما ينزل إليك من الله جل وعلا من الستر والحفظ والرعاية والعناية والقيام على شئونك، وإمدادك بأسباب حياتك وبقائك، وإمدادك بأسباب طاعتك وعبادتك وقُرْبك، رأيت أنه إما عفوه وإما الهلاك ﷻ؛ لأن الصاعد إليه منك - كما تعلم - لا يوازي نعمة واحدة مما ينزل إليك منه ﷻ.

لذلك كان لزامًا أن يعلمك هذا الاسم المشرف الافتقارَ إلى عفو الله تعالى، وأنك محتاج في كل نبضة من نبضاتك وفي كل دقيقة من دقائقك ظاهرًا وباطنًا إلى عفو الله تعالى؛ لأنك تعلم يقينًا أن ما تأتي به ربَّك ﷻ يوم القيامة ليس سببًا للنجاة، وأن ما أتيت من أعمال صالحة لو وُزِنت بنعمة واحدة من نعم الله تعالى لرجحت هذه النعمة؛ لذلك قال النبي صلى الله عليه

وسلم: «لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الجَنَّةَ». قَالُوا: «وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟». قَالَ: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ مِنْهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ»(١).

كذلك يتعلم المرء من هذا الاسم المشرف: ألا يتكل على عمله وطاعاته وعباداته، ولا على قوته وفهمه وعلمه، ولا على شيء من ذلك، وإنما في كل ذرة من ذراته افتقارٌ محض إلى الله تعالى، وإلى عفوه جل وعلا، وأن يستشعر أنه إذا لم يعفُ الله ﷻ عنه فذلك بداية ونهاية هلاكه الذي لا هلاك بعده. وهذه الحال هي من أعظم الأحوال إن تحقق بها المرء في معاملته لله تعالى، وأن يُظْهِر لربه هذا الانتظار والمحبة للعفو، وأنه في نهاية الضرورة والحاجة إليه، وأنه لولا عفو الله تعالى لهلك، ولولا حب الله تعالى لشقي في الدنيا والآخرة.

وقد بيَّن اللهُ تعالى ذلك فقال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١]. يعني: لولا فضلُه ورحمتُه ﷻ، لم يَتزكَّ المرء، ولم يُصلِّ عُمُرَه، كما كان يذكر أصحاب النبيِّ صلى الله عليه وسلم بمحضره:

اللهمَّ لولا أنتَ ما اهْتَدَيْنا ولا تَصَدَّقْنا ولا صَلَّيْنا(١)

---

(١) أخرجه الإمامان: البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦) في صحيحيْهما، من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعًا. [وَمَعْنَى «يَتَغَمَّدَنِي بِرَحْمَتِهِ»: يُلْبِسنِيهَا وَيُغَمِّدنِي بِهَا. وَمِنْهُ: «أَغْمَدْت السَّيْف» وَ«غَمَدْته»: إِذَا جَعَلْته فِي غِمْده وَسَتَرْته بِه. وفِي ظَاهِر هذَا الحَدِيث دَلَالَةٌ لِأَهْلِ الحَقّ أَنَّهُ لَا يَسْتَحِقّ أَحد الثَّوَاب وَالجَنَّة بِطَاعَتِهِ، وَأَمَّا قَوْله تعَالَى: ﴿ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]، ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢] ونحْوهما مِن الآيَات الدَّالَّة عَلى أَنَّ الأَعْمَال يُدْخَل بِهَا الجنَّة، فَلَا يُعَارِض هذهِ الأَحَادِيث، بَلْ مَعْنَى الآيَات: أَنَّ دُخُول الجنَّة بِسَبَب الأَعْمَال، ثُمّ التَّوْفِيق لِلأَعْمَال والهِدَايَة لِلْإِخْلَاص فِيهَا وَقَبُولها بِرَحْمَةِ الله تعالى وفَضْله. فيَصِحّ أَنَّهُ لَمْ يَدْخُل بِمُجَرَّدِ العمَل، وهُوَ مُرَاد الأَحَادِيث، ويَصِحّ أَنَّهُ دخل بِالأَعْمَالِ، أَيْ بِسَبَبِهَا، وهِيَ مِن الرَّحْمَة. واللَّهُ أَعْلَم. وقوله صلى الله عليه وسلم في رواية أخرى في آخر الحديث: «فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا» أي: اطْلُبُوا السَّدَاد واعْمَلُوا بِهِ، وَإِنْ عَجَزْتُمْ عَنْهُ فقَارِبُوهُ، أي: اقْرَبُوا مِنْهُ. وَ«السَّدَاد»: الصَّوَاب، وَهُوَ بَيْن الإِفْرَاط وَالتَّفْرِيط، فلا تغْلُوا وَلَا تُقَصِّرُوا]. انتهى بتصرف واختصار من «شرح الإمام النووي على صحيح مسلم».

ولا غير ذلك من الأعمال الصالحة يستطيع المرء أن يفعلها إلا بفضل الله عليه وتوفيقه ورحمته جل وعلا.

إنَّ تَعَلُّم المرءِ هذه المسألة يُخرجه عن رعونة النفس التي ترى أنه تصدق، وصلى، وأنه يقوم الليل، ويقرأ القرآن، وأنه يفعل كذا وكذا. ومع ذلك فحالته سيئة؛ يقول: «أنا أصلي وأصوم وأفعل كذا وكذا من الطاعات، ولكن أجد أحوالي سيئةً في كذا وكذا، ومعاملاتي سيئة في كذا وكذا..» أليس كذلك؟

إذن لا تقل: «أنا صليتُ»، ولا: «أنا تعبدتُ»، ولا: «أنا تصدقتُ»، ولا:...إلخ. ولكن انسُبْ كلَّ هذا الفضل لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١]. فعلمتَ أن الفضل بيد الله تعالى في التزكية، وأنه هو الذي أعانك على الطاعة، وأنه لو لم يُعنك عليها ما أعانك عليها أحد، وأن نفسك الأمارة بالسوء هذه لا تدعوك إلى الطاعة ولا تحملك عليها، بل تحملك على النوم والكسل، وتحملك على المعصية وعلى النظر المحرَّم والسماع المحرم، وعلى الأُنْس بغير الله تعالى، وتحمِلك على الشهوات والنزوات ونسيان الآخرة والميل إلى الدنيا، وأنت تعلم ذلك.

ولولا أن الله تعالى أقعدك في مكانك هذا لشاركت في المعاصي والسيئات والذنوب، فعلمت حينئذ أنه لا طريق لك إلا عفو الله تبارك وتعالى أو الهلاك.

فهذه المسألة مهمة وتبين لك حظك من الله تعالى في عفوه جل وعلا، الذي ينبغي أن تسعى وتسارع في تحصيله. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن صلاتك وبقية عباداتك لم تصل بعد إلى موضع القبول والمحبة التي يغير الله بها أحوالك السيئة، فالعيب من الوجهين فيك والنقص وعدم القبول في أعمالك.

---

(١) انظر مثلا الحديث الذي أخرجه الإمامُ البخاري في مواضع، منها (٤١٩٦)، من حديث سلمة بن الأكوع ﷺ.

الحظ الثالث: أن تعفو عن الآخرين

والحظ التالي من العفو، وهو: إذا علمتَ أنك محتاج إلى عفو الله تعالى، وأن كل ذرة من ذراتك هذه لولا عفوُه ﷻ لهلكتَ، وأن عملك كله لا يساوي شيئًا، وأنك لن تدخل الجنة بعملك هذا الذي تَدَّعي، فإنه حينئذ يكون من أخلاقك التي ندبك إليها الشرعُ أن تعفو عمَّنْ ظلمك، وأن تعفو عن الناس جميعًا؛ مَن أساء إليك وحرمك وجهل عليك، كما ورد في حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي يقول فيه القائل: «إِنَّ لِي قَرَابَةً أَصِلُهُمْ وَيَقْطَعُونِي، وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسِيئُونَ إِلَيَّ، وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ». فَقَالَ: «**لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ، وَلَا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ**»[1]. ومعنى «**فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ**» يعني: كأنَّه يضع في أفواههم الرملَ الحار الساخن، و«**الظَّهِيرِ**» هو المعين الدافع لأذاهم. كأنه يقول له ﷺ: لكَ الحُجَّةُ عليهم ولكَ مِن الله عليكَ حافِظٌ ما دُمتَ على ذلكَ.

وقد أشرنا في شرح اسم الله تعالى «الودود» إلى أن ذلك من فواضل الأعمال في الحديث الذي سأل فيه عقبةُ بن عامر ﷺ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قائلًا: «يَا رَسُولَ اللهِ، أَخْبِرْنِي بِفَوَاضِلِ الأَعْمَالِ». فَقَالَ: «**يَا عُقْبَةُ! صِلْ مَنْ قَطَعَكَ، وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ، وَأَعْرِضْ عَمَّنْ ظَلَمَكَ**»[2].

حظك من اسمه «العفو» ﷻ إذن: أن تكون عفوًّا؛ وليس عفوًا فقط عن الآخرين، بل عفوًا أيضًا على مَن ظَلَمك وجهل عليك وقطع عنك عطاءه وصلته وأساء إليك ولم يَصِلْكَ وأعرض عنك. لذلك يقول صلوات الله وسلامه عليه: «**مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنَفِّذَهُ**،

(١) رواه الإمام مسلم (٢٥٥٨)، يرويه من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) انظر تخريجَ هذا الحديث الحسن والتعليق عليه وترجمة راويه ﷺ في شرح اسم الله «الودود» ﷻ. (ص ٥٩، ٦٠) الطبعة الثانية.

دَعَاهُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى رُءُوسِ الخَلَائِقِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ فِي أَيِّ الحُورِ شَاءَ» رواه الترمذي، وقال: «حسن غريب»[1]، وهو حديث صحيح.

فمن كظم غيظًا لله تعالى، فإن الله تبارك وتعالى يُخيره على رءوس الخلائق في أي الحور شاء، بهذا الكظم للغيظ الذي ينبغي أن تتخلق به من أَخْذِك بحظك من أسماء الله تعالى وصفاته.

وكان النبيُّ صلى الله عليه وسلم أعظم الناس تخلقًا بهذا الخلق الكريم من العَفو صلوات الله وسلامه عليه، كما سنذكر في الفصل الثاني إن شاء الله تعالى.

مسألة: ما الفارق بين العفو والذل؟

العفو هو القدرة على استيفاء العقوبة، فيصفح المرء عن المذنِب ويمحو سيئاته مع قدرته عليه. أما الذل، فإنه يعفو عنه مع عدم القدرة، والمهانة والضعف والعجز وذلة النفس؛ لذلك لا يتصف بالعفو إلا مَنْ كان قادرًا على إنفاذ العقوبة كما ذكرنا في بداية القول في تعريف العَفُو، وهو الذي يمحو السيئات ولا يعاجل أصحابها مع استحقاقهم وقدرته عليهم.

مسألة: ترك التثريب في العَفْو

ومن المسائل المهمة التي ذكرها أهل العلم مع خُلُق العَفْو: أن العافي لا يُذكِّر مَن عفا عنه بما كان منه، وهي مسألة مهمة كثيرًا ما نقع فيها، وهو أنه قد عفا عنه في مسألة أو في أمر أو في شيء حدث له معه، إذا به بعد ذلك إن حدث حادث بينهما ذكَّره به قائلًا: «ألم أفعل لك كذا؟ ألم أسامحك في المرة السابقة؟ ألم أعفُ عنك؟ وفعلت كذا وكذا» فليس من تمام العَفْو أن يُذكره بسابق عفوه، وأن يذكِّره بهذا الجفاء الذي كان منه، وأن يذكره بمِنَّتِه عليه، بل من تمام العفو أن يعفو بغير مقابل، وألا يذكره بذلك، وألا يَمُنَّ عليه به[2]، بل -كما أشرنا- أن يزيد

---

(1) رواه الإمام الترمذي (٢٠٢١)، وقال: «هذا حديث حسن غريب»، يرويه من حديث معاذ بن أنس الجهني ﷺ.

(2) وسنرى ذلك في عفو يوسف ﷺ مع إخوته في الفصل الثاني إن شاء الله تعالى.

في إحسانه له، أو أن يحسن إليه بعد عفوه عنه، وهذا غاية المحو للجناية، وغاية المحو لها هي نفسها غاية اتصاف العبد بهذا الاسم المشرف «العفو».

يجب عليك إذن ألا يزال لسانك ذاكرًا بـ«اللهم إنك عفو كريم تحب العفو» «اللهم إنك عفو» «اللهم إنك عفو» حتى يضع الله في قلبك العفو عن الناس وحتى يمن عليك هو ﷻ بأن يعفو عنك، وتداوم على هذا الذكر لترى آثار هذا الاسم المشرف في قلبك، وفي فعلك، وفي قولك، وفي تصرفاتك، حتى يتجاوز الله تعالى عنك.

مسألة: هل يجوز التخلق بأخلاق العَفْو مع غير المسلمين وإن أساؤوا؟

العفو الذي ندب إليه الشرع إنما هو بين المؤمنين، لما أمر ﷻ بالعفو أمر ﷻ بمعاقبة الكفرة بمثل ما يُعاقِبُون به، ثم ذكر العَفْوَ ليس عنهم وإنما العفو على غير مزيد الجناية عليهم، فليس المقصود أن يعفو عنهم، وإنما المقصود ألا يتجاوز العقوبة في الاعتداء عليهم، وأن يعاقبهم بمثل عقوبتهم حتى ولو كانوا هم البادئين بالظلم، مع أن البادي أظلم، إنما لا يتجاوز المرء في عقوبته معهم عما عاقبوه به، ولا يعفو عنهم ويترك عقابهم إلا لمصلحة إيمانهم وتألُّفهم كما فعل النبيُّ صلى الله عليه وسلم مع كفار مكة عند الفتح.

مسألة: هل من مقتضيات عفو الله تعالى على العبد أن يستر عليه ذنبه يوم القيامة فلا يطلع عليه أحد؟

نعم، إن ذلك من مقتضيات العفو الواسع من الله تعالى، وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ اللهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، وَيَسْتُرُهُ فَيَقُولُ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ. حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ. فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ»[1].

---

[1] رواه الإمام البخاري (٢٤٤١) والإمام مسلم (٢٧٦٨) بنحوه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا.

عفو النبي صلى الله عليه وسلم

ونذكر بعض الأحاديث التي تُبيّن شيئًا من عَفوه صلى الله عليه وسلم الواسع، والتي تُبين أنه صلى الله عليه وسلم قد أخذ بحظٍّ وفيرٍ من اسمه تعالى «العَفُوّ».

عفوه صلى الله عليه وسلم عن الأعرابي الذي جذبه جذبة شديدة

عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: «كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَعَلَيْهِ رِدَاءٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الحَاشِيَةِ. فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَبَذَهُ بِرِدَائِهِ جَبْذَةً شَدِيدَةً. نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عُنُقِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَقَدْ أَثَّرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَبْذَتِهِ. ثُمَّ قَالَ: «يَا مُحَمَّدُ! مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي عِنْدَكَ». فَالتَفَتَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَضَحِكَ ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ»(١). وفي رواية قَالَ لَهُ الأَعْرَابِيُّ: «احْمِلْ لِي عَلَى بَعِيرَيَّ هَذَيْنِ فَإِنَّكَ لَا تَحْمِلُ لِي مِنْ مَالِكَ وَلَا مِنْ مَالِ أَبِيكَ»(٢). ولم يُؤاخذه ﷺ!

تُرى لو كان أحدُنا مكانَه صلى الله عليه وسلم ومَسَكه أحدٌ وخنقه، وقال له: «أعطني من مال الله لأنه ليس مالك ولا مال أبيك»، لحدث ما لا يُحمد عقباه، وحدث كذا وكذا بينهما من المشاجرات وغيرها من الخلق السيئ.

---

(١) رواه بنحوه الإمامُ البخاري في صحيحه (٥٨٠٩)، والإمامُ مسلم (١٠٧٥) في صحيحه، وفي روايةٍ أخرى عند مسلم قَالَ: «ثُمَّ جَبَذَهُ إِلَيْهِ جَبْذَةً رَجَعَ نَبِيُّ اللهِ صلى الله عليه وسلم فِي نَحْرِ الأَعْرَابِيِّ». وَفِي رواية أخرى عنده أيضًا: «فَجَاذَبَهُ حَتَّى انْشَقَّ البُرْدُ، وَحَتَّى بَقِيَتْ حَاشِيَتُهُ فِي عُنُقِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم». [وقوله «جَبَذَ» أي: جذب. قال الإمام النووي في الشرح: فيهِ – أي في هذا الحديث – احْتِمَالُ الجَاهِلِينَ وَالإِعْرَاض عَنْ مُقَابَلَتهمْ، وَدَفْعُ السَّيِّئَة بِالحَسَنَةِ، وَإِعْطَاءُ مَنْ يُتَأَلَّف قَلْبُهُ، وَالعَفْوُ عَنْ مُرْتَكِب كَبِيرَة لَا حَدَّ فِيهَا بِجَهْلِهِ، وَإِبَاحَةُ الضَّحِك عِنْد الأُمُور الَّتِي يُتَعَجَّب مِنْهَا فِي العَادَة. وَفِيهِ كَمَالُ خُلُق رَسُول اللهِ صلى الله عليه وسلم وَحِلْمه وَصَفْحه الجَمِيل]. اهـ

(٢) أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة ﷺ (٤٧٧٥).

فهذا يبين هذا المعنى: لذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يغضب لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمات الله تعالى كما ورد في حديث السيدة عائشة رضي الله عنها: «**وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِنَفْسِهِ إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ**»[1].

فأهلُ الإيمان إذن مَحْقُوقون - يعني عليهم حق - أن يكون حظُّهم من الله تبارك وتعالى هذا المعنى، وذكرنا أن النبي صلى الله عليه وسلم هو أعظم الناس في هذه الأخلاق الحسنة. وقد يقول القائل: «أنا إذَا عَفَوْتُ عن فلانٍ ساكون مَحِلًّا للاستهزاء والسُّخْرية، ويقول الناس: إنني ضعيف، وإنني لا كرامةَ لي... إلخ» أليس كذلك؟

لا.. النبيُّ صلى الله عليه وسلم عكس هذه القضية؛ قال: «**مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ**»[2]، لا يكون العفو والأخلاق الحسنة الصالحة من عواقبها أن تكون في محِل الإهانة، لا.. لقد أكرمك الله تعالى بذلك ورفعك به، كما كان حال النبي صلى الله عليه وسلم.

عفوه صلى الله عليه وسلم عن قومه بمكة قبل الهجرة

عن عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّهَا قَالَتْ لِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «يَا رَسُولَ اللهِ! هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟». فَقَالَ: «**لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ! وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ: إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ. فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ فَنَادَانِي، فَقَالَ: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ». قَالَ: فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: «يَا مُحَمَّدُ! إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ، وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ: فَمَا شِئْتَ؟ إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبَيْنِ؟». فَقَالَ لَهُ**

---

(1) رواه الإمام البخاري (٣٥٦٠) بنحوه، والإمام مسلم (٢٣٢٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(2) رواه الإمام مسلم (٢٥٨٨)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»[1].

عفوه صلى الله عليه وسلم عن ثمانين رَجُلاً أرادوا قَتلَه غِيلةً

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه: «أَنَّ ثَمَانِينَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ هَبَطُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم مِنْ جَبَلِ التَّنْعِيمِ مُتَسَلِّحِينَ يُرِيدُونَ غِرَّةَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وَأَصْحَابِهِ. فَأَخَذَهُمْ سَلَمًا فَاسْتَحْيَاهُمْ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٢٤]»[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥). قال الحافظ في «الفتح»: [قَوْلُهُ: «بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ»: هُوَ مِيقَات أَهْل نَجْد، وَيُقَال لَهُ: «قَرْن المنازل» أَيْضًا، وَهُوَ عَلَى يَوْم وَلَيْلَة مِنْ مَكَّة. «قَرْنٌ»: كُلُّ جَبَل صَغِير مُنْقَطِع مِنْ جَبَل كَبِير... وذكرَ مُوسَى بْن عُقْبَة في «المَغَازِي» عَن ابْن شهاب أَنَّهُ صلى الله عليه وسلم لمَّا مات أَبُو طالب توجَّه إِلَى الطَّائف رَجَاء أَنْ يُؤْوُوهُ، فعمد إلى ثلاثة نَفَر مِنْ ثَقِيف وَهُمْ سادتهمْ، وهُمْ إِخْوة عبْد ياليل وَحبيب وَمسْعُود بنُو عمْرو، فَعَرَضَ عَلَيْهِمْ نَفْسه وَشَكَا إِلَيْهِمْ مَا انْتَهَكَ مِنْهُ قَوْمه، فَرَدُّوا عَلَيْهِ أَقْبَح رَدّ... وقَوْله: «مَا شِئْتَ؟» اسْتِفْهام، وَجَزَاؤُهُ مُقَدَّر، أَيْ: إِنْ شِئْتَ فَعلْتُ... قَوْلُهُ: «الْأَخْشَبَيْنِ» بِالْمُعْجَمَتَيْنِ: هُما جَبَلا مَكَّة؛ أَبُو قُبَيْس وَالَّذِي يُقابلهُ، وَسُمِّيا بذلك لِصلَابَتهمَا وَغِلَظ حِجارَتهما، وَالْمُراد بِإِطْبَاقِهِمَا: أَنْ يَلْتَقِيَا عَلَى مَنْ بِمَكَّة... وَفِي هذا الحَدِيث بَيَانُ شَفَقَة النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم عَلَى قَوْمه، وَمَزِيدُ صَبْره وَحِلْمه، وَهُوَ مُوَافِق لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وَقَوْله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].]. انتهى باختصار وتصرف من «الفتح»، شرح الحديث رقم (٣٢٣١).

(٢) أخرجه الإمام مسلم (١٨٠٨) وغيره عن أنس رضي الله عنه. [قوله: «ثَمَانِينَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ» أي: من كفارهم. «هَبَطُوا» أي: نزلوا. «عَلَى رَسُولِ اللهِ» أي: عام الحديبية. «مِنْ جَبَلِ التَّنْعِيمِ»: التنعيمُ موضع على ثلاثة أميال أو أربعة من مكة، وهو أقرب أطراف الحلِّ إلى البيت، سُمِّيَ التنعيم بذلك لأن على يمينه جبل نعيم وعلى يساره جبل ناعم والوادي اسمه نعمان. «مُتَسَلِّحِينَ» أي: حالَ كونهم لابسينَ السلاح من الدروع وغيرها. «يُرِيدُونَ غِرَّةَ

عفوه صلى الله عليه وسلم عن أهل مكة يوم الفتح

عن أُبَيِّ بنِ كَعْبٍ ﷺ قَالَ: «لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ أُصِيبَ مِنَ الأَنْصَارِ أَرْبَعَةٌ وَسِتُّونَ رَجُلًا وَمِنَ المُهَاجِرِينَ سِتَّةٌ - فِيهِمْ حَمْزَةُ - فَمَثَّلُوا بِهِمْ. فَقَالَتِ الأَنْصَارُ: لَئِنْ أَصَبْنَا مِنْهُمْ يَوْمًا مِثْلَ هَذَا لَنُرْبِيَنَّ عَلَيْهِمْ. قَالَ: فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ فَتْحِ مَكَّةَ فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦] فَقَالَ رَجُلٌ: لَا قُرَيْشَ بَعْدَ اليَوْمِ. فَقَالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «كُفُّوا عَنِ القَوْمِ إِلَّا أَرْبَعَةً»[1].

النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وَأَصْحَابِهِ»: «غِرَّةً» بكسر الغين المعجمة وتشديد الراء أي: غفلتهم. «فَأَخَذَهُمْ سَلَمًا» أي: أسرهم، والمراد بـ«السَّلَم»: الاستسلام والإذعان، كقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ [النساء: ٩٠] أي: الانقياد وهو مصدر يقع على الواحد والاثنين والجمع. «فَاسْتَحْيَاهُمْ» أي: استبقاهم وتركهم أحياءً ولم يقتلهم، وفي رواية: «فَأَعْتَقَهُمْ». فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الفتح: ٢٤]، وإنما فصل الآية بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ وعدًا لهم بجزاء ما صدر عنهم من العَفْو بعد الظفر. انتهى – باختصار وتصرف كثير جدًا – من: «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» للملا علي القاري رحمه الله.

(1) أخرجه الترمذي من حديث أُبي بن كعب ﷺ، وقال– أي الإمام الترمذي –: «حديث حسن غريب» من حديث أُبي بن كعب (٣١٢٩). وأخرجه الحاكم وقال: «حديث صحيح» (٣٣٦٨) ط. العلمية. وقال الذهبي في «التلخيص»: «صحيح». [قوله ﷺ: «فَمَثَّلُوا بِهِمْ» أيْ: مَثَّلَ الكُفَّارُ بالَّذين أُصيبُوا من الأنْصَار والمُهاجِرين، يُقالُ: «مَثَلْتُ بالحيوان، أَمْثُل به، مَثْلًا»: إذا قَطَعْتُ أطرافه وشوَّهْتُ به، و«مَثَّلْتُ بالقَتيل»: إذا جَدعْت أنفه أو أذُنَه أو مذاكِيرَه أو شيئًا من أطرافِه، والاسم: «المُثْلة»، فأمّا «مَثَّل» بالتشديد: فهو للمبالغة. «لَنُرْبِيَنَّ عَلَيْهِمْ»: مِن الإِرْبَاءِ، أيْ: لنزيدنّ ولَنُضَاعِفَنّ عليْهِمْ فِي التَّمْثِيل. قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم...﴾ الآية، والأمرُ في قوله تعالى ﴿فَعَاقِبُوا﴾ وإن دل على إباحة المماثلة في المُثْلة من غير تجاوزٍ، لكن في تقييده بقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ حثٌّ على العفو تعريضًا، وقد صرّح به – أي صرّح بالعفو– على الوجه الآكد فقيل: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ﴾، أي: عن المعاقبة بالمثل، ﴿لَهُوَ﴾ أي: لَصَبرُكم ذلك، ﴿خَيْرٌ﴾ لكم من الانتصار بالمعاقبة، وإنما قيل: ﴿لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ مدحًا لهم وثناءً عليهم بالصبر أو وَصْفًا لهم بصفةٍ تحصل لهم عند تركِ المعاقبةِ. وأمّا قوله ﷺ «كُفُّوا عَنِ القَوْمِ إِلَّا أَرْبَعَةً» فحتى هؤلاء الأربعة عفا

انظر إلى عفوه صلى الله عليه وسلم! آذاه قومه وآذَوْا أصحابَه ثلاثَ عشْرةَ سنة في مكة ثم قاتلوه ثمانية سنين وكسروا رَباعيته وجرحوا ركبته وأسالوا الدمَ من وَجْنَتيه الشريفتين يوم أُحد ثم لما تمكن منهم عند فتح مكة عفا عنهم صلى الله عليه وسلم.

عفوه صلى الله عليه وسلم عن اليهودية التي حاولت قتله بالسُّم

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ: أَنَّ يَهُودِيَّةً أَتَتِ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم بِشَاةٍ مَسْمُومَةٍ، فَأَكَلَ مِنْهَا، فَجِيءَ بِهَا فَقِيلَ: «أَلَا نَقْتُلُهَا؟». قَالَ: «لَا»[1].

عفوه صلى الله عليه وسلم عن أسَارى هوازن يوم حنين

عن زُهَيْرِ بْنِ صُرَدٍ الجُشَمِيّ[1] قال: «لَمَّا أَسَرَنَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَوْمَ حُنَيْنٍ[2] يَوْمَ هَوَازِنَ، وَذَهَبَ يُفَرِّقُ الشُّبَّانَ وَالسَّبْيَ أَنْشَدْتُهُ هَذَا الشِّعْرَ»:

صلى الله عليه وسلم عن اثنين منهم! ففي حَديثِ سَعْد بن أبي وقَّاص ﷺ عِنْدَ النَّسَائيِّ (٤٠٦٧) قالَ: «لَمَّا كَانَ يَوْمُ فَتْحِ مَكَّةَ، أَمَّنَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم النَّاسَ إِلَّا أَرْبَعَةَ نَفَرٍ وَامْرَأَتَيْنِ، وَقَالَ: اقْتُلُوهُمْ وَإِنْ وَجَدْتُمُوهُمْ مُتَعَلِّقِينَ بِأَسْتَارِ الكَعْبَةِ»، عكْرِمةُ بْنُ أَبي جَهْل، وَعَبْدُ الله بْنُ خطَل، ومَقيسُ بْنُ صُبابَةَ، وعَبْدُ اللهِ بْنُ سَعْدِ بْنِ أبي السَّرْحِ... وأمَّا عِكْرِمةُ: فركِبَ البحْرَ، فَأصابتْهُمْ عاصِفٌ، فَقالَ أَصْحابُ السَّفِينةِ: «أَخْلصُوا فَإِنَّ آلِهتكُمْ لَا تُغْنِي عَنْكُمْ شيْئًا هَا هُنَا». فقال عِكْرِمةُ: «وَاللهِ لَئِنْ لَمْ يُنَجِّنِي مِنَ البَحْرِ إِلَّا الإِخْلَاصُ لَا يُنَجِّينِي فِي البَرِّ غَيْرُهُ، اللهُمَّ إِنَّ لَكَ عَلَيَّ عَهْدًا إِنْ أَنْتَ عَافَيْتَنِي مِمَّا أَنَا فِيهِ أَنْ آتِيَ مُحَمَّدًا صلى الله عليه وسلم حَتَّى أَضَعَ يَدِي فِي يَدِهِ فَلَأَجِدَنَّهُ عَفُوًّا كَرِيمًا»، فجاء فأسْلَمَ. وَأَمَّا عَبْدُ اللهِ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي السَّرْحِ: فَإِنَّهُ اخْتَبأَ عِنْد عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ، فَلَمَّا دعا رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم النَّاس إِلَى البَيْعَة جاء به حتَّى أَوْقَفَهُ على النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: «يَا رَسُولَ اللهِ! بَايِعْ عَبْدَ اللهِ». قَالَ: «فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَنَظَرَ إِلَيْهِ ثَلَاثًا، كُلُّ ذَلِكَ يَأْبَى، فَبَايَعَهُ بَعْدَ ثَلَاثٍ». وحديث النسائي صححه ابن الملقن في «البدر المنير» (١٥٣/٩) – دار الهجرة للنشر والتوزيع – الرياض – السعودية – الطبعة الأولى – ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م. انظر– بتصرف كثير جدًا: «تحفةَ الأحوذي بشرح جامع الترمذي» للمباركفوري (٤٤٤/٨، ٤٤٥) ط. دار الكتب العلمية، و«تفسيرَ أبي السعود»، تفسير الآية السادسة والعشرين بعد المائة من سورة النحل.

(١) أخرجه الإمام البخاري (٢٦١٧)، ثم لَمَّا مات الصحابيُّ الذي أكل معه الشاة قتلها به صلى الله عليه وسلم، كما بَيَّنَّا في سلسلة «إلا تنصروه – فتح خيبر» يسَّر اللهُ نشرها قريبًا والنفعَ بها.

امْنُنْ عَلَيْنَا رَسُولَ اللهِ فِي كَرَمٍ ... فَإِنَّكَ المَرْءُ نَرْجُوهُ ونَنْتَظِرُ[3]
امْنُنْ عَلَى بَيْضَةٍ قَدْ عَاقَهَا ... مُفَرَّقًا شَمْلُهَا فِي دَهْرِهَا غِيَرُ[4]
أَبْقَتْ لَنَا الدَّهْرَ هَتَّافًا عَلَى ... عَلَى قُلُوبِهِمُ الغَمَّاءُ وَالغَمَرُ[5]
إِنْ لَمْ تَدَارَكْهُمُ نَعْمَاءُ تَنْشُرُهَا ... يَا أَرْجَحَ الناس حِلمًا حِينَ يُخْتَبَرُ[6]
امْنُنْ عَلَى نِسْوَةٍ قَدْ كُنْتَ ... وَإِذْ يَزِينُكَ مَا تَأْتِي وَمَا تَذَرُ[7]
لا تَجْعَلَنَّا كَمَنْ شَالَتْ نَعَامَتُهُ ... فَاسْتَبْقِ مِنَّا فَإِنَّا مَعْشَرٌ زُهُرُ[8]

---

(١) زهيرُ بنُ صُرد السعديُّ الجشميُّ أبو جَرْوَلَ – ويقال أبو صرد – ﷺ من بني سعد بن بكر، وكان رئيس قومه.

(٢) حدثت هذه الغزوة بعد فتح مكة عندما سمعت هوازن بالفتح، فجمعَها مالك بن عوف وثقيفًا كلَّها ومُضَر وجُشَم كلَّها وآخرين لقتال النبيِّ صلى الله عليه وسلم. ولما أجمع مالكٌ السيرَ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ساق مع الناس أموالَهم ونساءهم وأموالهم خلف الجيش! و«حُنَيْن» هذا موضع بين مكة والطائف.

(٣) «امْنُنْ»، أي: أحْسن إلينا من غير طلبِ ثوابٍ ولا جزاء. «المرء»: الرجل، و«أل» هنا لاستغراق أفراد الجنس، أي: أنت المرء الجامع للصفات المحمودة المتفرقة في الرجال. والأبيات من بحر البسيط التام.

(٤) «البيضة» هنا: الأهل والعشيرة. «الغِيَر»: تغيير الحال وانتقالها عن الصلاح إلى الفساد.

(٥) «هَتَّافًا» أي: ذا هتف، أي: صوت. والمعنى: أبقت الغِيرُ الدهر هتّافا على حزن. «الغَمَّاء»: الشديدة من شدائد الدّهر، «وإنهم لفي غمّاءٍ من أمرهم»: إذا كانوا في أمرٍ ملتبس شديدٍ. انتهى من معجم «العين» للخليل بن أحمد الفراهيدي، باب الغين والقاف والنون معهما. والغمر – بغين معجمة مفتوحة وتكسر، فميم فراء: الحقد.

(٦) «نَعْمَاء»: النعمة.

(٧) «إذ»: حرف تعليل. «تَذَرُ»: تترك. وفي هذا البيت يُذكر زهيرٌ ﷺ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بنشأته فيهم ورضاعه منهم حيث تنتمي مرضعةُ الرسول صلى الله عليه وسلم إلى بني سعدٍ قومِ زهير ﷺ.

(٨) «شَالَتْ نَعامَتُهُ»: أي هلكت. و«النعامة»: باطن القدم، و«شالت»: ارتفعت. ومَنْ هلكَ ارتفعتْ رجلاه وسكن رأسُه فظهرت نعامةُ قدميه. «زُهُر»: الأزهَر كلُّ لون أبيض صافٍ مشرق مضيء. والأزهر: القمرُ، ويقال: «قمرٌ

إِنَّا لَنَشْكُرُ لِلنَّعْمَاءِ إِذْ كُفِرَتْ وَعِنْدَنَا بَعْدَ هَذَا اليَوْمِ مُدَّخَرُ
فَالبسِ العَفْوَ مَنْ قَدْ كُنْتَ مِنْ أُمَّهَاتِكَ إِنَّ العَفْوَ مُشْتَهِرُ
يَا خَيْرَ مَنْ مَرَحَتْ كُمْتُ عِنْدَ الهِيَاجِ إِذَا مَا اسْتُوْقِدَ
إِنَّا نُؤَمِّلُ عَفْوًا مِنكَ تُلْبِسُهُ هَادِي البَرِيَّةِ: إِذْ تَعْفُو وتَنْتَصِرُ(٢)
فَاعْفُ عَفَا اللهُ عَمَّا أَنْتَ يَوْمَ القِيَامَةِ إِذْ يُهْدَى لَكَ

فَلَمَّا سَمِعَ هَذَا الشِّعْرَ، قَالَ: «مَا كَانَ لِي وَلِبَنِي عَبْدِ المُطَّلِبِ فَهُوَ لَكُمْ»، وَقَالَتْ قُرَيْشٌ: «مَا كَانَ لَنَا فَهُوَ للهِ وَلِرَسُولِهِ»، وَقَالَتِ الأَنْصَارُ: «مَا كَانَ لَنَا فَهُوَ للهِ وَلِرَسُولِهِ»(٤).

عفوه صلى الله عليه وسلم عمَّن حاول قتلَه غِيلةً وهو نائم

عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما أَخْبَرَ أَنَّهُ غَزَا مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم قِبَلَ نَجْدٍ، فَلَمَّا قَفَلَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَفَلَ مَعَهُ، فَأَدْرَكَتْهُمُ القَائِلَةُ فِي وَادٍ كَثِيرِ

أزهرة. والأزهر: يومُ الجمعة. والأزهر: كلُّ حيوان أو نبات برّاق اللون مشرق. الجمع: زُهُر. انظر– بتصرف كثير: الوسيط، مادة: [ز هـ ر].

(١) «مَرَحَتْ»: نشطت وخفّت. الـ«كُمْتُ» – بضم الكاف وسكون الميم ومثناة فوقية: جمع «كُمَيْت»، وهو من الخيل، يستوي فيه الذكر والمؤنث من الكُمتة: وهي حمرة خالطتها قتوة، قال الخليل: «إنما صُغِّر لأنه بين السواد والحُمْرة كأنه لم يخلص له واحدة منهما فأرادوه بالتصغير لأنه منها قريب». «الهِياج» – بكسر الهاء وتخفيف التحتيه وبالجيم: القتال. «الشَّرَرُ»: جمع شَرَرَة، وهي ما يتطاير من النار. انظر – بتصرف: الصحاح، مادة: [ش ر ر].

(٢) «نُؤَمِّل»: نرجو.

(٣) «رَاهِبُهُ»: خائفهُ. «الظَّفَر»: الفوز. وشرح مفردات هذا الحديث – إلا ما نصصْنا عليه– منقولٌ بتصرف كثير من «سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد» (٥/٤١٨، ٤١٩).

(٤) أخرجه الطبراني في «الكبير» (ح: ٥٣٠٣ – مكتبة العلوم والحكم)، وغَيْره، وحسّن إسنادَه لغيره الشيخُ الألبانيُّ في «السلسلة الصحيحة» (٧/٧٦٠). وانظر إلى سعة عفوه صلى الله عليه وسلم: تَرَك لهم صلى الله عليه وسلم السَّبْي وفيهم الذرية والنساء، وكان السبيُ حوالي ستة آلاف ما بين صَبيٍّ وامرأة، وأعطاهم أنعامًا كثيرة صلى الله عليه وسلم.

العِضَاهِ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَتَفَرَّقَ النَّاسُ يَسْتَظِلُّونَ بِالشَّجَرِ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم تَحْتَ سَمُرَةٍ وَعَلَّقَ بِهَا سَيْفَهُ وَنِمْنَا نَوْمَةً، فَإِذَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَدْعُونَا وَإِذَا عِنْدَهُ أَعْرَابِيٌّ، فَقَالَ: «**إِنَّ هَذَا اخْتَرَطَ عَلَيَّ سَيْفِي وَأَنَا نَائِمٌ، فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ فِي يَدِهِ صَلْتًا. فَقَالَ: «مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟». فَقُلْتُ: «اللهُ» ثَلاثًا**، وَلَمْ يُعَاقِبْهُ وَجَلَسَ[(1)].

عفوه صلى الله عليه وسلم عمَّن اتهمَّه بعدم العدل

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ ﷺ قَالَ: بَيْنَا النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم يَقْسِمُ جَاءَ عَبْدُ اللهِ بْنُ ذِي الخُوَيْصِرَةِ التَّمِيمِيّ فَقَالَ: «اعْدِلْ يَا رَسُولَ اللهِ». فَقَالَ: «**وَيْلَكَ! مَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ؟!**». قَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ: «دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَهُ؟». قَالَ: «**دَعْهُ، فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ**

---

(1) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه (٢٩١٠، ٤١٣٥). [«كَثِير العِضَاه»: «العِضَاه»: كُلّ شَجَر يَعْظُم لَهُ شوْك، وقيل: هُوَ العظِيم مِن السَّمُر مُطْلقا. قوْله: «فَنَزَلَ رَسُول الله صلى الله عليه وسلم تَحْت سَمُرَةٍ» أيْ: شَجَرة كثيرة الورق. قوْله: «وَهُوَ فِي يَدِهِ صَلْتًا» أيْ: مُجرَّدا عنْ غِمْدِه. قوْله: «فَقَالَ لِي: مَنْ يَمْنَعك مِنِّي؟»، وفي رواية: «فَقَالَ: تَخَافُنِي؟ قَالَ: لَا. قَالَ: فَمَنْ يَمْنَعك مِنِّي؟» وكَرَّر ثَلَاث مَرَّات: وَهُو اسْتِفْهَام إِنْكَار، أَيْ: لَا يَمْنعك مِنِّي أَحَدٌ، لأنّ الأعْرَابِيّ كَان قَائِمًا والسَّيْف فِي يده والنَّبِيّ صلى الله عليه وسلم جالِس لا سيْف مَعَهُ! وَيُؤْخذ مِنْ مُراجَعة الأعْرَابِيّ لَهُ فِي الكلام أَنّ الله ﷻ منعَ نبِيَّهُ صلى الله عليه وسلم مِنْهُ، وإلَّا فما أَحْوَجَهُ إِلَى مُراجعَتِهِ معَ احْتِياجِهِ إِلى الحظْوَة عِنْد قَوْمِهِ بِقَتْلِهِ. وَفِي قَوْلِ النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم فِي جَوَابِهِ: «الله» أَيْ: يمْنَعُني مِنْك إِشارَةٌ إِلَى ذَلِك، ولذلك أعادها الأعْرَابِيّ فَلَمْ يَزِدْهُ على الجَوَاب، وَفِي ذَلِك غَايَة التَّهَكُّم بِهِ وعدمُ المُبالاةِ بِهِ أَصْلًا. ووقع فِي رواية ابْن إِسْحَاق بَعْد قَوْله: «قَالَ: اللهُ»: «فَدَفَعَ جِبْرِيل فِي صَدْرِهِ فَوَقَعَ السَّيْفُ مِنْ يَدِهِ فَأَخَذَهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم وَقَالَ: مَنْ يَمْنَعُك أَنْتَ مِنِّي؟ قَالَ: لَا أَحَد. قَالَ: قُمْ فَاذْهَبْ لِشَأْنِك. فَلَمَّا وَلَّى قَالَ: أَنْتَ خَيْر مِنِّي». وَأَمَّا قَوْله فِي الرِّوَايَة الأُخرى: «وَلَمْ يُعَاقِبْهُ، وَجَلَسَ»، فَفيه أنه منّ عَلَيْهِ ﷺ لِشِدَّةِ رَغْبته فِي اسْتِئْلَاف الكُفَّار لِيدْخُلُوا فِي الإِسْلَامِ، وَلَمْ يُؤَاخِذْه بِمَا صَنَعَ، بَلْ عَفَا عَنْهُ. وَفِي الحدِيثِ فَرْطُ شَجَاعَةِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وَقُوَّةُ يَقِينِهِ وَصَبْرُهُ عَلَى الأذى، وَحِلْمُهُ عَن الجُهَّالِ وعفْوه عنهم]. انظر – بتصرف كثير جدًّا: «فتح الباري»، شرح الحديث رقم (٤١٣٥).

صَلَاتِهِ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ». أخرجه البخاري[1].

عفوه صلى الله عليه وسلم عن اليهودي الذي سَحَره

عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ رضي الله عنه قَالَ: «**سَحَرَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ، فَاشْتَكَى لِذَلِكَ أَيَّامًا، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عليه السلام، فَقَالَ: «إِنَّ رَجُلًا مِنَ الْيَهُودِ سَحَرَكَ: عَقَدَ لَكَ عُقَدًا فِي بِئْرِ كَذَا وَكَذَا». فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَاسْتَخْرَجُوهَا، فَجِيءَ بِهَا فَقَامَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم كَأَنَّمَا نُشِطَ مِنْ عِقَالٍ، فَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ لِذَلِكَ الْيَهُودِيِّ وَلَا رَآهُ فِي وَجْهِهِ قَطُّ**»[2].

عفوه صلى الله عليه وسلم عن الخادم والمرأة وغيرهما

عَنْ عَائِشَةَ - رضي الله عنها - زَوْجِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهَا قَالَتْ: «**مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا؛ مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ. وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم لِنَفْسِهِ إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ**»[3].

---

(١)أخرجه البخاري (٦٩٣٣).

(٢) أخرجه النسائيُّ (٤٠٨٠)، قال الألباني: «صحيح الإسناد».

(٣) أخرجه الإمام البخاري (٣٥٦٠، ٦١٢٦)، ومسلم (٢٣٢٧) واللفظ للأخير. [قَوْلُهَا رضي الله عنها: «مَا خُيِّرَ رَسُول الله صلى الله عليه وسلم بَيْن أَمْرَيْن إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرهمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَد النَّاس مِنْهُ». فِيهِ اِسْتِحْبَابُ الْأَخْذ بِالْأَيْسَرِ وَالْأَرْفَق مَا لَمْ يَكُنْ حَرَامًا أَوْ مَكْرُوهًا. قَوْلهَا: «وَمَا اِنْتَقَمَ رَسُول الله صلى الله عليه وسلم لِنَفْسِهِ إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَة الله»، وَفِي رِوَايَة: «مَا نِيلَ مِنْهُ شَيْء قَطُّ فَيَنْتَقِم مِنْ صَاحِبه إِلَّا أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِم الله تَعَالَى فَيَنْتَقِمُ لِلَّهِ تَعَالَى». مَعْنَى «نِيلَ مِنْهُ»: أُصِيبَ بِأَذًى مِنْ قَوْل أَوْ فِعْل. وَانْتِهَاك حُرْمَة الله تَعَالَى: هُوَ اِرْتِكَاب مَا حَرَّمَهُ. قَوْلهَا: «إِلَّا أَنْ تُنْتَهَك حُرْمَة الله» اِسْتِثْنَاء مُنْقَطِع، مَعْنَاهُ: لَكِنْ إِذَا اُنْتُهِكَتْ حُرْمَة الله اِنْتَصَرَ لِلَّهِ تَعَالَى، وَانْتَقَمَ مِمَّنْ اِرْتَكَبَ ذَلِكَ. فِي هَذَا الْحَدِيث: الْحَثُّ عَلَى الْعَفْو وَالْحِلْم وَاحْتِمَال الْأَذَى وَالِانْتِصَار لِدِينِ الله تَعَالَى مِمَّنْ فعلَ مُحرَّمًا أَوْ نَحْوه. وفِيهِ: أَنَّهُ يُسْتَحَبُّ لِلْأَئِمَّةِ وَالْقُضَاة وَسَائِر وُلَاة الْأُمُور التَّخَلُّق بِهَذَا الْخُلُق الْكَرِيم، فَلَا يَنْتَقِمُ لِنَفْسِهِ، وَلَا يُهْمِلُ حَقّ الله تَعَالَى]. انظر شرح الإمام النووي على صحيح مسلم، شرح الحديث رقم: (٢٣٢٧).

وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أيضا قَالَتْ: «مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ وَلَا امْرَأَةً وَلَا خَادِمًا إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ إِلَّا أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللهِ فَيَنْتَقِمَ للهِ عَزَّ وَجَلَّ»[1].

وسُئِلَتْ السيدةُ عَائِشَةُ رضي الله عنها عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَتْ: «لَمْ يَكُنْ فَاحِشًا وَلَا مُتَفَحِّشًا وَلَا صَخَّابًا فِي الْأَسْوَاقِ وَلَا يَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ»[2].

عفو يوسف عليه السلام

وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ۝ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ۝ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٨٩ - ٩٢].

وقولهم: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي: فضَّلكَ علينا. وفي قولهم: ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ أي: مذنبين، وفي ضمن هذا سؤالُ العَفْو. وقوله: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ «التثريب»: هو التعيير والتوبيخ، أي: لا تعيير ولا توبيخ ولا لوم عليكم اليوم. قال الزجاج: «المعنى:

---

(1) أخرجه الإمام مسلم (٢٣٢٨). [وقولها رضي الله عنها «مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ شَيْئًا» أي: آدميًا؛ لأنه ربما ضرب مركوبه. «وَلَا امْرَأَةً وَلَا خَادِمًا»: خُصَّا بالذكر اهتماما بشأنهما ولكثرة وقوع ضَرْب هذين والاحتياج إليه وضربهما، وإن جاز بشرطه فالأولى تركُه، كما أن ضرب هذين – المرأة والخادم – فإنه لحظ النفس غالبًا فنُدِب العفوُ عنهما مخالفةً لهواها وكظمًا لغيظها]. انتهى – بتصرف كثير واختصار – من «مرقاة المفاتيح».

(2) أخرجه الترمذي (٢٠١٦) وقال: «هذا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ».

لا إفساد لما بيني وبينكم من الحُرمة وحق الأخوة ولكم عندي العفو والصفح، فلم يفعل أيًا من ذلك ﷺ فقال بعدها: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ [يوسف: ١٠٠]، فقال: ﴿ٱلسِّجْنِ﴾ مع أنه يريد «الجُبّ» الذي وضعوه فيه حتى لا يُخْجِل إخوته بعدما قال لهم: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾» اهـ ورُوي عن الحسن أنه عندما ذَكَرَ يوسف ﷺ وما ارتكب منه إخوته؛ قال: عَرّفهم ﷺ بنفسه ثم استقبلهم بالعفو عنهم قائلًا: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ قال الحسن: «فرضي الله به منه عملًا، وأثبته في كتابه ليأخذ به مَن بعده»[1].

عفو أبي بكر الصديق رضي الله عنه

كان الصديق ﷺ ينفق على مسطح بن أثاثة - أحد المهاجرين الفقراء - ولما حدث حادث الإفك للسيدة عائشة رضي الله عنها خاض مِسطحٌ في هذه الحادثة، وتكلم بكلام لا يليق ولا يجوز، فأقسم أبو بكر ﷺ ألا ينفق عليه؛ لوقوعه في زوج النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الكلام. انظر إلى الله تعالى وإلى عَفوِه الذي ندب عباده إليه ﷻ فقال: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢]. قال أبو بكر ﷺ: «أحب أن يغفر الله لي»، ورجع مرة أخرى لينفق على هذا المهاجر الفقير، رضي الله عنهم أجمعين.

عفو عمر بن الخطاب رضي الله عنه

بعد أن ذكرنا أنه ﷻ «العَفُو»، وأنه يأمر بالعَفْو، وأن أعظم المتخلقين به النبي صلى الله عليه وسلم، وبعده أبو بكر ﷺ، ثم بقية أهل الإيمان المتخلقين بهذه الأخلاق الحسنة، نذكر هذه القصة التي تبين عفو عمر بن الخطاب ﷺ:

---

(١) انظر – بتصرف كثير: تفسير «القرطبي» و«الطبري» و«ابن أبي حاتم»، تفسير الآيات (٨٩–٩٣، ٩٩–١٠٠) من سورة يوسف.

عن ابنَ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - قَالَ: «قَدِمَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنِ بْنِ حُذَيْفَةَ فَنَزَلَ عَلَى ابْنِ أَخِيهِ الحُرِّ بْنِ قَيْسٍ، وَكَانَ مِنَ النَّفَرِ الَّذِينَ يُدْنِيهِمْ عُمَرُ، وَكَانَ القُرَّاءُ أَصْحَابَ مَجَالِسِ عُمَرَ وَمُشَاوَرَتِهِ كُهُولًا كَانُوا أَوْ شُبَّانًا. فَقَالَ عُيَيْنَةُ لِابْنِ أَخِيهِ: «يَا ابْنَ أَخِي، لَكَ وَجْهٌ عِنْدَ هَذَا الأَمِيرِ فَاسْتَأْذِنْ لِي عَلَيْهِ». قَالَ: «سَأَسْتَأْذِنُ لَكَ عَلَيْهِ». قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَاسْتَأْذَنَ الحُرُّ لِعُيَيْنَةَ فَأَذِنَ لَهُ عُمَرُ. فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ: «هِي يَا ابْنَ الخَطَّابِ، فَوَاللهِ مَا تُعْطِينَا الجَزْلَ، وَلَا تَحْكُمُ بَيْنَنَا بِالعَدْلِ»! فَغَضِبَ عُمَرُ حَتَّى هَمَّ بِهِ، فَقَالَ لَهُ الحُرُّ: «يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ صلى الله عليه وسلم: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، وَإِنَّ هَذَا مِنَ الجَاهِلِينَ». وَاللهِ مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ حِينَ تَلَاهَا عَلَيْهِ، وَكَانَ وَقَّافًا عِنْدَ كِتَابِ اللهِ»[1].

ومعنى «إنك لا تعطينا الجزل» يعني: لا تعطينا شيئًا. لما ذكَّره الحُرُّ بأن يأخذ العَفو وأن يعرض عن الجاهلين، لم يعاقبه عُمر ﷺ، وكذلك لم يفعل معه ما ينبغي بمثله من التأديب حيث قال كلامًا غليظًا جدًّا لعمر ﷺ؛ فمَنِ الذي يُعطي الجَزْلَ ويقسم بالعدل إذا لم يقسم عمر ﷺ في حينه بعد النبي صلى الله عليه وسلم وبعد أبي بكر؟ فوجدنا أنهم حتى حينما كانوا في أعلى مناصبهم ومراتبهم وفي قوتهم التي يستطيعون أن يأخذوا بها حقهم، إذا بهم يعفون.

عفو الإمام أحمد رحمه الله تعالى[2]

قال عبد الله ابن الإمام أحمد بن حنبل رحمهما الله تعالى: «قال أبي: وَجَّه إليَّ الواثق أنِ اجْعَل المعتصمَ في حِلٍّ من ضربه إياك. فقلتُ: ما خرجتُ من داره حتى جعلته في حِل، وذكرتُ قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لَا يَقُومُ يَوْمَ القِيَامَةِ إِلَّا مَنْ عَفَا» فعفوتُ عنه».

---

(1) رواه الإمام البخاري (٤٦٤٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما موقوفًا عليه.

(2) امتُحن الإمام أحمد رحمه الله في فتنة «خَلْق القرآن»، حيث التفَّ المعتزلةُ حول الخليفة المأمون والخليفة المعتَصِم من بعده، وأقنعوهما بأن يُجبرا الناسَ على الأخذ برأي المعتزلة بأنَّ القرآن مخلوق خلافًا لما عليه إجماعُ السلف الصالح بأن القرآن كلامُ الله تعالى. فلما رفض الإمامُ أحمد رحمه الله أن ينساق مع آرائهم سَجَنوه وعذَّبوه وشَهَّروا به ومَنَعوه من التدريس أعوامًا، وقام المعتصمُ بضربه — وهو بين يديه — بالسِّياط ضربًا شديدًا حتى أُغمي عليه، ثم لما جاء الخليفةُ المتوكل إلى الخلافة فرّج عن الإمام أحمد وجميعِ أهل السُّنة.

وذكر في رواية المروذي قول الشَّعْبِيّ رحمه الله: «إنْ تَعْفُ عنه مرةً يكن لك من الأجر مرتين».

وقال الإمام أحمد: «وما على رجل ألَّا يُعَذِّب اللهُ تعالى بسببه أحدًا».

وقال في رواية حنبل وهو يُدَاوي: «اللهم لا تؤاخذهم»، فلما برئ ذكره بذلك ابنه حنبل، فقال: «نعم، أحببتُ أن ألقى الله تعالى وليس بيني وبين قرابة النبي صلى الله عليه وسلم[1] شيءٌ، وقد جعلته في حِلٍّ».

ثالثا: الشرح الإجمالي لآيات العفو في القرآن

أولاً: الله تعالى هو العَفُو[2]

قال الله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [المجادلة: ٢].

---

(١) يقصد بذلك الخليفة المعتصم العباسي؛ حيث ينتمي نسبُ الخلفاء العباسيين إلى العباس رضي الله عنه عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(٢) ونذكر معظم الآيات اختصارًا بدون شرح في هذه الطبعة مع وَعْدٍ بذكر الشرح الإجمالي والتفصيلي للآيات في طبعات قادمة إن شاء الله تعالى كما نبهنا على ذلك في التقدمة.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٤٣]. وقال تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٩].

ثانيًا: الله تعالى يأمر نبيه بالعفو

بالرغم من أن النبي صلى الله عليه وسلم كان أكثر الناس عفوًا، إلا أن أمر الشرع إليه كان واضحًا، يعني: أن الله تبارك وتعالى لم يتركها كذلك حتى أمر بها النبي صلى الله عليه وسلم فقال ﷻ: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فإذا رأينا ترتيب الكلام نجد أن الله تعالى أمر بالعفو، وكان ﷻ هو العَفُو، ثم بعد ذلك رأيناه جل وعلا يأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالعَفو، ويأمره صلوات الله عليه وسلم عليه أن يُكثر من هذا العفو، وأن يكون حظُّه صلوات الله وسلامه عليه أعظمَ الحظِّ من الله تعالى، فأمره بذلك فقال تعالى: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾؛ كلمات شديدة أمره المولى ﷻ بها لتكون كذلك علاقات وأخلاق المؤمنين مع بعضهم على العَفْو، وأخلاق المؤمنين اليوم على العكس تمامًا إلا من رحم ربي؛ إذا قلت لأحدهم: «سامِحْهُ»، يقول: «لن أسامِحَه أبدًا، أنَسِيَ أني عملتُ له كذا وكذا، والآن يعمل كذا وكذا، لن أسامحه ولن أعفو عنه، لا بد أن آخذ حقي منه في الدنيا وفي الآخرة..». كلا؛ لا ينبغي أن يكون ذلك مِن أخلاق أهل الإيمان اليوم، قال الله تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ فقال الصديق ﷺ: «بلى عفونا عفونا»؛ ليتخلق بهذا الخلق العظيم الذي هو من أسمائه ﷻ وصفاته...هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى، يعفو لأنه يرجو اللهَ تعالى ومغفرتَه كما قال تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾. لذلك لما أُمِرَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بالعفو وجدناه صلى الله عليه وسلم

أسرع الناس عفوًا، وأكثرهم عفوًا صلوات الله وسلامه عليه، ووجدنا أخلاق الصحابة كذلك رضي الله عنهم أجمعين.

وقد ورد أمر الله تعالى لنبيّه بالعَفو في آيات أخرى:

قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة:١٣]، وذلك مع اليهود.

وقال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف:١٩٧-١٩٩][1].

---

(1) ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ أي: خُذْ ما عفا لك من أخلاق الناس، أي: ما سَمَحَتْ به أنفسُهم، وما سَهل عليهم من الأعمال والأخلاق، وتَسهَّلْ معهم ولا تطلُبْ منهم ما يَشُقُّ عليهم، وهو من العَفْو الذي هو ضد الجهل. أو: خُذ العفْو عن المذنبين؛ من العفْو الذي بمعنى تَرْك العقاب، أي هو خُذ الفضل وما تَسهَّل من صدقاتهم، وذلك قبل وجوب الزكاة. ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾، المعروف هو المُستحْسَن من الأفعال.

ثالثا: حال النبي صلى الله عليه وسلم هو العفو

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ﴾ [المائدة: ١٥].

رابعًا: الله تعالى يأمر المؤمنين بالعفو ويحثهم على طلبه منه جل وعلا

ندب الله تعالى المؤمنين أن يدعوا الله تعالى بأن يعفوا عنهم؛ قال: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا﴾ إلى قوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٥، ٢٨٦].

فأمرهم ﷻ بطلب العفو من الله جل وعلا، ثم أمرهم ﷻ أن يعفوَ بعضهم عن بعض، قال ﷻ: ﴿وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤]، ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ [النور: ٢٢].

وقال الله تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٧][1].

---

(١) في تلك الآية يُرغِّب الله ﷻ الزوجاتِ اللاتي طُلِّقن قبل الدخول بهنّ أن يعفون، أي: يتركن نصف الصَّداق الذي فرضه اللهُ لهنّ، أو يعفو الأزواج فيدفعوا لهنّ المهر كلَّه. ثم قال: ﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾.

وقال تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ۖ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٨].

وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩].

خامسًا: عِظَمُ عفوِ اللهِ تعالى

فرأينا النبي صلى الله عليه وسلم وبعده الصحابة رضوان الله عليهم على ذلك الخلق الحسن من العَفْو، فلا يأتي أحد بعد ذلك ولا يتخلق بهذا الخلق الجميل متعللًا بأن فلانًا قد أساء إليه كثيرًا، وفعل فيه كذا وكذا. كلا؛ لا يمكن أبدًا أن تصدر هذه الأخلاق من إنسان مؤمن، وليَرَى هذه المعاني التي أشار الله تبارك وتعالى إليها؛ فإن الله جل وعلا قد ذكر العَفْو في آيات كثيرة لا يتخيل المرء أن يعفو الله تعالى فيها بسبب عظم الذنب، حتى إنه بيَّن أن ذلك ذنب عظيم: ليبين أن ذلك عفو عظيم كذلك، فقال ﷻ: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٢]، وهذه الآية نزلت في اليهود بعد أن عبدوا العجل وفعلوا كذا وكذا، قال المولى: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ يعني: كان يمكن أن يكون سياق الآية في غير القرآن الكريم «ثم عفونا عنكم لعلكم تشكرون»، وتكون الآيةُ سياقُها كذلك جميلٌ، وإنما ورد قوله: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ يعني: بعد ذلك الذنب الكبير الذي أتيتم، وقوله «ثم» للتراخي الذي يُبين قيمة أو عظم هذا العفو. وورد عفوه ﷻ في اليهود في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ

ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٥٣].

وورد عفوه جل وعلا عن المؤمنين في آيات كثيرة، منها:

قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٧].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٥٥][1].

---

(1) هذه الآيات والتي قبلها في غزوة أُحُد.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [المائدة: ٩٥].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾ [المائدة: ١٠١].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ۝٩٨ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورٗا﴾ [النساء: ٩٨، ٩٩].

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الشورى: ٢٥].

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ۝٣٢ إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ ۝٣٣ أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٢-٣٤].

وقوله تعالى: ﴿لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ﴾ [التوبة: ٦٦].

وقوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣][1].

سادسًا: مَدْحُ اللهِ تعالى للعافين

فإذا علم المؤمن ذلك، يعني: إذا علم ما ينبغي أن يعفو عن الناس، فإن الله تبارك وتعالى بعد أن أمر بطلب العفو من الله تعالى وبعد أن أمرهم كذلك بأن يَتخلَّقوا بالعَفْو فيما بينهم؛ مَدَح ﷻ العافين عن الناس. وإذا علم المؤمن واعتقد أن الله ﷻ هو العَفُوُّ على الإطلاق، وجب عليه أن يتخلق بخلق العَفْو حتى يدخل في مدح الله تعالى للعافين حيث جاز إجراءُ هذا الاسم على المكلَّفين، يعني: من الأسماء التي يجوز إجراؤها على المكلَّفين هذا الاسم، يقال: «إن فلانًا يعفو فهو عَفُوّ»، يعني: يعفو عن الناس، فقال تعالى: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، فمدحهم ﷻ وبيَّن قيمة عفوهم.

وقد ذُكرت في هذا المجال قصصٌ كثيرة للصحابة وبعض التابعين: أنه كان يسيء إليه عبدُه مثلًا، فكان يعفو عنه ويقول له: «أنت حُرٌّ لوجه الله تعالى».

وعلى العكس اليوم: إذا وجد المرءُ ابنه أو مَنْ هو أصغر منه لا يردّ عليه مثلًا، كانت هذه سوءةً من السوءات، وعظيمة من العظيمات، وداهية من الداهيات التي يقول فيها: «إنه

([1]) في هذه الآية الكريمة يُعاتب اللهُ ﷻ نبيَّه وحبيبه صلى الله عليه وسلم أنه أذِن للمنافقين المتخلفين عن غزوة تبوك في التخلُّف قبل أن يتبين صدقهم من كذبهم. وتأمَّلْ: هل سمعت بمعاتبةٍ أحسنَ من هذه؟! ناداه جل وعلا بالعَفْو قبل المعاتبة، ثم رخَّص له بعد ذلك في سورة النور أن يأذن لأصحابه إن شاء، فقال: ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ [النور: ٦٢]. تنبيه هام: الأنبياء جميعهم – والنبي صلى الله عليه وسلم إمامهم – صلوات الله وسلامه عليهم معصومون من الخطأ كبيره وصغيره بعد البعثة، وإنما عاتب الربُّ جل وعلا حبيبه صلى الله عليه وسلم في اجتهاده ذلك بأنه خالف الأَوْلى، فالعتاب إذن من قبيل «حسنات الأبرار سيئات المقربين». ولتفصيل ذلك فارجع إلى محاضرة «عصمة الأنبياء» للمؤلف عند شرحه لقوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢].

يستهزئ بي، ولا يهتم بي، وهو يسخر مني..» وكل هذه الألفاظ التي نستخدمها، والتي ينبغي أن يكون في معنى اسمه «العَفُوّ» ﷻ اليوم تغييرٌ لهذه الأخلاق، وانتظارٌ لعفو الله تعالى بها كما أشرنا في قوله تبارك وتعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

إذا كان حظ العبد من هذا الاسم - كما أشرنا - أنه ينتظر عفو الله تعالى، وأن يأخذ بالأسباب حتى يستحق بها هذا العَفْو، فعليه إذن أن يُكثِر من الدعاء بالعَفْو من الله تعالى، وهذا من الأمور المهمة؛ أنك إذا سمعت هذا الكلام فليكُن حديثك اليوم وفي بقية الأيام: «**اللهم إنك عَفُوٌّ كريم تحب العَفْو فاعفُ عني**»، دعاءً بطلب العَفْو، وتعلقًا بالله تعالى فيه[1]، وخروجًا عن رعونة النفس - كما ذكرنا - في رؤية العمل، وأنك مُتّكِلٌ على رحمة الله تعالى، وأنه لولا عَفْوُ ﷻ لهَلَكَ، وأنه لولا عَفْوُه كذلك في الآخرة سيَهلِك، هذا هو الأمر الأول الذي نريد أن نُنبه عليه.

والثاني: كيف يبدأ فيُجَرِّب نفسه في العَفْو عن إخوانه وعن الناس، وعن القريب منهم والبعيد، كما أمر المولى ﷻ، وكما كانت حياة النبي صلى الله عليه وسلم على هذا العَفْو.

وليس المطلوب فقط هو أن يعفو المرء عن كل من ظَلَمه بأن يترك معاقبته، كلا ولكنَّ المطلوب أن يعفو عنه ويزيد على ذلك بأن يحسن إليه، كما يرى الله جل وعلا محسنًا في الدنيا على العصاة والكفرة غير معاجِل لهم بالعقوبة، يعني: أن يعفو عمن ظلمه وأن يصل من قطعه وأن يعطي من حرمه. وهي المسألة الأعلى - كما ذكرنا - فلا يقتصر على محو السيئات وترك معاجلة العقوبة بها، بل أن يحسن إليهم، ويزيد في إحسانه إليهم. وفي هذه المسألة وردت

---

(١) وقوله صلى الله عليه وسلم: «**اللهُمَّ إنَّكَ عَفُوٌّ كَرِيمٌ**» أي: إنك ذو فضل وذو كرَم، تُحب الإفضال والإنعامَ. و«**العَفْوُ**» هو: الفَضل، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩] أي: الفضلَ وما لا يُجْهِد المنفقَ إنفاقُه. أصلُه: مِن عَفْوِ الشيء، وهو كثرتُه ونماؤُه. و«**عَفُوٌّ**» أيضًا، أي: مُتجاوِزٌ عن السيئات. «**تُحِبُّ العَفْوَ**»: ولذا خلقتَ المذنبين. «**فاعْفُ عَنِّي**» أي: امْحُ ذنوبي، فإني كثير التقصير وأنت أوْلَى بالعفو الكثير. فهذا دعاءٌ من جوامع الكلم، مَن حازه حاز خيْرَي الدنيا والآخرة. انظر – بتصرف كثير جدًّا: «فيض القدير»، شرح الحديثين (٥٢٨، ١٧٤٩)، و«مرقاة المفاتيح» (٥١٧/٤) دار الكتب العلمية – ط١– ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٠م.

قصص كثيرة عن السلف كيف أساء إليهم المسيئون ثم إذا بهم يعفون عنهم وإذا بهم يزيدون في إحسانهم إليهم أو يحسنون إليهم الإحسان الزائد لهم. كما يرون الله تعالى محسنًا في الدنيا على العصاة والكفرة غير معاجل لهم بالعقوبة، بل ربما يعفو عنهم ﷻ، بل يتوب عليهم من كفرهم وشركهم ومعاصيهم، وإذا تاب عليهم محا سيئاتهم ﷻ، كما ذكرنا في توبته على عصاة المسلمين أنه قال ﷻ: ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠] وفي الكفرة قال صلى الله عليه وسلم: «الإِسْلَامُ يَجُبُّ مَا قَبْلَهُ»[1] أي: يمسح تلك السيئات، «التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ»[2]، وهذا غاية المحو للجناية.

---

(1) رواه الإمام أحمد في مسنده (١٧٣٥٧)، من حديث عمرو بن العاص ﷺ، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥٨٤/٩): «رواه أحمد والطبراني ورجالهما ثقات».

(2) رواه ابن ماجه (٤٢٥٠)، من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣٣٠/١٠): «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح».

الفصل السادس:

القابض الباسط سبحانه وتعالى

أولًا: المعنى اللغوي للقابض الباسط

قولهم: **قبضت** شيء قبضا، يعني أخذته، والقبض خلاف البسط، ويقال صار الشيء في قبضتك: أي في ملكك، والانقباض غير الانبساط. والقبض: الأخذ بجميع الكف، والقبض بالتحريك ما أخذ من الأموال والغنائم، وقُبض الرجل أي مات و قُبضت روحه أي أخذت روحه.

وقال الراغب في مفردات القرآن: قبض اليد على الشيء جمعها بعد تناوله؛ يعني بعد ما تناول الشيء بيده قبض عليه. أما قبضها عن الشيء فهو جمعها قبل تناوله؛ وقيل إمساك اليد عن البذل قبض؛ لذلك قال تعالى في المنافقين: ﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ [التوبة الآية: ٦٧]، أي لا يبذلون شيئا ويمتنعون عن الإنفاق.

وأما الباسط: فالبسط نقيض القبض، وبسط الشيء يعني نشره، والبسطة: السعة، وانبسط الشيء على الأرض يعني اتسع على الأرض، ورجل بسيط اليد أو اليدين يعني منبسط بالمعروف، ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [سورة المائدة: ٦٤]. يعني منبسطة بالمعروف أي توزع يده المعروف يمينًا وشمالا. **فبسيط يعني متسع** وهي عل عكس المعنى العامي الشائع وهو بسيط يعني صغير. وفلان بسيط الجسم يعني جسمه فيه امتداد وزيادة وطول كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ﴾ [البقرة الآية: ٢٤٧]، وبسط له في العلم والجسم فصار بسيطا، يعني يداه وجسمه وطوله كل ذلك فيه سعة وامتداد.

وبسط الكف يستعمل تارة للطلب كقوله تعالى: ﴿ كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ ﴾ [الرعد الآية: ١٤]، وتارة للأخذ نحو: ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الأنعام الآية: ٩٣]، وتارة للضرب والصولة كقوله تعالى: ﴿ وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [الممتحنة الآية: ٢]، وتارة للبذل والإعطاء كقوله تعالى: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة الآية: ٦٤] والقابض والباسط إنما يذكران معا لا يقال له ﷻ القابض فقط أو الباسط فقط: وإنما الأدب في ذكر هذين الاسمين أن يقول القابض الباسط سبحانه وتعالى.

دليل القابض الباسط من القرآن والسنة

هل ورد اسمه القابض الباسط في القرآن الكريم أو في السنة الصحيحة؟ تقول: نعم ورد في السنة الصحيحة هذان الاسمان كما ذكر النبي ﷺ في حديث أنس قال: «**غلا السعر على عهد رسول الله ﷺ؛ فقالوا: يا رسول الله سعِّر لنا. فقال: إن الله هو القابض الباسط الرازق المسعر، وإني لأرجو أن ألقى الله ولا يطلبني أحد من مظلمة ظلمتها إياه في دم ولا مال**» [1].

وقد روى هذا الحديث أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه والدارمي وابن حبان وابن جرير والبيهقي وغيرهم وهو حديث صحيح.

وهذا الحديث منه عدة معان، وإن كان المقصود هنا في ذكر الحديث هو أن نذكر أن القابض الباسط قد ورد في السنة الصحيحة ولكن هناك فائدة جميلة نرجوها من الحديث، وهي قول النبي ﷺ: «**إني لأرجو أن ألقى الله وليس أحد منكم يطلبني بمظلمة**»، أي لا يذهب إلى الله أحد ليقول: النبي ﷺ قد ظلمني شيئا في دم أو مال ويريد هذه المظلمة من الله تعالى؛ يعني كأنه يريد أن يخرج من الدنيا لا مظلمة عليه لأحد ﷺ في دم ولا مال صلوات الله وسلامه عليه.

أنت إذن مسوق لك هذا الكلام، بأن ترجو الله تعالى أن تأتي يوم القيامة لا يطالبك أحد بمظلمة؛ وذلك معناه أنك مطالب في دنياك بأن تنهي كل مظالمك التي أنت عليها الآن حتى إذا جئت الله تعالى لم تكن عليك مظلمة. فتبدأ لتسارع في التخلص من هذه المظالم كما قال النبي ﷺ: «**من كان له عند أخيه مظلمة فليتحلله منه اليوم - لم يقل غدا ولا قبل أن يموت إنما اليوم قبل أن لا يكون دينار ودرهم وإنما الحسنات والسيئات**» [2].

---

[1] - رواه أبو داود (٣٤٥١) والترمذي (١٣١٤) وقال: حديث حسن صحيح. ولفظه (عَنْ أَنَسٍ قَالَ: غَلَا السِّعْرُ على عهْدِ رَسُولِ اللهِ صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، فَقَالُوا: يا رَسُول اللهِ سعِّرْ لَنَا. فَقَالَ: إِنَّ اللهَ هُوَ الْمُسَعِّرُ الْقَابِضُ الْبَاسِطُ الرَّزَّاقُ، وإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَلْقى رَبِّي وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْكُمْ يَطْلُبُنِي بِمَظْلِمَةٍ فِي دَمٍ وَلا مَالٍ).

[2] - رواه البخاري (٢٤٤٩) ولفظه (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ: مَنْ كانتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيه مِنْ عِرْضه أَوْ شيْءٍ فلْيتحلَّلْهُ منْهُ الْيَوْم قبْلَ أَنْ لا يكُونَ دِينَارٌ ولا دِرْهَمٌ، إِنْ كانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ).

والقابض الباسط لم يرد في القرآن بهذا الاسم من أسماء الفعل وإنما وردت فعلاً؛ كقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة الآية: ٢٤٥]، والآيات كثيرة في هذا، وسنشير إليها إن شاء الله تعالى عندما نأتي إلى شرح الآيات المتعلقة بالقابض الباسط ﷻ.

وورد القبض والبسط في أحاديث كثيرة غير الحديث الذي ذكرنا ولكن على صيغة الفعل - يقبض ويبسط - وليس على صيغة الاسم، كقوله ﷺ: «**إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل**»[1]، وورد كذلك في قوله ﷺ: « **أن الله يقبض الأرض يوم القيامة، ويطوي السماء بيمينه**» [2].

ثانيًا: معاني القابض الباسط في حق الله تعالى

قال الزجاجي: القابض اسم فاعل من قبض فهو قابض، فأما في هذه الآية التي ذكر فيها هذا الحرف من سورة البقرة فهو قوله عز وجل: ﴿ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ ﴾، فقالوا تأويله: يقتر على من يشاء، ويتوسع على من يشاء على حسب ما يرى من المصلحة لعباده، والباسط أيضًا هو الذي يبسط الشيء ويفرشه كما بسط الأرض للأنام وبث فيها أقواتهم

وهذه الآية لم تذكر المصلحة وإنما المصلحة نزلت في قوله: ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الشورى الآية: ٢٧] فجعل القبض المطلق والبسط المطلق كما يشاء ﷻ ، في الرزق، وفي الجسم، وفي

---

[1] – رواه مسلم (٢٧٥٩) ولفظه (عَنْ أَبِي مُوسَى عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا).

[2] – رواه مسلم (٢٧٨٨) ولفظه (عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَطْوِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي الْأَرَضِينَ بِشِمَالِهِ ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟).

الطول، وفي العلم، وفي الصحة، وفي العبادة، وفي الجهاد، ويعطي هذا ما لا يعطي هذا، ويمنع هذا ما يعطيه هذا... وهكذا.

وهذه الأمور نشير فيها إلى تقديرات الربوبية والألوهية حتى يوحد الإنسان ربه حقا، وحتى يحب ربه، وحتى يطمئن لقدر الله تعالى، ويعلم أن ذلك إنما قد أصابه بقدر الله وعلى ما يرى المولى من المصلحة له، وأنه لو قدر المصلحة لم يستطع أن يقدرها كتقدير الله، وحينئذ يطمئن إلى ربه ﷻ، ويسكن قلبه إليه فيوحد ربه، ويحب ربه، ولا يتسخط لقدره ﷻ وقضائه ولا يعترض ولا يشكو على ما يتزل به من ربه بل كل ذلك إنما كان من الله لمصلحة عباده، كما ذكرنا في أهمية هذا الاسم.

وقوله تعالى: ﴿ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ ﴾ عامة، أي لا يقبض ويبسط في الرزق فقط؛ وإنما في كل ما يتعلق بالإنسان وبالمؤمنين وبالكفرة وبغيرهم في كل أحوالهم في حياتهم الدنيا حتى تستقيم مصلحة الدنيا والآخرة كما هو الحال في خلق الخلق؛ لأن عز وجل إنما يقبض ويبسط على حسب ما يراه من المصلحة لعباده.

وقال الحليمي: ومنها -أي ومن أسمائه الحسنى- الباسط، ومعناه الناشر فضله على عباده، ومعناه: يرزق، ويوسع، ويجود، ويفضل، ويمكن، ويعطي أكثر مما يحتاج إليه. ثم بعد ذلك قال: ولا ينبغي أن يدعى ربنا باسمه القابض حتى يقال بعده الباسط.

وقال البيهقي في «الأسماء والصفات»: القابض الباسط هو الذي يوسع الرزق ويبسطه بجوده ورحمته ويقبضه بحكمته ﷻ.

قال الغزالي: القابض الباسط هو الذي يقبض الأرواح عن الأشباح عند الممات، ويبسط الأرواح في الأجساد عند الحياة، ويقبض الصدقات من الأغنياء، ويبسط الأرزاق للضعفاء، **ويبسط الرزق على الأغنياء حتى لا يبقى فاقة، ويقبضه عن الفقراء حتى لا يبقى طاقة، ويقبض القلوب فيضيقها بما يكشف لها من قلة مبالاته وتعاليه وجلاله وكبريائه، وغناه عن خلقه، ويبسطها بما يتقرب إليها من بره ولطفه وجماله ﷻ.**

قال الخطابي: وقد يحصل في مثل هذين الاسمين أن يقترن أحدهما في الذكر بالآخر، وأن يوصل به -يعني يوصل القابض بالباسط- ليكون ذلك أنبأ عن القدرة، وأدل على الحكمة، كقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾، فإن ذكرت القابض مفردا عن الباسط كأنك قد قصرت بالصفة على المنع والحرمان، وإذا وصلت أحدهما بالآخر فقد جمعت بين الصفتين: بين العطاء بالبسط، وبين القبض والتقتير، وفيها تظهر وجه الحكمة.

ثم قال: فالقابض الباسط هو الذي يوسع الرزق ويقتره، ويبسطه بجوده ورحمته، ويقبضه بحكمته على النظر لعبده؛ والنظر هنا نظر البحث في مصلحته ؛ كأن يقول أنا نظرت لك في أمرك بمعني: أنا بحثت لك أمرك، وتدبرت في أي المصالح تكون المنفعة فيفعلها له، ويقوم له بها، كقوله تعالى: ﴿ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُ ﴾ [الشورى الاية: ٢٧] .

فإذا زاد للعبد في الرزق لم يزده سرفا وخرقا، وإذا نقصه لم ينقصه عدما وبخلا: فهو سبحانه له ميراث السماوات والأرض لا يعجزه شيء.

قال ابن القيم في النونية:

هو قابض هو باسط هو خافض هو رافع بالعدل والميزان

قال الشيخ خليل الهراس- شارح النونية-: **هذه الأسماء الكريمة من الأسماء المتقابلات التي لا يجوز أن يفرد أحدهما عن قرينه ، ولا أن يثنى على الله عز وجل بواحد منها إلا مقرونًا بمقابله**، وذلك لأن الكمال المطلق إنما يحصل من مجموع الصفتين لله تعالى، فيقبض القلوب فيضيقها حتى تصير حرجا كأنما تصعد في السماء ، ويبسطها لما يفيض عليها من معاني بره ولطفه وجماله قال تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ ﴾ [الأنعام الآية: ١٢٥].

فكلما ضاق صدرك، وضاق قلبك، وسدت عليك المذاهب، وأحسست بما أنت فيه من نكد، وغم، وحزن في سيرك إلى لله تعالى فإن ذلك دليل على قلة ما بسط الله لك في ذلك،

حتى صار الصدر على هذا الحال السيئ، أما إذا انشرح الصدر كما قال تعالى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ [الزمر الآية: ٢٢] فتلك دلالة بسط الله تعالى عليك؛ مما فتح على هذا القلب من معاني الربوبية، ومعاني الإلهية، ومعاني المحبة، والجمال، والبر، والإحسان، واللطف.

لذلك المرء يقيس ما هو فيه من بسط الله وقبضه عليه في هذه الحالة من ضيق الصدر وشرحه، وحينئذ يعمل على إصلاح نفسه بإقباله مرة أخرى على ربه ﷻ، يدعوه بأنه الباسط القابض؛ ليبسط له قلبه ويشرح له صدره، ويعينه على ما نزل به حتى ضاق عليه قلبه وصدره، وحتى وقع في هذا الغم والحزن والنكد الذي منعه العبادة، ومنعه حلاوة الإيمان، وأورثه الكسل والضيق، وأورثه البعد والحرمان، وأورثه كذلك عدم الاطمئنان والسرور بربه ﷻ، وعدم الإقبال والمحبة؛ بسبب هذا القبض الذي نراه من قوة الله القاهرة ﷻ.

حكمة الله تعالى في قبضه وبسطه

فهذان الاسمان - القابض والباسط- يختصان بمصالح الدنيا والآخرة قال الله العظيم: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ﴾ [الشورى: ٢٧]، وذلك يتضمن قوام الخلق باللطف والخبرة وحسن التدبير والتقدير، والعلم بمصالح العباد في الجملة والتفاصيل، **وبحسب ذلك يرسل الرياح، ويسخر السحاب، فيمطر بلدا ويمنع غيره، ويقِل ويكثر**، وكذلك يصرف جملة العوالم لجملة العالمين.

وهذه المسألة المهمة التي أشرنا إليها إجمالًا في أهمية معرفة اسمه القابض الباسط. فهذان الاسمان يختصان بمصالح الدنيا والآخرة، وأهمية ذلك أن تتعرف أن الله جل وعلا هو الذي يبسط عليك في الإيمان وشرح الصدر، فعلمت أن ذلك إنما يفعله المولى لمصلحتك، وليزداد به إيمانك، وتقوى به عزيمتك، وتشتد به روحك على العمل الصالح، وتقبل به على الله تعالى، وتصلح أحوالك مع الله، فينقلب الضعف إلى قوة، وينقلب عدم اليقين والتردد والشك إلى حسن التوكل في الله تعالى، وينقلب البعد إلى قرب من الله جل وعلا، وينقلب الجفاء إلى محبة لله تعالى، وينقلب التعلق بالناس إلى تعلق بالله ﷻ، وينقلب الأنس بالخلق والخلطة بهم

إلى أنس بالله تعالى واختلاء وخلوة به ﷻ، وينقلب ذكر الدنيا وآفاتها إلى ذكر الله تعالى وإدمانه وقراءة القرآن، وينقلب الإقبال على الدنيا إلى زهد فيها وإلى طلب للآخرة، بهذه المصلحة.

فعندما قام الرب ﷻ بتحقيق مصلحتك فلا بد وأن تتحقق بهذه المصالح؛ لأن هذه على الحقيقة هي مصالح العبد التي يصلح بها في الدنيا والآخرة، والأمر المهم أنك لما علمت أن الله تعالى بسط لك في رزقك المادي التي تصلح به دنياك، وفي رزقك المعنوي التي تصلح به أخراك، **أحببت ربك ووحدته وأقبلت عليه**.

ثم ماذا بعد؟ **أخذت في شكر الله تعالى على هذه النعمة التي بسطها عليك**، وعلمت أن الله ما فعل ذلك إلا لمصلحتك، وأنت تريد ثباتها، وتريد زيادتها، فيكون ذلك بالشكر عليها. وانظر إلى العكس، وهو أنك ترى الله تعالى قد قبض عنك أرزاق الدنيا والآخرة؛ وعلمت في نفس الوقت أن الله تعالى ما ضيق عليك ذلك إلا لمصلحتك، أليس كذلك؟ لأنه لو وسع عليك يمكن أن تتكبر على العباد؛ بعبادتك وعملك، أو برزقك وجاهك وسلطانك، وأن تنتفخ عليهم، وأن تكون كذا وكذا.

فضيق عليك لعلمه بما سيكون ﷻ، فكان التضييق في مصلحتك، أليس كذلك؟ فهذا التضييق الذي في مصلحتك يبين لك أمرين، الأمر الأول: أن الله تعالى يعتني بك حتى لا تفسد، والأمر الثاني: أنك ما قتر عليك وقبض عنك إلا بما يعلم من سوء أخلاقك التي لو بسط لك فيها فسدت وهلكت، وهذا يستدعي منك إذن أن تدعو الله تعالى، وأن تتعبده جل وعلا لأن يتوب عليك مما كان سبب تقتير الله عليك؛ وأن تعلم حينئذ أن هذه المصلحة من الله لك تستوجب منك أيها المسكين إيمانك بالقدر، وبقضاء الله، وبالتسليم أن تلك المصلحة من الله تعالى.

فانظر إلى السبب الذي لا تستحق بسببه ثم اعمل على تلافي هذا السبب، ورفع هذا السبب، والتوبة من هذا السبب، ودعاء الله تعالى أن يرفع عنك هذه الأسباب التي منعت بها تلك الرحمات، ومنعت بها ذلك البسط من الله تعالى، ومنعت ما يمكن أن تكون به من أوليائه وخاصته، وإن كان ذلك في نهاية الحال لطفا بك في نهاية.

ذلك يورثك الإيمان بالقدر، ويمنعك الاعتراض على الله تعالى، ويمنعك التشكك، والشكوى لغير الله تعالى، ويمنعك التذلل لغير الله جل وعلا، وفي نفس الوقت آمنت بقضائه

وقدره، ثم علمت أن الله تعالى ما ضيق عليك في العبادة، وقلل لك منها إلا أنك لا تستحق أكثر من ذلك، فحاولت حينئذ أن تبذل لله جل وعلا، ما يكون سبب بسط الله عليك، أن تأخذ في الصدق، والإخلاص ليوسع عليك؛ ويبسط به عليك تلك الأرزاق.

علمت أن الله لما بسط لك كان ذلك في مصلحتك؛ بسط لك في العلم، وفي البدن، وفي الرزق، وفي المال، أو في أرزاق الآخرة، التي بها يصلح معاشك، فلما بسط لك، علمت أن تلك مصلحتك فكان المطلوب منك المحافظة على هذه المصلحة التي هداك إليها، وفتح لك بها.

وفي المقابل؛ إن قبض عنك أن تكون عالما، ومتعبدا، ومخبتا، ومنيبا، وتائبا، وهاديا، ومرشدا، وحافظا، وتاليا، وقائما، وصائما، وذاكرا، كل ذلك قد قبض الله عنك فيه الرزق؛ لأنك لا تستحق إلاهذا القبض والتضييق.

لو فتح لك العلم والعبادة لتكبرت بها، ولو فتح عليك الرزق والمال والسلطان والجاه كنت أسوأ حالا وأضل سبيلا، فقبض عنك هذا الحال، فآمنت حينئذ بأن الله يسعى في مصلحتك، لأنه لو وسع لك في ذلك لفسدت، فآمنت بقضائه وقدره، لعلمك أن ذلك إنما من نظر الله لك في مصلحتك، فسلمت لله، ورضيت عن الله تعالى، ولم تردد، ولم تتشكك، وإنما استقام قلبك على هذا الحال.

فإذا علمت أن الله تعالى قبض عنك تلك الأرزاق، وأنك في درجة ما من البسط؛ فهل ترتضي هذه الدرجة أو تتطلع إلى درجة أعلى؟ ما هو المطلوب منك؟ أنت تود أن ترفع هذا التقتير والقبض، وأن يكرمك ربك ﷻ ويزيل عنك الآفات التي وقعت بسببها في هذا التقتير؛ مطلوب منك إذن البذل لله تعالى بصدق وإخلاص، ومحاربة الآفات التي تظن أن الله منعك بسببها: كالكبر وحب النظر وحب المدح وحب الظهور وحب الشهرة، والتطلع إلى الدنيا وشهواتها وزهرتها، فيبدأ المرء الدعاء لله تعالى أن يهديه إلى إصلاح عيوبه، ويأخذ المرء في إصلاح هذه العيوب، ليرفع عنه هذا التقتير، وينزل عليه البسط ، ويعيده إلى حظيرته ، ويصلحه ﷻ بما يصلح به عباده الصالحين؛ مع علمه أنه لا يمكن أن يرفع أحدٌ عنه ذلك إلا الله تعالى.

وقبل ذلك ينتبه المرء إلى نقطة مهمة، **وهي ألا يشكو حاله ويعترض ويتسخط للمقدور الذي نزل به**، أو يقول: لو تأخر ذلك قليلًا، أو يقول: لماذا ينزل بي ما نزل؟ ماذا فعلت حتى

يحدث لي ذلك؟ أني أصوم وأصلي ومواظب على أذكار الصباح وأذكار المساء ومحافظ على السنة، فلماذا أنا في أحوال سيئة؟ وكأن الله تعالى قد بخسه وهو لا يستحق ما هو فيه !!

نقول أولًا أن سبب ذلك إنما يعود إليه هو وإلى أنه لم يقم بتلك الأعمال - التي يدعي- على الوجه الذي يكون سببًا لتحقق ما لهذه الأعمال من أثر. لأن كلام الله تعالى وكلام النبي صلى الله عليه وسلم لا يتخلف.

فإذا قال صلى الله عليه وسلم البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة لا يقربه الشيطان ثلاثة أيام [1]، أو يقول أن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة [2]، فإن كلام النبي صلى الله عليه وسلم هو الصادق، وإذا لم يتحصل لك النتيجة دل ذلك على أنك أنت الكاذب، وأنك أنت المقصر لأنك لم تقرأ شيئا على الحقيقة، لأنك لو قرأت على الحقيقة، تأتيك النتيجة المترتبة على ذلك من الله ولا شك.

والنتيجة تأتي على حسب العمل وقبوله عند الله تعالى؛ إن قبل نصف العمل تأخذ نصف الأجر، كما ورد في الصلاة: يقبل نصفها يقبل ثلثها ربعها حتى وصل إلى عشرها [3] فإن قبل عشرها أخذت أجر عشرها، وإن لم يقبل منها شيء ترد عليك، وإن أسقطت عنك الفرض، وهكذا كل أعمالك على هذا الحال من تحقق شروط القبول فيها، فإن تحققت شروط القبول

---

[1] – رواه مسلم (٧٨٠) ولفظه (عنْ أبي هُرَيْرة أنّ رَسُولَ الله صلّى اللهُ عليْه وسلّمَ قالَ: لَا تجْعلُوا بُيُوتكمْ مقابِرَ، إنّ الشّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنْ الْبيْتِ الّذي تُقْرأُ فِيهِ سُورةُ الْبقَرَة).

[2] – رواه مسلم (٨٠٤) ولفظه (عنْ أبي أُمامَة الْبَاهِلِيِّ قالَ: سَمعْتُ رَسُولَ اللهِ صلّى اللهُ عليْهِ وسَلّمَ يَقُولُ: اقْرءُوا الْقُرْآنَ فَإِنّهُ يَأْتِي يوْمَ الْقِيامَةِ شفِيعا لِأَصْحَابِهِ، اقْرءُوا الزّهْراوَيْنِ الْبقرَةَ وسُورَةَ آلِ عِمْرانَ، فَإِنّهُمَا تأْتِيانِ يوْم الْقِيامة كأنّهُما غمامتان، أوْ كأنّهُما غيايتان أوْ كأنّهُما فِرْقَانِ منْ طَيْرٍ صوافّ تُحاجّانِ عنْ أصْحابهِما، اقْرءُوا سُورة الْبَقرَةِ فإنّ أخْذَهَا برَكَةٌ، وترْكهَا حَسْرَةٌ ولا تسْتطِيعُهَا الْبطَلَةُ).

[3] – رواه أبو داود (٧٩٦) وصححه ابن حبان في صحيحه (٥/٢١٠ ، رقم ١٨٨٩)، ولفظه (عَنْ عَمّارِ بْنِ ياسِرٍ قال: سَمِعْتُ رسُولَ اللهِ صلّى اللهُ علَيْهِ وسلّم يقُولُ: إنّ الرّجُل لينْصرفُ وما كُتِبَ لهُ إلّا عُشْرُ صلَاتِهِ، تُسْعُها، ثُمُنُهَا، سُبُعُهَا، سُدُسُهَا، خُمُسُهَا، رُبُعُهَا، ثُلُثُهَا، نِصْفُهَا).

وانتفت الموانع عن هذا العمل فإن هذا العمل يكون مقبولا وله درجته عند الله في درجات القبول؛ **وعلى حسب درجة القبول تأخذ درجة من الثواب** ودرجة من المحبة عند الله تعالى؛ وذلك كله من حكمة الله تعالى في البسط والقبض.

أعظم البسط بسط الرحمة على القلوب

قال بعض العلماء: إن أعظم البسط بسط الرحمة على القلوب حتى تستضيء هذه القلوب بالنور ، وذلك وارد في كلام الله تعالى، كمثل قوله: ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، فالنور الذي أنزل مع النبي هو سبب إنارة هذه القلوب ، وقوله: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة الآية: ١٥] ، فيمحوا هذا النور الذنوب وأدرانها، ويبقى القلب على الحال الحسن، وينبغي للمرء أن يتفكر في هذا الأمر.

فإذا دعا المرء الله تعالى بذلك كما قال: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فدعاه باسمه المشرف القابض الباسط، واستكثر من الدعوة بطلب البسط من الله، يوشك الله تعالى أن يبسط عليه من رحمته.

وهذا الدعاء باسمه الباسط القابض ﷻ من أنواع العبادة الذي إن تمكن العبد منها يوشك أن يكون سببا عظيما من بسط رحمة الله تعالى على القلوب، وأن تنير هذه القلوب وتضيء بتلك الهداية والرحمة التي بسطها الله تعالى علىها، وفي نفس الوقت إن بسط علىها تلك الرحمة واستضاءت بذلك النور، خرجت منها تلك الذنوب، و ذلك الران الذي غشاها بحيث لا تستقبل النور؛ لأن الآفات والسيئات وحب الدنيا ونسيان الآخرة والغفلة تجعل على القلب ران يغطي على القلب هذه الأنوار.

وهذا هو السبب في ما قد نشكوا منه من عدم وجود حلاوة للطاعة في القلب ولا نشعر باستضاءة القلب بهذه الأنوار؛ وذلك لأن الران قد غطى على القلب فمنع من وصول هذا النور إليه، كما قال الله تعالى: ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤]،

وذلك على العكس من قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ [الزمر الآية: ٢٢].

وقوله تعالى:﴿ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ يفيد الاستعلاء من الأمر حتى تمكن منه، وذلك معناه أن هؤلاء الذين شرح الله صدورهم وصلوا إلى هذه الدرجة من التمكن حتى كأنهم على نور من ربهم؛ وذلك مما يدفع المرء لأن يلازم الدعاء لله تعالى بأسمائه الحسنى حتى يبسط رحمته جل وعلا على قلبه.

القابض الباسط تقوم عليهما مصالح الدنيا والآخرة

إن قضية القبض والبسط من قضايا المهمة التي ينبغي أن يفهمها أهل الإيمان في علاقتهم وسيرهم إلى الله تعالى. **وأول** ما ينبغي أن يفهمه المرء:: **أن هذان الاسمان تقوم عليهما مصالح الدنيا والآخرة وأن الله سبحانه وتعالى يقبض عنه ويبسط له لمصلحته في دنياه وآخرته** وأن توحيد الله تعالى بهذين الاسمين وأخذ الحظ من معانيهما، يكون سببا لقرب أهل الإيمان من الله تعالى ويحقق لهم مصالح الدنيا والآخرة.

وذلك بأن يعلم المرء أن **الباسط ﷻ هو الذي يبسط كل شيء**، يبسط الرزق والعلم والجسم والمال والسلطان، وإذا ما بسط شيئا من ذلك للعبد فإنما يكون ذلك لشكر هذه النعم والقيام بحقها من ناحية، ومن ناحية ثانية إنما يبسط عليه هذه النعم إن كان من عباده المؤمنين لتكون سبب فلاحه في الدنيا والآخرة، لا يبسط عليه النعم حتى تكون سبب استدراجه مثل المنافقين والكافرين، أو سبب عذابه في الدنيا والآخرة، وإنما يبسط عليه ذلك **كله لعلمه ﷻ** بمصلحة عباده، وأن مصلحة عباده في هذا البسط الذي يكون سببا في سعادتهم.

وكذلك في القبض، **فهو ﷻ يقبض عنهم لمصلحتهم** ، فإنه لو بسطها عليهم ﷻ لفسدوا، فيقترها عليهم ﷻ لتكون سبب إصلاحهم ، وأيضا ليكون هذا التقتير الذي قتره عليهم مصدر معرفتهم بالله تعالى، من باب الإيمان بقدر الله تعالى والسكون تحت المقدور، **إذ إن الله تعالى ما قتر عليهم وضيق عليهم إلا ليرضوا بقدر الله تعالى**، وعندما يرضون بقدر الله تعالى يكون هذا الرضا بالمقدور سببا لأن يفتح الله تعالى عليهم، وسبب لاطمئنانهم إلى الله، ورضاهم عن الله

تعالى، وإيمانهم بالقضاء والقدر، فلا يتشكون حينئذ ولا يعترضون ولا يتشككون وإنما يكون بينهم وبين ربهم هذا السلام الذي يجعل حياتهم مطمئنة إلى تقدير الله، وإلى علمه بالمصلحة، وإلى حكمته في تسيير خلقه ﷻ.

وهذه من أهم مصالح الدين والدنيا، والكل -إلا من رحم الله -واقعون فيها، من الذي وقع عليه مقدور، أو تأخر عنه مقدور يريده، ولم يتأفف ولم يتضايق ولم يقل :لو كان كذا أو لو تأخر كذا؛ ويتعجل على الله تعالى ويزداد إلى التشكي وإلى التسخط ويزداد بعد ذلك إلى الاعتراض كأنه هو الذي يفهم ويقدر مصلحته ويعترض بذلك على ربه ﷻ! لو اطمئن المرء إلى أن الله هو القابض وما يقبض إلا لمصلحته سكنت نفسه، واطمأن قلبه، ورضي بقضاء الله تعالى.

و المسألة المرتبطة بذلك –كما سنوضح لاحقًا- هي أن المرء لما علم أن في القبض عنه مصلحته وأنه لو بسط الله يحدث له المفسدة كان ذلك سببًا حينئذ **في توبته إلى الله ومسارعته إلى تصحيح الأخلاق التي كانت سبب حرمانه**، فهو إنما حرم بسبب ما يمكن أن يقع فيه من فساد، وسبب وقوعه في الفساد هي هذه الأخلاق التي هو فيها.

فهو مثلًا: لو أعطي مالًا، تكبر، وتعالى على الناس، وتوسع في الدنيا ونسي الآخرة، لو أعطي علمًا أحب طلب الثناء والجاه والمنصب وأحب تعظيم الناس له ولو قصروا في حقه حزن لذلك وتألم وكأنه يطلب منهم أن يعظموه وأن يرفعوا قدره وأن يعلوا شأنه ، وهكذا.

رأينا إذن كيف يكون القابض الباسط والتحقق بما فيهما من معانٍ، هو سبب صلاح المرء في الدنيا والآخرة سواء في علمه عن الله، سواء في إقباله على الله، سواء في إصلاحه نفسه، سواء في رضاه بالمقدور، سواء في مجاهدته نفسه على التخلق بالأخلاق الحسنة وترك الأخلاق الرذيلة التي سبب تأخره وتضييق الله عليه.

وهذا باب واسع من العلوم والمعارف بالله تعالى تجعل المرء أكثر إقبالا وأكثر سلاما مع الله تعالى، فتجده وقد تصالح مع نفسه، وعلم كيف تكون روحه وقلبه وعقله في صفاء مع الله تعالى لأنه رضي عن الله تعالى فاطمئن وسكن، وصار يقبل على العبادة بالحال التي تؤدي هذه العبادة ثمرتها؛ لماذا لا تؤتي العبادات التي نأتيها ثمرتها؟ لأنها تخرج من قلوب ليست عامرة بمعرفة الله ومحبته بل طغى عليها الران الذي ذكر الله تعالى: ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم ﴾ [

المطففين الآية: ١٤]، وظهر فيها الشك، وعدم الاطمئنان إلى الله، والسكينة له، وعدم الأنس به ﷻ، وحسن التوكل عليه .

عندما يطمأن المرء لحكمة الله تعالى في القبض والبسط حينئذ تجده يسير على الطاعة بهذه الحالة الحسنة التي كان عليها أصحاب النبي تؤاتهم أنفسهم على الخير، وتحملهم عليه، ويبتعدون بذلك عن الشر والغفلة والاستعداد للترحيل... إلى غير ذلك من هذه الأخلاق والمعاني الجميلة في معرفة الله جل وعلا.

النقطة الثانية هي: أن القبض والبسط مرتبط بالرزق؛ والرزق رزقان: رزق الأبدان الذي يسعى إليه الناس في الدنيا، والرزق الأعظم الأجل؛ وهو رزق القلوب من المعاني والمعارف الإلهية والفتوحات الربانية التي يفتح الله تعالى بها على قلوب عباده وهو الفتاح العليم؛ فيرزقهم من معرفته ومحبته وتوكله، ويكشف لهم الحق، وييسر لهم من لدنه العلم والعمل الذي يقربهم إليه، ويكون سبب فوزهم ونجاتهم إلى الله ﷻ.

وهذا الرزق هو الذي يجب على المرء أن يحرص على تحصيله من الله تعالى، فهو يبسط هذا الرزق لمن يستحقه بفضل الله تعالى أولا ثم بما قدم من عمل، كما ذكر الله تعالى: ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ ﴾ [الأنعام: ١٣٢]، فعملهم هو السبب في درجاتهم في الدنيا والآخرة، ودرجاتهم على حسب أعمالهم التي يعملوها، وإن كان في نهاية المطاف تلك الأعمال والأحوال التي يرزقهم الله تعالى إياها إنما هي محض فضل الله تعالى كما قال ﷺ: «**لن يدخل أحدكم الجنة بعمله، قالوا: ولا أنت؟ قال: ولا أنا**»[1]، وهنا تأتي أهمية معرفة اسم الله تعالى القابض الباسط ليتعلم المرء **كيف يتعرض لبسط الله تعالى له في هذين النوعين من أنواع الرزق**.

---

[1] – رواه البخاري (٥٦٧٣) ومسلم (٢٨١٦) ولفظه (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ يَقُولُ: لَنْ يُدْخِلَ أحدا عملُهُ الْجنَّةَ. قالُوا: وَلَا أَنْت يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: لَا وَلَا أَنا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَلَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْت إِمَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَزْدَادَ خَيْرًا وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعْتِبَ).

وسنوضح إن شاء الله تعالى بعض المعاني المهمة في اسمه القابض الباسط والتي تصلح بها علاقة المرء بالله جل وعلا؛ فتكون سببا لانفساح الصدر والقلب، وسببا للإقبال على الرب ﷻ ومحبة له جل وعلا، وبذلا لكل شيء في سبيله سبحانه وتعالى، لعل الله ﷻ أن يبسط عليهم من رحمته وبره ولطفه وجوده ويظهر لهم كماله وجلاله وجماله وإحسانه ﷻ.

ثالثا: آيات القابض الباسط في القرآن الكريم

ننتقل الآن إلى كلام الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة الآية: ٢٤٥]، والآية جاءت في سياق الكلام على الجهاد في قوله ﷻ في آيات البقرة في قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ ﴾ [البقرة : ٢٤٤، ٢٤٥].

يقول ابن جرير: ذكره بذلك أنه الذي بيده قبض أرزاق العباد وبسطها دون غيره ممن ادعى أهل الشرك به أنهم أهلها واتخذوه ربا دونه يعبدونه، وذلك نظير الخبر الذي روي عن رسول الله ﷺ عن أنس: غلا السعر على عهد الرسول رسول الله ﷺ فقالوا يا رسول الله: غلا السعر فسعر لنا ، فقال رسول الله ﷺ إن الله الباسط القابض الرازق ، وإني لأرجو أن ألقى الله ليس أحد يطلبني بمظلمة في نفس ومال[1].

ثم يقول: **يعني بذلك أن الغلاء والرخص والسعة والضيق بيد الله دون غيره**: ومعنى ذلك أن كل شيء بيد الله، فإن رأيت ضيقا أو شدة أو كربا أو بلاء، رأيت فرجا وسعة وتوبة ورحمة كل ذلك بيد الله تعالى، هو الذي يقبض ويبسط، فيغلي السعر ويرخص ويوسع ويضيق وهكذا،

---

[1] – رواه أبو داود (٣٤٥١) والترمذي (١٣١٤) وقال: حديث حسن صحيح. ولفظه (عَنْ أَنَسٍ قَالَ: غَلَا السِّعْرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ سَعِّرْ لَنَا. فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُسَعِّرُ الْقَابِضُ الْبَاسِطُ الرَّزَّاقُ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَلْقَى رَبِّي وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْكُمْ يَطْلُبُنِي بِمَظْلِمَةٍ فِي دَمٍ وَلَا مَالٍ).

ليس لأحد من دونه شيء يفعله في هذا الكون ولا لأحد ترتيب، بل كل أحد يجري عليه ترتيب الله تعالى.

ومعنى: «يقبض» يقتر بقبضه الرزق عمن يشاء من خلقه، ومعنى: «ويبسط» يوسع ببسطه الرزق على من يشاء منهم، وإنما أراد تعالى ذكره بقيله ذلك أن يحث عباده المؤمنين الذين قد بسط عليهم من فضله ووسع عليهم من رزقه، على تقوية ذوي الإقتار منهم بماله ومعونته بالإنفاق عليه، وحمولته على النهوض لقتال عدوه من المشركين في سبيله.

فكأنه يقول جل ذكره: إن هؤلاء الذين يقاتلون في سبيل الله ﷻ منهم من لا يستطيع القتال ويستطيع أن ينفق، فأمر عباده المؤمنين الذين بسط عليهم أن يقووا الذين قتر عليهم في رزقهم وأن يعاونوهم وأن يساعدوهم وأن يدفعوا إليهم تلك الأموال ليقاتلوا المشركين كما ذكر النبي ﷺ أنه من حمل غازيا في سبيل الله فقد غزا، ومن خلفه في أهله بخير فقد غزا [1]، ولذلك جاءت الآية لحث هؤلاء على ذلك الإنفاق ليأخذوا جزاء هذا الجهاد في سبيل الله بما أعانوا غيرهم على قتال المشركين وكسر شوكتهم، وعلى رفع رايات الدين وإعلاء كلمة الله.

ثم إنه لما حث عباده المؤمنين الذين قد بسط عليهم من فضله على الإنفاق، أتبع ذلك بأن قال: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ ومعناه: من يدخر عندي شيئًا بإعطائه ضعفاء المؤمنين؟ من يعطي أهل الحاجة منهم ما يستعين به على قتال في سبيلي، فأضاعف له من ثوابي أضعافا كثيرة مما أعطاه ؟ فإن من أعطى هؤلاء ليقاتلوا في سبيلي وقواهم من أهل الحاجة فإنني أعطيه ذلك أضعافا مضاعفة أكثر مما أعطاهم ومما قواهم به.

يقول الطبري في ذلك المعنى عن الله تعالى: فإني أنا الموسع الذي قبضت الرزق عمن ندبتك –أمرتك - إلى معونته وإعطائه، لأبتليه بالصبر على ما ابتليته به، وأنا الذي بسطت عليك لأمتحنك بعملك فيما بسطت عليك فأنظر كيف طاعتك إياي فيه، فأجازي كل واحد منكما

---

[1] – رواه البخاري (٢٨٤٣) ومسلم (١٨٩٥) ولفظه (عَنْ زَيْدِ بْنِ خالد رضِي اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا، وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا).

على قدر طاعتكما لي فيما ابتليتك فيه وامتحنتك فيه من غنى وفاقه وسعة وضيق عند رجوعكما إلي في آخرتكما ومصيركما إلي في معادكما ؛ من الذي وسع عليك ومن الذي قبض عن غيرك؟ هو سبحانه منعه ليرى صبره، وأعطى غيره ليرى إنفاقه وكل ذلك ابتلاء منه ليرى من هؤلاء الطاعة فيما وسع عليهم، ومن هؤلاء الصبر فيما منعهم ﷻ: لذلك كان قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ ﴾ خاتمة هذه الآيات الجميلة في كلام الله ﷻ.

ولكن لماذا جاء بعدها: ﴿ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ كان من الممكن أن تكون الخاتمة مثلا: يقبض ويبسط وهو الرزاق ذو القوة المتين أو غيره مما قد يتناسب مع القبض والبسط، ولكن الجمال القرآني والإعجاز البياني جاء بهذه الخاتمة لما سوف نوضحه إن شاء الله تعالى.

فقوله: ﴿ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾، في ختام الآية تحذير شديد، فالمقصد في ذلك، أن تعلم أنك راجع إلى الله تعالى، فكأنه يقول: أنا ابتليتك واختبرتك بالسعة في هذا الرزق، واختبرت غيرك بالتضييق والتقتير عليه ، ثم إنكما إلي ترجعون، فأنا أخوفكما ذلك الرجوع؛ فلا تخالفا أمري ، أو تعصيا طلبي ، أو غير ذلك مما أمرتكما به: لأن الرجوع إلي ليس الرجوع إلى أي أحد ، وإنما الرجوع إلي يعني الحساب ، ويعني العقاب ، ويعني الثواب ، ويعني تمييز الطاعة من المعصية ، ويعني حينئذ الجنة أو النار.

لذلك كان قوله ﴿ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾: **تحذير من استعمال ما بسط من الرزق في معاصيه**، قال الطبري: وإلي معادكم أيها الناس فاتقوا الله في أنفسكم أن تضيعوا فرائضه وأن تتعدوا حدوده، وأن يعمل من بسط عليه منكم في رزقه بغير ما أذن له بالعمل فيه ربه؛ يعني: اتقوا أن يعمل أحدكم فيما رزقه الله بغير ما أذن الله؛ وأن يحمل بالمقتر منكم فيقبض عنه رزقه إقتاره على معصيته ، يعني: ألا يحمل إقتار الله تعالى من قتر عليه في رزقه على معصيته ﷻ أن يسرق أو أن يغصب أو أن يعترض على القضاء أو أن يتشكى أو غير ذلك مما يغضب الله تعالى، أو يوقع هذا المخالف في عذاب الله جل وعلا؛ أو أن يتقدم على ما نهاه فيستوجب بذلك منه برجوعه إليه ما لا قبل له به من أليم عقابه.

لماذا لم يُبسط عليك؟

قد علمت إذن وأنت فقير مسكين، سواء في طاعاتك وعباداتك ترى فيها الضعف، والفتور، والتكاسل، وترى فيها انفصام العزيمة وضعف الهمة، وترى فيها الوسوسة، وعدم الإقبال على الله، و الانشغال بالدنيا، وكذلك ترى نفسك مسكينا في أمور الدنيا؛ في نفسك وقوتك ووقتك ومالك وجاهك وولدك وبدنك وصحتك وعلمك وعقلك وتريد أن يستكمل الله لك ذلك كله من الذي يبسط لك هذه الأمور؟

لو كنت أنت الذي تبسط لنفسك فلماذا لم تبسط لنفسك هذه الأحوال وهذه الأخلاق وهذه الأموال! لماذا لم تعط نفسك وتوسع عليها لأنك لا تستطيع لنفسك لا ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا شكورا.

وقد علمت الطريق الذي يوسع الله تعالى به عليك، ويبسط عليك، ويتوب عليك، ويمنحك فيه، ويدافع عنك به، ويهبك ﷻ علوم الدنيا والآخرة وأرزاق الدنيا والآخرة، وإذا بك متكاسل عن تحصيل هذا البسط وعن رفع هذا القبض والتضييق والتقتير، وإذا بك تمنع عن نفسك الخير، وترد عن نفسك المعرفة بالله تعالى، وتحرم نفسك الرزق، وتحرم نفسك تلك الدرجات العالية والنعيم المقيم.

إنك إن وازنت بين ما تضيع من وقتك في غير الأعمال التي تعود عليك بالبسط من الله، وجدت وقتك الذي تقضيه لله تعالى لا يوازي شيئا فيما تقضيه لغير الله تعالى؛

من الذي وقف بينك وبين الله؟ نفسك الأمارة بالسوء هي التي وقفت حائلا بينك وبين وصول هذا المدد من الله إليك، وهذا الفتح من الله لك، وهذا البسط من الله عليك، كيف ترفع هذه الأمور ليعود لك هذا البسط من الله تعالى؟! أنت تتأخر عن كل شيء، أنت في صلاتك متأخر، في ذكرك متأخر، في قيامك متأخر، في قرآنك متأخر حفظا وتلاوة وتعبدا وفهما وتعلما وتعليما، وأن الآخرة وأعمالها من المحبة والإقبال على الله هي آخر ما تبذل له، وهي آخر ما تشتد في إعطائه بقوة لله تعالى، وهي آخر ما تحزن عليه عند الفقد؛ فتحزن أول ما تحزن على الدنيا وما يضيع منها وعلى ما يحدث لك فيها، هل رأيت أحدا قد فقد شيئا من الآخرة لم يقم ليلة أو لم يقرأ وردا أو لم يصم صيامه أو لم... أو نزل عن درجاته التي كان فيها من حلاوة الإيمان

وحسن الطاعة والإقبال على الله ووجدته يبكي بالنهار وحزينا ومتألم؟ إنما تجد ذلك في الدنيا. أليس كذلك؟

كيف يستجلب المرء معاني البسط؟ (حظ المؤمن من هذا الاسم المشرف)

قضيتنا الآن إذن، كيف يرفع عن نفسه هذا الحال؟ كيف يتخلق بالأخلاق الحسنة، ويتوب، ويفتح صفحة بيضاء مع الله جديدة يملأها بالأعمال الصالحة التي تكون سببًا في بسط الله تعالى عليه؛ كما ذكر النبي ﷺ: «**إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل**».[1]

ومعنى ذلك، أن الله تعالى **يبسط يده ليل نهار للمؤمنين** حتى يدخلوا من هذا الباب، ولكننا أغلقنا الباب بل لم نفكر ابتداء في أن ندخل لنتوب ولنقلب في سيئاتنا وأعمالنا ومحبطات هذه الأعمال لندخل على المولى فيبسط لنا من التوبة ﷻ. فتح الله تعالى بابه وبسط يده وقال: هلموا، فلم يأتوا، وامتنعوا عن المجيء، وأعرضوا عن الإتيان إلى الله تعالى.

فإذا سأل السائل: كيف يبسط الله تعالى عليّ؟ نقول له: إذا أنت بسطت مما بسط الله عليك يوشك أن يبسط عليك؛ هذه معادلة سهلة، أليس كذلك؟ إذا أنت بسطت يدك بما بسط الله عليك من مال بسط الله عليك المال، إذا بسطت من صحتك ووقتك وجهدك بسط عليك الصحة والوقت والجهد، إذا بسطت من جسمك بسط عليك فيه، فهذا حظ المؤمن من هذا الاسم المشرف.

إننا ذكرنا أن الله تعالى يحب أن تظهر آثار أسمائه على عباده، فهو يحب أن يظهر أثر اسمه المحسن على عباده، فيكون حظ العبد من هذا الإحسان أن يكون محسنا ، وكذلك الشكر، أن يكون شكورا كما تسمى الله تعالى بذلك، وإذا كان الله ﷻ غفورا فينبغي أن تكون

[1] – رواه مسلم (٢٧٥٩) ولفظه (عَنْ أَبِي مُوسَى عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا).

كذلك تغفر السيئات والمعاصي التي تقع في حقك وتتحمل الأذى، وأن تكون كذلك توابا، وأن تكون ودودا، وهكذا، لأن الأسماء الحسنى ينبغي أن يتصف المرء منها بما يجوز الاتصاف له به.

فينبغي لمن امتن الله عليه ببسطة في المال أو العلم أو الجسم أو الجاه أن يتفضل على عباد الله كما تفضل الله عليه وأحسن إليه، فإن هذا من شكر هذه النعم، وإن هذا تثبيت لهذه النعم، والله تبارك وتعالى لما ذكر طالوت قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ ﴾ [البقرة الآية: ٢٤٧].

فهذه بسطة في العلم وبسطة في الجسم: فإن بسط الله تعالى عليك في العلم وكنت مبسوط القلب بالمعارف والعلوم الدينية فابسط وجهك للناس حتى يقبلوا عليك وحتى يقتبسوا من ذلك النبراس، ثم علمهم من هذه العلوم التي علمك الله تعالى وابسط علمهم مما بسط الله تعالى عليك.

وذلك يستلزم من المرء أن يكون معلما حليما مرشدا مؤدبا، آمرا بالمعروف ، ناهيا عن المنكر ، يحمل الناس على محبة الله تعالى ، ويأخذهم إلى طريقه ، ولا يصدهم عن سبيله، ولا يمنعهم بابه ، بل يأخذهم إلى طريق الله ولو أنفق ماله وجسمه على أن يرجعوا إلى ربهم وأن يتوبوا إليه وأن يعرفوا سكة لله تعالى.

يقول الطبري: وكذلك إن كنت ذا بسطة في الجسم، فابسطه فيما بينك وبين الله في القيام بالعبادات من القيام والصيام وغير ذلك من القيام بمهام الدين، وهذا يفض بك إلى السعادة، في الدنيا والآخرة؛ وابسطه في الصولة على الأعداء، يعني في الجهاد في سبيل الله، بما خولت من المنة والشدة، وابسطه كذلك فيما بينك وبين الناس، في القيام بما أمرك به من السعي في مصالحهم ، ولا تبخل بهذا الجسم الذي أعطاك الله تعالى، كم ساعة قمت فيها بمصالح المسلمين؟ النبي ﷺ يقول: «واسع بشدة ساقيك مع الملهوف واحمل بشدة ساعديك

مع الضعيف»[1]. فتحمل هذا الكل، وتعين هذا المستغيث، وتسير معه بشدة ساقيك، وتحمل له بشدة ساعديه، ولا تتوانى في أن يبسط ذلك كله، ليكن ذلك البذل سببًا في بسط الله تعالى لهذا الجسم.

واعلم أنك إن أنفقت شيئا لله أخلف عليك أحسن منه، وعوضك خيرا منه ﷺ، فإن بسطت مالا أخلف عليك وعوضك أكثر منه سبعمائة ضعف، وأعطاك في الدنيا والآخرة، وإن بسطت ووسعت جسما إذا بالله تعالى يبارك لك في هذا الجسم، ويقوي لك هذا الجسم، ويمد هذا الجسم بمدده فيقوم بتلك الأعمال التي لا يستطيع أن يقوم بها المرء بغير تلك القوة وهذا المدد من الله تعالى، وجرب، ولا تجربة مع الله تعالى.

جرب أن تقوم بتلك الأعمال لله تعالى وانظر إلى البركة التي تحل في جسمك، وإلى القوة والمدد الذي يمنحك الله تبارك وتعالى، حتى تقوم بأعمال لا تتخيل أنك يمكن أن تقوم بها بغير هذه القوة وبغير هذا المدد من الله تعالى.

---

[1] - رواه الإمام أحمد في مسنده (٢٠٩٧٣) ولفظه (عَنْ أَبِي ذَرٍّ قال: عَلَى كُلِّ نَفْسٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ صَدَقَةٌ مِنْهُ عَلَى نَفْسِهِ، قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ أَيْنَ أَتَصَدَّقُ وَلَيْسَ لَنَا أَمْوَالٌ؟ قَالَ: لِأَنَّ مِنْ أَبْوَابِ الصَّدَقَةِ: التَّكْبِيرَ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَتَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنْهَى عَنْ الْمُنْكَرِ، وَتَعْزِلُ الشَّوْكَةَ عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ وَالْعَظْمَ وَالْحَجَرَ، وَتَهْدِي الْأَعْمَى وَتُسْمِعُ الْأَصَمَّ وَالْأَبْكَمَ حَتَّى يَفْقَهَ، وَتُدِلُّ الْمُسْتَدِلَّ عَلَى حَاجَةٍ لَهُ قَدْ عَلِمْتَ مَكَانَهَا، وَتَسْعَى بِشِدَّةِ سَاقَيْكَ إِلَى اللَّهْفَانِ الْمُسْتَغِيثِ، وَتَرْفَعُ بِشِدَّةِ ذِرَاعَيْكَ مَعَ الضَّعِيفِ كُلُّ ذَلِكَ مِنْ أَبْوَابِ الصَّدَقَةِ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ، وَلَكَ فِي جِمَاعِكَ زَوْجَتَكَ أَجْرٌ. قَالَ أَبُو ذَرٍّ: كَيْفَ يَكُونُ لِي أَجْرٌ فِي شَهْوَتِي؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ وَلَدٌ فَأَدْرَكَ وَرَجَوْتَ خَيْرَهُ فَمَاتَ أَكُنْتَ تَحْتَسِبُ بِهِ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ فَأَنْتَ خَلَقْتَهُ؟ قَالَ: بَلْ اللَّهُ خَلَقَهُ قَال فَأَنْتَ هَدَيْتَهُ قَالَ بَلْ اللَّهُ هَدَاهُ قَالَ فَأَنْت تَرْزُقُهُ قَال بَلْ اللَّهُ كَانَ يَرْزُقُهُ قَالَ كَذَلِكَ فَضَعْهُ فِي حَلَالِهِ وَجَنِّبْهُ حَرَامَهُ فَإِنْ شَاءَ اللَّهُ أَحْيَاهُ وَإِنْ شَاءَ أَمَاتَهُ وَلَكَ أَجْرٌ).

وإن كنت ذا بسط في المال فابسط يدك بالعطاء كما بسط الله تعالى عليك، لأنه قال: ﴿ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ [الحديد: ٧]، وقال: ﴿ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ ﴾ [البقرة الآية: ٢٤٥].

لذلك قال النبي ﷺ لبلال: «**أنفق ولا تخش من ذي العرش إقلالاً**» [1] وكذلك في حديث النبي ﷺ فيما رواه عن ربه: «**عبدي أنفِق أُنفِق عليك**» [2]. فلا تتخيل أنك إن أنفقت وبسطت يدك وجسمك وقوتك ومالك، أن تضيع عليك، لا، ولكن كما قال : ﴿ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ ﴾.

والبسط ينبغي أن يكون في كل الأحوال: فالنبي ﷺ حتى ولو لم يكن عنده ما ينفقه كان يستدين ليقضي حاجات المعسرين، والله تعالى صور هذه الصورة الحسنة بقوله: ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾ [آل عمران الآية: ١٣٤] **فلم تمنعهم الضراء أن ينفقوا**، فإذا جاءتهم الضراء لم يقولوا: أنا لا أملك إلا المال الذي يكفيني بالكاد حتى آخر الشهر، أنا لا أملك غير مصروف يدي؛ لا، حتى في هذه الحالة: أنفق ولا تخشى أن يضيق عليك، سيحدث العكس، وسوف يعطيك ما يكفيك لشهور عديدة ! وذلك لأن الإنفاق في السراء والضراء يوشك أن يكون سببا لأن يبسطها الله ﷻ عليك.

---

[1] – رواه البزار (٢٠٤/٤ ، رقم ١٣٦٦) . وأخرجه أيضًا : الطبراني (٣٥٩/١ ، رقم ١٠٩٨) . وقال الهيثمي (٢٤١/١٠) : رواه الطبراني ، والبزار ، وفي رواية الطبراني الأولى ، والبزار محمد بن الحسن بن زبالة ، وفي الثانية طلحة بن زيد القرشي ، وكلاهما ضعيف ولفظه (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ عَلَى بِلَالٍ ، فَوَجَدَ عِنْدَهُ صُبْرًا مِنْ تَمْرٍ ، فَقَالَ : " مَا هَذَا يَا بِلَالُ ؟ " فَقَالَ : تَمْرٌ أَدَّخِرُهُ ، قَالَ : " وَيْحَكَ يَا بِلَالُ ، أَوَمَا تَخَافُ أَنْ يَكُونَ لَهُ بُخَارٌ فِي النَّارِ ؟ أَنْفِقْ يَا بِلَالُ ، وَلَا تَخْشَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِقْلَالًا).

[2] – رواه البخاري (٥٣٥٢) ولفظه (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: قَالَ اللَّهُ : أَنْفِقْ يَا ابْنَ آدَمَ أُنْفِقْ عَلَيْكَ).

لذلك قال الإمام القرطبي في هذه المسألة: **إن كنت ذا بسط في المال، فابسط يدك بالعطاء، وأزل ما على مالك من الغطاء:** ذلك المال الذي تدعي أنك تدخره للزمن وللظروف ولجواز البنت مثلا أو لكذا وكذا، أزل عنه الغطاء! وانظر إلى الصحابة رضوان الله علهم: خباب بن الأرت-رضي الله عنه- لما أعطاه الله تعالى المال كان له سرة فيها ثمانين ألفا، وكان يتركها في الدار مفتوحة، **من أراد أن يأخذ شيئا دخل فأخذه.**

لذلك يقول القرطبي رحمه الله تعالى: **فلا توك فيوكي الله عليك**[1]، والوكاء هو رباط فم القربة؛ فلا تضيق العطاء فيضيق المولى عليك، **ولا تحص فيحصي الله عليك**، الله تعالى يعلم ما أنفقت في سبيله، وما لم يكن في سبيله، وما كنت مخلصا فيه، وما كنت غير مخلص فيه، ولن يضيع عنده ﷻ شيء، بل كما قال الله تعالى : ﴿ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾ [المجادلة الآية: ٦]، فأنت قد تنسى ما أنفقت، ولكن المولى يحفظ ذلك كله، فلا تحص ولا تَعُد على من عدَّ الدنيا والآخرة كما قال ﴿ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴾ [مريم : ٩٤].

ولا تقول : أنا هذا الشهر -الحمد لله- أخرجت صدقاتي، قد خصصت لهذا الشهر خمسون أو ستون والحمد لله أخرجتهم، لا: إنك عنما تحص، يحصي الله عليك ، تحسبها بالمليم يعطيك بالمليم، ولكن لو بسطت يبسط الله عليك.

وكذلك الجاه، أن تتفضل بذلك على عباد الله تعالى كما تفضل الله عليك وأحسن إليك فإن هذا من شكر هذه النعم، وشكرها سبب بقائها، وعند ترك الشكر تذهب النعم وتفنى كما يحدث للمؤمنين اليوم.

وقد يقول قائل: أنا ليس عندي جاه ولا سلطان ولا مال ولا جسم ولا شيء، فماذا أفعل؟ يقول: إن كنت لم تنل حظا من هذه البساطات **فابسط قلبك لأحكام ربك، وابسط**

---

[1] – رواه البخاري (٢٥٩١) ومسلم (١٠٢٩) ولفظه (عَنْ أَسْمَاءَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: أَنْفِقِي، وَلَا تُحْصِي فَيُحْصِيَ اللَّهُ عَلَيْكِ، وَلَا تُوعِي فَيُوعِيَ اللَّهُ عَلَيْكِ).

لسانك لذكره وشكره، ويدك لبذل الواجبات عليك، وابسط وجهك للخلق كما قال ﷺ في بذل المعروف: «**ولو أن تلق أخاك بوجه طلق**»[1] ، قال : فإن ضعفت عن ذلك؟ قال : «فاكفف شرك عن الناس فإنه حسنة منك عليك»[2]: فيقبض عن الناس شره فإن ذلك حسنة منه على نفسه، بترك وصول شره إلى الخلق.

وإن كنا قد أشرنا أن القابض الباسط من أهم الأسماء التي تصلح بها الدنيا والآخرة ، فإن المرء إذا أخذ حظه من هذا الاسم، صلحت أخلاقه، ولا تصلح الدنيا والآخرة إلا بتحقق المرء بمكارم الأخلاق، فيما بينه وبين الله، وفي الإحسان إلى خلق الله تعالى وحسن معاملتهم، فإن نقصت في هذه نقصت عن الدين ؛ لأن هذا الخلق الحسن كما قال النبي ﷺ: «**البر حسن الخلق**»[3].

والبر هو الدين ، يعني فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين، وعليه إن قصرت في شيء من ذلك إنما قصرت في دينك أمام الله تعالى، لأن الدين معاملة الله ومعاملة الخلق كما ذكر الرب جل وعلا، فالمؤمن حينئذ مطالب بهذه البسطة التي ذكرنا، وإذا لم يكن هو مسارعا فيها فليسارع حتى يبسط الله عليه كما ذكر المولى : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ** ﴾ [فاطر: ١٥]، وهؤلاء الفقراء إلى الله تعالى مفتقرون إلى كل شيء في أعمال

---

[1] – رواه مسلم (٢٦٢٦) ولفظه (عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ لِيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا تَحْقِرَنَّ مِنْ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ).

[2] – رواه مسلم (٢٦٢٦) ولفظه (عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ، قَالَ قُلْتُ أَيُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: أَنْفَسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا وَأَكْثَرُهَا ثَمَنًا. قَالَ قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ قَالَ تُعِينُ صَانِعًا أَوْ تَصْنَعُ لِأَخْرَقَ. قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ إِنْ ضَعُفْتُ عَنْ بَعْضِ الْعَمَلِ؟ قَالَ تَكُفُّ شَرَّكَ عَنْ النَّاسِ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ).

(٣) رواه مسلم (٢٥٥٣) ولفظه (عَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سِمْعَانَ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ؟ فَقَالَ: الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ).

الدنيا والآخرة وأحوالها، وإذا كانوا مفتقرين وفقراء في كل هذه الأمور فما أجدرهم أن يتجهوا إلى الباسط ﷻ ليوسع عليهم.

كيف تدعوا الله تعالى باسمه القابض الباسط؟

نختم بهذا الحديث من أحاديث النبي ﷺ ليبين لك كيف تدعوا الله تعالى باسمه القابض الباسط، ويبين لك في نفس الوقت **كيف تدعو ربك في أشد الأحوال ليبسط عليك وليفتح عليك** ﷻ، ويبين لك كذلك، كيف تتملقه وتدعوه، وألا يكون حالك السيئ وما أنت فيه من الضيق والشدة سببا في نسيان توحيد لله تعالى باسمه الباسط، ولكن على العكس، أنت في ذلك الحال أشد احتياجا إلى هذا الأمر، فعندما يضيق عليك حالك ودينك وعبادتك وقلبك وصدرك، فأنت أشد احتياجا إلى الباسط ليبسط ذلك كله ويفرجه ﷻ.

وذلك على عكس ما نحن في، فإذا ضاقت الأمور على المرء، صارت صلاته وعباداته ودعاؤه وتوحيده كل ذلك مشوشًا عليه، ولا يقيمه على الحالة الحسنة التي يرجو بها أن يرحمه ربه، وأن يفتح عليه، إلا دعاءه لله تعالى.

والقصة التي نريد أن نصل إليها في ذلك، هي قصة دعاء النبي ﷺ بعد غزوة أحد؛ وقد علمنا ما حدث للمؤمنين من أصحاب النبي ﷺ فيها، وكيف أنهم قد أصيبوا وقتل منهم من قتل، وجرح منهم من جرح ليرفعهم الله تعالى ويتخذ منهم شهداء، وليعلي مرتبتهم، ويرفع منزلتهم عنده ﷻ، وليميز الخبيث من الطيب.. إلى آخر المعاني؛ إذا بالنبي ﷺ بعد هذه الوقعة الشديدة يقول -صلوات الله وسلامه عليه-: اسْتَوُوا حَتَّى أُثْنِيَ عَلَى رَبِّي ، فَصَارُوا خَلْفَهُ صُفُوفًا ، فَقَالَ : " **اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ ، اللَّهُمَّ لَا قَابِضَ لِمَا بَسَطْتَ ، وَلَا بَاسِطَ لِمَا قَبَضْتَ ، وَلَا هَادِيَ لِمَا أَضْلَلْتَ ، وَلَا مُضِلَّ لِمَنْ هَدَيْتَ ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ ، وَلَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ ، وَلَا مُقَرِّبَ لِمَا بَاعَدْتَ ، وَلَا مُبَاعِدَ لِمَا قَرَّبْتَ ، اللَّهُمَّ ابْسُطْ عَلَيْنَا مِنْ بَرَكَاتِكَ وَرَحْمَتِكَ وَفَضْلِكَ وَرِزْقِكَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ الْمُقِيمَ الَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ يَوْمَ الْعَيْلَةِ وَالْأَمْنَ يَوْمَ الْخَوْفِ ، اللَّهُمَّ إِنِّي عَائِذٌ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا أَعْطَيْتَنَا وَشَرِّ مَا مَنَعْتَ ، اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْإِيمَانَ وَزَيِّنْهُ فِي قُلُوبِنَا ، وَكَرِّهْ إِلَيْنَا الْكُفْرَ ، وَالْفُسُوقَ ، وَالْعِصْيَانَ ، وَاجْعَلْنَا مِنَ الرَّاشِدِينَ ، اللَّهُمَّ تَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ، وَأَحْيِنَا مُسْلِمِينَ ، وَأَلْحِقْنَا بِالصَّالِحِينَ غَيْرَ خَزَايَا وَلَا مَفْتُونِينَ ، اللَّهُمَّ قَاتِلِ**

الْكَفَرَةَ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ رُسُلَكَ ، وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِكَ ، وَاجْعَلْ عَلَيْهِمْ رِجْزَكَ وَعَذَابَكَ ، اللَّهُمَّ قَاتِلِ الْكَفَرَةَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَهَ الْحَقِّ".

وأول ما نلاحظ، أنه لم يمنعه ﷺ القتل والقتال أن يكون **متعلق القلب بالله**. فلم ينس ربه لحظة واحدة ﷺ. والأمر الثاني **أنه يثني على ربه في السراء والضراء** ، ويشكره لعلمه أن الله تعالى يقدر لهم الخير في كل أمورهم، وأن حال المؤمن له خير كما يقول ﷺ إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له [(١)].

وهذا ليتعلم المرء إذا أصابه شيء، ألا يتسخط للمقدور، فنحن لسنا في قتال ولا قتل، ثم إذا أصاب أحد أي إصابة لا يقول: أقف لأثني على ربي ! ولكن يصيبه الكرب وكأن ما حدث له لم يحدث في الكون من قبل، وكأن المصيبة التي نزلت عليه لم تنزل على أحد، وكأن الله تعالى قد اختاره لأصعب المصائب في الدنيا ليعطيه إياها ! فإذا به حزين على ما وقع من مرض، أو من فقد مال، أو ولد، أو من أي شيء مما ينزل بالمرء؛ انظر للنبي ﷺ يقول هذا القول الحسن: **حتى أثني على ربي**.

هل الموقف موقف ثناء؟ نعم ، موقف ثناء ، لم لا يثني على الله وكان يمكن أن يبادوا فنجاهم الله تعالى ورحمهم وأبقاهم! كان يمكن أن تهاجم المدينة، فصرف الله تعالى عنهم المشركين، كان يمكن أن يستأصلوا؛ كما قال أبو سفيان: لن نرحل حتى نستأصل شأفتهم، ونبيد خضراءهم ، فلم يحدث ذلك، فلم لا يثنوا على الله تعالى! لم لا يثنوا على الله تعالى وقد ميز الخبيث من الطيب وأظهر المنافقين! لما لا يثنوا على الله وقد اتخذ منهم الشهداء الذين يحبهم الله تبارك وتعالى!... وهكذا أمور كثيرة لو نظر إليها العبد في هذه الشدة لقال : لا بد وأن نقف لنثني على الله، ونمدح الله، ونذكره بالثناء الحسن لنقول فيه أعظم القول وأجمله، ولو جمعت الدنيا ومن فيها ليثنوا على الله تعالى شيئا ما بلغوا في الثناء عليه شيئا ﷻ.

---

(١) رواه مسلم (٢٩٩٩) ولفظه (عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ: إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ).

ونذكر من الحديث فقط ما يتعلق باسمه الباسط القابض؛ يقول: **اللهم لك الحمد كله؛** فأول كلمة تقال في هذا الحال: الحمد لله على ما حدث ووقع في هذه الواقعة التي لولا الله ﷻ، ولولا لطفه رحمته جل وعلا، لوقع فيها أمر آخر.

وقوله: **لك الحمد** يعني: لك وحدك لا لغيرك، ليس لأحد فيه شيء، و ليس الحمد فقط بل كل الحمد لك ﷻ؛ ثم قال: «**اللهم لا قابض لما بسطت ولا باسط لما قبضت**»، إن قبضت عنا ذلك فلا يستطيع أحد أن يبسطه، وإن بسطت علينا من فضلك فلا يستطيع أحد أن يقبضه، وفعلا قد بسط عليهم ما لا يستطيع أحد أن يقبضه من الخير في هذه الواقعة التي ذكر الله تبارك وتعالى، وقبض عنهم كذلك من الشر ومن الفتن ومن المصائب ومن الأحوال ومن الأقوال ومن الدعاوى ما لا يمكن أن يقبضه إلا الله.

عرفت إذن طريقك إلى الله تعالى، وبدأت في أن تتعلم كيف تدعو ربك وتوحده، كيف تدعو ربك وتوحده ﷻ باسمه الباسط، أن تدعوه ليبسط عليك، أن تقبل عليه وهو يبسط لك يده لتتوب بالليل والنهار، ألا تغفل ذلك، ألا تعرض عنه، أن تدعوه بأن يقبلك وأن يبسط عليك ﷻ أنه لما بسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار وبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل فإنما هو ينتظر عبده أن يأتي إليه، فإن جاءه عبده تلقاه ربه ﷻ، وإن مشى إليه هرول إليه، وإن قام إليه كان الجزاء كما قال: «**عبدي قم إلي أمشي إليك**»[(١)].

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (١٥٤٩٥) وأخرجه الحاكم (٢٧٥/٤، رقم ٧٦٢٤) وقال: صحيح الإسناد، ولفظه (عَنْ شُرَيْحٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ قُمْ إِلَيَّ أَمْشِ إِلَيْكَ، وَامْشِ إِلَيَّ أُهَرْوِلْ إِلَيْكَ).

نتكلم في هذه الرسالة برحمة الله تعالى وفضله على شرح الأسماء الحسنى لله تعالى وما ينبغي أن يتعلم المرء منها من توحيد الله تعالى ودعائه والثناء عليه بها، فمدار فلاح المرء وسعادته موقوف على معرفته بأسماء الله تعالى وصفاته، وعلى سيره في طريق التعبد لله تعالى بها، وذلك لأن العبد إذا لم يعرف ربه بأسمائه الحسنى فكيف يدعوه؟ وكيف يوحده ويفرده بالعبادة، ويرفع إليه ﷻ حوائجه؟ وكلما جاهد المرء نفسه على أخذ حظه من معاني أسماء الله وفكّر فيها واتصف بما يليق بالإنسان من صفات الله تعالى تعلم كيف يحب ربه سبحانه وتعالى وظهر عليه آثار أسماء الله تعالى، وتنزلت عليه بركاتها، وكان في أعلى الدرجات من ولاية الله تعالى

الفتوحات الإلهية

شرح الأسماء الحسنى للذات العلية

المجلد الثاني

الطبعة الأولى